تمهيد

الاعلام والرأى العام

من المشكلات التي تشغل بال المهتمين بدراسة الاعلام وأساليب الاتصال الجماهيري البحث فيما إذا كانت وظيفة الاعلام هي التعبير عن الرأي العام أو السيطرة عليه والتحكم فيه وتوجيهه وجهات معينة بالذات . وقد تبدو هذه المشكلة قضية أكاديمية قليلة الجدوى نظرا لصعوبة الفصل بين الناحيتين فصلا تاما أو تعيين الحدود الفارقة بين تكوين الرأي العام وصياغته وتشكيله ، والتعبير عنه وإبرازه وتوكيده . ولكن الواقع أن هذه القضية أكثر أهمية وعمقا وأشد تعقيدا مما تبدو لأول وهلة ، خاصة وأن الاعلام يرتبط ارتباطا وثيقا ببناء المجتمع ككل ، ويتأثر تأثرا مباشرا بالأوضاع الثقافية والاجتماعية والتنظيمات السياسية والأنساق الأيديولوجية السائدة في ذلك المجتمع المعين . فهذه كلها عوامل تتدخل في رسم السياسة الاعلامية وفي تحديد أهداف العملية الاعلامية بل وفي اختيار المادة الاعلامية ذاتها ، وبذلك فإنها تعتبر مسئولة إلى حد كبير عن ذلك الاختلاف في الرأي حول وظيفة الاعلام ودوره في المجتمع . ومع أن معظم الكتابات تحاول التمييز بين ثلاثة أهداف رئيسية للاعلام هي نقل وتوصيل المعلومات للآخرين ، ومحاولة التأثير في آرائهم وأفكارهم وتشكيلها ، ثم الترفيه والتسلية وتمضية أوقات الفراغ ، فإن هذه الأهداف الثلاثة تتشابك معا وتتفاعل ويكمل بعضها بعضا في الحقيقة بحيث يمكن القول إن المادة الاعلامية ـ أيا كانت ـ قد تحقق هذه الأهداف الثلاثة معا في وقت واحد ، وإن يكن بدرجات متفاوتة . ومع ذلك فإن السياسة الاعلامية التي ترسمها الدولة لنفسها كثيرا ما تعطى أولوية نسبية لأحد هذه الأهداف على حساب الهدفين الآخرين ، وتسخر كل

وسائل وأجهزة وأساليب الاعلام والاتصال الجماهيري بها لخدمة هذا الهدف . ولكن سواء أكان محتوى العملية الاعلامية وهدفها هو الكشف عن أهم الاتجاهات والآراء والمواقف السائدة بالفعل في المجتمع ، أو إصدار « تعليمات » وتوجيهات تعبر عن سياسات وايديولوجيات معينة تريد الدولة عن طريق أجهزة الاعلام نشرها بين الناس وتغيير الآراء السائدة فعلا بينهم ، أو أن يكون المحتوى مادة ترفيهية يراد بها شغل أوقات الفراغ والتسلية والترويح ، فإن جوهر العملية الاعلامية يقوم دائما على الاتصال ، أو التواصل ، وعلى توصيل المعلومات ونقلها ونشرها على أوسع نطاق ممكن . وربما كان هذا هو ما يقصده عالم الاجتماع الامريكي الشهير تشارلز رايت ميلز C. Wright Mills حين يقول في كتابه الممتع العميق "The Power Elite" إن جانبا يسيرا فقط مما نعرفه عن الحقائق الاجتماعية عن العالم توصلنا إليه بأنفسنا وبطريق مباشر ، بينما معظم التصورات والأخيلة التي في أدمغتنا عن العالم وصلت الينا عن طريق وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري »[(١)]

وثمة تعريفات كثيرة جدا للرأي العام . وأحد هذه التعريفات السائدة الآن ينظر الى الرأي العام على أنه « مجمل وجهات النظر والاتجاهات والمعتقدات الفردية التي تعتنقها نسبة لها دلالتها من أعضاء المجتمع حول موضوع معين بالذات » .[(٢)] وتكاد كل هذه التعريفات تجمع على أن التعبير عن الرأي العام من ناحية ، ومحاولة تغييره وتوجيهه والتأثير فيه أو حتى تكوين رأي عام من جديد من الناحية الأخرى ، لن تتم الا عن طريق الاقناع الذي يتطلب التواصل بكل ما يستلزمه من مناقشة لمختلف الآراء وفحصها ونقد الأفكار المطروحة مع الاستعداد لقبولها إن ثبت صحتها . ففرض الرأي أو الفكر عن طريق القهر والقسر والاملاء ومطالبة الآخرين باعتناقه والأخذ به بغير اقتناع منهم لا يعني أبدا تكوين « رأي عام » بالمعنى الدقيق للكلمة ، أي أن حرية التفكير وحرية التعبير وحرية إبداء « الرأي » ، هي الأساس الذي يقوم عليه الاتجاه العام في المجتمع الذي يمثل الحد الأدنى من الاتفاق حول موضوع معين أو قضية معينة أو أوضاع معينة بالذات . وواضح من هذا أن « الرأي العام » لا يعني أبدا « الرأي » الواحد أو « الرأي » الموحد لكل أفراد المجتمع ما دام الأساس الأول في تكوين الرأي العام وظهوره هو الحوار الحر الذي يترك الباب مفتوحا طيلة الوقت لاختلاف الآراء وتباين وجهات النظر وإمكان التعبير عن هذه الاختلافات . وربما كان هذا هو السبب وراء ذلك الاعتقاد السائد لدى الكثيرين من أن وظيفة الاعلام في النظم السياسية الليبرالية (التي يقصد بها عادة الديمقراطيات الغربية) هي التعبير عن الرأي العام ومؤازرته ومساندته ، على افتراض أن هذه النظم تبيح درجة أكبر من حرية التعبير عن الرأي وأن وسائل الاعلام فيها أقرب الى أن تكون أداة للتعبير عن الرأي العام والدفاع عنه في مواجهة السلطة الحاكمة إذا أرادت أن تتخذ قرارات لا تتفق مع « مجمل وجهات النظر والاتجاهات والمعتقدات » السائدة في المجتمع ، وذلك بعكس الحال في النظم الشمولية (التي يقصد بها عادة الدول الشيوعية) التي تتخذ من وسائل الاعلام أداة للتعبير عن رأى أجهزة الحكم وليس عن رأي الجماهير ، وتتولى نشر المبادىء والأفكار والفلسفات التي يؤمن بها النظام الحاكم . ويساعد على ذلك أن الدولة هي التي تملك كل وسائل الاعلام هناك ، وذلك على عكس الوضع في المجتمعات

(١) C. Wright Mills, The Power Elite; O.U.P., P. 311

(٢) Micropaedia, Vol. VIII; 'Public Opinion'

الليبرالية حيث تكون الصحافة ـ على الأقل ـ مملوكة في الاغلب ملكية خاصة ، سواء للافراد أو الاحزاب السياسية أو بعض المؤسسات المستقلة التي قد تمارس أنشطة مختلفة الى جانب النشاط الاعلامي والثقافي .

ولسنا هنا على أية حال في مجال الدخول في مناقشة هذه الآراء لتبيين ما بها من صدق أو زيف . إنما الذي يهمنا هنا هو إبراز تلك العلاقة القوية بين الرأي العام وحرية التعبير واستقلال أجهزة الاعلام وقدرتها على ترجمة ونقل آراء الجماهير والدفاع عنها ، وعدم الخضوع لسيطرة الحكومة ، بل والقدرة على معارضة سياسة الحكومة حين يتطلب الأمر ذلك . ومن هنا كان الاتجاه السائد في معظم الكتابات التي تدور حول العلاقة بين الاعلام والرأي العام أقرب الى الزعم بوجود رأي عام قوي ومتفتح في المجتمعات الليبرالية دون المجتمعات الشمولية ، تشكك في وجود رأي عام مؤثر وناضج وواضح المعالم في مجتمعات العالم الثالث أو المجتمعات النامية حيث يقف دون ذلك انخفاض المستوى الثقافي وفجاجة أساليب وطرائق الاعلام والاتصال الجماهيري وخضوعها لاشراف الدولة وتحكمها ، وقلة البدائل الثقافية وضحولة وضيق التجربة والخبرة . فهذه كلها أمور وعوامل تؤدي إلى سهولة الانقياد لكل ما تلقيه أجهزة الاعلام الحكومية على الناس من آراء وأفكار وتعليمات وتوجيهات ، وتقبل هذه الآراء والتوجيهات بدون مناقشة أو بحثأو اختبار لمدى ما تتضمنه من صدق وما تستند اليه من منطق .

وليست هذه المشكلات المعقدة وليدة اليوم أو أنها ظهرت نتيجة لتقدم وتعقد وتشابك وسائل الاعلام وأساليب الاتصال الجماهيري في العصر الحديث ، وانما هي مشكلات قديمة نجد لها مثيلا في العصور السابقة ولكن على نطاق ضيق . وكثير من كتابات المفكرين والفلاسفة والاجتماعيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوربا بالذات كانت تتعرض لمسألة العلاقة بين قوة الرأي العام وسلطة الحكام وكيف يمكن تطويع هذه القوة وترويضها وإخضاعها لصالح هؤلاء الحكام ولما فيه خير الحكومة . ولكن زاد الاحساس بوطأة الرأي العام وتأثيره بعد ظهور الطباعة ، وبوجه خاص بعد ظهور الصحافة التي تخاطب الجماهير على نطاق أوسع من جمهور الكتاب . والمؤلفات التي تتناول بالدراسة دور الاعلام بعامة والصحافة بخاصة في المجتمع ، وهل هي أداة السلطة في تكوين الرأي العام والسيطرة عليه والتحكم فيه أو أنها أداة المجتمع للتعبير عن « مجمل آرائه وأفكاره ومعتقداته » كثيرة جدا . ولعل من أحدث وأمتع هذه المؤلفات التي تتميز في الوقت ذاته بدرجة عالية جدا من الدقة العلمية والاحاطة بكل جوانب الموضوع مع الموضوعية في العرض والتحليل كتاب الاستاذ ستيفن كوس Stephen Koss عن « قيام الصحافة السياسية وسقوطها في بريطانيا » . وقد ظهر الجزء الاول من الكتاب عام ١٩٨١ وفيه يعالج الموضوع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر [٣] ، بينما ظهر الجزء الثاني في أوائل هذا العام (١٩٨٤) ويعرض للصحافة السياسية في بريطانيا خلال النصف الأول من القرن الحالي . والذي يهمنا هنا الآن هو الجزء الأول الذي يعرض للمشكلة في وقت كانت فيه الصحافة ـ وبالتالي بقية وسائل الاعلام ـ لا تزال على درجة كبيرة من البساطة التي قد تبلغ أحيانا حد السذاجة ـ مع بعض استثناءات فيما يختص ببعض

---

(٣) Stephen Koss, **The Rise and Fall of the Political Press in Britain**, Vol. I; The 19 th Century, Hamish Hamilton, London, 1981

الصحف الكبرى ، والدور الذي لعبه بعض رجال الصحافة الأفذاذ في تحديد المسار الذي تسير فيه الصحافة والذي أدى بها الى المكانة التي تحتلها الآن في حياة المجتمع الحديث ، والدور الذي تلعبه سواء في تشكيل الرأي العام وتوجيهه أو في التعبير عنه . وقد حرص الأستاذ كوس على أن يرجع الى كل الصحف والمجلات ، بل والجزازات والقصاصات والاحاديث والتصريحات والتعليقات والرسائل والمكاتبات التي صدرت عن مشاهير رجال الصحافة ورجال الدولة والسياسيين في تلك الفترة ليقارن بينها ويحلل ما تتضمنه من معلومات . بل إنه رجع إلى مائة وعشرين مجموعة ضخمة من السجلات والمحفوظات (الأرشيف) ليتعرف منها على وضع الصحافة في ذلك الحين ، وكانت نتيجة كل ذلك العمل الضخم هذا الكتاب الذي يجمع بين غزارة المعلومات ودقتها وعمق التحليل ورصانته والذي لا يخلو مع ذلك من براعة العرض ورشاقة الأسلوب .

والنقطة المحورية التي يدور حولها الكتاب هي : كيف كان رؤساء تحرير الصحف يصوغون الآراء والافكار التي يعبرون ، عنها في مقالاتهم الرئيسية وفي (الافتتاحيات) بالذات ، والأساليب التي كان يتبعها رجال الدولة كي يضمنوا أن تأتي هذه المقالات متمشية مع آرائهم هم أنفسهم أو مع متطلبات الحزب أو مع وجهة نظر الحكومة القائمة . وهذا في حد ذاته مؤشر كاف على أن الصحافة كانت أكثر ميلا الى أن تكون أداة في يد الحكومة ووسيلة لتوضيح سياسة الدولة ، وشرح وجهة نظر رجال الحكم في المشكلات التي يعاني منها المجتمع ، وتبرير القرارات التي يتخذونها وإقناع (الرأي العام) بصواب هذه القرارات . وهذا معناه بقول آخر أن الصحافة كانت في خدمة الدولة أكثر مما كانت في خدمة الجماهير أو الشعب ، مع وجود بعض حالات استثنائية هامة بطبيعة الحال . ولقد انتشرت الصحف انتشارا واسعا في ذلك الحين وزاد الاقبال عليها بعد أن انخفضت أثمانها نتيجة لانخفاض أسعار الورق بعد رفع كل الضرائب عنه . وكان المصدر الرئيسي للأخبار هم رجال الدولة والسياسيون أنفسهم ، وكان الكثيرون منهم يختارون من بين رجال الصحافة أو رؤساء التحرير أشخاصا معينين بالذات يخصونهم بالأخبار الهامة نظير أن يجدوا لديهم التأييد والتعضيد والدفاع عن سياساتهم . بل إن بالمرستون كان يتولى بنفسه كتابة بعض المقالات الرئيسية والافتتاحيات التي تعبر عن آرائه وأفكاره ووجهة نظره في كثير من الأمور ، وكثيرا ما كان يضمن تلك المقالات بعض عبارات من أقواله ومن خطبه ليستشهد بها على صحة هذه الآراء والأفكار والسياسات . وهكذا كان كل شيء يبدو سهلا وميسورا أمام رجال الصحافة فيما يتعلق بالحصول على ما يحتاجون اليه من أخبار ودون أن يضطروا الى الالتجاء الى الاساليب التي يتبعها زملاؤهم في الوقت الحالي . فقد كان رجال الدولة أنفسهم يقدمون لهم كل ما يستطيعون تقديمه بما في ذلك « أسرار » السياسة العليا للدولة اذا لزم الحال نظير تلك المؤازرة والدعاية لهم . ولقد حصل عدد كبير من رجال الصحافة في مقابل « خدماتهم » على مكاسب أخرى خاصة وشخصية الى جانب الحصول على الاخبار ، كما تولى بعضهم عددا من المناصب الرفيعة في الدولة ثمنا لهذه الخدمات مع أنهم لم يكونوا مؤهلين لشغل تلك المناصب .

والمهم هنا هو أن الصحافة كانت في أغلب الأحوال في خدمة رجال الحكم اكثر مما كانت في خدمة القراء او الشعب . ولكن لم يلبث أن طرأ على هذا الوضع كثير من التغير باقتراب القرن التاسع عشر من نهايته ، فقد زاد الميل الى الاهتمام بإبراز وجهة نظر الجماهير والتعبير عن آراء الناس في المشكلات والقضايا التي كان يعاني منها المجتمع . ويرى

الأستاذ كوس أن هذا التحول في موقف الصحافة واهتماماتها يعتبر ثورة هائلة على الأوضاع القديمة وانقلابا شاملا في تصور الصحافة لوظيفتها ، وأن هذا التغير كان هو البداية التي رسمت الطريق الذي تسلكه صحافة القرن العشرين وحددت لها الدور الذي يمكن أن تقوم به باعتبارها أداة للتعبير عن الرأي العام والدفاع عنه ، حتى ولو اقتضى الأمر الوقوف موقف المعارضة الصريحة من الحكومة . وساعد على التغير ، وبالتالي التخلص من سيطرة رجال الحكم وتسلط الدولة على الصحافة ، عدة أمور لعل أهمها تقدم وانتشار استخدام التلغراف التجاري على نطاق واسع يتجاوز حدود الدولة الواحدة مما أدى إلى سهولة الحصول على الاخبار والمعلومات من كل أنحاء العالم دون حاجة إلى الاعتماد المباشر وشبه الكامل على المصادر الشخصية المتمثلة في السياسيين ورجال الدولة . ولعبت وكالات الأنباء العالمية الكبرى دورا هاما في نقل الأخبار وتزويد الصحف بها حال وقوع الأحداث . وجاء قانون التعليم الأولي الذي صدر في بريطانيا عام ١٨٧٠ ليكون بمثابة الحرب المباشرة ضد الأمية وأدى الى توسيع قاعدة التعليم وازدياد المتعلمين زيادة سريعة ومطردة . وكانت هذه كلها بغير شك عوامل أساسية وفعالة ليس فقط في الاقبال على قراءة الصحف بل وأيضا ـ وهذا هو الأهم ـ في ظهور ما يعرف باسم « الصحف الشعبية » وزيادة الوعي والادراك بأحوال المجتمع وأوضاعه لدى كثير من الطبقات والفئات التي كانت محرومة من التعليم والتي أصبحت نتيجة لذلك أكثر قدرة على مناقشة هذه الأوضاع وإبداء الرأي فيها ومناقشة الأخبار والتصريحات الرسمية ونقد سياسة الدولة ومعارضتها . واستجابت الصحافة بدرجات متفاوتة لهذا التغير وأصبحت أكثر اهتماما بالتعبير عن الرأي العام . ومع ذلك فإن الاستاذ ستيفن كوس يرى أن العامل الرئيسي والحاسم في حدوث هذا التغير الجذري كان اتساع قاعدة التنظيمات الحزبية ونموها وارتكازها على أسس قوية وسليمة أدت الى انضمام عدد كبير من رجال الصحافة الى الأحزاب جنبا الى جنب مع رجال السياسة ، ولو أنه يزعم ان وراء ذلك الاقبال على عضوية الأحزاب كانت تكمن أسباب ودوافع عديدة ومتباينة تتراوح بين الرغبة في تحقيق المكاسب الشخصية والالتزام الفكري والسياسي . وقد تعقدت العلاقات بين رجال السياسة والصحافة نتيجة لذلك وأصبحت مزيجا غريبا من المداهنة والخوف والتواطؤ . ولكن الذي يهمنا من كل ذلك هو التغير الذي طرأ على موقف الصحافة من الرأي العام باعتبارها أهم وسائل الاعلام وأكثرها فاعلية في ذلك الحين .

●●●

ولا يرجع اختيارنا لكتاب ستيفن كوس الى أنه مجرد مثال طيب لدراسة ممتازة عن علاقة إحدى وسائل الاعلام المهمة بالرأي العام في بلد له شهرته الراسخة في احترام حرية الرأي وحرية التعبير والمحافظة على حرية وسائل الاعلام لدرجة أن هيئة الاذاعة به تتمتع باستقلال كامل في رسم سياستها الاعلامية ولا تخضع لتوجيهات الحكومة على عكس المألوف حتى في (الديمقراطيات الغربية) ذاتها . وانما يرجع اختيارنا لهذا الكتاب بالذات الى ما يمكن أن نستخلصه من دروس تستحق أن نتوقف أمامها ، وهي دروس تتجاوز الصحافة الى بقية وسائل الاعلام وتصدق عليها .

وربما كان أهم هذه الدروس هو أن العلاقة بين وسائل الاعلام والرأي العام هي في جوهرها علاقة تفاعل وتكامل واعتماد متبادل ، أو علاقة تساند وظيفي كما يقول الأنثربولوجيون . ويقتضي التساند الوظيفي أن تكون العلاقة بين الأطراف المختلفة على نفس المستوى من التأثر والتأثير ، بمعنى أن كل طرف في العلاقة يؤثر في الأطراف الأخرى ويتأثر

بها في الوقت ذاته دون أن يكون أحد الأطراف علة أو معلولا لأي طرف آخر ، وأن مايبدو في الظاهر على أنه علة أو سبب لظهور أحد أطراف العلاقة انما هو في الحقيقة مجرد شرط أساسي لازم لقيام تلك العلاقة وأدائها لوظيفتها . فإذا كانت وسائل الاعلام المختلفة من صحافة أو إذاعة مرئية أو صوتية وما إليها تلعب دورا هاما في تشكيل الرأي العام ومحاولة توجيهه والتأثير فيه عن طريق تقديم مادة إعلامية معينة بالذات وترديد هذه المادة وتكرارها وإعادتها في أشكال مختلفة كي ترسخ في أذهان الناس وتصبح جزءا من نسقهم الفكري ، فإن الرأي العام نفسه ، من حيث هو « مجمل وجهات النظر والاتجاهات والمعتقدات » السائدة في المجتمع ، يلعب هو أيضا دورا في توجيه الاعلام نحو الاهتمام بمواد إعلامية من نوع معين والكف عن غيرها ، ويلجأ في سبيل تحقيق ذلك الى وسائل وأساليب وطرق مختلفة تتراوح بين الانصراف عن المادة الاعلامية التي لا تتفق مع « وجهات نظره واتجاهاته ومعتقداته » ، الى السخرية من تلك المواد الاعلامية والاستهزاء بها والتهكم عليها ، إلى النقد العنيف القائم على الدراسة والفهم والتحليل العميق . فكأن هناك إذن نوعا من « الحوار » المستمر بين وسائل الاعلام والرأي العام يهدف الى تحقيق درجة من الاقتناع المتبادل برسالة الاعلام من ناحية ومتطلبات الرأي العام من الناحية الأخرى . ويتوقف نوع الحوار الى حد كبير على مستوى التعليم ومدى انتشاره في المجتمع ، كما يتدخل التعليم في تحديد المادة الاعلامية بحيث تتلاءم مع المستوى الثقافي العام الذي يعتبر التعليم أحد مكوناته الأساسية . وبالمثل فان تعدد المنابر ـ التي تتمثل في كتاب الأستاذ كوس عن بريطانيا في تعدد الأحزاب وتقدم الحركة الحزبية واتساع نطاقها ـ يعتبر شرطا آخر من شروط قيام علاقة التفاعل المتبادل أو التساند الوظيفي ، بين الاعلام والرأي العام وقيام ذلك الحوار الذي يؤدي الى الاقتناع القائم على عرض مختلف وجهات النظر ومناقشة كل الافكار ونقدها واتاحة الفرصة لكل ذي رأي للدفاع عن رأيه . ويقول آخر أبسط وأوضح ، فإن التساند الوظيفي بين الاعلام والرأي العام من حيث هما طرفان في علاقة واحدة متكاملة يترجم عن نفسه في حرية التعبير عن الفكر وعن المواقف ووجهات النظر . ومع الاعتراف بأن حرية التعبير عن الرأي هي إحدى الحريات التي يكفلها إعلان حقوق الانسان ، فان هناك من الكتّاب من يرون أنه من الصعب المناداة في مجال الاعلام بالحرية المطلقة في نقل الأخبار . إذ لابد من التوفيق بين طرفين هامين هما حرية وسائل الاعلام من ناحية ، والمصلحةالعامة بما في ذلك المحافظة على أسرار الدولة العليا من الناحية الأخرى . وبين هذين الطرفين يقوم كثير من التنازع داخل دائرة ونطاق الاعلام .

وربما يكون فيما جرى في الشهور الأولى من هذا العام (١٩٨٤) في بريطانيا أيضا من أحداث تدور حول حرية الصحافة ما يلقي الضوء على ما أريد أن أقول . وأود أن أستشهد هنا بحادثين يكشفان عن مدى صعوبة تحقيق تلك الحرية المنشودة للاعلام ، وكيف تصطدم هذه الحرية أحيانا مع مصلحة الدولة العليا وموقف الرأي العام من هذا كله . أما الحادث الأول فهو تسليم إحدى الموظفات في وزارة الخارجية البريطانية بعض الوثائق السرية التي تتعلق بنشر الصواريخ الامريكية في أوربا الغربية لجريدة « الجارديان The Guardian » وتقديم الفتاة للمحاكمة وإصدار الحكم عليها بالسجن لمدة ستة شهور . وقد أثار الحادث والحكم على السواء ضجة ضخمة في بريطانيا وفي الخارج ، وانقسم الرأي العام على نفسه حول حق الصحافة ـ ووسائل الاعلام الاخرى بالتالي ـ في الحصول على المعلومات بكل الطرق الممكنة ، وحق نشرها لتعريف الرأي العام بما يدور في سراديب ودهاليز السياسة ، وما تتخذه الدولة من قرارات قد تلحق الأذى والضرر بالمجتمع ، وحق الحكومة في إخفاء ما تعتقد أنه من الأسرار العليا المتعلقة بأمن الدولة . ولم تسلم

صحيفة الجارديان ذاتها من اللوم لأنها كشفت عن (المصدر) الذي قدم لها تلك الوثائق وأنها خالفت بذلك الفعل أحد المبادىء الأساسية المتعلقة بأخلاقيات المهنة ، خاصة وأن تاريخ الصحافة في بريطانيا ذاتها شهد بعض الحالات المماثلة التي رفض فيها رجال الصحافة الكشف عن مصادر معلوماتهم وعرضوا أنفسهم للايذاء والضرر نتيجة لتمسكهم بهذه المبادىء .

ويتمثل الحادث الثاني في تصادم المصالح الاقتصادية لأصحاب جريدة الأوبزرفر The Observer مع مبادىء حرية التعبير عن الرأي الذي يتمسك به كبير محرري تلك الجريدة ذات السمعة الطيبة . فقد زار كبير المحررين زيمبابوي منذ بعض الوقت وكتب بعد عودته مقالا طويلا عن أنواع التعذيب الذي يخضع له معارضو الحكومة الحالية في احدى المقاطعات . وادرك أصحاب الجريدة أن هذا المقال قد يسيء الى مصالحهم الاقتصادية الواسعة في زيمبابوي ويعرضها للخطر ، فأرسلوا خطابا لرئيس وزراء زيمبابوي يعتذرون فيه عن المقال ، كما وجهوا اللوم إلى كبير المحررين نفسه على خروجه على قواعد اللياقة . وأثار ذلك (التدخل) من أصحاب الجريدة كثيرا من رد الفعل على اعتبار أنه يمثل نوعا من التعدي والاعتداء على حرية الرأي وحرية الكتابة وحرية التعبير . وانتقلت الثورة من صحيفة الأوبزرفر الى غيرها من المجلات والصحف وكان لها صدى واسع في الصحافة العالمية . ووقف الرأي العام « المثقف » الى جانب حرية الرأي بحيث لم يجد أصحاب الجريدة مفرا من التراجع عن موقفهم .

وهذان المثالان المستمدان من الصحافة البريطانية ، باعتبارها من أعرق الصحافة في العالم ومن أشدها تمسكا بالقيم والاخلاق والمبادىء المهنية التي تنظم حرية الرأي ، يكشفان عن الدور الذي تقوم به الصحافة في الوقت الحالي كوسيلة هامة من وسائل الاعلام في تنوير الرأي العام والافصاح عن كثير من خبايا السياسة وخفاياها وفضح الأسرار والقرارات الخطيرة الخاطئة التي قد تحاول بعض السلطات الحاكمة إخفاءها عن الرأي العام حتى لا تثير عليها غضبته ونقمته ، وكيف أن الرأي العام من الناحية الثانية يؤازر الصحافة الحرة في تصديها لمثل تلك السياسات والقرارات ويساندها في دفاعها عن القضايا التي تتعلق بمصير الشعوب وأقدارها ، وكيف أنه يتخذ من الصحافة ذاتها أداة ووسيلة للتعبير من موقفه من تلك السياسات والقرارات وعن نظرته الى المشكلات الأساسية التي يعاني منها المجتمع . وهذا هو ما كنا نقصده حين قلنا إن العلاقة بين الاعلام والرأي العام علاقة تفاعل وتكامل وتساند وظيفي ، وأن الاعلام يؤدي ، نتيجة لذلك ، دورا مزدوجا جوهره الاتصال أو التواصل ، سواء أكان ذلك يتخذ شكل نقل المعلومات أو التعبير عن الرأي .

●●●

وقد يصدق هذا كله على المجتمعات الأكثر تقدما ورقيا وبخاصة « الديمقراطيات الغربية » حيث تتمتع وسائل الاعلام بقدر كبير من الاستقلال ، وحيث تضمن الأوضاع العامة والتقاليد والقوانين السائدة ما يكفل لها حق حرية التعبير عن الرأي . ولكن الأمر لن يلبث أن ينكشف عن بعض المفارقات الصارخة حين ننظر الى العلاقة بين هذه المجتمعات المتقدمة والمجتمعات النامية في مجال الاعلام وتبادل المعلومات وتدفقها من ناحية ، والعلاقة بين الاعلام

والرأي العام داخل هذه المجتمعات النامية ذاتها من الناحية الأخرى ، وهي مفارقات خليقة بأن نعطيها بعض العناية والاهتمام .

وتتمثل المفارقة الأولى في تحكم الدول الكبرى ، دون غيرها ، في مصادر المعلومات وعملية بث الأخبار على نطاق واسع ، وساعدها على ذلك ما حققته من تقدم علمي وتكنولوجي في مجال الاتصالات ، مما يعطيها القدرة بالتالي على نقل وتوصيل المعلومات ، أو حجبها ومنعها أو تزييفها أو تحويرها ، وبذلك يمكن لهذه الدول عن طريق التحكم في الأخبار وصياغتها أن تلعب دورا أساسيا في تشكيل آراء وأفكار الشعوب الأقل تطورا وإخضاعها لقيمها الخاصة . . . يظهر ذلك واضحا في البرامج التليفزيونية بوجه خاص ، إذ تأتي معظمها من مصادر غربية وبالأخص من مصادر أمريكية ، وهي تصور بطبيعة الحال أساليب الحياة وأنماط السلوك وأنساق القيم والأفكار والأيديولوجيات والمعتقدات التي تسود هناك والتي لابد أن تؤثر بشكل أو بآخر في الأنماط الفكرية في المجتمعات التي تتعرض لتأثير ووطأة هذه البرامج . ولكن الأمر لا يقتصر على مجال التلفزيون ، وإنما يتعداه الى كل مجالات الاعلام والاتصال الجماهيري بما في ذلك الصحافة نفسها . فالمعروف أن وكالات الأنباء العالمية الكبرى وكالات أجنبية ، أربعة منها تابعة للغرب والخامسة للاتحاد السوفييتي ، ومن الطبيعي أنها تعبر عن سياسة هذه الدول والأيديولوجيات السائدة فيها . والعادة أن الصحافة في الدول النامية تنشر مايرد اليها من هذه الوكالات دون محاولة جدية للتأكد من مدى صحتها أو زيفها أو اكتمالها أو نقصانها أو تحريفها ، بل ودون محاولة لقراءة هذه الأخبار من زاويتها ووجهة نظرها الخاصة . بل إنها كثيرا ما تنشر ما تتلقاه من تعليقات وتحليلات للأخبار تعبر عن وجهات النظر الأجنبية . ومن هنا فإن الرأي العام في هذه المجتمعات المتخلفة يتأثر بغير شك بنوع المادة الاعلامية التي تصل اليها عن طريق هذه الوكالات وبالأسلوب والطريقة التي تُعرض بها هذه المادة الاعلامية . ومن ناحية أخرى فإن إشراف الدولة في المجتمعات المتخلفة إشرافا تاما على وسائل الاعلام معناه خضوع المادة الاعلامية للرقابة الحكومية الشديدة التي تحدد نوع المادة التي يباح تداولها مما يضع قيودا على نمو الرأي العام . ويزيد من خطورة هذا الوضع نفس حالة التخلف والانعزال الفكري الذي تعيشه هذه المجتمعات وعدم اتصالها بالعالم الخارجي ، وبالتالي عدم إدراكها إدراكا كافيا لما يدور في العالم من حركات فكرية وسياسية . وهذا يسهم بدوره في سرعة تقبل شعوب العالم الثالث لما يعرض عليها من مواد إعلامية تهدف الى صب عقول الناس وأفكارهم في قوالب محددة جامدة تتلاءم مع رغبات الحكومات القائمة . وبذلك فإن أجهزة الاعلام تكون أدوات فعالة في المحافظة على حالة التأخر والتخلف التي ترزح تحتها هذه الشعوب ، بدلا من أن تكون أداة تفتح وتقدم . وهذه على العموم مسألة خلافية قابلة للجدل والمناقشة والنقد أو حتى النقض . ولكن الذي لا شك فيه هو أن إدراك شعوب العالم الثالث لما يتهددها من أخطار نتيجة لتركز النشاط الاعلامي في أيدي الوكالات والمؤسسات الكبرى في الدول المتقدمة كان وراء الدعوة التي ظهرت في السنوات الأخيرة نحو ضرورة قيام نظام اعلامي جديد ، وكانت احدى نتائجه انشاء ما يعرف باسم Pan African News Agency في مايو ١٩٨٣ كمظهر من مظاهر الرغبة في التحرر ، ولو جزئيا ، من السيطرة الغربية على الأخبار . وكان من الطبيعي أن تواجه هذه الحركة بكثير من الاعتراض من الدول الغربية ووكالات الأنباء والمعلومات الكبرى ، بل ومن بعض حكومات العالم الثالث ذاتها .

وتتمثل المفارقة الثانية في أنه على الرغم من كل ما يقال عن دور وسائل الاعلام في مخاطبة الرأي العام ومحاولة التأثير فيه وتغييره فإن كل ما تفلح فيه في معظم الأحوال هو تقوية المواقف والاتجاهات السائدة بالفعل بين الجماهير ، فلما

تنجح في خلق وإيجاد تيارات فكرية أو مواقف أيديولوجية جديدة تماما ، إلا إذا كان الرأي العام مهيأ من قبل ، ونتيجة لعوامل وظروف أخرى كثيرة ومعقدة ، لتقبل هذا التغيير . وقد أثبتت بعض الدراسات التي أجريت في أمريكا مثلا حول مدى تأثر الرأي العام بالمواد الاعلامية الموجهة على أن الرجل العادي قلما ينتبه أو يعطي أهمية خاصة لوسائل الاعلام أو المادة الاعلامية ، الا تلك التي تعكس أفكارا ووجهات نظر مشابهة لتلك التي يعتنقها هو ، بينما يُعرض عن تلك التي تتعارض بشكل واضح وصارخ مع أفكاره وآرائه ومعتقداته . ومن هنا كان الرأي الذي يعتنقه بعض العلماء من أن المهمة الأساسية الحقيقية للاعلام هي ترسيخ القيم والأفكار أكثر من تغييرها وتعديلها أو استبدالها . بل إن بعض هؤلاء العلماء يرون أن القدر الضئيل الذي قد تحققه هذه الوسائل في مجال تغيير الرأي وتعديله هو في حد ذاته دليل ومقياس لعملية الترسيخ والتقوية وليس العكس كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . فالفرد لا يغير رأيه الا بالنسبة للآراء والمواقف والسياسات التي كان يدرك مسبقا ـ بشكل أو بآخر ـ أنه يرفضها ولا يرضى عنها ، ثم تأتي وسائل الاعلام لكي تقوي عنده هذا الاتجاه . فالتغيير الذي تحدثه وسائل الاعلام لا يمكن أن يأتي من فراغ أو أن يحدث في فراغ ، وإنما لا بد من أن تكون هناك تربة صالحة ومهيأة لتقبل هذا التغيير . والملاحظ على أية حال أن تحويل (الرأي العام) الى أفكار وأيديولوجيات جديدة إنما يتم في الأغلب في المجالات التي لا يكون لدى المجتمع عنها آراء ومعتقدات ثابتة أو واضحة . فهذا هو المجال الحقيقي الذي يمكن لوسائل الاعلام أن تقوم فيه بدور فعال ومؤثر ومثمر . ولكن حتى هنا أيضا ، فإن الملاحظ أنه بمجرد أن يتم قبول هذه الآراء الجديدة ويتم ترسيخها وتثبيتها يصبح من الصعب تغييرها لأنها أصبحت جزءا من كيان المجتمع أو الجماعة . وكل هذا معناه أن ثمة نوعا من المقاومة الخفية أو المستترة من الرأي العام لأية مادة إعلامية جديدة ، وأن تغيير اتجاهات الرأي العام ليس بمثل تلك السهولة التي يظنها الكثيرون ، كما أن عملية خلق الرأي العام تكون أقوى ما تكون حين لا يكون أمام الفرد أي مصدر آخر للمعلومات عن ذلك الموضوع يمكن أن يتخذ منه محكا ومقياسا يقيس اليه هذه المادة الاعلامية الجديدة ، فلا يجد مناصا من أن يعتمد اعتمادا كليا على مصدر الاعلام المتاح له .(٤) فالفارق الكبير بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة أو النامية في مجال الاعلام هو توفر مصادر المعلومات في المجتمعات المتقدمة وتنوع المادة الاعلامية ذاتها وتباينها مما يتيح الفرصة أمام الجماهير للمقارنة والاختيار سواء بين وسائل الاعلام التي يستمدون منها معلوماتهم ، أو بين المواد الاعلامية التي تتدفق في كثرة وسهولة ويسر من مختلف المصادر . وهذا أمر تفتقر اليه المجتمعات المتخلفة . ومن هنا كان إمكان تأثر الرأي العام بوسائل الاعلام وأساليب الاتصال الجماهيري في المجتمعات المتخلفة أسهل وأوضح منه في المجتمعات المتقدمة التي تناقش وتجادل وتفحص كل ما يقدم لها ولا تقبل شيئا الا عن اقتناع تام .

وهذه على أية حال مسائل تحتاج الى مزيد من الدراسات الميدانية حتى يمكن الحكم فيها حكما قاطعا .

●●●

وأيا ما يكون الأمر ، فالذي لا شك فيه هو أن العصر الذي نعيش فيه هو عصر الاعلام وعصر الاتصال

---

(٤) Joseph T. Klapper, 'Basic Research in Persuation and Motivation' in F.H. Voelker and L.A. Voelker (eds.) **Mass Media : Forces in Our Society**; Harcourt, Brace and Jovanovich, N.Y. 1978, p. 333

الجماهيري بكل معاني الكلمة . ولقد أدى النمو والتطور الهائلان في وسائل الاعلام وعلوم الاتصال في السنوات الأخيرة إلى أن أصبح الاعلام جزءا أساسيا من حياتنا اليومية . ولكن من الخطر أن نأخذ كل ما يقدم على أنها أمور طبيعية ومسلم بها ولا تقبل المناقشة أو الاختيار . اذ لا بد من أن يدرك الفرد الدور الذي يمكن أن تقوم به هذه الوسائل والأساليب والمواد الاعلامية في تشكيل حياته وكيانه والبيئة التي يعيش فيها . واذا كانت وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري المختلفة تؤلف قوى هامة وفعالة ومؤثرة في المجتمع الحديث بفضل ما تقدمه لنا من معلومات وما توفره من أسباب الترفيه فإنها تحمل في الوقت ذاته بين ثناياها قدرة هائلة على الاقناع سواء بشكل واضح صريح أو بشكل خفي ومستتر ، بحيث يمكنها أن تدخل كثيرا من التعديلات على حياتنا وأفكارنا(*) ، ولو أن هذه التغييرات لا تتم بسهولة أو بغير مقاومة . ولكن المقاومة يمكن أن تقل وتضعف وتتضاءل ، بل وتتلاشى ، نتيجة للتكرار والترديد والالحاح والمثابرة من وسائل الاعلام . ولعل أكبر خطر يمكن أن ينجم عن ذلك هو أن ينفصل الفرد بأفكاره وآرائه الجديدة المكتسبة عن واقع الحياة الذي يحيط به فتحدث ازدواجية رهيبة في سلوكه وفي موقفه من الحياة . وقد تختلف وسائل الاعلام في تأثيراتها ومدى عمقها نتيجة لقوة الصلة بينها وبين الناس وتغلغلها ، في حياتهم ، وسهولة المادة التي تقدمها لهم ونوع المقاومة التي يبذلونها نتيجة لدخولهم في حوار معها . فاذا كانت الصحيفة أو الجريدة تتيح للفرد فرصة أكبر للتفكير والتأمل والتحليل وبالتالي للقبول أو الرفض ، فإن ذلك قلما يتوفر في التلفزيون الذي يدخل إلى كل بيت ويخاطب بشكل مباشر وبسيط كل فرد ويتسلل في سهولة ويسر إلى كل ذهن ، ليس فقط عن طريق البرامج الاعلامية التي يبثها ، ولكن أيضا وبشكل خاص عن طريق المادة الترفيهية ، وهذا هو مكمن خطورته على وجهات النظر والاتجاهات والمعتقدات الفردية » . ومهما يكن من أمر هذه المقاومة ، فإن كثيرا من التغييرات التي تحدث في المجتمع الحديث لا يمكن فهمها الا في ضوء وسائل الاعلام ودورها في المسارعة بحدوث هذه التغييرات . والمشكلة التي تواجه المرء الآن إزاء ذلك وإزاء تدفق المادة الاعلامية الضخمة التي تنهال عليه من كل وسائل الاعلام هي : كيف يختار ؟ وماذا يختار ؟ حتى يتم التغيير بطريقة مدركة وواعية ومقصودة . وليس هذا بالأمر السهل على أي حال .

دكتور أحمد أبو زيد



(*) Ibid, PP. 3-4.

الثورة الحالية في أساليب الاتصال*

كيف تكتب الأخبار للإذاعة والتلفاز والصحافة

صلاح الدين طلبه

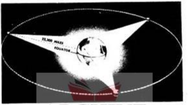
١ - مقدمـة

في ربع القرن الماضي شهدت ميادين العلم والتقنية فتوحات جديدة أدت الى تغييرات شاملة في طبيعة الاتصالات . ففي سنة ١٩٥٧ بدأ عصر الفضاء باطلاق الاتحاد السوفياتي لقمره الصناعي الأول « سبوتنيك ١ » ،وفي سنة ١٩٦٠ بدأ عصر « الضوء المتلاصق Coherent Light باختراع الليزر نتيجة جهود مجموعة من العلماء السوفييت والأمريكيين . وقد جاء عصر الفضاء بأقمار الاتصالات البعيدة ، وأدى اختراع الليزر الى تطوير صناعة « الألياف البصرية » وتطويعها لخدمة تلك الاتصالات . واذا كان الناس قد بهرهم ما تحقق حتى الآن في ميدان اتصالات الأقمار الصناعية ، فالدور قادم على انبهارهم بقنوات الاتصال العظيمة السعة التي ستجيء بها تلك الألياف . وبتعاون أقمار الاتصالات التي تعمل بمثابة متابعات في الفضاء لموجات الراديو الدقيقة ، والألياف البصرية التي تعمل بمثابة أنابيب توجيه لموجات الليزر وغيره من أشكال الضوء البالغ الشدة ، ستتشعب شبكة الاتصالات الكبرى التي تغطى العالم اليوم لتصل أي مكان بكل مكان .

ولا يعرف أحد كيف نشأت فكرة اتصالات الأقمار الصناعية ، ولكن أول من اقترح استخدام القمر الصناعي الذي يبدو ثابتا في السماء لخدمة الاتصالات هو آرثر كلارك محرر المجلات العلمية ومؤلف قصص العلم الخيالية . فقبل إطلاق « سبوتنيك ١ » بإثنى عشر عاما ، وبالتحديد في فبراير ١٩٤٥ ، كتب كلارك في مجلة Wireless World يقول :

* كتب هذا المقال عام ١٩٨١ . وقد طرأ تغير كبير منذ ذلك الحين على عدد الأقمار الصناعية التي تجوب الفضاء كما اشترك في هذا النشاط عدد آخر من الدول . كذلك حدث تقدم هائل في مجال الألياف الضوئية بحيث تضاعفت المسافة بين محطات تقوية الاشارة الى ثلاثة أمثال ما كانت عليه تقريبا ، ودخلت الى مجال استخدام الألياف الضوئية دول أخرى أيضا . ونرجو أن نعود الى ذلك في مقال آخر .

« اذا وجد قمر صناعي على الارتفاع الصحيح من الأرض فانه يستطيع أن يقوم بدورة كل ٢٤ ساعة ، أي أنه سيبقى ثابتا في نفس النقطة ، وسيكون في مدى البصر لنصف سطح الأرض تقريبا . وبامكان ثلاث محطات موجودة بفاصل ١٢٠ درجة في المدار الصحيح أن تقوم بتغطية هذا الكوكب بالتلفزيون والموجات الدقيقة » .



شكل (١) - كيف تصور آرثر سي كلارك تغطية سطح الأرض بالتلفزيون والموجات الدقيقة باستخدام ثلاثة أقمار صناعية على الارتفاع الصحيح

وقد مضى الى الآن ٣٦ عاما على حلم آرثر كلارك ، ولكن ١٦ عاما منها شاهدت تشغيل نظم تجارية لاتصالات الأقمار الصناعية على المستويات الوطنية والاقليمية والدولية . وفي هذه المدة أطلق أكثر من ٨٠ قمرا من النوع الذي تصوره كلارك ثابتا في السماء ، بالاضافة الى الأقمار الكثيرة الأخرى التي تبدو متحركة وتؤدي دورا في الاتصالات الوطنية . ويمكن أخذ فكرة عن معدل اطلاق أقمار الاتصالات من جدول (١)الذي يحتوي على بيانات عن ٢٠ قمرا للاتصالات كانت ضمن ٧٢ قمرا صناعيا رئيسيا أطلقت في المدة من ١/١٠/١٩٧٧ الى ٣٠ /٩ / ١٩٧٩ .

وفي الستة عشر عاما التي مضت منذ ٦ ابريل ١٩٦٥ يوم أطلق قمر الاتصالات التجارية الأول « ايرلي بيرد » تغيرت طبيعة الاتصالات تغيرا جذريا . فعلى الصعيد الدولي ما زال يبهرنا ما يقدمه التلفزيون العالمي من الاذاعة الحية للحوادث الهامة مثل الألعاب الأولمبية ورحلات الفضاء وجلسات مجلس الأمن والمؤتمرات الدولية . على أن الاتصالات التلفزيونية تستنفد معظم الارسال عن طريق الأقمار الصناعية . ولهذه الاتصالات التي تقدمها الأقمار لأكثر من ١٠٠ دولة أكبر وقع على الأعمال والأفراد على السواء . وعلى الصعيد الوطني في البلاد ذات المساحات الشاسعة تقدم تلك الأقمار قنوات الاتصال المختلفة للقرى النائية . وفي قطاع الحركة تتاح الآن بفضل الأقمار الصناعية قنوات يوثق بها للاتصالات بين البر والبحر والجو . أما في القطاع الحربي فقد أصبحت اتصالات الأقمار جزءا حيويا من النظم الاستراتيجية التكتيكية للدول التي تطلق هذه الأقمار .

جدول (١) أقمار الاتصالات العشرون ضمن ٧٢ قمرا رئيسيا
اطلقت في ٢٤ شهرا (١/ ١٠/ ١٩٧٧ - ٣٠/ ٩/ ١٩٧٩)

اسم القمر	الهيئة أو الدولة	تاريخ الاطلاق	الوزن (كجم)	البعد عن الارض (كم) الأصغر	البعد عن الارض (كم) الأكبر	زمن الدورة (دقيقة)	
SAKURA	اليابان	٧٧/١٢/١٥	٦٧٦	٣٥٥٦٧	٣٦١٥٧	١٤٣٩,٩	(١)
INTELSAT 4A (F—3)	الولايات المتحدة	٧٨/١/٧	١٥١١	٣٥٧٦٨	٣٥٨٠٦	١٤٣٦,١	
FLTSATCOM 1	الولايات المتحدة	٧٨/٢/٩	١٨٨٤	٣٥٥٢٢	٣٥٦٦٦	١٤٣٦,١	
Navstar 1	الولايات المتحدة	٧٨/٢/٢٢	٧٣٦	١٩٧٥٥	١٩٩٥٣	٧٠٤,٧	(٢)
OSCAR 8	الولايات المتحدة	٧٨/٣/٥	٢٧	٩٠٣	٩١٧	١٠٣,٢	(٣)
INTELSAT 4A (F—6)	الولايات المتحدة	٧٨/٣/٣١	١٤٨٠	٣٥٧٦٨	٣٥٨٠٦	١٤٣٦	(٤)
YURI	اليابان	٧٨/٤/٧	٦٧٨	٣٥١١٤	٣٥٦٦١	١٤١٥,٨	(٥)
OTS 2	الوكالة الأوروبية للأقمار	٧٨/٥/١١	؟	٣٥٧٨٢	٣٥٧٩٤	١٤٣٦,١	
Navstar 2	الولايات المتحدة	٧٨/٥/١٣	٤٣٣	٢٠٠٨٣	٢٠٢٨٠		(٦)
COMSTAR D3	الولايات المتحدة	٧٨/٦/٢٩	١٥١٨	٣٥٧٨٤	٣٥٧٨٧	١٤٣٦,١	(٧)
RADUGA 4	الاتحاد السوفياتي	٧٨/٧/١٨	٥٠٠٠	٣٦٤٧٣	٣٦٧٣١	١٤٧٨	
RADIO 1	الاتحاد السوفياتي	٧٨/١٠/٢٦	؟	١٦٨٥	١٧٠٦		(٨)
RADIO 2	الاتحاد السوفياتي	٧٨/١٠/٢٦	؟	١٦٨٥	١٧٠٦		(٩)
NATO 3—C	الناتو	٧٨/١١/١٩	٣٧٥	٣٥٤٦٠	٣٥٨١٤	١٤٢٨,٥	
ANIK 4	كندا	٧٨/١٢/١٦	٥٤٤	٣٥٧٨٢	٣٥٧٩١	١٤٣٦,١	
الأفق ١	الاتحاد السوفياتي	٧٨/١٢/١٩	؟	٢٢٥٨١	٤٨٣٦٥	١٤٢٠	
MOLNIYA 3 (11)	الاتحاد السوفياتي	٧٩/١/١٨	١٥٠٠	٤٧٤	٤٠٨٠٦	٧٣٦	
AYAME	اليابان	٧٩/٢/٦	٣٦٠	٣٣٩٦٦	٣٥٤٢١	١٣٨٠,٦	(١٠)
RADUGA 5	الاتحاد السوفياتي	٧٩/٤/٢٥	٥٠٠٠	٣٥٩٠٢	٣٥٩٠٢	٣٥٩٠٢	١٤٤٢
الأفق ٢	الاتحاد السوفياتي	٧٩/٧/٥	؟	٣٦٥٥٠	٣٦٥٥٠	٧٥٧	

(١) تجريبي متزامن مع الأرض (٢) للملاحة (٣) لهواة الراديو (٤) فوق المحيط الهندي (٥) أول قمر اتصال ياباني متزامن مع الأرض (٦) للملاحة (٧) لخدمة التليفونات الوطنية (محلي) (٨) و (٩) جزءان من قمر هواة الراديو (١٠) تجريبي .

ويدعو تحقق حلم آرثر كلارك بهذا الشكل الى التأمل ، خاصة وأن رجال العلم لم يكونوا يتصورون امكان تحقيقه بهذه السرعة ، كما أن بعضهم لم يكن يتصور امكان تحققه على الاطلاق . فبعد ١٠ شهور من ظهور مقال كلارك قال الدكتور فانيفر بوش ، الاستاذ بمعهد ماساتشوستس للتقنية MIT ومخترع الكمبيوتر التفاضلي differential computer ، ما يعني ذلك . ففي شهادته أمام مجلس الشيوخ الأمريكي في ديسمبر ١٩٤٥ قال بوش ان صنع صاروخ يحمل قنبلة لمسافة ٣٠٠٠ ميل (٤٨٠٠ كيلومتر) مستحيل . . . « ومن الوجهة التقنية ، لاأظن أن أحدا في العالم يعرف كيف يصنع شيئا كهذا . . . وأظن أنه يمكننا أن نترك هذا الشيء من تفكيرنا » . وقبل ذلك ببضعة أشهر كان الاستاذ ف . ا . ليندمان ، مستشار ونستن تشرشل العلمي ، قد قال كلاما بنفس المعنى أمام مجلس اللوردات البريطاني . وصحيح أن آرثر كلارك بنى حلمه على أساس انجازات الالمان في صناعة صواريخ « ف ٢ » التي أطلقوها من شواطىء بحر الشمال الجنوبية على لندن في أواخر الحرب العالمية الثانية ، الا أن مسافة ٣٠٠٠ ميل التي جاءت في شهادة بوش شيء آخر . والأهم من ذلك أن الارتفاع الصحيح الذي ذكره كلارك للأقمار الصناعية التي تخيلها هو ٢٢٣٠٠ ميل ، أي ٣٥٧٠٠ كيلومتر ، فهذا هو تقريبا الارتفاع الذي توجد عليه اليوم أقمار « انتلسات » الدولية ، و « أنيك » الكندية ، و « رادوجا » السوفييتية ، و « ساكورا » اليابانية ، وغيرها .

ومن المعلومات الأولية في علوم الاتصالات أن الموجات الأقصر تستطيع أن تحمل اشارات أكثر في نفس الزمن . ومن هنا كانت قيمة الموجات الدقيقة . فهي ، بقصرها البالغ بالنسبة لموجات الراديو الأخرى ، تستطيع أن تمدنا بقنوات اتصال بالغة السعة . على أن موجات الضوء أقصر من بعض الموجات الدقيقة المستخدمة في الاتصالات بمائة ألف مرة . فلو استطاع الانسان تحميل اشاراته على موجات الضوء لحصل على قنوات اتصال ذات سعات عالية ، لذلك أدى اختراع الليزر سنة ١٩٦٠ الى بدء سلسلة من البحوث لايجاد قنوات يمر فيها الليزر بعيدا عن الظروف الجوية التي تؤثر فيه كما تؤثر على غيره من أشكال الضوء الأخرى . وتدل أخبار السنين الماضيين على حدوث تطور هائل في هذا الاتجاه ، فقد استطاعت شركتان أمريكيتان وشركة انجليزية وأخرى يابانية انتاج أربعة أنواع مختلفة من الألياف الزجاجية الشفافة للانثناء في كل الاتجاهات دون أن تنكسر (بسبب دقة قطرها الذي لايزيد على قطر الشعرة الا قليلا) ، والقادرة على الاحتفاظ باشارات الضوء داخلها بعد قطعها عدة كيلومترات . ومعنى هذا الكلام أنه باستخدام التابعات يمكن ارسال الاشارات الضوئية لمسافة آلاف الكيلومترات داخل كابلات هذه « الألياف البصرية » . وقبل نهاية العقد الحالي سيكون هناك كابلات منها ممدودة تحت مياه المحيط الأطلسي بين أوربا وأمريكا الشمالية . وبالاضافة الى ذلك تقوم الخطط على قدم وساق في أمريكا الشمالية وأوروبا واليابان على مد شبكات الألياف البصرية عبر أراضيها وداخل مدنها لتحل محل « الكابلات المتحدة المحور » الممدودة حاليا .

وهكذا بعد أن كان معظم الاهتمامات في ميادين الاتصالات موجها الى الاتصالات القمرية ، ها هو ذا الانتباه يعود بثقله مرة أخرى الى الاتصالات الأرضية .

ولا تقتصر التغيرات التي تحدث الآن في ميادين الاتصالات على ادخال وسائل جديدة ، اذ أن التغير يشمل طرق الارسال أيضا . فالتحول جار الآن ، وان يكن ببطء بسبب عوامل اقتصادية مؤقتة ، من الارسال « التناظري » الى الارسال « الرقمي » ، لما في ذلك من التحسين الكبير للارسال من الناحيتين الكيفية والكمية .



شكل (٩) . الارسال الرقمي والارسال التناظري

والارسال التناظري هو الذي تتغير فيه الاشارت تغيرا مستمرا طول الوقت مثلما يتغير ارتفاع سطح الماء عن نقطة معينة من سطح البحر المتموج مارا بجميع الارتفاعات الواقعة بين قمة الموجة وقاعها .

والارسال الرقمي هو الذي يتم باستخدام نبضات بينها فواصل بنظام يتوقف على المعلومات المرسلة .

والاشارات من كلا النوعين تضعف كما تصيبها « الضوضاء » مع طول المسافة . ولعلاج الضعف توضع على طول طريق الارسال متابعات تقوم بتقوية الاشارات . فاذا كانت الاشارات تناظرية فان الضوضاء تقوى أيضا ، وهذا عيب في الارسال التناظري ويصعب التخلص منه . أما اذا كانت الاشارات رقمية فانه من الممكن ، في الظروف العادية ، أن يعاد توليدها كما كانت قبل أن تصيبها الضوضاء ، وهذه ميزة كبرى للارسال الرقمي تتيح الارسال عبر آلاف الكيلومترات بدون ما ضوضاء تقريبا ، ما لم تقع حوادث غير عادية . أما الميزة الثانية للارسال الرقمي فهي أنه يسمح بمضاعفة استغلال قنوات الاتصال الواسعة التي أصبحت متاحة بعد تطويع الموجات الدقيقة والضوء لحمل الاشارات .

والقناة المعدة للارسال الرقمي لاتصلح للارسال التناظري . فاذا كانت الاشارات الاصلية تناظرية ، كما هو الحال عند ارسال الصوت أو الصورة ، فانه يلزم أولا « تعديل » الاشارات بترجمتها الى اشارات رقمية بشفرة ما ، ثم ارسالها على القناة الرقمية ، على ان يعاد تعديل تلك الاشارات الرقمية في نهاية الارسال بحيث تنتج اشارات تناظرية قريبة بقدر الامكان من الاشارات الأصلية ، الا اذا اريد غير ذلك . وتعرف عمليات التعديل الأول باسم التعديل بشفرة النبضات
Pulse code Modulation (PCM)

على أن معظم منشآت الاتصالات الحالية مبنى على أساس الارسال التناظري . ومن الوجهة الاقتصادية يجب استغلالها لأطول فترة ممكنة . وهذا ما يؤخر التحول الكامل الى الارسال الرقمي .

وللكمبيوتر الرقمي الالكتروني عدة أدوار في ثورة الاتصالات ، فهو لازم لعمليات اطلاق الأقمار الصناعية ووضعها في مساراتها المحسوبة ، ولمراقبة سيرها وضبط مداراتها كلما تأثرت بالجاذبية والاشعاعات الشمسية . وهو لازم أيضا في المقسمات الآلية التي تنظم العمل في شبكات الاتصالات الحالية الشديدة التعقيد . كما أن له الدور الأساسي في استخراج المعلومات في بنوكها والحصول عليها في الحال عبر قنوات الاتصال التي يكون طولها شيئا بين بضعة أمتار وآلاف الكيلومترات .

•••

٢ ـ الموجات وشرائط التردد

الموجات الكهرومغنطيسية electromagnetic waves

عندما تحدث ذبذبات كهربائية فإنه ينشأ عنها موجات كهربية وأخرى مغنطيسية . ويطلق على مجموعتي الموجات الناشئة اسم « الموجات الكهرومغنطيسية » . وتنتشر هذه الموجات بسرعة الضوء ، أي أنها تسير في الفضاء بسرعة ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية .

ويطلق اسم « الطيف الكهرومغنطيسي electromagnetic spectrum » على مجموعة الموجات الكهرومغنطيسية .

و « التردد » freguency هو عدد الذبذبات في الثانية . ومن المعلوم أن :

سرعة انتشار الموجات = التردد × طول الموجة وحيث أن سرعة انتشار الموجات الكهرومغنطيسية لا تتغير بتغير التردد فإن طول الموجة ينقص بزيادة التردد .

وتستخدم كلمة « هرتز » hertz بمعنى « ذبذبة في الثانية » . فمثلا « ٣٠٠٠ هرتز » أو « ٣ كيلو هرتز » تعني « ٣٠٠٠ ذبذبة في الثانية » . و « ١٠٠ ميجاهرتز » تعني « ١٠٠ مليون ذبذبة في الثانية » ، و « ٤ جيجا هرتز » معناها « ٤ آلاف مليون ذبذبة في الثانية » .

ويتوقف نوع الموجات المغنطيسية على مقدار التردد الذي تنشأ عنه . فعندما يكون التردد واقعا بين ٢٠ كيلوهرتز ، و ١٠ ميجا هرتز تنشأ موجات الراديو . وعندما يكون التردد واقعا بين ١٠ ميجاهرتز ، و ٣ جيجا هرتز تنشأ الموجات الدقيقة . وهكذا حسب ما هو مبين بجدول (٣) .

ويطلق اسم « شريط تردد freguency band » أو اختصارا ، « شريط » band على أية مجموعة من الترددات المتتالية القيمة . فمثلا الشريط « ٣,٩ ـ ٦,٢ جيجا هرتز » هو « مجموعة الترددات التي تبدأ بتردد قدره ٣,٩ جيجا هرتز وتنتهي بتردد قدره ٦,٢ جيجا هرتز » .

جدول (٢) بعض الوحدات المستخدمة في العد

الوحدة		الرمز	القيمة	القوة العشرية
كيلو	Kilo	K	ألف	$١٠^{٣}$
ميجا	mega	M	مليون	$١٠^{٦}$
جيجا	giga	G	ألف مليون	$١٠^{٩}$
ميكرو	micro	μ	جزء من مليون	$١٠^{-٦}$
نانو	nano	n	جزء من ألف مليون	$١٠^{-٩}$

جدول (٣) ـ الطيف الكهرو مغنطيسي

نوع الموجة	طول الموجة (بالتقريب)	التردد بالتقريب (هرتز)
كهرو مغنطيسية طويلة	فوق ١٦ كم	تحت ٢٠٠٠٠
موجات الراديو	١٦كم إلى ٣٠م	٢٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠٠٠
الموجات الدقيقة	٣٠م إلى ٠ر٠١	$١٠^{٧}$ إلى ٣ × $١٠^{١١}$
الأشعة تحت الحمراء	٠ر٠١سم إلى ٠ر٠٠٠٠٧٥سم	٣ × $١٠^{١١}$ إلى ٤ × $١٠^{١٤}$
الضوء المنظور	٠ر٠٠٠٠٧٥سم إلى ٠ر٠٠٠٠٣٨سم	٤ × $١٠^{١٤}$ إلى ٨ × $١٠^{١٤}$
الأشعة فوق البنفسجية	٠ر٠٠٠٠٣٨سم إلى ٠ر٠٠٠٠٠١سم	٨ × $١٠^{١٤}$ إلى ٣ × $١٠^{١٧}$
الأشعة السينية *	١٠٠أ إلى ٠ر١أ	٣ × $١٠^{١٧}$ إلى ٣ × $١٠^{١٩}$
أشعة جاما *	تحت ٠ر١أ	فوق ٣ × $١٠^{١٩}$

* «أ» اختصار انجستروم وهي وحدة طول تساوي جزء من مائة مليون من السنتيمتر.

وهنا بعض الشرائط التي يطلق عليها أسماء . وبعضها يوجد في جدول (٤) .

و « عرض الشريط » **bandwidth** هو الفرق بين أدنى الترددات وأعلاها في الشريط . فمثلا عرض « الشريط ـ حـ » ، وهو الشريط الثالث في جدول (٤) يساوي ٦,٢ ـ ٣,٩ أي ٢,٣ جيجا هرتز .

والشريط ذو العرض الصغير جدا يسمى « شريحة **slot**» .

والوحدة المستخدمة في قياس عرض الشريط هي ، غالبا ، « القناة الصوتية **voice channel** وتساوي ٤ كيلوهرتز .

وإذا كان الشريط أعرض كثيرا من القناة الصوتية ، أي إذا كان عرضه أكبر كثيرا من ٤ كيلوهرتز ، فيقال له « شريط واسع **broad band**» .

الارسال التلفوني

عندما يتكلم شخص فإن أوتاره الصوتية تهتز معا في نفس الوقت بترددات مختلفة قد يصل أعلاها إلى ١٢ كيلوهرتز أو أكثر . على أن الذبذبات التي تحدث بتردد تحت ١٠٠ هرتز أو فوق ٣١٠٠ هرتز تكون ذات طاقة ضعيفة جدا . لذلك يمكننا تمييز صوت من يحدثنا على التليفون مع أنه قد يكون كل ما يصل لنا هو الشريط ١٠٠ ـ ٣١٠٠ هرتز ، وهو بعرض ٣ كيلوهرتز . على أن الارسال التليفوني يحدث عادة بتخصيص شريحة عرضها ٤ كيلو هرتز لكل متكلم . وهذا هو السبب في اطلاق اسم « قناة صوتية » على ذلك العرض .

وتحتوي الشبكة التليفونية الكبيرة على ما يلي :

ـ دوائر المشتركين **subscriber loops** (وتسمى أيضا « الدوائر المحلية ») ، وتحتوي الدائرة منها على زوج من الأسلاك . ويحمل السلك ترددات من صفر إلى ٤ كيلو هرتز .

جدول (٤) بعض شرائط التردد ذات الأسماء

اسم الشريط	الترددات في الشريط
L — band	.390 — 1.550 GHz
S — band	1.550 — 3.900 GHz
c — band	3.900 — 6.200 GHz
X — band	6.200 — 10.900 GHz

ـ مقسمات (سنترالات) محلية **local central offices** ويتصل المقسم المحلي بكل المشتركين ، ويصل أي مشترك بآخر عند الطلب .

ـ مقسمات رئيسية تصل بين المقسمات المحلية .

وقد يوجد من المقسمات ما هو أكبر فيصل بين المقسمات الرئيسية .

ـ ترنكات **trunks** وهي خطوط تصل بين مقسم وآخر . ويحمل الترنك شريط تردد مساويا عددا كبيرا من القنوات الصوتية .

نسج الاشارات multiplexing عندما تتجمع إشارات تليفونية (واردة من دوائر المشتركين) في المقسم المحلي بغرض ارسالها إلى مقسم آخر فالعادة أنها تحزم معا بطريقة ما وترسل كإشارة واحدة . ويطلق على عملية ارسال مجموعة من الاشارات واحدة اسم « نسيج الاشارات » .

وهناك طريقة شائعة الاستعمال لنسج الاشارات تسمى « النسج بتقسيم التردد » **frequency division multiplexing FDM** وتتم بتقسيم شريط الارسال إلى قنوات صوتية بترددات متتالية الارتفاع . فإذا كان الارسال يحدث على شريط ٦٠ ـ ١٠٠ كيلو هرتز مثلا ، فإن الاشارة التليفونية الأولى ترفع الى ٦٠ ـ ٦٤ كيلو هرتز والثانية إلى ٦٤ ـ ٦٨ كيلو هرتز ، والثالثة إلى ٦٨ ـ ٧٢ كيلوهرتز ، وهكذا .

وقد تمر الاشارة التلفونية بنقسين أو أكثر . وعند وصول الاشارة المنسوجة إلى المقسم المحلي الأخير يعاد فصل القنوات الصوتية وتخفض كل قناة إلى التردد الأصلي لها (أي إلى ٠ ـ ٤ كيلوهرتز) وترسل على الدائرة المحلية الخاصة بها .

الارسال على الترددات المرتفعة

من المعلومات الأولية في الاتصالات أن مقدار الاشارات التي يمكن ارسالها باستخدام قناة ما يتوقف على عرض شريط الترددات المستخدم . والضغط يزداد باستمرار على قنوات الارسال . فالمحادثات التلفونية في مدينة كبيرة تتم بالآلاف في نفس الوقت ، والقناة التلفونية الواحدة تحتاج الى ١٢٠٠ قناة صوتية . ولذلك يحدث البحث دائما عن قنوات كبيرة العرض للاتصالات .

والموجات الدقيقة تعطى قنوات اتصال عريضة بدرجة لم يكن يحلم بها الانسان قبل إمكان توليد تلك الموجات . أما موجات الضوء ـ إذا أمكن استخدامها للاتصالات بنجاح ـ فتعطى قنوات اتصال ذات سمات خيالية . فكما يظهر من جدول (٣) ، فإن عرض طيف الموجات الدقيقة يساوى الفرق بين ٣ آلاف جيجا هرتز و ١٠ ميجا هرتز ، أي أكثر من ٢٩٠٠ جيجا هرتز ، وهو عرض كبير . فإذا قسم إلى شرائط ذات عرض نصف جيجا هرتز (أي ٥٠٠ مليون هرتز) فإن عرض الشرائط يكون أكثر من ٥٠٠٠ . ولكن على أنه توجد صعوبات تقابل محاولة استخدام الشرائط ذات الترددات المرتفعة في ذلك الطيف . منها التأثر بالظروف الجوية . وكلما ذللت العقبات التي تقابل استخدام شريط مرتفع التردد أتيح للانسان قنوات واسعة إضافية .

ارسال الأقمار الصناعية على الموجات الدقيقة

للارسال باستخدام الأقمار الصناعية تستخدم شرائط تحددها الاتفاقات الدولية والهيئات التنظيمية الوطنية . ومن الشرائط المخصصة لأقمار الاتصالات المدنية نجد الشريط ٣,٧ - ٤,٢ جيجا هرتز للموجات الهابطة ، والشريط ٥,٩٢٥ - ٦,٤٢٥ جيجا هرتز للموجات الصاعدة . ويلاحظ أن عرض كل من الشريطين نصف جيجا هرتز أي ٥٠٠ مليون هرتز . وهناك شرائط أخرى مخصصة للأقمار الصناعية مثل الشريط ١٠,٩٥ - ١١,٢٠ جيجا هرتز وعرضه ربع جيجا هرتز ، أي ٢٥٠ مليون هرتز .

ويشار الى الشرائط المخصصة بعبارات مثل 4/6 — GHz band; 11/14 — gHz band; 21/16 /gh z dand أي شريط ٤/٦ جيجا هرتز ، شريط ١١/١٤ جيجا هرتز . ١٢/١٦ جيجاهرتز وفي أي من هذه العبارات يشير العدد الأول الى شريط ترددات الموجات الهابطة ، والعدد الثاني الى شريط ترددات الموجات الصاعدة .



شكل (٣) قمر اتصالات مدنية يستخدم الشريطين ٤/٦ - جيجاهرتز

٣ - أقمار الاتصالات

يعمل قمر الاتصالات بمثابة متابع من نوع فريد للموجات الدقيقة . فهو ، بوضعه العالي في الفضاء ، يستطيع متابعة الاشارات عبر المسافات الطويلة التي قد لاتستطيع تغطيتها وصلة واحدة تقدمها أية وسيلة أخرى للاتصالات . ولعل أهم مزايا أقمار الاتصالات قدرتها الفريدة على تغطية العالم . وقد بقيت شبكات الاتصال في العالم شبه منعزلة بعضها عن بعض ولم يتيسر ضمها كلها في شبكة واحدة الا بمجيء تلك الأقمار . واليوم لايلزم لضم أي مكان ناء في العالم الى تلك الشبكة الا اقامة محطة أرضية هناك . ولا يستلزم ذلك وقتا طويلا ولا يحتاج الى رؤوس الأموال الطائلة التي يلزم توافرها لوصل أي مكان ناء بشبكة رئيسية من شبكات الاتصالات .

ومن مزايا أقمار الاتصالات الأخرى أنها تتيح شرائط تردد أعرض من أي شيء كان معروفا من قبل . وقد بقي الارسال التلفزيوني عبر المحيطات معلقا حتى مجيء الأقمار الصناعية .

فالكابلات البحرية الحالية لاتقدم شرائط التردد العريضة التي تكفي الاتصالات التليفونية والارسال التلفزيوني معا . ولم يكن من التيسير مد كابلات اضافية تحت الماء لسد العجز في قنوات الاتصال اذ أن ذلك المد يحتاج الى أموال طائلة وجهود مضنية . ولقد كان الغرض الأساسي من الالتجاه الى الأقمار الصناعية من أجل الاتصالات هو تيسير الارسال عبر المحيطات .

وقد كانت الأقمار الأولى للاتصالات صغيرة الحجم قليلة الوزن بسبب ضعف الصواريخ الأولى بالنسبة للصواريخ الحالية . ولذلك لم تكن تحمل الأجهزة الألكترونية اللازمة لتعديل موجات الارسال وتقوية الموجات المعدلة وارسالها ، وكان عملها مقتصرا على عكس الاشارات الصادرة اليها من الأرض . وبعبارة أخرى كانت تلك الأقمار « سلبية » . على أنه سرعان ما أمكن صنع صواريخ قوية . وبذلك أمكن مد أقمار الاتصالات بالتجهيزات الكافية لتعديل الاشارات التي تستقبلها وتقويتها ثم اعادة ارسالها . وبعبارة أخرى أمكن صنع واطلاق أقمار اتصالات « ايجابية » . وقد حدث ذلك التقدم في سنوات قليلة . ومما تم في تلك السنوات أيضا التوقف عن استخدام البطارية الكيميائية لمد الأقمار بالطاقة اللازمة ، فقد كانت البطاريات الشمسية قد اخترعت . وبعد أن كان عمل البطارية في الأقمار الأولى لايستمر الا أسبوعا أو أسبوعين ، أصبحت الأقمار تستمد الطاقة اللازمة لها طوال سنوات عملها من البطاريات الجديدة .

الأقمار المتزامنة مع الأرض geosynchronous satelltes

كانت أقمار الاتصالات الاولى تحلق على ارتفاعات منخفضة نسبيا (بسبب الضعف النسبي لصواريخ ذلك الوقت) ولذلك كانت دورتها تتم في ساعات قليلة مما يجعلها لاتظهر في السماء الا دقائق معدودة . بالاضافة الى ذلك كان من اللازم استمرار تحريك أطباق المحطات الأرضية لتكون مواجهة لقمر الاتصال طوال مدة ظهوره . على أنه في أوائل الستينات أمكن صنع الصواريخ التي تستطيع أن تدفع القمر الصناعي الى ارتفاع ٣٥٧٠٠ كيلومتر ، كما تقدمت التقنية في كل شيء لازم لتصحيح مسار القمر عند ذلك الارتفاع واعطائه السرعة اللازمة (أي ١١٠٠٠ كيلومتر في الساعة) لكي يدور حول الأرض في نفس الزمن الذي تدور فيه حول محورها ، أي في ٢٤ ساعة . واذا كان القمر فوق نقطة من خط الاستواء ويسير بتلك السرعة في اتجاه دوران الأرض فانه يبدو ثابتا في مكانه في السماء ويقال انه « متزامن مع الأرض » . وقد كان القمر الامريكي « سينكوم ٢ SYNCOM II الذي أطلق في سنة ١٩٦٢ هو أول قمر له هذه الصفة .

المحطات الأرضية

تتألف المحطة الأرضية من طبق كبير ، طول قطره عدد من الأمتار ، يشير إلى قمر الاتصالات . وقد كانت المحطات الأرضية الأولى على شيء كبير من الضخامة . فقد كان للمحطة التي تشير الى « ايرلي بيرد » - أول أقمار

جدول (٥) زمن دورة القمر الصناعي حسب ارتفاعه

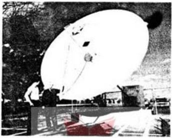
ارتفاع القمر عن الأرض (كم)	زمن الدورة (ساعة)	زمن البقاء في مدى بصر المحطة الأرضية
١٦٠ ـ ٤٨٠	٥ر١ تقريباً	١/٤ ساعة أو أقل
٩٥٠٠ ـ ١٩٠٠٠	٥ ـ ١٢	٢ر٤ ساعة
٣٥٧٠٠	٢٤	مدى عمر القمر

الاتصالات ـ قبة ارتفاعها ١٨ طابقا تحتوي على هوائي على شكل بوق يتحرك بالادارة ويزن ٣٨٠ طنا ، وتصحبه دوائر الكترونية تبرد بالهليوم السائل . على أنه سرعان ما ظهر أن الاحتياطات الكبيرة التي سببت ضخامة المحطة كان مبالغا فيها فبطل بناء القباب فوق المحطات الأرضية . كذلك ظهر أنه في الامكان التحكم في ثبات القمر في مكانه الظاهري في الفضاء ولذلك استبعد لزوم الادارة المستمرة للمحطة . وكل ما يلزم الآن هو إعادة توجيه الهوائي بين الحين والآخر .

وبالتقدم الهائل الذي حصل في الالكترونيات في السبعينات والسبعينات أمكن مد أقمار الاتصالات بأجهزة أقوى كثيرا من سابقاتها ، وبذلك أصبح في الامكان استخدام محطات أرضية أصغر من المحطات الكبيرة الأولى التي كان قطرها ٣٠ مترا . واليوم توجد محطات ذات أقطار مختلفة : ٣٠ مترا ، ١١ مترا ، ٥ أمتار ، وغيرها . وبينما بقيت أثمان المحطات الكبيرة مرتفعة كما كانت (من ٦ مليون الى ٨ مليون دولار) نجد أن المحطات الصغيرة ذات أسعار منخفضة إلى حد كبير . وفيما يلي بعض الأسعار السائدة حاليا في الولايات المتحدة الامريكية لبعض أنواع المحطات الأرضية :

نظام (أ) بقطر ٣٠ مترا	٦ ـ ٨ مليون دولار
نظام (ب) بقطر ١١ مترا	٠,٨ ـ ١,٢ مليون دولار
نظام لاستقبال ارسال الأقمار الوطنية	أقل من ٣٠٠٠٠ دولار
نظام لاستقبال الراديو والتلفزيون بدون ارسال	أقل من ١٠٠٠٠ دولار
نظام لاستقبال الراديو بدون ارسال	أقل من ٥٠٠٠ دولار
نظام لاستقبال الراديو في المنزل (ما زال خطة)	أقل من ٢٥٠ دولار

وقد أدى انتاج النظم الصغيرة للمحطات الأرضية الى إمكان اقامتها قريبا من المستخدم النهائي . فحيث لا يخشى تداخل الموجات يمكن إقامة المحطة في الأرض الفضاء الموجودة خلف المبنى ، وكذلك يمكن وضعها فوق أعلى المنزل .



شكل (٤) محطة أرضية متوسطة من [illegible]

وكما هو ظاهر من النظم السابقة ، تقوم المحطات الكبيرة بالارسال والاستقبال . على أنه من اللازم وجود محطة تقوم بعمليات التحكم في القمر الصناعي ، وربما بتشغيل محطة أرضية أو أكثر مما لا يوجد بها أشخاص لتشغيلها .

الترانسبوندر transponder

في علم الاتصالات يعرف الترانسبوندر بأنه تسهيلات للاستقبال والارسال وظيفتها إرسال الاشارة أوتوماتيكيا عند تلقي الطلب الصحيح . وفي الأقمار الصناعية تقوم الترانسبوندرات باستقبال الاشارات الواردة على موجات الراديو الدقيقة في شريط تردد معين ثم تعيد ارسالها بتردد آخر ، وذلك تلافيا لتداخل الاشارات القوية الصادرة من القمر مع الاشارات الضعيفة الواردة إليه .

ولأغلب أقمار الاتصالات الحالية أكثر من ترانسبوندر . ويختلف عرض الشريط الذي يتيحه الترانسبوندر من قمر صناعي إلى آخر . وللقمر الصناعي « انتلسات ٤ » مثلا ٢٠ ترانسبوندر وعرض شريط تردد كل منها ٣٦ ميجاهرتز . ويتوقف استخدام الشريط على تجهيزات المحطة الأرضية . ففي بعض النظم يمكن استخدام الشريط بعرض ٣٦ ميجاهرتز في حمل أي مما يأتي :

- قناة تلفزيونية واحدة مع صوت البرنامج .
- ١٢٠٠ قناة صوتية .

بيانات بمعدل ٥٠ مليون رقم ثنائي (واحد أو صفر) في الثانية ـ الأربعة والعشرون ميجاهرتز الوسطى من كل شريط يمكن أن تقوم بمتابعة أي من :

أ ـ ١٦ قناة ذات ١,٥٤٤ مليون رقم ثنائي في الثانية .

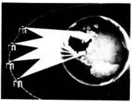
أو ب ـ ٤٠٠ قناة ذات ٦٤٠٠٠ رقم ثنائي في الثانية .

أو جـ ـ ٦٠٠٠ قناة ذات ٤٠٠٠ رقم ثنائي في الثانية .

الهوائيات في الفضاء antennas

توصف هوائيات الموجات الدقيقة بأنها توجيهية directional لأنها تستطيع أن تقوم بتوجيه تلك الموجات . ويحتاج توجيه الموجات الأقصر إلى هوائيات أصغر . ولم تكن هوائيات أقمار الاتصالات الأولى توجيهية بدرجة عالية . على أن هوائيات « ايرلي بيرد » ـ وهو أول أقمار الاتصالات التجارية وكان اطلاقه في سنة ١٩٦٥ ـ كان يحمل هوائيات على درجة لا بأس بها من القدرة على التوجيه . وكانت تلك الهوائيات توصف بأنها « حولاء » لأنها كانت موجهة إلى شمال المحيط الأطلسي مع جزء من شواطئه الأوروبية والأمريكية دون باقي القارتين وذلك بغرض احتفاظ الارسال بقوته لخدمة الاتصالات بين شاطئي شمال المحيط .

وفي المدار المتزامن مع الأرض تقابل الأرض زاوية مقدارها ١٧° أو ١٨° وإذا كان التوجيه نحو الأرض كلها فان الهوائيات توزع الارسال على هذه الزاوية . وإذا كان الهوائي يغطي زاوية أقل من ذلك فإن الاشارات التي تستقبل على الأرض تكون أقوى (إذا لم تتغير قوة القمر) . ويحمل القمر « انتلسات ٤ » هوائيين يقابل كل منهما ٤,٥° ، وذلك بالاضافة الى هوائي ذي ١٧° . والقمر الوطني الصناعي المصمم لخدمة دولة معينة (ويسمى قمرا وطنيا) مثل كندا أو البرازيل يحتاج إلى هوائي يغطي تلك الدولة .



شكل (٥) زوايا توجيه الارسال من قمر صناعي

والقمر « NASA ATS 6 » الذي أطلقته « ناسا » سنة ١٩٧٤ كان يحمل هوائيا ذا زاوية ٢٥, °٠ مما كان يجعله يستطيع توجيه الارسال إلى « بقعة » Spot تساوي مساحة انجلترا . (وقد كان ذلك القمر تجريبيا . ومن التجارب الكثيرة التي صمم لخدمتها مساعدة الحكومة الهندية في برنامج تعليمي يذاع على ٥٠٠٠ قرية هندية ، وكان لدى نصفها مراكز استقبال مباشرة) . وكان هوائي ذلك القمر على شكل مظلة تفتح في الفضاء (حتى تأخذ حيزا صغيرا أثناء الاطلاق) ليصير قطرها ٣٠ قدما . وكان تحت المظلة أجهزة « تغذية » تبث الارسال عبر الهوائي الذي يوجهه في شكل « حزمة بقعة » وكانت المظلة تقوم بالاستقبال أيضا وتبعث بالاشارات الواردة إلى التغذية * .

وتتجه التصميمات الآن إلى أن يكون ارسال القمر على شكل حزم ضيقة متعددة . فبالاضافة إلى ما يؤديه ذلك من تقوية الارسال فإنه يتيح استعمال نفس التردد للارسال إلى بقع مختلفة من الأرض ، كما يتيح للأقمار المختلفة إعادة استعمال نفس التردد .

التأخير

يعيب الارسال باستخدام الأقمار الصناعية حدوث تأخير بسبب أن الاشارة تقطع المسافة من الأرض إلى القمر ثم من القمر إلى الأرض ، ومجموع المسافتين أكثر من ٧٠٠٠٠ كيلو متر بالنسبة للأقمار المتزامنة مع الأرض . ويتوقف التأخير على البعد بين القمر وكل من نقطتي الارسال والاستقبال ، ولكنه يكون حوالي ٢٧٠ ملليثانية .

وفي المكالمة التليفونية إذا كان الارسال في كلا الاتجاهين يستخدم القمر الصناعي فإنه يكون على المتحدث أن ينتظر نحو ٥٤٠ ملليثانية حتى يسمع الرد . ولذلك أثر نفسي سيء ولكنه يقل بالتعود . ومن الطرق المتبعة في بعض النظم للتخلص من نصف التأخير أن يكون الارسال في أحد الاتجاهين عبر القمر الصناعي ، وفي الاتجاه الأخر باستخدام الكابلات التليفونية .

على أن أهم ضرر للتأخير هو ما قد يحدث عند ارسال البيانات . ويستلزم الأمر أخذ احتياطيات معينة عند تصميم نظم ارسال البيانات في الاتجاهين باستخدام أقمار الاتصالات .

مدارات أقمار الاتصالات

يكون مدار القمر على شكل دائرة مركزها عند مركز الأرض ، أو على شكل قطع ناقص (بيضي) تقع الأرض عند إحدى بؤرتيه . (ويمكن اعتبار الدائرة قطعا ناقصا تتطابق بؤرتاه) . وعندما يكون المدار قطعا ناقصا فإن بعد القمر عن الأرض يتغير باستمرار ، ويكون له قيمة صغرى تسمى البعد الأصغر Perigee وأخرى كبرى تسمى البعد

* كان القمر المصمم للقمر ستون وكان وزنه ١٣٦٠ كيلو جراما منها ٣٣١ كيلو جراما لخدمة الاتصالات موزعة كالآتي :

عاكس على شكل قطع ناقص	٨٧ كجم
تغذية الهوائي	٣٦,٨ كجم
ترانسبوندر	١٢٠,٦ كجم

الأكبر apogee وأقمار النظام السوفييتي « مولنيا » MOLNIYA من هذا النوع . فمثلا القمر MOLNIYA (11)3 الذي أطلق في ٧٩/١/١٨ يتراوح بعده عن الأرض بين ٤٧٤ كيلو مترا و ٤٠٨٠٦ كيلو مترا . ويدور هذا القمر حول الأرض في ١٢'/٤ ساعة تقريبا ، ولكن شكل مداره يتيح بقاءه أطول مدة ممكنة في مدى بصر معظم محطات الاتحاد السوفييتي الأرضية .

هيئات ونظم أقمار الاتصالات

يوجد في الوقت الحاضر عدد كبير من أقمار الاتصالات التي تقوم بعمليات مختلفة . وهي تجريبية أو عاملة . ويمكن تصنيف نظم أقمار الاتصالات العاملة كما يأتي :

تجارية	حربية
١ ـ ثابتة	١ ـ ثابتة
أ ـ دولية	٢ ـ متحركة
ب ـ اقليمية/وطنية	
٢ ـ متحركة	
٣ ـ إذاعة	

ويوجد نظامان دوليان من النظم الثابتة وهما :

- التلسات INTELSAT وهو نظام ناجح تمام
- انترسبوتنيك Intersputik وهو نظام سوفييتي محدود الامكانيات بالقياس إلى النظام الأول .

ومن النظم الاقليمية/الوطنية غير الأمريكية يوجد ما يلي :

- تليسات كندا TELESAT Canada
- أي اس ايه (أوروبا) ESA (European Satellite Agency)
- بالابا (إندونسيا) PALAPA
- سيريو (ايطاليا) SIRIO
- عربسات ARABSAT
- سيمفوني (المانيا ـ فرنسا) Symphonie
- إنسات (الهند) INSAT

أما النظم التابعة للولايات المتحدة الأمريكية فبعضها يظهر في جدول (٦) الذي يحتوي على خطط اطلاق الأقمار الصناعية على مدى ٦ سنوات تقريبا .

ومن النظم المتحركة يوجد :

- ماريسات MARISAT (COMSAT General
- ماروتس (الوكالة الاوروبية) MAROTS (ESA)

جدول (٦) خطط إطلاق أقمار الاتصالات الأمريكية الوطنية لسبع شركات
خلال السنوات القليلة التي تبدأ من نوفمبر ١٩٨٠

القمــــر	تاريخ الاطلاق
sbs 1	نوفمبر ١٩٨٠
sbs 2	يناير ١٩٨١
sbs 3	نوفمبر ٨٢ ـ سبتمبر ٨٣
RCA SATCOM 3-R	يونيو ١٩٨١
RCA SATCOM 4	اكتوبر ١٩٨١
RCA SATCOM 5	اكتوبر ١٩٨٢
RCA SATCOM 1-R	مارس ١٩٨٣
RCA SATCOM 2-R	سبتمبر ١٩٨٣
COMSTAR D-4	مارس ١٩٨١
AT & T TELSTAR I	مارس ١٩٨٣
T & AT TELSTAR II	مارس ١٩٨٤
T & AT TELSTAR III	مارس ١٩٨٦
WESTAR 4	مارس ١٩٨٢
(WESTERN Union)	
WESTAR 5	أغسطس ١٩٨٢
ADVANCED WESTAR-A	١٩٨٣
ADVANCED WESTAR-B	١٩٨٣
HUCHES H-1	١٩٨٢
HUCHES H-2	١٩٨٢
HUCHES H-3	١٩٨٣
SPCC 1	
(SOUTHERN Pacific)	
SPCC 2	١٩٨٣
GTE 1	١٩٨٤
GTE 2	١٩٨٤

كومسات Comsai

في فبراير ١٩٦٣ تأسست شركة أمريكية باسم « شركة اتصالات الأقمار الصناعية » Communications Satellite Corporation (COMSAT)

وتعرف باسم « كومسات » . وذلك للتشغيل والاطلاق في أمريكا للأقمار الصناعية التجارية مع تغطية عالمية واسعة . وتعمل الشركة لتحقيق ذلك وللمساهمة في ملكية وتشغيل نظام عالمي للأقمار الصناعية والمحطات الأرضية . وسيتضح فيما يلي دور هذه الشركة الأساسي في الاتصالات العالمية عن طريق الأقمار الصناعية .

انتلسات INTELSAT

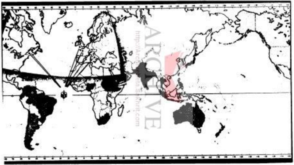
في ٢٠ أغسطس ١٩٦٤ وقعت ١١ دولة ذات سيادة على اتفاقيات أدت الى إنشاء هيئة فريدة في نوعها باسم « الاتحاد الدولي لأقمار الاتصالات » وتعرف باسم « انتلسات » International Teleommunications Satellite Consortium (INTELSAT)

وذلك بهدف تصميم وتطوير وإنشاء وإقامة وتشغيل القطاع الفضائي من نظام عالمي تجاري لاتصالات الأقمار الصناعية . وتنص الاتفاقيات على أن تساهم الهيئة التي تسميها الدولة العضو في تمويل وامتلاك الأقمار الصناعية وأجهزة المتابعة والتحكم اللازمة لها ، ولكن الدول الأعضاء تمتلك وتدير المحطات الأرضية التي تقع في أراضيها . ومن حق أية دولة أن تنضم للاتحاد نظير اشتراكها في الاستثمارات . وتحصل كل هيئة على أرباح استثماراتها في النظام . وكلما انضمت دولة أخرى تقل نسبة مساهمة باقي الأعضاء . ويوجد في الوقت الحاضر أكثر من ١٠٠ عضو في الاتحاد . وتشترك الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق « كومسات » التي تمتلك الآن ٣٧,٥٪ من الاستثمارات . ويساهم معظم الأعضاء عن طريق هيئات البريد والبرق والهاتف لديهم . والدول التي ليست أعضاء في الاتحاد ولم توقع على الاتفاقيات يمكنها أن تستخدم أقمار الهيئة نظير دفع تكلفة استئجار دوائرها .

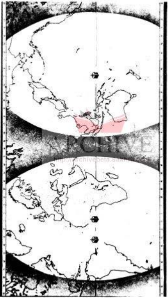
ولشركة « كومسات » الأمريكية اليد العليا في أمور « انتلسات » ، فهي تقوم بإدارتها بالنيابة عن جميع الجهات التي تسميها الدول الأعضاء ، وهي التي تتولى تصميم الأقمار الصناعية المطلوبة لها .

وتقوم « انتلسات » في الوقت الحاضر بتقديم خدمات اتصالات الأقمار الصناعية على أساس عالمي لمناطق المحيطات الأطلسي والهادي والهندي . وتوجد للهيئة ثلاثة أقمار عاملة فوق الأطلسي بالاضافة إلى قمر احتياطي ، ويوجد قمر عامل فوق كل من المحيطين الهادي والهندي بالاضافة الى قمر احتياطي لكل منها . وتستخدم أقمار النظام نحو ٢٠٠ محطة أرضية قطر طبقها ٣٠ مترا وتعمل على الشريط ٦/٤ جيجا هرتز .

وقد أطلقت شركة « كومسات » الأمريكية حتى الآن أربعة أجيال من الأقمار الصناعية لحساب « انتلسات » وهي : « انتلسات ١ » الذي عرف باسم « ايرلي بيرد » و « انتلسات ٢ » ، و « انتلسات ٣ » ، و « انتلسات ٤ » . وتوجد خطة لاطلاق الجيل الخامس « انتلسات ٥ » في أواخر هذا العام .

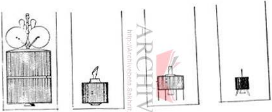


شكل (٦) : موضع القمر « إيرلي بيرد » فوق خط الاستواء وتغطيته على جانبي شمال الأطلسي ، يونيو ١٩٦٥ .





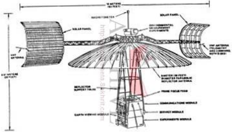
شكل (٨) . نظام عالمي كامل . سنة ١٩٩٨



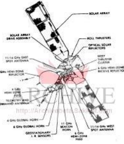
شكل (٩) . أقمار أجيال الانتلسات الأربعة التي أطلقت بين سنتي ١٩٦٥ ، ١٩٧٤ القمر الأيمن هو «ايرلي بيرد» أول «انتلسات» ثم «انتلسات ٢» ، «انتلسات ٣» و«انتلسات ٤»



شكل (١٠) : نظم أقمار انتلسات ٢ ، ٣ ، ٤ في مواضعها فوق خط الاستواء



شكل (١١) . مكونات القمر التجريبي 6 — ATS الذي أطلقته وكالة « ناسا » للفضاء في ٣٠ مايو ١٩٧٤ من « كيب كانافيرال » في فلوريدا



شكل (١٢) . مكونات القمر « انتلسات ٥ » حسب مواصفات شركة Ford Aerospace Communication Corporation

وقد كانت أقمار « إنتلسات » معدة في الأصل للاتصالات الدولية . على أن عددا من الدول تستخدم تلك الأقمار لاتصالاتها الداخلية ، ومنها : أوغندا ، والبرازيل ، وبيرو ، والجزائر ، وزائير ، والسودان ، وشيلي ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، ونيجيريا ، واليمن . على أن بعض الدول التي كانت تلجأ الى « إنتلسات » لتغطية اتصالاتها الداخلية قد أنشأت لنفسها نظما وطنية ، مثلما حدث لاندونيسيا . وهناك خطط مماثلة لكل من أستراليا ، والصين ، والمكسيك ، والهند ، وغيرها .

جدول (٧)
بيانات أقمار أجيال « انتلسات » الخمسة)

الجيل	١	٢	٣	٤	٥*
سنة الاطلاق	١٩٦٥	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٧١	١٩٨
الوزن كجم	٣٨ر٥	٨٥	١٤٦	٧٠٠	٩٠٠
العمر المصمم (سنة)	١ر٥	٣	٥	٧	١٠
عدد الترانسبوندرات	٢	١	٢	١٢	حوالي ٥٠
عرض شريط الترانسبوندر (مليون هرتز)	٢٥	١٣٠	٢٢٥	٣٦	متغير
عدد الدوائر	٢٤٠	٢٤٠	١٢٠٠	٦٠٠٠	٦٠٠٠٠
تكلفة القمر (مليون دولار)	٣ر٦	٣ر٦	٤ر٥	١٠ر٥	
تكلفة الاطلاق (مليون دولار)	٤ر٦	٤ر٥	٦	١٦	
التكلفة الكلية (مليون دولار)	٨ر٢	٨ر١	١٠ر٥	٢٦ر٥	٢٨ر٥
التكلفة السنوية للدائرة (دولار)	٢٢٨٠٠	١١٣٠٠	١٨٠٠	٦٠٠	٣٠

* تقدير .

ماريسات Marisat

تقوم شركة « كومسات » الأمريكية بتشغيل النظام التجاري الذي أنشأته في سنة ١٩٧٦ باسم « النظام البحري لاتصالات الأقمار الصناعية » المعروف باسم « ماريسات » Marine Satellite Communications System (MARISAT) ويتكون هذا النظام من ثلاثة أقمار صناعية فوق المحيط الأطلسي والهادي والهندي ، وثلاثة

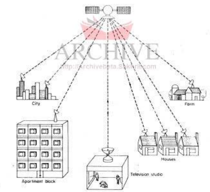
محطات أرضية في كونيكتيكات وكاليفورنيا واليابان . ويوجد حاليا نحو ٤٠٠ مركز اتصال أنشأتها « ماريسات » على ظهر السفن ونحو ١٠٠ طلب في انتظار إنشاء مراكز أخرى . وتقوم « ماريسات » بخدمات إرسال الصوت والبيانات والمستندات المصورة والطباعة عن بعد ، وبالاضافة إلى ذلك تقدم خدمات للأسطول الأمريكي .

ويوجد في قمر ماريسات ثلاثة ترانسبوندرات تعمل على الشرائط التالية :

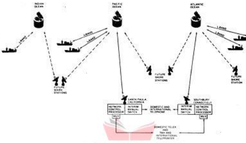
٤ ـ ٦ جيجاهرتز للاتصالات بين المحطات الأرضية والقمر

١,٥ ـ ١,٦ جيجا هرتز للاتصالات بين القمر والسفن

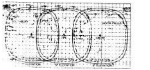
وتستعمل مراكز الاتصال بالسفن هوائيات بقطر ١,٣م



شكل (١٣) . البث المباشر من قمر صناعي . أطباق ذات قطر « قدم فوق الأسطح تستقبل الشارات التلفزيونية أو الشارات ذات الهدف واحد من قمر تلفزية



شكل (١٤) . الأقمار الصناعية « ماريسات » للاتصالات البحرية



شكل (١٥) . تغطية نظام الأقمار « ماريسات »

٤ - الألياف البصرية

في سنتي ١٩٦٠ و ١٩٧٠ تم إنجازان كان كل منهما فتحا رئيسيا في ميدانه . وباستخدام ما يقدمه هذان الانجازان معا يتاح للانسان قنوات اتصال من نوع جديد تماما تستخدم فيها الفوتونات الضوئية على الالكترونات في حين تستخدم « الألياف البصرية » على أسلاك النحاس . والمهم أن القنوات الجديدة لها من السعات ما لم يكن يحلم به الانسان . فهذه الألياف الجديدة تعمل بمثابة موجهات للضوء ذي التردد الذي يقع بين مائة ألف جيجا هرتز ومليون جيجا هرتز . ويزيد ذلك عن ترددات الموجات الدقيقة عشرات الآلاف من المرات .

ففي سنة ١٩٦٠ اخترع الليزر وأتيح بذلك لأول مرة مصدر للضوء « المتلاصق » coherent light الذي له من القوة ما لم يتح للانسان من قبل ، فهو إذا فقد ٩٩٪ من هذه القوة فإن ما يتبقى منها يكفي لاكتشافه بغاية السهولة . وفي سنة ١٩٧٠ استطاعت مصانع كورننج الأمريكية للزجاج انتاج « ألياف بصرية » على درجة غير عادية من الشفافية ، إذ أنه لو دخل الضوء إحدى هذه الألياف من أحد طرفيها وسار داخلها مسافة كيلومتر فإن ما يتبقى لا يقل عن ١٪ من ذلك الضوء . والمعنى الواضح لذلك أنه لو كان ذلك الضوء من نوع الليزر لأمكن استخدامه في إرسال إشارات لمسافة لا تقل عن كيلو متر . وبوضع أجهزة الاعادة على الطريق يمكن بعث تلك الاشارات إلى ما نشاء من المسافات .

ومنذ اختراع الليزر كان كل شيء في ميدان الضوء يعاد دراسته من جديد . وقد نتج عن ذلك اكتشاف مصادر أخرى للضوء غير المتلاصق لها من القوة ما لم يكن متاحا إلا من الضوء المتلاصق . ولما كان اختراع الليزر قد جاء في وسط الثورة الالكترونية فقد أفاد ذلك في اختراع أنواع جديدة من كاشفات الضوء لها حساسية بالغة . وهكذا أصبح لدى الانسان مصادر الضوء العظيم القوة ، وقنوات الاتصال الضوئية البالغة الاتساع ، والكاشفات الضوئية الشديدة الحساسية . ولم يبق هناك عائق أمام التطبيق الاقتصادي لاستخدام قنوات الاتصال الضوئية الجديدة . وقد تعزز صحة هذا الكلام بالتجارب الكثيرة التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وانجلترا واليابان . وبالاضافة الى ذلك فإن التجارب تجري الآن في المانيا والدانمرك لاختبار النظم التي تقوم على الارسال الرقمي في قنوات الاتصال الضوئية الجديدة ، وهو شيء ينتظر أن يحدث وحده ثورة أخرى في ميادين الاتصالات .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه التجارب كانت المختبرات في أمريكا وانجلترا واليابان تتنافس على إنتاج أنواع أفضل من الألياف البصرية . وهناك الآن شبكات من تلك الألياف لا يفقد من الضوء بعد سيره فيها كيلو مترا إلا ٤٠٪ من قوته ، كما أن هذه النسبة بلغت في إنتاج بعض المختبرات ما يقرب من ٢٠٪ . أي أن التقدم في خلال ١٠ سنوات نقل الشفافية من درجة فقد ٩٩٪ من الضوء في الكيلو متر إلى فقد ٢٠٪ فقط من نفس المسافة .

والألياف البصرية هي ألياف من الزجاج الشفاف سمكها حوالي سمك شعر الرأس ، ويمكن ثنيها دون أن تنكسر ، وذلك بفضل دقة قطرها . وهي متينة أيضا ، فالاجهاد اللازم لكسر ليفة قطرها ٠,٠٢٥ من الملليمتر قد يصل إلى معدل ٨٠٠٠ كيلو جرام للسنتيمتر المربع . ويمكن ضم عدد من هذه الألياف في كابلات مرنة تشبه « الكابلات المتحدة المحور » التي تستخدم في الوقت الحالي . إلا أن كابلات الألياف أقل قطرا ووزنا .

وهناك الآن أربعة أنواع من الألياف البصرية تحضر بطرق مختلفة . وينتج اثنان من هذه الأنواع في الولايات المتحدة الأمريكية ، بينما ينتج نوع مختلف في كل من انجلترا واليابان .

ومما يعطينا فكرة عن سعة قنوات الألياف الضوئية أن علماء « مختبرات بل للتليفونات » الأمريكية قد عرضوا في سنة ١٩٧٩ إمكان استخدامها في إرسال المعلومات بمعدل ٢٠٠ ألف مليون رقم ثنائي في الثانية ، وهو معدل لم يسبق السماع عن شيء يماثله ويزيد ٢٠٠٠ مرة عما عرضته نفس المختبرات في شيكاغو في سنة ١٩٧٨ . كما أنه قد حدثت تطبيقات ناجحة منذ سنة ١٩٧٩ تشمل استخدام ألياف بطول من ٦ إلى ٨ كيلو مترات للارسال الضوئي بدون إعادة على الطريق ، بينما أنتجت في المختبرات ألياف تقوم بالارسال لمسافة ٤٠ كيلو مترا بدون إعادة . وتقوم شركة « ايي تي تي » الأمريكية بدراسة صنع كابلات من الألياف الزجاجية لمدها تحت مياه المحيط الأطلسي في أواخر الثمانينيات لتكون الجيل الخامس من كابلات ذلك المحيط (الجيل الأول مد سنة ١٩٥٦ والرابع سنة ١٩٧٦) . وسوف يتيح ذلك الجيل إرسال الاذاعة التلفزيونية على قنوات كثيرة باستخدام الكابلات .

وليس استخدام الكابلات في توصيل الاذاعة التلفزيونية شيئا جديدا . فمنذ سنة ١٩٧٢ يوجد في أمريكا ما يسمى « تلفزيون الكابلات » . فحيث توجد منطقة بين الجبال يصعب وصول الاذاعة التلفزيونية إليها يمكن اقامة محطة أرضية فوق أحد الجبال لتلقي الاذاعة التلفزيونية من مختلف المحطات ثم إعادة ارسال ما تتلقاه (عن طريق الكابلات المتحدة المحور) إلى المشتركين . ويوجد حاليا في الولايات المتحدة الأمريكية ملايين المشتركين في مثل هذه النظم . وبالاضافة الى ذلك تقوم هيئات « تلفزيون الكابل » بإرسال برامج محلية وتعليمية ، كما أنها تختار ما تشاء وتهمل ما تشاء من البرامج التي تصل اليها عبر الهواء .

وفي السنتين الماضيتين أجريت تجارب ميدانية لاختبار أداء الألياف البصرية في دول مختلفة . منها كندا حيث شملت تجربة في « ايلي » ٣٥ منزلا موجودة في حدود ٥ كيلو مترات من مقسم يتصل مباشرة بكل من هذه المنازل بواسطة ليفتين . والليفة تنقل الارسال التليفوني والتلفزيوني والبيانات . وتقدر تكاليف إنشاء خط لأحد المنازل بما بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ دولار (حسب الأسعار المقدر أن تسري سنة ١٩٨٥) . ولما كانت تكاليف الدائرة التليفونية العادية الواحدة تقع بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ دولار فهذا يدل على أن المشروع ليس باهظ التكاليف إذا أدخل في الحساب أن تكاليف الخط ستوزع على خدمات عديدة .

ومن التجارب الناجحة أيضا نظام ياباني للألياف البصرية أنشيء في إحدى ضواحي مدينة أوساكا يشمل ١٥٨ منزلا . وفي هذه التجربة يقوم النظام بإمداد المنزل بخدمات مختلفة كما هو الحال في النظام الكندي . إلا أنه فريد في نوعه لأن كل العملاء خاصون ، على أن الخط في هذا النظام يقل طوله عن كيلو متر .

على أن الاستخدام الواسع للألياف البصرية سينتظر نشوء الاحتياجات الفعلية للقنوات الواسعة التي يقدمها . ومن تجربة كندا نجد أن الليفة الواحدة تكفي لأغراض كثيرة ، ولكن تكاليفها ، بمقياس متوسط الدخل ، ليست قليلة . وإذا لم تكن هناك حاجة لكل ما تقدمه الليفة من الخدمات فليس هناك ما يحث على إحلال الليفة محل الخطوط البسيطة العادية .

٥ ـ الليزر واتصالات الفضاء

الليزر LASER كلمة تتكون من الحروف الأولى من كلمات عبارة انجليزية معناها « تضخيم الضوء بالبث المحثوث عليه للاشعاع » Light Amplification by Stimulated Emission of Radiation وتطلق كلمة ليزر على عملية التضخيم كما تطلق على الجهاز المستخدم في ذلك . ويحتوي كل جهاز ليزر على مادة معينة هي التي تحث ذراتها على إطلاق الطاقة في شكل إشعاع بتردد معين يتوقف على طبيعة تلك المادة . وأول مادة استخدمت في عملية ليزر كانت الياقوت الصناعي . ومنذ ذلك الوقت استخدمت مواد أخرى في ذلك ، منها ما هو صلب وما هو سائل وما هو غازي . وفي عملية الليزر تقوم الذرات بإطلاق الطاقة في الوقت الصحيح لكي تقوي الموجات الناجمة بعضها بعضا . ويمكن تشبيه تلك الموجات بجنود يسيرون بإيقاع واحد وبنفس طول الخطوة وفي صفوف متتالية ، أو بعبارة أخرى ، يسيرون بخطوات متزامنة وفي مواقع متلاصقة . ومن هنا فإن ضوء الليزر يسمى « ضوءا متلاصقا » coherent light وتكون أشعة الليزر « وحيدة اللون » monochromatic أي أن لها ترددا واحدا (بالنسبة لكل مادة مستخدمة) . ولا يقتصر الليزر على الضوء المنظور . فعملية « التضخيم » ممكنة عند ترددات تقع في مدى الأشعة دون الحمراء ، وعند ترددات تقع في مدى الأشعة فوق البنفسجية .

وبالرغم من أن الليزر اخترع سنة ١٩٦٠ فإن الناس ـ فيما عدا أفراد قلائل ـ لم يعلموا عنه شيئا حتى مارس ١٩٦٢ . ففي ذلك الشهر قام علماء معهد ماساتشوستس للتقنية بتصويب حزمة ليزر خلال تلسكوب إلى قمر الأرض واستقبلوا ما انعكس من تلك الحزمة . وقد كرروا ذلك بنجاح في ثلاث ليال متعاقبة . وقد صنعت تلك التجربة عناوين الصحف في العالم كله في ذلك الوقت وعرف معظم الناس باسم الليزر لأول مرة . والأمر الذي كان مثيرا في أنباء



شكل (١٦) . خمسة من علماء الفيزياء الأمريكيين والسوفييت ممن حضروا مؤتمر « الكترونيات الكم » في ولاية نيويورك سنة ١٩٥٩ . ومن هؤلاء ثلاث يعود إليهم الفضل في اختراع الليزر وهم : بازوف (الثاني من اليسار) . بروكهوروف (الرابع) . تاونز (الأخير) .
N.G.Basov (2 nd), A.M.Prokhorov (4 th), C.H.Townes (5 th).

التجربة أن حزمة الليزر أضاءت بقعة على سطح القمر قطرها ميلان فقط مع أنه كان على بعد ربع مليون ميل من الأرض ، كما أن ضوء الحزمة كان من القوة بحيث أمكن استقباله بعد قطع مسافة نصف مليون ميل في ذهابه وإيابه . .

وفي سنة ١٩٦٨ اتضحت قوة الليزر بشكل أكثر جلاء . ففي أوائل تلك السنة هبطت مركبة الفضاء الأمريكية « سرفيور ٧ » Surveyor 7 على سطح القمر وعندما واجهت الجانب المظلم من سطح الأرض كشفت عدستها التلفزيونية حزمتي ليزر صادرتين من الأرض ، إحداهما من كاليفورنيا والأخرى من أريزونا . وقد كانت الصورة المرسلة تحتوي ما يشبه رأسي دبوس صغيرين وحادين جدا .

ويتضح من تجربتي ١٩٦٢ و ١٩٦٨ أن التفكير في استخدام الليزر في اتصالات الفضاء بدأ مبكرا ولم ينقطع . لكن هناك مشكلة تقابل ذلك الاستخدام هي امتصاص السحب والضباب والمطر الغزير له . على أنه توجد « نوافذ » في الطيف يقل فيها الامتصاص . وتوجد إحدى هذه النوافذ عند تردد ليزر ثاني أكسيد الكربون ، أي عند ٣٠٠٠٠ جيجا هرتز ، وهو يقابل طول موجة يساوي ١٠ ميكرومتر (والميكرومتر جزء من مليون من المتر) . وعرض هذه النافذة ٤٠ جيجا هرتز . و « الأضعاف » attenuation الذي يحدث لأشعة الليزر عند هذه النافذة أقل منه عند أي تردد في الضوء المنظور أو فوق البنفسجي .

وقد كانت الفكرة الأولى في صدد استخدام الليزر في الاتصالات البعيدة أن يكون ذلك في الفضاء العميق . إلا أنه اتضح في النصف الأخير في السبعينات أن أهم الاستخدامات سيكون في الفضاء القريب من الأرض ، وخاصة في بعثات الاستشعار عن بعد . وقد حدثت محاولة لوضع نظام لاتصالات الليزر على قمر « الناسا » الصناعي ATS 6 ولكن المحاولة ألغيت بسبب قيود الميزانية . ولكي لا يتكرر إلغاء مثل تلك المحاولة أجريت دراسة لاختبار مدى صحة الشكوك التي أدت إلى إلغاء المحاولة الأولى . وقد ابتدأت تلك الدراسة سنة ١٩٧٠ واستمرت خمس سنوات . وفيما يلي بعض نتائجها .

استخدام ليزر ثاني اكسيد الكربون في اتصالات الاستشعار عن بعد :

يقوم قمر الاستشعار عن بعد بتصوير شريط swath من الأرض من ارتفاع مناسب أثناء سيره في السماء . واذا افترضنا أن التصوير لا ينقطع فإن معدل جمع القمر للبيانات يتوقف على عوامل معينة منها سرعته وعرض شريط الأرض الذي يصوره . واذا كان ذلك العرض ١٨٥ كيلومترا ، وهو شيء عملي ، فإن معدل البيانات قد يصل إلى ألف مليون رقم ثنائي في الثانية (ولو أنه يمكن انقاص هذا العدد بطرق فنية) . ولكن الاحتياجات الفعلية في الثمانينات قد تصل الى شيء بين ٣٠٠ ، ٥٠٠ مليون رقم ثنائي في الثانية . فكيف ترسل هذه البيانات من قمر الاستشعار الى الأرض ؟ هناك ثلاثة طرق يمكن اقتراحها في هذا الصدد .

في الطريقة الأولى تسجل البيانات على شرائط مغناطيسية موجودة على قمر الاستشعار على ان ترسل الى الارض حالما تظهر محطة ارضية مناسبة في مدى بصر قمر الاستشعار . ولكن التجارب علمتنا انه لا يمكن الاعتماد على هذه الطريقة ، اذ أنها تتضمن عمليات ميكانيكية مما يجعلها عرضة للعطل بالإضافة إلى عجزها عن مجاراة سرعة الجمع الالكتروني للبيانات .

وفي الطريقة الثانية تعالج البيانات على سطح قمر الاستشعار باستخدام كمبيوتر يكون موجودا عليه ولكن المشاكل الفنية التي تقابل هذه الطريقة لم تحل بعد .

وفي الطريقة الثالثة ترسل البيانات من قمر الاستشعار بمجرد الحصول عليها الى قمر اتصالات يكون في مدى بصره ، على ان يقوم الأخير بإرسالها الى محطة ارضية معدة لاستقبالها ، أو الى قمر آخر يتولى ارسالها الى تلك المحطة وتكون كل الاتصالات بين الاقمار الصناعية باستخدام ليزر ثاني اكسيد الكربون ، بينما يكون الارسال من قمر الاتصالات إلى المحطة الأرضية باستخدام الموجات الدقيقة بدون ليزر (وهو ما يسمى بطريقة « تردد الراديو ») . وفي هذه الطريقة يكون على كل من قمر الاستشعار وقمر الاتصالات ان يكتشف موضع الآخر في الفضاء ويتابعه اثناء تحركه ، وذلك لأن قمر الاستشعار سيوجه ارساله الى قمر الاتصالات ، كما ان الاخير سيوجه هوائياته الى الأول . ويمكن ادراك صعوبة الأمرين عندما نقارن حجمي القمرين الصناعيين بالفضاء السحيق الذي يسيران فيه . على ان المصاعب الفنية التي تقابل هذه الطريقة امكن حلها واستقر الرأي على اتباعها .

عربسات :

في سنة ١٩٧٦ تأسست « المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية » أو « عربسات » بهدف انشاء نظام للاتصالات عبر الاقمار الصناعية بين الدول العربية . وتضم هذه المؤسسة كل الدول العربية تقريبا ، ومقرها الرياض . وقد بدأت فكرة انشاء المؤسسة باقتراح تقدم في سنة ١٩٧٤ من الكويت التي تساهم حاليا بنسبة ٤,٨٪ من رأس المال . على أن نسب المساهمة سوف تعدل فيما بعد حسب استخدام الاعضاء لتسهيلات النظام ، ويشمل ذلك البث التلفزيوني والاذاعي والاتصالات التلفونية والتلغرافية وارسال الصور والبيانات (بما في ذلك الانباء) وقد وقعت المؤسسة عقدا مع شركة فرنسية لصناعة ثلاثة اقمار صناعية خلال ٣٠ شهرا اعتبارا من مايو ١٩٨١ . وتقضي الخطة باطلاق اول الاقمار الصناعية في سنة ١٩٨٣ وثانيها بعد ٣ أشهر . اما القمر الثالث فيبقى (على الارض) احتياطيا . وسيكون الاطلاق من جزيرة « كورو » بامريكا الجنوبية على أن يحلق القمران فوق مدينة طبرق الليبية لتوسطها بين بلدان الوطن العربي . وسيكون في قيام اقمار « أراب سات » بالخدمة تخفيف كبير عن أقمار « انتلسات » الدولية التي تعتمد عليها البلاد العربية في شئون الاتصالات الفضائية في الوقت الحاضر . على أن أقمار « اراب سات » ستكون اقليمية ولن تنقل اية برامج من خارج الوطن العربي وسوف تقدم القنوات التالية :

- قنوات تلفزيونية بين الدول العربية .
- قنوات للاتصالات بين الدول العربية
- قنوات للاتصالات الداخلية ولبث البرامج التعليمية المحلية في الدول العربية ذات المساحات الواسعة كالسعودية والجزائر وعمان وليبيا .

ومن خطط المؤسسة انشاء محطة ارضية أو أكثر في كل بلد عربي للاستقبال من الأقمار العربية بالاضافة الى محطتي مراقبة من السعودية وشمال افريقيا . وتتطلع المؤسسة الى الاستعانة بالخبرات العالمية المتخصصة من أجل تصنيع وتركيب المحطات الارضية في الدولة العربية .

المراجــع

(1) Harvey J. Hindin, **"Telecommunication", Encyclopaedia Britannica** Book of the Year 1980, PP 453-454.

(2) Cleo D. Anderson, Robert F. Gleason, paul T. Hutchinson and peter K. Runge, **An Undersea communication System Using Fiberguide cables** Proceedings of the IEEE, Vol. 68, No. 10, October 1980 pp 1299-1303.

(3) peter C. Schuitz, **Fabrication of OPTICAL Wareguides by the Outside Vapor Deposition Process,** Proceedings of the IEEE Vol. 68, No. 10 october 1980 pp. 1187-1190.

(4) John B. Mac Chesney, Materials and Processes for Preform Fabrication-**Modified Chemical Vapor Deposition and Plasma Chemical Vapor Deposition** Proceedings of the IEEE, Vol68, No. 10, October 1980 pp 1181-1183.

(5) Keith J. Beales, clive R. Day, Anthong G. Dunn and Sally Partington, **Multicomponent Glass Fibers for Optical Communications,** Proceeding of the IEEE, Vol 68, No. 10, October 1980 pp 1191-1194.

(6) Tatsuo Izawa, **Material and Processes for Fiber Preform Fabrication- Vapor-phase Axial Deposition,** Proceedings of the IEEE. Vol 68, No. 10, october 1980. pp 1184-1187.

(7) John E. Midwinter, Poteential Broad-Band Services, Proceedings of the IEEE Vol. 68, No. 10, october 1980 pp 1321-1327.

(8) James Martin, "PcM : A Revolution Begine" in **Telecommunications and the computer,** 2nd edition, prentice-Hall, 1976, PP 263-278.

(9) S. Ramabhadran, **Telecommunications, Principles, Circuits and Systems,** Khanna, Delhi, 1976, pp 408-419, 439-446, 728-732.

(10) Mitchel R. Sharps, "Major Satellites and Space Probes Launched Oct 1, 1977-Sep. 30, 1978 **"Encyclopaedia Britannica Book of the** Year 1979, p 623.

(11) Mitchel R. sharpe, "Major Satellites and space probes, launched oct 1, 1978-sep. 30, 1979, **"Encyclopaedia Britannica Book of the Year 1980", p 629.**

(12) Guy W. Breakley "Satellite Communications Growth and Future", **ICS Telecommunications, NO** v 1980, pp 19-24.

وافق المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو الذي انعقد في مدينة بلغراد عاصمة يوغسلافيا في خريف عام ١٩٨٠ ، على مشروع لنظام عالمي جديد للاعلام والاتصال ، وضعته لجنة مكونة من ستة عشر خبيرا اعلاميا برئاسة الاستاذ شون ماكبرايد ـ هو ايرلندي حائز جائزة نوبل وجائزة لينين للسلام وميدالية اليونسكو الفضية ـ والجدير بالذكر أن هذه اللجنة العالمية ضمت عضوين عربيين هما الدكتور جمال العطيفي (مصر) والدكتور مصطفى المصمودي (تونس) . وقد عقدت اجتماعات هذه اللجنة طوال ما يقرب من ثلاث سنوات ، أسفرت عن وضع أسس نظام عالمي للاعلام والاتصال فاز بموافقة الدول الأعضاء بمنظمة اليونسكو ، بعد أن بذلت محاولات ضخمة لتضييق شقة الخلاف بين الأنظمة السياسية المختلفة حول بعض المبادىء التي أثيرت خلال اجتماعات هذه اللجنة والتي سوف نشير اليها في هذه الدراسة .

النظام الجديد للاعلام الدولي

خليل صابات

وتعود فكرة اقامة هذا النظام الاعلامي الى مؤتمر اليونسكو الذي عقد في مدينة نيروبي (كينيا) في شهر نوفمبر من عام ١٩٧٦ ، فقد طرحت البلاد النامية الاعضاء في هذا المؤتمر تساؤلات تدور حول الاعلام . . . من يمتلكه ويتصرف فيه ؟ . . من أين يأتي والى أين يذهب ؟ . . هل الذين « ينتجون » الاعلام هم أنفسهم الذين « يستهلكونه » ، ان صح أن نستخدم « انتاج » و « استهلاك » عند الكلام عن الاعلام ؟ وألا تؤدي تكنولوجيا ووسائل الاتصال الحديث الى أن تحتكر البلاد الصناعية المتقدمة الاعلام وتسيطر عليه سيطرة كاملة ؟ وسألت البلاد المتقدمة بدورها عما اذا كانت البلاد النامية لا تضع العراقيل أمام تداول الأخبار لأسباب ايديولوجية أو قومية فتجعل من حكوماتها الرقيب الذي يسمح بمرور خبر ويمنع مرور

خبر آخر . . ؟ ولاشك في أنه خلال السنوات المقبلة سوف تفرض هذه التساؤلات الملتهبة نفسها على المحافل الدولية ، مثلها في ذلك مثل الحوار الذي يدور بين الشمال والجنوب .

والواقع أن صعود العالم الثالث على المسرح الدولي وانفجار الثورة النفطية في خريف ١٩٧٣ قد حتما قيام نظام اقتصادي دولي جديد (١) . ولكن مطلب البلاد النامية لايقتصر على المجالين الاقتصادي والاجتماعي ، بل انه يشمل كذلك قطاعات متنوعة أخرى ، مثل التربية والتعليم والتغذية واستغلال أعماق البحار والمحيطات وادارة الاتصال الصناعية والتبادل الثقافي وسياسات الاتصال وما اليها . .

ان قضية ضرورة إقامة نظام عالمي جديد للاعلام قد طرحت بمناسبة المؤتمر الرابع لرؤساء دول وحكومات البلاد غير المنحازة الذي انعقد في مدينة الجزائر في سبتمبر (أيلول) ١٩٧٣ . وفي اطار اليونسكو احتلت هذه القضية مكان الصدارة في المؤتمر الاقليمي الذي عقد في سان خوزيه (كوستاريكا) في يوليو (تموز) ١٩٧٦ ، ثم في مؤتمر اليونسكو العام الذي عقد في نيروبي خلال شهري أكتوبر ونوفمبر (تشرين الأول وتشرين الثاني) ١٩٧٦ ، كما سبقت الاشارة اليه .

وقد حاولت منظمة اليونسكو جاهدة أن تعد « مشروع اعلان يتعلق بالمبادىء الرئيسية لاستخدام وسائل الاعلام في دعم السلام والتفاهم الدولي وتعزيز حقوق الانسان ومكافحة العنصرية والفصل العنصري والتحريض على الحرب » . وأمام استحالة التوصل الى موافقة اجماعية على هذا المشروع في نيروبي ، أجل المؤتمر مناقشته الى المؤتمر العام التالي له والذي انعقد في ١٩٧٨ ، باعتبار أن هذه المهلة سوف تسمح للدول الأعضاء بمراجعة مشروع الاعلان بروية وامعان ، وفي مناخ تكون الأعصاب فيه أهدأ .

وقد أضفى الحوار حول المشروع بعدا وضوءا جديدين عليه والواقع أن هذا الجدل لم ينقطع منذ عام ١٩٤٥ (٢) ، وقد وضع الديمقراطيات الغربية في مواجهة الاتحاد السوفييتي وحلفائه . وما المؤتمر الذي تناول الأمن والتعاون في أوروبا إلا حلقة من حلقات الحوار بين الشرق والغرب حول الاعلام . وان عقد هلسنكي النهائي الذي وقعته خمس وثلاثون دولة في أول أغسطس (آب) ١٩٧٥ قد نص على « التعاون في المجالات الانسانية وغيرها » . وعلى عدد من الاجراءات التي من شأنها تعزيز الاعلام وتطويره وتشجيع التعاون والتبادل في حقل التعليم والثقافة .

غير أن عقد هلسنكي ، ولو أنه تضمن عناصر غاية في الايجابية ، الا أنه لم يستطع ازالة كل العقبات القائمة بين الشرق والغرب حول مفهوم حرية الاعلام .

وقد برزت هذه الخلافات من جديد في مؤتمر بلغراد ، ثم بعد ذلك في لجنة الفضاء الخارجي التابعة للامم المتحدة ، أثناء المفاوضات التي تناولت بشكل خاص استخدام الأقمار الصناعية في بث برامج التلفزيون .

---

(١) اعلان الأمم المتحدة الصادر في أول مايو (أيار) ١٩٧٤ .

(٢) Vers un nouvel ordre international de l'information, La Documentation Francaise, numero 324, 25 novembre 1977, p.3.

وهكذا نجد أن مشكلات حرية الاعلام ـ بمعناها الواسع ـ قد أصبحت ـ في وقت معا ـ في قلب العلاقات بين الشرق والغرب والعلاقات بين الشمال والجنوب . ولم يعد يكتفي بدعوة الأمم المتحدة لمناقشة هذه المشكلات ، بل أصبحت أغلب المؤسسات المتخصصة والمنبثقة من هذه المنظمة الدولية ، تعنى بها ، مثل اليونسكو والاتحاد الدولي للاتصالات السلكية واللاسلكية والمنظمة العالمية للملكية الذهنية والاتحاد الدولي للبريد . والى جانب هذه الهيئات الدولية قام في يونية (حزيران) ١٩٧٧ ، المعهد الدولي للصحافة في مدينة أوسلو والجمعية الفرنسية للقانون الدولي في مدينة ستراسبورج الفرنسية باجراء حوار حول حرية الصحافة والتداول الحر للأخبار ، كما قام المجلس الأوروبي من جهته بتناول هذه المشكلة .

ان قضية اقامة « نظام دولي جديد للاعلام » هي قضية واسعة ومعقدة ، في آن واحد ، لأنها ان لم تطرح بصراحة النظرية الكلاسيكية للاعلام التي أعدتها الديمقراطيات الغربية وتبنتها اليونسكو منذ انشائها ، فانها طرحت ـ على الأقل ـ ممارسة هذه الحرية والاعتداءات التي وقعت عليها . . ومن المعروف أن النظام السوفيتي قطع صلته ، منذ عام ١٩١٧ ، بالمبادىء الليبرالية التي تتعلق بالصحافة والاعلام . ومنذ ذلك الحين ، وباسم منطق مذهبي مختلف ، أعلن هذا النظام أن « لاحرية صحافة ولا حرية كلام لأعداء الاشتراكية » وأكد أن « الاعلام هو الاثارة والتهييج بواسطة الوقائع » وأغلق حدوده دون الصحف والكتب والاذاعات الأجنبية [٣] . وهكذا نجد أن الاتحاد السوفيتي قد طبق مفهوما لحقوق الانسان وللحريات الاساسية يختلف جذريا مع المفاهيم الغربية . واذا تركنا جانبا البلاد المرتبطة مباشرة بالمعسكرين السوفيتي أو الصيني ، وجدنا أن الاعتراض منصب بالنسبة لعدد كبير من بلاد العالم الثالث ، على الاعلام وحريته ، لا من حيث العقيدة ، ولكن من حيث الواقع . فالأمم الفقيرة تشجب « الاعلام ذا الاتجاه الواحد » واحتكار البلاد الصناعية للوسائل الحديثة للاتصال ، مثل وكالات الأنباء ووسائل الاتصال الجماهيرية والافلام الخ . . انها تطالب بتداول للأخبار في الاتجاهين أي تسمية « التداول المتوازن » ، وتعمل على اقامة وتعزيز أنظمة اتصال مناسبة لها وملبية لحاجاتها .

ويفرض هذا الموقف نظاما داخليا للاعلام يرتبط بالدولة ولا يحتمل النقد الموجه من المعارضين المحليين ولامن الصحف والاذاعات الأجنبية . وفي مواجهة المعسكر الشرقي الملتزم بالمذهب الماركسي اللينيني من جهة ، وبلاد العالم الثالث التي لها اليوم أغلبية الأصوات في اليونسكو من جهة أخرى ، تأبى الديمقراطية الغربية أن تضحي بمبادىء حرية الاعلام ، حسب مفهومها الليبرالي القائم على مبدأ « دعه يعمل دعه يمر » .

ان حرية تداول الأخبار ، على المستوى الدولي ، تصطدم ، بحاجز سيادة الدولة ، مما يثير مجموعة من الأسئلة ، هي في النهاية أسئلة سياسية تدور حول : هل ينبغي لمبدأ الحرية أن يتغلب على مبدأ السيادة ؟ ما هو سلطان الدولة في مجال الاعلام ؟ وعلى سبيل المثال ، هل يستطيع القانون الدولي أن يسمح للدولة ، بحجة حماية نظامها الداخلي ، بأن تحرم شعبها من حقه في الحصول على اعلام حر ؟ ومن جهة أخرى ، هل يمكن اعتبار دولة من الدول مسئولة أمام دول

---

(٣) Voyenne, Bernard, La presse dans la societe contemporaine, Librairie Armand Colin, Paris, 1962, p.218 et seq.

أخرى عن مواقف اتخذتها وسائل اعلام حرة تعمل في أراضيها ؟ ان ثمة عدة نصوص أو تصريحات أو اتفاقيات أو قرارات تقدس رسميا هذا الحق المبهم ، « حق الاعلام » ، ولكن السياسات الاعلامية للدول تختلف باختلاف ايديولوجياتها . ويصعب التوفيق بين هذه وتلك . ذلك أن الحكومات تستند تارة الى نظام موجه ، وتارة أخرى الى نظام ليبرالي وتستخدم في الغالب مسميات ليست لها المعنى نفسه بالنسبة للناس جميعا . ان بعض الدول الغربية ـ ومنها فرنسا ـ انضمت بطيب خاطر الى الرأي الداعي الى تعزيز تداول للأخبار أكثر توازنا . وهي من أجل ذلك تعترف بضرورة مساعدة البلاد النامية على التزود بأفضل وسائل الاعلام على الصعيدين الوطني والاقليمي .

ان العالم يشهد ، منذ بضع سنوات ، مبادرات لدول نامية تنشد التزود بأجهزة تقترب بالاعلام نحو التوازن . فالدول غير المنحازة ـ مثلا ـ توصلت ، في قمة مدينة الجزائر (سبتمبر ـ أيلول ـ ١٩٧٣) وفي قمة كولومبو (أغسطس ـ آب ـ ١٩٧٦) الى قرارات تسترعي الانتباه . وقد أنشأت دول عدم الانحياز في يوغسلافيا سنة ١٩٧٥ ، « اتحادا لوكالات الأنباء » ويمكن أن نذكر أيضا وكالة الصحافة المستقلة للبلاد المتحدثة بالانجليزية في البحر الكاريبي التي بدأت تعمل منذ شهر يوليو (تموز) من عام ١٩٧٥ . وجرى التفكير في انشاء مكتبي اتصال دائمين على مستوى اتحاد وكالات الأنباء العربية واتحاد وكالات الأنباء الأفريقية [٤] ...

ولكن هل تحقق التوازن المنشود ؟

•••

كيف يمكن اذن معالجة عدم التوازن بين الأخبار وتحريفها وتشويهها ، ولا سيما الأخبار الدولية ؟ وما شروط الخبر المرسل في اتجاه واحد والذي يحتكره القابضون على السلطة ـ سواء كانت هذه السلطة مؤسسة على المعرفة أو على المال أو على السلطة فقط ـ لكي تصبح له ابعاد اعلام ديمقراطي حقيقي مؤسس على حوار قائم بين الجميع ومن أجل الجميع ؟ ما المبادىء التي ينبغي أن يقوم عليها نظام عالمي للاعلام والاتصال يكون في الوقت نفسه أكثر توازنا وفعالية ؟ تلك هي بعض الأسئلة التي حاول الاجابة عليها الأعضاء الستة عشر الذين تكونت منهم عام١٩٧٧ اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال والتي قام بتشكيلها مدير عام اليونسكو برئاسة الاستاذ شون ماكبرايد كما رأينا [٥] .

ونكتفي في هذه الدراسة بتناول خلاصة التقرير الذي وضعته اللجنة الدولية والمقترحات التي توصلت اليها والملاحظات التي أبديت بشأنها .

ان الاتصال يمكن أن يكون أداة في يد السلطة أو سلاحا ثوريا أو انتاجا تجاريا أو وسيلة تربوية وتعليمية . ويمكن أن يستخدم لأغراض تحررية أو طغيانية . ويمكن أن يشارك في تكوين شخصية الفرد أو في تجنيد الكائنات البشرية تجنيدا

---

(٤) Vers un nouvel ordre... op. Cit. p.4

(٥) Idem ibidem

متماثلا . وعلى كل مجتمع أن يختار أفضل الطرق لتحقيق المهمة المناطة بالبشرية جمعاء وأن يجد وسائل تقليل الضغوط المادية والاجتماعية والسياسية التي تعطل التقدم[٦] .

ان دراسة الاتصال في جميع أنحاء العالم تظهر تنوع الحلول التي اتخذتها الدول المختلفة ، حسب التقاليد والأنماط المتنوعة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وحسب احتياجات كل بلد وامكاناته . ان هذا التنوع بالغ الأهمية وينبغي المحافظة عليه . فيجب عدم التفكير في تعميم نماذج موضوعة مسبقا على الصعيد العالمي . ومع ذلك ، فانه ينبغي أن يكون من الممكن تحديد قيم وأهداف مشتركة في مجال الاتصال ، تقوم على مصالح مشتركة في عالم مترابط . ان الجنس البشري في مجموعه مهدد بسباق التسلح باستمرار عدم المساواة بين الشعوب . وكلاهما يؤدي الى التوتر الذي يعرض مستقبله للخطر ، لا بل وجوده ذاته . وان التطلع الى نظام اجتماعي أفضل وأعدل وأكثر ديمقراطية ، قائم على احترام الحقوق الأساسية للانسان أصبح اليوم مطلب العالم كله . ولا يمكن تحقيقه الا بالتفاهم والتسامح اللذين يقومان على حد كبير باتصال حر ومفتوح ومتوازن .

ومن أجل ذلك لا بد من عدم الاستقلال والتنمية الذاتيين . فلكل فرد ولكل شعب الحق في التطلع الى حياة أفضل . ولما كانت الطريقة التي يتصور بها هذا التقدم ، فينبغي أن تكفل حدا اجتماعيا أدنى على المستويين الوطني والعالمي . ويفترض هذا الهدف تقوية القدرات وازالة اللامساواة التي من شأنها أن تهدد الوفاق الاجتماعي ، لا بل السلام العالمي . ولما كانت البلاد تبدأ طريقها الى النمو من مستوى الكفاف والتبعية . فينبغي أن تتطلع الى الاعتماد على الذات والى المزيد من المساواة . ولما كان الاتصال مرتبطا بكل أوجه الحياة ، فانه من الأهمية بمكان تضييق الشقة القائمة في هذا المجال توطئة لسدها بالتدريج .

وقد أوصت اللجنة الدولية بعدم اعتبار الاتصال مرفقا طارئا يترك أمر تطوره الى المصادفة ، كما أوصت بتطوير الامكانات النوعية لكل شكل من أشكال الاتصال ، ابتداء من الأشكال التقليدية وحتى الأشكال المتقدمة ، وبتوعية الشعوب بحقوقها وتعزيز تطوير الأفراد ومجتمعاتهم داخل اطار التنمية في عالم مترابط .

وقد رأت هذه اللجنة أن اللغة التي تجسد الخبرة الثقافية لشعب من الشعوب يجب أن تتطور بحيث تلبي المتطلبات المعقدة والمتعددة للاتصال الحديث ، وهي لذلك توصي الشعوب النامية والمجتمعات متعددة اللغات بأن تضع سياسات لغوية تسهل تقدم كل اللغات الوطنية حتى لو اضطر الأمر الى اختيار لغة أو أكثر تستخدم في الاتصال والتعليم العالي والادارة بصورة أوسع .

ان الهدف السياسي الاساسي لأي شعب هو قيامه بنشر التعليم الأولي فيه ومكافحة الأمية بواسطة طرق تدريب عملية تضاف الى نظام التعليم التقليدي ، وذلك في اطار تعليم مستمر ومناسب يتم من خلال الراديو والتلفزيون أو المراسلة .

---

(٦) Voix multiples un seul monde, Communi cation et Societe aujourd'hui et demain, Documentation francaise, Nouvel- les Editions Africaines- Unesco, France 1980, p. 315

وينبغي لكل بلد ـ في اطار السياسات الوطنية التنموية ـ أن يرتب أولوياته آخذا في الاعتبار أنه ليس بالامكان الوصول الى كل الأهداف في آن واحد . ومع ذلك فان على سياسات الاتصال أن تعمل على تطوير كل وسائل الاعلام كما وكيفا .

وعلى البلاد النامية أن تقيم أو تطور العناصر الأساسية لنظمها الاتصالية ، مثل الصحافة المكتوبة والاذاعة والاتصالات السلكية واللاسلكية ، وأن توفر وسائل التدريب والانتاج المرتبطة بهذه النظم .

ولا بد من انشاء وكالات وطنية قوية للانباء ، وذلك لتحسين الطريقة التي تغطي بها أخبار كل بلد بواسطة الصحافة الوطنية أو الدولية . كما يجب اقامة شبكات اقليمية دائمة من أجل زيادة انسياب الأخبار وخدمة كل الجماعات اللغوية المهمة في المنطقة . وعلى المستوى الوطني . ينبغي أن تشجع هذه الوكالات انتشار الصحف في الريف والمدن تحسينا لنظام جمع الأخبار وتوزيعها في الدولة .

كذلك يجب تشجيع الانتاج الوطني للكتب وذلك بانشاء شبكات لتوزيع الكتب والصحف والمجلات وحث المؤلفين الوطنيين على الابداع الأدبي بمختلف اللغات .

وينبغي **أن تعطي الأولوية** لاقامة شبكات وطنية للراديو يصل ارسالها الى الأقاليم المنعزلة . ويستحق التلفزيون ـ بدوره ـ التشجيع ما أن تسمح الظروف بذلك . كما ينبغي توجيه عناية خاصة للاقاليم التي تنتشر الأمية فيها . وعلى البلاد النامية أن تكون قادرة على أن تنتج محليا برامج للراديو تجنبا للتبعية للخارج ولعدم تجاوز المستوى المطلوب فيما يتعلق بتبادل البرامج . فينبغي اذا انشاء مراكز وطنية أو اقليمية لانتاج برامج وأفلام روائية وتسجيلية . كما ينبغي انشاء شبكة للتوزيع .

ومن الضروري توفير التسهيلات اللازمة لتعليم وتأهيل العاملين في وسائل الاتصال ومؤسسات الانتاج ، وكذلك من أجل تكوين الاداريين والتقنيين والقائمين على صيانة الأجهزة . . ويجب تشجيع التعاون بين البلاد المتجاورة أو الواقعة في المنطقة نفسها .

ورأي اللجنة الدولية ضرورة تمويل أجهزة الاتصال تمويلا مناسبا في كل مشروع من مشروعات التنمية باعتبارها جزءا لا يتجزأ من كل واحد من هذه المشروعات . وأن أوجه النشاط المعروفة بـ « الاتصال من أجل دعم التنمية » هي أساسية لتعبئة المبادرات وتقديم الاعلام الضروري للعمل في كل مجالات التنمية مثل الزراعة والصحة وتنظيم الأسرة والتعليم والدين والصناعة الخ . .

ورأت اللجنة الدولية ضرورة توسيع خدمات البريد وشبكات الاتصالات السلكية واللاسلكية بفضل أنظمة للتبادل الالكتروني ذات أحجام صغيرة تخدم البيئة الريفية في الدول النامية . وان استخدام الراديو المحلي والتلفزيون وأنظمة الفيديو ذات الأحجام الصغيرة والتكاليف القليلة وكذلك اللجوء لتكنولوجيات أخرى مناسبة ، من شأنها أن تسهل انتاج البرامج التي تدعم جهود التنمية داخل مجتمع القرية وتنشط المشاركة وتتيح تعبيرا ثقافيا متنوعا .

وان استخدام الاتصال لأغراض التعليم والاعلام ينبغي أن يكون على قدم المساواة لاستخدامه لأغراض الترفيه . وفي الوقت نفسه فان الأنظمة التربوية يجب أن تؤهل الصغار للاستفادة من الاتصال . وان تدريب تلاميذ التعليم

الابتدائي والثانوي على استخدام وسائل الاعلام مثل قراءة بعض الأبواب في الصحف والمجلات واختيار برامج الراديو والتلفزيون وتعلم استخدام التقنيات الأولية للوسائل السمعية والبصرية ، من شأنها أن تتيح لهم معرفة أوسع واحاطة أكبر بمشكلات الساعة .

وتردف اللجنة قائلة بأنه لا يكفي التأكيد على وجوب أن يكون للاتصال الأولية في التنمية الوطنية ، بل يجب البحث عن مصادر للتمويل والاستثمار كفرض رسوم أكبر على الجماعات المتمتعة بالامتيازات ، وبخاصة تلك التي تعيش في البيئات الحضرية كما يمكن التفكير في فرض ضريبة على الاعلانات التجارية للصرف من حصيلتها على وسائل الاعلام .

ولكن ثمة صعوبات كبيرة تقف حائلا بين تحقيق أي تقدم حقيقي في مجال الاتصال في البلاد النامية مثل قلة الورق وارتفاع أسعاره وتكاليف ارسال الأخبار سلكيا أو لاسلكيا ونقل الصحف والمجلات والكتب والوسائل السمعية والبصرية . كل تلك العقبات تحول دون اقامة تيار اعلامي حر ومتوازن . ولا بد أن تقوم الدول الغنية بازالة هذه العقبات ، أو على الأقل بالحد منها ، ان كانت جادة فعلا في تقريب المسافات بينها وبين بلاد العالم الثالث .

ولا بد لاستراتيجيات التنمية من أن تعتمد على سياسات اتصال تتماشى مع الاحتياجات والأولويات المتفق عليها . وفي هذا المضمون ينبغي أن يعتبر الاتصال عنصرا أساسيا للتنمية وعاملا يسمح بمشاركة سياسية حقيقية عند اتخاذ القرارات ، ويوفر قاعدة للاعلام المركزي تقوم بتحديد الاختيارات الكبرى وتساعد على الوعي بالأولويات الوطنية . وفي هذا السبيل ، لابد من أن تكون لغة الاتصال سهلة ومفهومة من الجماهير حتى تنبع قراراتها عن قناعة حقيقية لا عن حماس منشؤ العاطفة لا العقل .

ان الانفجار التقني في مجال الاتصال يتيح امكانات واسعة ، ولكنه ينطوي على أخطار جسيمة . والأمر كله متعلق في النهاية بالقرارات التي سوف تتخذ وبالجانب الذي سوف تتخذ منه وبالذين سوف يتخذونها . لذا ترى اللجنة وجوب اعطاء الأولوية لعملية اتخاذ القرار على أساس المشاركة والوعي الكامل بالأثر الاجتماعي للاختيارات المختلفة .

وان ابراز الظروف التي تتوقف عليها المحافظة على الهوية الثقافية لكل مجتمع ، يتيح اقامة علاقات متبادلة ومنسجمة وخلاقة مع ثقافات أخرى . وانه من الضروري أيضا تعديل وضع التبعية الثقافية التي تعاني منها عدة بلاد حققت تنميتها أو أنها في سبيلها الى ذلك .

وان عزمت دولة على تقوية نظم الاتصال فيها . وجب عليها أن تختار الأشكال غير التجارية للاتصال الجماهيري . وينبغي ان يرتبط تطوير هذه الأنماط من الاتصال بالتقاليد والثقافة وبأهداف التنمية والنظام الاجتماعي والسياسي لكل بلد . ويمكن رصد أموال عامة لهذا الغرض ، كما هي الحال بالنسبة للتعليم .

وان تيار الاعلام التقني داخل البلاد وعبر الحدود الوطنية يعتبر مصدرا من المصادر الأساسية للتنمية . وان الوصول الى هذا الإعلام الذي تحتاج اليه البلاد لاتخاذ القرارات على كل المستويات لا يقل أهمية عن الوصول الى مصادر الأخبار . وغالبا ما يتركز هذا النمط من الاعلام في البنيات التقنية الكبيرة . وتلاحظ اللجنة أن البلاد المتقدمة لاتقدم الى البلاد النامية ما يكفيها من هذا النمط من الاعلام الذي لا تحصل عليه في العادة بسهولة .

وإذا انتقلنا الى الصحفيين وأوضاعهم ، نجد أن لجنة ماكبرايد الدولية تخصص لهم جزءا كبيرا من مشروعها ، فهي ترى أن الحرية والمسؤولية متلازمتان بالنسبة لهم . فالحرية بدون مسؤولية تؤدي الى شتى أنواع التعسف ولكن بدون حرية لايمكن أن تكون هناك مسئولية . وان مفهوم الحرية المتناسقة مع المسئولية يؤدي بالضرورة الى الاهتمام بآداب المهنة التي تفترض بدورها تناولا متوازنا للأحداث أو المواقف أو التحولات .

وتقرر اللجنة الدولية أن تقديم خبر يتناول بلدا أجنبيا تقديما كاملا وواقعيا هو مشكلة المشاكل ! وترى أن لذلك أسبابا عدة ، أهمها الظروف التي يعمل المراسلون فيها وأهليتهم واستعدادهم ومفهومهم المختلف لمعايير اختيار الخبر فضلا عن مواقف الحكومات الخ . . وعليه فقد أوصت بأن تعمل الدول الأعضاء على قبول المراسلين الأجانب في أراضيها وتسهيل جمعهم للأخبار وتوزيعها ، وبأن تحترم الالتزامات التي قبلها الموقعون على عقد هلسنكي [٧] النهائي . أما وصول الصحفيين بحرية الى مصادر الأخبار ، فهو ضروري لكتابة تقارير صحفية صحيحة وأمينة ومتوازنة . وتشمل حرية الوصول الى مصادر الأخبار حرية الوصول الى المصادر غير الرسمية أيضا ، أي الوصول الى كل الآراء .

وقد علق الخبير السوفييتي سيرجي لوسيف على هذه التوصية قائلا : « ان هذه الفقرة لاتتفق مع عقد هلسنكي النهائي وتناقض مصالح البلاد النامية . وهي في النهاية غير مقبولة ، واني أعترض على أن يتضمنها هذا التقرير . وأقترح أن يستبدل النص التالي : « على جميع الدول أن تتخذ اجراءات مناسبة لتحسين الظروف التي تسمح للمراسلين الأجانب بإتمام رسالتهم المهنية في البلد المضيف طبقا لأحكام عقد هلسنكي النهائي ومع احترامهم للاستقلال الوطني للبلد المضيف وهويته » بهذه التوصية .

وبعد هذا التعليق أو الاعتراض الذي أثبت في التقرير على أنه تحفظ ، استأنف الخبراء الدوليون توصياتهم بطلب دراسة الضوابط المتبعة لاختيار الأخبار والتقارير الصحفية ، وذلك من أجل أن يكون القراء والمستمعون في العالم كله قادرين على تلقي تقرير أصدق وأكمل للاحداث التي تجري في البلاد المتقدمة والبلاد النامية . وان تفسير الصحفيين للمواقف غير المألوفة بلغة مفهومه يجب الا يحجب عنهم مخاطر التعصب لشعوبهم وأوطانهم . ويكفي اختيار بعض الأخبارعلى حساب أخبار أخرى لكي تنطبع في مخيلة الجمهور صورة للعالم قد تكون ناقصة أو مشوهة . ومن الضروري ايجاد ضوابط مهنية تتيح للصحفيين تسليط الأضواء على مختلف ثقافات العالم الحديث ومعتقداته دون أن يتهموا بالانحياز أو التعصب . فيتوجب على الصحفيين الذين يعملون خارج بلادهم أن يتلقوا تعليما يتناول لغة البلد أو المنطقة التي سوف يغطون أخبارها وتاريخها ومؤسساتها واقتصادياتها وبيئتها .

وقد أوصت اللجنة صحافة العالم الصناعي واذاعته بأن تخصصا مساحة أكبر ووقتا أطول للتقارير الصحفية عن الأحداث ولنشر الأخبار الأساسية التي تتناول البلاد الأجنبية بعامة وبلاد العالم النامي بخاصة . ان وسائل الاتصال في الدول المتقدمة يجب أن تزداد تعودا على ثقافات الشعوب النامية وأحوالها . وهي مدعوة الى المساهمة في تصحيح عدم التوازن الاعلامي بينها وبين العالم النامي .

---

(٧) عقد هذا المؤتمر في هلسنكي وتناول عقده النهائي الذي تم التوقيع عليه في أول أغسطس (آب) ١٩٧٥ التعاون في المجالات الانسانية وغيرها وتحسين إذاعة الأخبار والوصول إلى مصادرها وتبادلها . كما تناول تحسين ظروف عمل الصحفيين .

ومن أجل علاج الآثار السلبية للتقارير الصحفية غير الدقيقة أو الضارة ، ينبغي أن يكون حق التصويب والرد موضعا لدراسة أعمق . وقد تكون الأخبار الكاذبة أو المحرفة ضارة [٨] ، ولكن نشر التصويبات أو الردود عن رضي أفضل من وضع قواعد دولية يصعب تنفيذها . وقد أوصت اللجنة بأن تؤخذ في الاعتبار ممارسة الحق الدولي للرد والتصويب لكي يطبق عن رضي في كل بلد تبعا للممارسات الصحفية المعمول بها والبنيات القانونية الوطنية . كما طلبت اللجنة بأن تقوم الأمم المتحدة ، بالتشاور مع الهيئات ذات العلاقة ، بدراسة الشروط التي بمقتضاها يمكن تعميم هذا الحق على المستوى الدولي ، مع الأخذ في الاعتبار صعوبات تطبيق اتفاقية ١٩٥٢ حول حق التصويب الدولي . ولاحظت اللجنة مع الأسف أن استخبارات عدة بلاد قد جندت في وقت ما بعض الصحفيين لكي يقوموا بنشاط تجسسي مختبئين وراء عملهم الصحفي . وهي تشجب هذه الممارسة ، لأنها تضر بسمعة المهنة وتضع الصحفيين موضع الريبة وتعرضهم للمخاطر الجسدية . وتطلب اللجنة من الصحفيين والمؤسسات الصحفية أن يقاوموا كل محاولة من هذا القبيل . كما تلح على الحكومات بأن تمتنع عن استخدام الصحفيين في أعمال التجسس .

وفي كل يوم تصل من أنحاء العالم أخبار عن الاعتداءات التي تقع على الصحفيين أثناء ممارستهم لمهنتهم . وعلى العالم بأسره أن يحول دون وقوع هذه الاعتداءات على حقوق الانسان . واهتمت الأوساط المهنية بحماية الصحفيين قبل لجنة ماكبرايد . ففي الحروب التي وقعت في الخمسينيات والتي قتل خلالها بعض المراسلين بدأ الكلام عن حماية الصحفيين الذين يكلفون بمهام خطيرة . وكانت هذه المهام الخطيرة ، في ذلك الحين ، في كوريا وفيتنام وفي بعض أنحاء أفريقيا وأمريكا اللاتينية .

واهتمت المنظمات المهنية بهذه المشكلة بالتعاون مع اللجنة الدولية لرجال القانون في نهاية الستينيات . وقد طلب رئيس جمعية الصحافة الأجنبية بسويسره في سنة ١٩٦٧ الى سكرتير عام اللجنة الدولية لرجال القانون ، شون ماكبرايد ، دراسة هذه المسألة واعداد مشروع أول لاتفاقية تكفل حماية الصحفيين المكلفين بمهام محفوفة بالخطر . وقدم المشروع الأول في بداية سنة ١٩٦٨ الى حلقة دراسية عقدت في جنيف وأجرت عليه عدة تعديلات ومن جهة ثانية اتصل منظمو هذه الحلقة بادارة جمعية الصليب الأحمر الدولية دعما لتنفيذ هذا المشروع . وقد عرض بعد ذلك على منظمات مهنية تولت مناقشته .

وخلال عام ١٩٧٠ قتل عدد كبير من الصحفيين . فقد اختفى سبعة عشر مراسلا أجنبيا في كمبوتشيا وحدها في ذلك العام ، مما أدى الى مضاعفة يقظة المنظمات المهنية والى ايجاد اجراءات لحماية الصحفيين . وقد اجتمع الاتحاد الدولي لناشري الصحف والمعهد الدولي للصحافة والاتحاد الدولي للصحفيين والمنظمة الدولية للصحفيين عدة مرات بهدف اعداد مشروع لحماية الصحفيين الذين يرسلون في مهام محفوفة بالمخاطر . وقد عرض هذا المشروع على الأمم المتحدة لاعداد وثيقة تتبناها الحكومات . وفي ديسمبر ١٩٧٠ وافقت الجمعية العامة لهذه المنظمة الدولية على مشروع قرار حول حماية الصحفيين المكلفين بمهام محفوفة بالمخاطر ، في المناطق التي تجري على أراضيها نزاعات مسلحة ، ودعت لجنة

(٨) Rigaud, Georges, Ce qu'il faut savoir de la presse moderne, Editions Vie, Lausanne 1955, p. 117.

حقوق الانسان الى دراسة امكانية اعداد مشروع اتفاق دولي يكفل حماية الصحفيين وطلبت الى السكرتير العام للأمم المتحدة أن يقدم تقريرا عن هذا الموضوع الى الجمعية العامة في دورتها التالية .

واجتمعت المنظمات المهنية للصحفيين التي طرحت المشروع لدراسته للمرة الثانية وأعدت مخططا لمشروع اتفاقية دولية لانشاء لجنة لحماية الصحفي ورفعته الى لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة . وقد وافقت هذه اللجنة عليه في مارس (آذار) ١٩٧١ . وطلبت الى المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة أن يقدمه الى الدورة المقبلة للجمعية العامة للأمم المتحدة .

وفي ١٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٢ وافق الاتحاد الدولي للصحفيين الذي انعقد مؤتمره في استانبول على قرار أبدى فيه ارتياحه للجهود التي تبذل في الأمم المتحدة من أجل الموافقة على اتفاق حول حماية الصحفيين الذين يكلفون بمهام محفوفة بالمخاطر . وقد طالب المؤتمر الدول الأعضاء بعدم تسليم الصحفيين بطاقات حمايتهم وبأن يترك هذا الأمر للجنة مهنية تتكون من أعضاء منتخبين أو معينين من قبل الأمم المتحدة بالتشاور مع المنظمات الصحفية (٩) .

وفي ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٢ قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة أن تدرج هذا الموضوع في جدول أعمال دورتها الثامنة والعشرين . وقد تقدمت الدول الأعضاء خلال دراسة مشروع الاتفاقية بعدة مشروعات تعديل . وفي قرار اتخذ في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٣ عبرت الجمعية العمومية عن أمنيتها في اقرار اتفاقية تكفل حماية الصحفيين الذين يكلفون بمهام محفوفة بالمخاطر ، في المناطق التي تقوم فيها منازعات مسلحة . وطلبت الى السكرتير العام أن يبلغ « المؤتمر الدبلوماسي حول تأكيد وتطوير القانون الدولي الانساني المطبق في المنازعات المسلحة » بمشروع الاتفاقية والتعديلات المقترحة والملاحظات التي أبديت خلال الدورة الثامنة والعشرين .

وبعد أن قام المؤتمر الدبلوماسي بدراسة الموضوع دراسة متأنية ، تولى اعداد مشروع مادة حول حماية الصحفيين تلحق بمشروع البرتوكول الاضافي رقم ١ لاتفاقيات جنيف التي أبرمت سنة ١٩٤٩ ، كما قام بوضع نموذج لبطاقة شخصية مخصصة للصحفيين المكلفين بمهام محفوفة بالمخاطر . وقد قامت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، خلال دورتها الثلاثين المنعقدة سنة ١٩٧٥ بادراج هذا الموضوع من جديد في جدول أعمالها واكتفت بأخذها علما بتطور المشروع دون أن تتمكن من الوصول الى قرار نهائي فيه .

واهتمت اليونسكو بهذا الموضوع ابتداء من الدورة التاسعة عشرة لمؤتمرها العام المنعقد في نيروبي في اكتوبر ١٩٧٦ . وخلال مؤتمراته الصحفية التي عقدت في نيروبي وباريس سنة ١٩٧٦ أكد مدير عام اليونسكو أهمية هذا الموضوع واقترح دراسة الاجراءات الواجب اتخاذها لحماية الصحفيين .

. وفي شهر أبريل (نيسان) ١٩٧٧ دعت اليونسكو الى اجتماع لتبادل وجهات النظر حول هذا الموضوع خلال حلقة دراسية أقيمت في فلورنسا حول التبادل الحر والمتوازن للأخبار بين الدول المتقدمة والدول النامية . ولكن مبدأ حماية

(٩) Le Monde, 1 — 2 Octobre 1973

الصحفيين أخذ مكانه لأول مرة في برنامج ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ الذي وافق عليه المؤتمر العام لهذه المنظمة الدولية في دورته العشرين بمقتضى فقرة عنوانها : « تحسين القواعد المهنية وظروف الصحفيين وحمايتهم » تنص على اجراء دراسات « تكفل للصحفيين الحماية الضرورية لممارسة مهنتهم تحت أفضل ظروف موضوعية » ، وكذلك بمقتضى فقرة عنوانها : « تقديم الأخبار الدولية تقديما مسئولا وكاملا » تنص على طلب تنظيم اجتماع لدراسة الوسائل التي بواسطتها يمكن تأمين حماية الصحفيين والمخبرين لكي يمارسوا مهنتهم بكل موضوعية » . هذا الى جانب أن الاعلان الخاص بالمبادىء الأساسية المتعلقة باسهام أجهزة الاعلام في دعم السلام والتفاهم الدولي وتعزيز حقوق الانسان ومكافحة العنصرية والفصل العنصري والتحريض على الحرب ـ يتضمن فقرتين عن حماية الصحفيين . وقد تمت الموافقة على هذا الاعلان في الدورة العشرين للمؤتمر العام . فالمادة ٢ (الفقرة٤)تنص على أنه « من الضروري أن يتمتع الصحفيون وغيرهم من ممثلي أجهزة الاعلام ،في بلادهم أو خارجها ، بحماية تضمن لهم أفضل الظروف لممارسة مهنتهم ، وتنص المادة ٩ على ما يلي : « يكون من حق المجتمع الدولي ، بمقتضى هذا الاعلان ، أن يسهم في وضع شروط حماية الصحفيين ووكالات الأنباء أثناء ممارستهم لأعمالهم .

ومن ناحية أخرى عقدت اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال التي تم تشكيلها عقب المؤتمر العام في نيروبي ، اجتماعين لاجراء مشاورات حول حماية الصحفيين ، الأول في فبراير (شباط) ١٩٧٩ والثاني في مايو (أيار) ١٩٧٩ شاركت فيهما عدة منظمات مهنية تعنى بالاتصال . وقد خصص قسمان من التقرير النهائي لحماية الصحفيين .

والمراحل الأخيرة لتطور هذا الموضوع تمت في اجتماع لتبادل الأراء نظمته اليونسكو في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٠ ، وفي اجتماع المنظمات الدولية والاقليمية للصحفيين الذي عقد في مكسيكو في أبريل (نيسان) ١٩٨٠ حيث تحقق تقدم على جانب من الأهمية .

•••

ولكن ما الذي حدث منذ اعداد المشروع الابتدائي في سنة ١٩٦٧ وحتى اليوم ؟ لقد حدثت أمور كثيرة ومهمة . ففي البداية اقتصر الأمر على مشروع محدود للغاية يهدف الى حماية الصحفيين أثناء قيامهم بأعمال محفوفة بالمخاطر . أما اليوم فقد تجاوزنا هذه المرحلة وأصبحنا نتحدث عن حماية الصحفيين خارج أوطانهم وداخلها . لأن المخاطر التي يتعرض لها الصحفيون ليست فقط في تغطية النازعات المسلحة في الخارج ، ولكنها تكون في أحيان كثيرة في بلادهم ذاتها ! فمنذ أن استشرت أعمال الارهاب والعنف في العالم أصبح الصحفي يتعرض للمخاطر نفسها أينما كان وأينما ذهب . فهو معرض للتهديد والتوقيف والأضطهاد والتعذيب وسوء المعاملة والضرب والحبس ، لابل القتل . وهكذا أصبح العالم بأجمعه منطقة نزاع وبالتالي منطقة خطر مترامية الأطراف . ان الصحفي لم يعد يتمتع بالطمأنينة والأمان في أي مكان يذهب اليه . وفي كثير من الأحيان يكون محروما من أي ضمان . ان قراءه ومستمعيه ومشاهديه يطلبون اليه أن يكتب وأن يقول الحقيقة ويظهرها ، دون أن يخفي شيئا منها أو يهمله . ولكن بأي ثمن ؟ وكيف تتخذ الاجراءات التي توفر له بعض الحماية ؟

ويجيب حفظي توبوز [١٠] على ذلك بقوله : ان كانت الحكومة هي التي ينبغي أن تتخذ هذه الاجراءات فقد يساء تفسير ذلك من قبل الصحافة التي تعتبره تدخلا في شئون الصحفي . واذا كانت المهنة نفسها هي التي ينبغي أن تقوم بذلك ، فانه يخشى أن تأتي اجراءاتها ناقصة الفاعلية بالنسبة للعديد من البلاد ، فالأمر يتعلق باخلاقيات المهنة ، ولا بد اذا من معالجته في اطار حقوق الصحفيين ومسئولياتهم ، على الرغم من أنها تسبب ، في كل مكان ، مشكلات سياسية معقدة .

ومن جهة ثانية ، فانه من العسير اقامة حوار بين الصحفي الذي يصبح المشتكي ، وبين الأشخاص الذين يضعون العقبات في طريق المهنة والذين يصبحون متهمين . فالموضوع شائك للغاية وعلاجه عسير جدا في بعض البلاد . وهو يؤدي ـ من الناحية القانونية ـ الى تعقيدات كثيرة . فهل من حق الحكومات أن تتخذ أي اجراءات لتضييق نشاط الصحفيين ؟ والى أي حد يمكن أن تذهب هذه القيود ؟ ومن يكن الحكم في هذه الحالة ؟

ان موضوع حماية الصحفيين يجب أن يأخذ مكانه في اطار نظام عالمي جديد للاعلام والاتصال يعطي ضمانا للصحفي أثناء ممارسته لمهنته . ولكن كيف نكفل هذا الضمان وهذه الحماية ؟ ان الاجتماعات التي يعقدها رجال المهنة تميل الى دراسة هذا الموضوع بعيدا عن تدخل الحكومات . وتطلب الى اليونسكو أن يلعب دور المنسق بين المنظمات المهنية . ويكتفي لفترة اختبارية بمراقبة الحالة وجذب انتباه الأوساط المهنية والحكومية . ويمكن فيما بعد دراسة انشاء جهاز دولي مناسب ، اذا دعت الحاجة اليه .

•••

واذا عدنا الى اللجنة الدولية ، وجدنا أنها لم تفعل الا ما من شأنه جمع الآراء المتباينة حول حل وسط يرضى عنه الجميع ، وقد اهتمت اللجنة بصورة خاصة بحقوق الانسان وأوصت كل الذين يعملون في خدمة أجهزة الاعلام بأن يسهموا في الدعوة الى احترام هذه الحقوق وبألا يقصروا هذا الاسهام على الدفاع عن هذه المبادىء . ان عليهم أن يكشفوا الانتهاكات أينما تحدث وأن يساندوا الذين انتهكت حقوقهم أو أنكرت عليهم . وطلبت اللجنة من الجمعيات المهنية والرأي العام مساندة الصحفيين الذين يعانون من ضغوط أو الذين يقعون ضحايا اخلاصهم لقضية حقوق الانسان . وناشدت اللجنة الدولية أجهزة الاعلام أن تسهم في مساندة القضايا العادلة للشعوب التي تناضل من أجل التحرر والاستقلال ، ومن أجل حقها في أن تعيش في سلام ومساواة دون أي تدخل تعسفي .

ان حاجات المجتمع الديمقراطي في مجال الاتصال يجب اشباعها بانشاء حقوق نوعية تمثل حق الانسان في أن يعلم (بفتح الياء واللام) وحقه في أن يعلم (بضم الياء وكسر اللام) وحقه في أن تحترم حياته الخاصة وفي المشاركة في الاعلام العام ، أي في الاعلام الذي تشرف عليه الدولة . ان هذه الحقوق تدخل كلها في اطار هذا المفهوم الجديد الا وهو الحق في الاتصال .

(١٠) Topuz, Hifzi, Nouvel ordre de la communication 4, La protection des journalistes, Unesco, Paris, p.6

وترتيبا على ذلك أوصت اللجنة الدولية بلاد العالم جميعا بأن تعمل على توسيع الاخبار الضرورية للمواطنين في حياتهم اليومية ، وبأن تدقق في فحص القوانين واللوائح القائمة من أجل التخفيف من القيود المفروضة على الممارسات الاعلامية والحد من النصوص السرية التي لا يعلم الصحفيون عنها شيئا . كما أوصت بالغاء الرقابة والاشراف التعسفي على الاعلام . وعلق المندوب السوفييتي على هذه التوصية بقوله « ان مشكلة الرقابة والأشراف التعسفي على الاعلام تخضع للتشريع الوطني لكل بلد وينبغي أن تحل في هذا الاطار ، مع الأخذ في الاعتبار مصالح كل دولة » .

وبعد أن سجلت اللجنة هذا التعليق قالت انه اذا كان هناك ما يبرر فرض قيود معقولة فإنه لابد من النص على هذه القيود بقانون وأن يكون تطبيقه خاضعا لرقابة القضاء . وأن يلتزم بالمبادىء التي يتضمنها ميثاق الأمم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان .

وأكدت اللجنة على ضرورة دراسة العوائق والقيود الناجمة عن تركيز ملكية أجهزة الاعلام سواء كانت عامة أم خاصة ، أو تلك الناتجة عن تأثير العامل التجاري على الصحافة وعلى الراديو والتلفزيون ، **أو عن الاعلام الخاص أو الحكومي** . كما أن الظروف المالية التي تفرض نفسها على أجهزة الاعلام والاجراءات التي تهدف الى دعم استقلال التحرير ، ينبغي أن تكون موضع دراسة دقيقة ومتأنية .

ورأت اللجنة الدولية ضرورة اتخاذ إجراءات قانونية فعالة لوضع حد لتفاقم ظاهرة **التركيز والاحتكار** ، بأخذ عهد على الشركات عبر الدول بأن تخضع لمعايير وشروط نوعية منصوص عليها في قوانين وسياسات التنمية الوطنية ، وبوقف الاتجاه نحو الاقلال من عدد الذين يتخذون القرارات في عالم تزداد فيه فاعلية الاتصال وحجم الجماهير ، وبالإضعاف من تأثير الاعلان على سياسة التحرير وبرامج الراديو والتليفزيون ، وبدعم استقلال أجهزة الإعلام في مجال الإدارة وسياسة التحرير ، سواء كانت هذه الأجهزة تتبع القطاع الخاص أم العام أو الحكومي .

وقد علق ايلي أبيل الخبير الأمريكي على هذه التوصية بقوله إن التشريع المضاد للاحتكارات أيا كانت فاعليته ، لا يمكن قبوله إلا في البلاد التي يوجد فيها قدر من المنافسة . ويمضي غامزا الاتحاد السوفيتي قائلا : « من نافلة القول أن نتصدى لاجراءات مضادة للتركيز والاحتكار في بلاد تتخذ وسائل الاتصال فيها شكل الاحتكار الحكومي او تعمل كأداة لحزب سياسي واحد مسموح به . والمفروض في الشركات عبر الدول أن تخضع لقوانين البلاد التي تعمل فيها . فاذا أمكن إثبات وجودها أصبح من المناسب دراسة تأثير وكلاء الإعلان على مضمون الصحف أو برامج الراديو والتليفزيون دراسة متأنية . ولكن المطالبة بعبارات عامة بالإقلال من هذا التأثير دون وقفة لدراسته أو محاولة قياسه في ظروف نوعية ، إنما هي دليل على انحياز ايديولوجي » .

واتفق أعضاء اللجنة على أن التنويع والاختيار في مضمون الاتصال هما الشرطان اللذان تتوقف عليهما المشاركة الديمقراطية . لذا ينبغي تمكين المواطن من صياغة أحكامه بناء على أكبر قدر ممكن من الأخبار ومن الرسائل والآراء ،

ويجب أن تتاح له فرصة مشاطرة غيره الرأي . كما أن تطوير وسائل الاتصال المحلية وتنويعها يوسعان مدى امكانية المشاركة الحقة والمباشرة للسكان في تطوير الاتصال .

وتعني اللجنة بالمرأة وشئونها وتطلب من أجهزة الاتصال الاهتمام بها وبمطالبها على قدم المساواة مع الرجل ، كما تدعوها إلى الحرص على عدم تشويه صورتها مباشرة او عن طريق الإعلان . فتدعو اللجنة كذلك إلى الاهتمام بالمشكلات التي تمس الأطفال والشبان والأقليات الوطنية واللاتينية والدينية واللغوية وسكان المناطق النائية وكبار السن والمعوقين ، فإن لهذه القطاعات من المجتمع حاجاتها الخاصة في مجال الاتصال .

وليكون الانسان قادرا على الاتصال داخل المجتمع المعاصر ينبغي أن توضع تحت تصرفه أجهزة مناسبة . إن التكنولوجيا الجديدة تقدم له عدة وسائل للإعلام والتسلية ، ولكنها تكون في الغالب غير قادرة على أن تضع تحت تصرفه وسائل اتصال تناسب الجماعة التي ينتمي إليها أو تجمعه الاجتماعي أو الثقافي . ومن أجل ذلك يصبح من الضروري في غالب الأحيان البحث عن وسائل جديدة للاتصال .

وقد أوصت اللجنة الدولية بدراسة استخدام وسائل الاتصال في بيئات العمل والحياة دراسة أعمق . فبدلا من أن تعزل وسائل الاتصال الرجال والنساء بعضهم عن بعض ، تعمل على إدماجهم في الجماعة . وقد لاحظت اللجنة أن القراء والمستمعين والمشاهدين يعاملون في الأغلب والأعم على أنهم يتلقون الإعلام بطريقة سلبية . لذا كان على المسئولين عن وسائل الاتصال أن يشجعوا جمهورهم على القيام بدور اتصالي أكثر إيجابية ، وذلك بأن تفرد له مكانا أرحب في الصحف أو في البرامج الإذاعية والتليفزيونية من أجل أن يتاح لأعضاء المجتمع والمنظمات الاجتماعية التعبير عن آرائهم . وإن انشاء وسائل اتصال على كافة المستويات يسمح بالوصول إلى أشكال جديدة للمشاركة الجماهيرية في إدارة هذه الوسائل ، كما يتيح ايجاد وسائل أخرى للتمويل .

وعلى المسئولين عن اتخاذ القرارات في مجال الاتصال أن يبذلوا جهدا اكبر حين يحددون الطريقة التي تجعل إدارة وسائل الاتصال اكثر ديمقراطية مع الحفاظ على التقاليد والمميزات الوطنية . إن عليهم أن يشركوا الفئات التالية وهي : (أ) مالكو وسائل الاتصال ومديروها (ب) الصحفيون ورجال الاتصال المهنيون (ج) منتجو البرامج (د) التقنيون (هـ) ممثلو الجمهور . إن ادارة وسائل الإعلام الجماهيرية إدارة ديمقراطية في حاجة لمساندة وتفهم كل العاملين فيها ، بحيث يقومون ، بفضل هذا الأسلوب الجديد ، بدور أكثر إيجابية في سياسة التحرير والإدارة .

وأهم التوصيات التي توصلت إليها اللجنة الدولية هي الخاصة بتعزيز التعاون الدولي . فإن التفاوت في مجال وسائل الاتصال إنما مبعثه التباين الاقتصادي أو الاختلاف في الأنماط السياسية والاقتصادية أو الاهمال أو سوء الاستغلال الحضاري . ولكن أيا كانت الأسباب ، فإن هذا التفاوت غير جائز ، لأن مفهوم النظام العالمي الجديد للإعلام والاتصال يفترض تشجيع التعاون الدولي القائم على المساعدة الدولية وعلى التفاهم الدولي . لقد أصبح للأبعاد الدولية

للاتصال معنى جديد بحيث أمسى من الضروري تنمية التعاون على الصعيد العالمي . وعلى الجماعة الدولية أن تتخذ الإجراءات المناسبة لإحلال علاقات التبادل والتكامل القائمة على المساواة بين الشعوب واحترام كرامتها محل الهيمنة والتبعية واللامساواة . إن مثل هذا التعاون يتطلب مزيدا من الالتزام الدولي إذا أريد تصحيح الوضع الحالي . وهو يشكل حاجة بالنسبة للدول النامية والجماعة الدولية في آن واحد باعتبارهما كلا متكاملا .

وبعد هذا العرض الوافي لأوضاع الإعلام الدولي ، دعت اللجنة الدولية إلى التدرج في إجراء أي تغيير بحيث يتم تشييد صرح نظام عالمي جديد للإعلام والاتصال بسهولة ويسر . كما أوصت **بأن يكون لتطوير الاعلام والاتصال نصيب من المعونة الدولية مساويا لنصيب القطاعات الأخرى ، كالصحة والزراعة والصناعة والعلوم والتربية إلخ . . باعتبار أن الاعلام هو أيضا أساسي لتقدم الفرد والجماعة وللتنمية الشاملة** . ويمكن الوصول إلى هذا الهدف باستخدام الاعتمادات المنصوص عليها في الاتفاقيات الثنائية بين الحكومات أو الاعتمادات التي تخصصها المنظمات الدولية والاقليمية . وينبغي لهذه المنظمات أن تدرج المزيد من الاعتمادات لتطوير الاتصال في بنياته التحتية والفوقية . وينبغي الحرص على أن تكون المعونة المقدمة متناسبة مع احتياجات البلاد النامية . كما ينبغي دراسة إمكانية تقديم معونة مرتبطة ببرامج عامة لا بمشاريع خاصة . وعندما توافق الأمم المتحدة على الخطة الدولية للتنمية يجب أن تعتبر قطاع الاتصال جزءا لا يتجزأ من هذه الخطة لا منفصلا عنها .

وفي رأي اللجنة الدولية أن البلاد النامية هي المسؤولة أساسا عن إجراء التغييرات الضرورية للتغلب على تبعيتها لغيرها في مجال الاتصال . وتبدأ هذه الإجراءات على المستوى الوطني ، ولكن ينبغي إكمالها باتفاقيات فعالة ثنائية وإقليمية ودولية .

وترتيبا على ذلك أوصت اللجنة الدولية بإدخال البعد الاتصالي في برامج واتفاقيات التعاون الاقتصادي القائمة بين البلاد النامية . كما ينبغي زيادة تطوير النشاط المشترك في مجال الاتصال والاهتمام بوجه خاص بالتعاون بين وكالات الأنباء الوطنية وبتقوية اتحاد وكالات الأنباء وهيئات الراديو والتليفزيون في البلاد غير المنحازة والعناية بالتبادل المنتظم لبرامج الراديو والتليفزيون والإعلام بوجه عام . وفيما يتعلق بالتعاون في مجال الإعلام التقني ، فإن إنشاء بنوك للمعلومات ومراكز لمعالجة الأنباء وأخرى للتوثيق على المستوى الإقليمي[١١] ، يجب أن يكون لها الأولوية الأولى .

وينبغي بذل جهود خاصة للتأكد من أن الإعلام عن سائر البلاد النامية ، داخل الاقليم الذي تنتمي إليه وخارجه يكون موضع عناية أكبر ، ويعالج مطولا في أجهزة الاعلام . ويمكن إنشاء مشروعات خاصة لتأمين تدفق مستمر لمواد شيقة ومهمة ، يتم اختيارها وفق معايير تضع في اعتبارها حاجات البلاد النامية .

كما يجب تشجيع قيام علاقات وعقد اتفاقات بين المنظمات المهنية من ناحية ، وبين الباحثين في مجال الاتصال في مختلف بلاد العالم من ناحية أخرى . ومن الضروري إقامة شبكات من المؤسسات ومن الاخصائيين العاملين في حقل

---

(١١) راجع دراسة جدوى إنشاء مركز اقليمي عربي للبحث والتوثيق الاعلامي التي أجراها الخبير العراقي الدكتور مصباح الخير لحساب اليونسكو (١٩٨٠) .

الاتصال ، وذلك من أجل تبادل التجارب والخبرات وتنفيذ مشروعات مشتركة ذات منفعة متبادلة يكون مضمونها ذا أثر ملموس .

إن التعاون في تطوير الاتصالات هو موضع اهتمام العالم أجمع ، وهو بالتالي موضع اهتمام المنظمات الدولية حيث يمكن لكل الدول الأعضاء أن تناقش بكل حرية المشكلات الناجمة عن هذا التطوير وأن تقرر الإجراء الدولي الواجب اتخاذه . وعلى الحكومات أن تفحص بعناية بنيات الوكالات الدولية وبرامجها في مجال الاتصالات وأن تشير إلى التغييرات التي من شأنها إشباع الحاجات المتنامية .

وأوصت اللجنة الدولية الدول الأعضاء في اليونسكو بمضاعفة مساندتها لبرنامج المنظمة في هذا المجال . ورأت من المناسب التفكير في إنشاء قطاع متميز للاتصال ، ليس فقط لمجرد التأكيد على أهمية هذا القطاع ، ولكن إبرازا للعلاقات المشتركة بينه وبين التربية والعلوم والثقافة . ومن أهم التوصيات التي تقدمت بها اللجنة الدولية دعوة الأمم المتحدة إلى أن تنشىء لنفسها نظاما للإعلام أكثر فاعلية ، يشتمل على تجهيزات إذاعية خاصة بها - وعند الاقتضاء - إلى أن تستخدم قمرا صناعيا للاتصال . إن مثل هذا النظام يمكن أن يتيح للأمم المتحدة أن تكون على صلة إعلامية وثيقة بشئون العالم وأن تذيع رسائلها لكل شعوب العالم بصورة أكثر فاعلية .

وأشارت اللجنة بإنشاء مركز دولي لدراسة الإعلام والاتصال في إطار اليونسكو يتولى تطوير الأنظمة الوطنية للاتصال في البلاد النامية وتعزيز تدفق الإعلام الدولي المتوازن وتبادله . ويعمل على توفير الوسائل اللازمة لتحقيق هذا الغرض وإدارة الأموال التي توضع تحت تصرفه ، ويكفل التناسق بين الأطراف المهتمة بتطوير الاتصال وبرامج التعاون المختلفة ، ويقوّم نتائج النشاط الثنائي ومتعدد الأطراف في هذا المجال . ويدعو إلى موائد مستديرة ومحاضرات ودوروس لاعداد المخططين والباحثين والصحفيين ، لا سيما هؤلاء الذين يعدون أنفسهم للعمل في المجال الدولي . كما يتابع عمليات نقل تكنولوجية الاتصال بين الدول المتقدمة والدول النامية ، ويسهر على تنفيذ هذه العمليات في أفضل الظروف الممكنة .

وتختتم اللجنة الدولية توصياتها بديباجة تؤكد فيها أن تدعيم السلام والأمن والتعاون الدولي وتخفيف حدة التوتر الدولي هي في صالح جميع الشعوب . وترى أن أجهزة الاعلام تستطيع أن تسهم في تحقيق هذه الأهداف إسهاما ذا شأن . فقد طلبت الأمم المتحدة ، خلال دورتها حول نزع السلاح ، إلى اجهزة الاعلام : أن تبذل مزيدا من الجهد لتعبئة الرأي العالم للمطالبة بوقف سباق التسلح والدعوة إلى نزع السلاح . ومن جهة أخرى فان إعلان اليونسكو الذي يتناول المبادىء الأساسية الخاصة باسهام أجهزة الاعلام في تدعيم السلام والتفاهم الدولي ، وفي تعزيز حقوق الانسان ومكافحة العنصرية والفصل العنصري والتحريض على الحرب ، ينبغي أن يكون الأساس لسياسات جديدة للاتصال يهدف إلى تعزيز التفاهم الدولي . إن نظاما إعلاميا جديدا للاعلام والاتصال يتطلب تعاونا سليما بين الشعوب وينبغي أن يصبح أداة لهذا التعاون .

وترتيبا على هذه الديباجة ، أوصت اللجنة الدولية بأن تكون السياسات الوطنية للاتصال متماشية مع المبادىء المعتمدة في مجال الاتصال الدولي ، وأن تعمل على تهيئة جو من التفاهم المتبادل والتعايش السلمي بين الشعوب .

كما ينبغي أن تشجع الدول الأجهزة الاذاعية وسائر وسائل الاتصال الدولي التي تمتلكها على الاسهام ما أمكن في بناء السلام وفي التعاون الدولي وأن تمتنع عن إثارة الكراهية الوطنية أو العنصرية أو الدينية وعن التحريض على الفصل العنصري أو العداوة أو العنف أو الحرب .

وقد رأت هذه اللجنة أن مشكلات الحرب ونزع السلاح وحقوق الانسان والتنمية والقضايا المتصلة بإقامة نظام جديد للاتصال ، يجب أن تنال الاهتمام الذي تستحقه . وأن على وسائل الإعلام الكبرى ، سواء كانت مطبوعة أم سمعية بصرية ، التعريف بالوثائق المهمة التي صدرت أو تصدر عن الأمم المتحدة واليونسكو والحركات العالمية للسلام وسائر المنظمات الدولية والوطنية التي تعنى بالسلام وبنزع السلاح . وعلى مدارس الصحافة أن تعنى في برامجها بدراسة هذه المشكلات الدولية وبالآراء التي تثار حولها في إطار الأمم المتحدة .

كما حثت اللجنة على تشجيع كل أشكال التعاون بين أجهزة الاعلام والمهنيين وجمعياتهم لأنه يسهم في تعريف الشعوب والثقافات بعضها ببعض تعريفا أفضل . وإن على الصحفي الذي يكلف بتقديم تقرير عن أحداث دولية أو عن توترات وأزمات قد تقع في هذا البلد أو ذاك ، أن يتوخى الحذر الشديد وأن يعمق شعوره بالمسئولية ، ذلك أن أجهزة الإعلام تكون في مثل هذه الظروف الصلة الوحيدة الباقية بين الجماعات المتقاتلة أو المتعادية . ومن هنا يتضح الدور الخاص الواجب على هذه الأجهزة أداؤه بحصافة وموضوعية .

•••

ويقرأ المتشككون هذا المشروع ويخلصون إلى أنه حل وسط مليء بالمتناقضات وسوء الفهم ، ويقولون إنه يفترض ـ بحرفية نصه ـ أن الاتحاد السوفيتي وحلفاءه الاشتراكيين قد قبلوا إلغاء « الحواجز الداخلية والخارجية التي تحول بين التدفق الحر للإعلام » واعترفوا بضرورة « تعدد مصادر الاعلام وقنواته » . كما يزعمون أنه يفترض أن الدول الغربية ـ من جهتها ـ قد قبلت « إلغاء الآثار السلبية لبعض الاحتكارات العامة أو الخاصة والتركيزات المفرطة » أو بمعنى آخر ، فرض رقابتها على وكالات الأنباء الدولية والاحتكارات الكبرى لوسائل الاعلام .

وقد لوحظ ، قبل أخذ الأصوات على هذا المشروع الذي اعتبره البعض « ثورة » ، أن بعض الوفود صرحوا بأن النص لا يمكن قبوله بسهولة ، ولكنهم لا يريدون رفض قرار رضيت عنه دول العالم الثالث ، لأنه يعترف « بعدم توازن تدفق الأخبار » و « بحق كل شعب بأن يعلم (بضم الياء وكسر اللام) الرأي العام العالمي بمصالحه » .

ويواصل المشككون تعليقهم على هذا المشروع قائلين : إن الأعضاء المعتمدين من قبل حكوماتهم للمؤتمر العام لليونسكو لن يتكلفوا شيئا اذا اتخذوا قرارات يعرفون مقدما أنهم لن يلتزموا بها . فالبلاد الاشتراكية يمكنها التحجج بمسئولية الصحفي او « باحترام القانون العام » لحذف خبر . أما حكومات الدول الغربية ، فانها لا تستطيع التدخل في تنظيم صحافتها ـ الوطنية والمتعددة الجنسيات ـ دون أن تخالف المبدأ نفسه الذي دافعت عنه طوال مؤتمر بلغراد ، وهو حق الصحفيين وأجهزة الصحافة في أن يضعوا بأنفسهم قواعد المهنة التي ينتمون إليها .

وكان رد فعل صحيفة « نيويورك تايمز » معبرا ، فقد أنكرت هذه الصحيفة على كل مفاوض أمريكي حق التحدث باسم « الصحافة الحرة في الولايات المتحدة » ، ففي استطاعة الدبلوماسيين أن يلتقوا وأن يتباحثوا وأن يوقعوا على قرارات ، ولكن ليس هناك ما يجبر الصحافة الغربية على الخضوع لقواعد مخالفة للقواعد الأخلاقية التي سنتها لنفسها .

إن الاتفاق الوحيد والحقيقي الذي توصلوا إليه في بلغراد هو أن كل دولة يجب ان تحتفظ بسيادتها داخل حدودها في مجال الاعلام . وسواء تعلق الأمر بالولايات المتحدة او الاتحاد السوفيتي او الصين أو كوبا ، فقد انتهت الوفود إلى قبول المبدأ الذي يقول : إذا اقتضى الأمر تطبيق قواعد تعتبر مخالفة للمصلحة الوطنية ، أصبحت كل دولة حرة في تنظيم أمورها بنفسها .

وهكذا يصبح النظام العالمي الجديد للاعلام التزاما مفروضا على الآخرين وأملا يداعب الطوباويين ، مثله في ذلك مثل أغلب ما صدر عن الأمم المتحدة والمنظمات المنبثقة عنها .

وكانت اللجنة قد توقعت أن يوجه إلى تقريرها مثل هذه الانتقادات فسبقت أصحابها إلى القول « إن النظام الجديد الذي نسعى إليه ليس هدفا فحسب ، إنما هو مرحلة على الطريق . إنه جهد يحتاج إلى نفس طويل من أجل إقامة علاقات أكثر حرية ومساواة وعدلا في كل المجتمعات وبين كل الأمم والشعوب . إن هذا التقرير يؤكد ما نعتقد أننا حفظناه . وهذا ما نبتغي إبلاغه بصفة خاصة » .

ومهما يكن من أمر ، فان أعمال اللجنة الدولية قد أتاحت ، في مجموعها ، فرصة تحديد مفهوم النظام العالمي الجديد للاعلام وابراز مبادئه الأساسية وفتح آفاق عريضة للاتصال ولتطوير وسائل الاعلام في العالم . وإن ما وصلت إليه اللجنة لا يعتبر ، بأي حال ، عقدا نهائيا . إنه قابل للتعديل والتطوير في عالم ينشد مزيدا من التفاهم بين شعوبه .



الرأى العام فى الدول النامية
بيئته ومشاكل قياسه

كمال المنوفى
مدرس ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
جامعة القاهرة .

تقديم :

فى المقالة الموسومة « حول أصول الحكم » من كتابه « المقالات : الاخلاق والسياسة والادب » والمنشور لأول مرة عام ١٧٤١ ، كتب « دافيد هيوم » يقول « ليس ثمة شيء يبدو مثيرا للدهشة فى نظر من يتابع مجريات الحياة الانسانية بعين فلسفية أكثر من السهولة التى يتم بها لحفنة من بنى الانسان أن تحكم الأكثرية ، والخضوع الضمنى الذى يسلم معه الأفراد أحاسيسهم وعواطفهم لأحاسيس وعواطف من يحكمهم . وحين نمعن النظر فى هذا الأمر ، فلسوف نجد أنه ما دامت القوة فى جانب المحكومين ، فلن يجد الحكام شيئا يساندهم سوى الرأى . لهذا يتأسس الحكم على الرأى فحسب ، يستوى فى ذلك أكثر الحكومات استبدادا وأكثرها حرية » .

هكذا رفع هيوم رأى الجماهير المحكومة الى مرتبة الركيزة التى يعتمد عليها أى نظام حكم . وتبعه فى هذا الخصوص كثرة من الفلاسفة والعلماء الاجتماعيين الذين نظروا الى الرأى العام بوصفه المصدر الأعظم للسلطة والجزاء غير المنظم لما حسنا نخطىء . وذهب هؤلاء الى أن الرأى العام بوصفه كذلك يقترن أساسا بالديمقراطيات الغربية التى تكفل للمواطن حرية التعبير عن الرأى والمناقشة وتكوين التجمعات السياسية . . . الخ . وكان طبيعيا ، والحالة هذه ، أن تزدهر دراسات واستطلاعات الرأى العام فى الدول الديمقراطية الغربية أكثر من غيرها .

أما المجتمعات غير الغربية ، وأعنى بالذات المجتمعات الآخذة فى النمو ، فلا تعرف مسوح الرأى العام الا لماما نظرا لما يواجهه إجراء المسوح هنالك من مشاكل يفرضها التخلف بشتى صوره .

هذه القضية نحاول أن نعرض لها من خلال تسليط الضوء على نقطتين : السياق المجتمعي للرأى العام فى الدول النامية ، ثم تلمس المصاعب التى تجابه قياساته هناك .

●●●

أولا : بيئة الرأى العام

إن الرأى العام ، باعتباره وجهات نظر كل أو أغلب أفراد المجتمع حيال القضايا والأحداث والفاعلين فى النظام السياسى ، لا ينشأ ولا يدور فى فراغ . فهو أحد أنماط سلوك البشر الذين يعيشون فى ظل أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية معينة . وبالتالى يتأثر من حيث تشكيله وامكانية قياسه بهذه المتغيرات المجتمعية . وعلى هذا ، يبدو ضروريا ونحن بسبيل الحديث عن الرأى العام وامكانية قياسه فى الدول النامية ، أن نعرض لاطار الرأى العام فى هذه الدول من جوانبه المختلفة .

١ - الاطار الاقتصادى - الاجتماعى :

تعرف الدول النامية نمطا انتاجيا متخلفا قوامه الزراعة أو الاستخراج ، وينطوى على علاقات اجتماعية متخلفة وفنون انتاجية هابطة . هذا الوضع يقترن بحالة فقر عام تعانى منها جمهرة البلدان النامية على نحو ما يتمثل فى انخفاض متوسط نصيب الفرد من الدخل القومى . فطبقا لتقديرات تعود الى منتصف السبعينات يقل هذا المتوسط فى حوالى نصف الدول النامية عن ٥٠٠ دولار سنويا ، ويتراوح بين ٥٠١ ، ١٠٠٠ دولار فى ١٤ دولة ، بينما يزيد عن ١٠٠١ دولار فى أربع دول فقط كلها مصدرة للبترول .[١]

هذا الفقر صاحبته ابنية طبقية يكاد ينعدم فيها بينها الحراك الاجتماعى وتعكس تفاوتا شديدا فى توزيع الدخول بين الطبقات . اذ تبعا لأحد الدارسين ، يقبع فى سفح الهرم الاجتماعى أشباه البروليتاريا الحضرية كماسحى الأحذية والخدم من ناحية والمعدمين فى الريف من ناحية اخرى (نسبة هؤلاء المعدمين ٢٠٪ من جملة سكان الريف المصرى ، ٦٠٪ من جملة سكان الريف الايرانى) . يلى هذه الشريحة الحرفيون وعمال الصناعة . ويأتى بعد هؤلاء الطبقة الوسطى وهى طبقة صغيرة العدد تضم أساسا موظفى الحكومة وضباط الجيش . ويتربع على قمة الهرم الارستقراطيون والبورجوازيون : كبار ملاك الأرض الزراعية ، وكبار رجال الأعمال وأصحاب المهن الحرة كالطب والمحاماة والهندسة . هذه الشريحة العليا ، التى تشكل ما يربو على ٢٠٪ من السكان ، تستأثر بأكثر من نصف الدخل القومى هذا فى الوقت الذى يتراوح فيه نصيب الشريحة الدنيا بين ٣٪ ، ٥٪ .[٢]

---

(١) اعتمدنا فى تقدير ذلك على المصدر التالى:

Arthur. S. Banks, ed., Polical :
Handbook of the World; 1976, New York, Mcgraw Hill, 1976.

(٢) R. Gandarme, "Reflections on the Appruaches to the Problems of Distribution in Underdeveloped Countries". Jean Marchal and Bernasd Pucros, eds., The Distribution of National Income, London, Macmillan, 1968, pp. 361-388.

حقا إن كثيرا من الدول النامية شهدت وضع وتنفيذ خطط للتنمية استهدفت زيادة الناتج القومى الاجمالى . غير أن ما حدث فى كل الحالات تقريبا هو « نمو غير مصحوب بعدالة » . اذا اقترن النمو الاقتصادى بتزايد التفاوت فى الدخول الشخصية والدخول الاقليمية ، وتصاعد البطالة وتدهور الخدمات الاجتماعية [٣] .

إزاء ذلك الفقر المطلق والنسبى ، ليس غريبا أن يستبد القلق بسكان العالم النامى حول أوضاعهم المعيشية . ذلك ما أظهره استفتاء للرأى أجراه معهد جالوب فى أواخر عام ١٩٧٦ . إذ ذكر أكثر من ثلثى المبحوثين فى أمريكا اللاتينية وافريقيا وآسيا أن ما يشغل بالهم حقا طوال كل أو أغلب الوقت هو كيفية مواجهة نفقات أسرهم . وأشار حوالى النصف الى أنهم لا يستطيعون تدبير المال اللازم لشراء الطعام لأسرهم . بل ان نسبة عالية ذكرت العجز أحيانا عن شراء الملابس أو دفع تكاليف العلاج [٤] .

كذلك ، يمكن القول أنه مع الفقر والاستغراق فى مشاكل الحياة اليومية ، يختفى أو يتضاءل الاهتمام بالقضايا العامة . ولعله بالامكان أن نجد ما يساند هذا فى التحقيقات التى أجرتها **مجلة الطليعة** مع نماذج مختلفة من المواطنين المصريين ونشرتها تباعا فى أعدادها الصادرة خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٧٦ . فالمواطن « عبد التواب » نموذج لقطاع عريض من المصريين الذين يتقاضون الحد الأدنى للأجور . ليس فى شقته جهاز راديو أو تليفزيون ، وان كان يسمع الراديو أو يشاهد التليفزيون لدى أحد الجيران فى بعض الأحيان . وباستثناء صحيفة « **الاخبار** » التى يطالعها بانتظام ، فانه لا يكاد يقرأ شيئا آخر لكثرة همومه الناجمة عن قسوة أحواله المعيشية . انه يشعر بالضآلة ويفتقد الاحساس بالقدرة على التأثير فى الحياة العامة ، ويتصور عدم جدوى ابداء الرأى فى مشاكل المجتمع [٥] . اما الست « أم محمد » فتمثل شريحة واسعة من المصريات اللاتى يقطن فى الريف والحضر . فكرها وآمالها وردود أفعالها تنحصر فى دائرة أولادها وبناتها وكيف تعولهم . ولكنها خارج هذه الدائرة ، تعيش فى حالة اغتراب كامل لا تتعرض لأى أداة اعلامية ولا تعرف شيئا عما يجرى فى المجتمع رغم مضى عشرين عاما على وجودها بالقاهرة [٦] . ويعتبر الفلاح الصغير « فتحى حمادة » نموذجا لقطاع ضخم من فلاحى مصر . يمكث فى الحقل طول النهار . فقير الى درجة أنه **لايستطيع** اقتناء أى وسيلة اعلامية حتى الراديو الترانزستور . لا يكاد يتعرض لوسائل الاعلام . ليس له دور يذكر فى الحياة العامة لقريته . معارفه ومعلوماته عن المؤسسات والشئون العامة وأوضاع الوطن العربى والعالم المحيط بنا تتسم بالضحالة المؤسفة . لا يستشعر فى نفسه القدرة على التعبير عن مصالح الفلاحين ويرى ذلك من اختصاص « الناس الكبار الجامدين » [٧] .

إن الفقر زامله تفشى الأمية على نحو مخيف . يقول محبوب الحق المخطط الاقتصادى الأول فى باكستان خلال الفترة ٥٨/١٩٧١ « لم يكن هناك قط طيلة سنواتى الثلاث عشرة كمخطط اقتصادى فى باكستان ما يثبط همتى قدر

---

(٣) محبوب الحق ، ستار الفقر : خيارات أمام العالم الثالث ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص ٥٠ .

(٤) George Gallup, "What Mankind Thinks about Itself, Reader's Dist, October, 1976, pp. 132-136.

(٥) هموم المواطن عبد التواب ، مجلة الطليعة ، يناير ١٩٧٦ ، ص ١٨ - ٤٣ .

(٦) « هموم الست أم محمد » ، الطليعة ، فبراير ١٩٧٦ ، ص ٤٥ - ٥٢ .

(٧) « هموم الفلاح فتحى حمادة » ، الطليعة ، ابريل ١٩٧٦ ، ص ٤٣ - ٦٤ .

الاغفال المتحجر لقطاع التعليم فى التنفيذ الفعلى لخطط التنمية . فكلما كان وضع الموارد المالية صعبا ـ وكثيرا ما كان الحال كذلك ـ كانت مخصصات التعليم فى مقدمة المخصصات التى ينالها التخفيض . ولذلك فلا عجب أن ـ انحدرت باكستان من مستوى كان فيه ١٨٪ من أبنائها يعرفون القراءة والكتابة فى عام ١٩٥٠ ، وهو مستوى بائس بما فيه الكفاية الى مستوى ١٥٪ عام ١٩٧٠ »[٨] ـ ولا شك أن ارتفاع نسبة الأمية معناه أن أغلبية السكان تكون بمنأى عن تيار المعلومات المتدفق من خلال الرسالة الاعلامية المكتوبة على الأقل .

كذلك يتميز البناء الاجتماعى فى الدول النامية بظاهرة التعددية pluralism فهذه المجتمعات توصف بأنها مجتمعات فسيفسائية Mosaic حيث يوجد فى كل منها جماعات عديدة متباينة فى أصولها اللغوية والدينية والعرقية . فمن حيث اللغة يلاحظ مثلا أن سكان غانا ينقسمون الى خمس مجموعات لغوية كبرى ، ويتوزع سكان الهند بين ثمانى لغات وأكثر من ثمانمائة لهجة ، ويتحدث النيجيريون أربع لغات . ويمثل الدين أحد مصادر الانقسام الاجتماعى . فاللبنانيون ينقسمون الى ست مجموعات دينية رئيسية . ويضم سكان سريلانكا ، أغلبية بوذية وأقلية هندوسية . ويتوزع الهنود بين سبع مجموعات دينية . وعلاوة على التنوع اللغوى والدينى ، تسود الاختلافات العرقية والقبلية : نيجيريا وزائير ، الأقليات الهندية فى شرق أفريقيا والأقليات الصينية فى ملايزيا وسنغافوره[٩] .

والمهم أن هذه التعددية الاجتماعية تمثل مشكلة عند التصدى لدراسة الرأى العام لما تفرضه من صعوبات خاصة بصياغة الأسئلة حيث يمكن أن يفهم السؤال بمعان مختلفة من جانب مفردات العينة . ففى مصر مثلا ، ورغم عدم وجود جماعات لغوية ، توجد عبارات وألفاظ قد تفهم فى الصعيد ولا تفهم فى الدلتا أو تستخدم فى المناطق الساحلية ولا تعرف فى مصر العليا[١٠] .

وبالاضافة الى ما سبق ، توصف المجتمعات النامية بأنها مجتمعات فلاحية حيث يعيش أغلب السكان فى الريف (حوالى ٧٣٪ حسب احصاءات تعود الى منتصف السبعينيات) وهنالك يسود نسق قرابى محوره القبيلة أو العائلة الممتدة . ويعرف هذا النسق بناء سلطة تعتمد على السن والجنس فالصغير يخضع حتما للكبير والانثى تخضع للذكر . وحق اتخاذ القرار وإبداء الرأى يزاوله فقط رب العائلة أو شيخ القبيلة . ولا يجوز لأى فرد أن يعبر عن رأيه إزاء كثير من الموضوعات ، حتى التى تتصل بحياته الشخصية ، طالما كان يشغل وضعا اجتماعيا معينا بحكم سنه أو نوعه[١١] .

٢ ـ الاطار السياسى :

فى البلدان النامية ، يصعب القول بوجود مجال سياسى متميز عن مجالات العلاقات الاجتماعية والشخصية . فما

(٨) محبوب الحق ، مرجع سابق ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٩) للوقوف على مزيد من التفاصيل بهذا الخصوص ، يمكن الرجوع الى :
Rupert Emerson, From Empire to Nation; The Rise to Self-Assertion of Asian African Peoples, Boston, Bacon Press, 1960.

(١٠) د. صفوت فرج ، الاختيارات المبهجة والملبسة فى قياس الرأى العام ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، جهاز قياس الرأى العام ، ص ١٠ .

(١١) د. ناهد صالح ، اللا رأى فى قياسات الرأى العام بالدول النامية ، المجلة الاجتماعية القومية ، يناير ١٩٨٠ ، ص ١١ .

هو سياسى يرتبط الى حد كبير بما هو اجتماعى وشخصى . بمعنى أن نمط العلاقات السياسية يتحدد بنمط العلاقات الشخصية والاجتماعية والصراع السياسى يتركز أساسا حول مسائل النفوذ والمكانة ، بل والشخصيات ، وليس حول بدائل العمل السياسى . وتمثل الصفوة الحاكمة مجموعة متجانسة من حيث الخلفية الاجتماعية . ولا يتوقف الانخراط فى صفوف الصفوة على اعتبارات الأداء أو الكفاءة بقدر ما يتوقف على اعتبارات غير سياسية : الانتماء العائلى أو القبلى أو الدينى أو العرقى . . . الخ [١٢] .

هذا الاطار الطائفى للسياسة يجعل من الصعب على الأفكار أن تكتسب تأثيرا فى حد ذاتها . فقوة الفعل لفكرة أو وجهة نظر ما لا يتأثر بمضمونها قدر تأثره بالوضع الاجتماعى لصاحبها أو المدافع عنها . وعليه يصعب وجود سوق مفتوح يضمن لمختلف الأفكار والآراء السياسية أن تتنافس بحرية فى سبيل الحصول على التأييد اعتمادا على مضامينها الخاصة . ومن ناحية أخرى ، يقيد هذا الاطار الطائفى من حرية تغيير الولاءات السياسية . اذ يتطلب ذلك التغيير تحولا فى الروابط الاجتماعية والشخصية .

كما تتسم البلدان النامية بغياب أو ضعف التجمعات السياسية التى يمكن أن تسهم فى تزويد المواطن بالمعارف السياسية وبالتالى فى تشكيل وبلورة الرأى العام . اذ أن كثيرا من الأحزاب السياسية مجرد تنظيمات من خلق فرد وبالتالى تتحدد طبيعتها بشخصيته أكثر منها بآرائه السياسية ، بل ويمكن أن تنتهى بمجرد وفاته أو فقدانه الاهتمام بالسياسة لأى سبب كان . وهناك أحزاب ذات اطار ايديولوجى ، ولكنها ضعيفة تنظيميا . وتعانى معظم الأحزاب من نقص الكوادر السياسية والادارية ، وقصور الموارد المالية ، فضلا من أنها تعمل فى اطار غير تنافسى حيث يسود نظام الحزب الواحد فى كثرة من الدول النامية بدعوى أن التعدد الحزبى يؤدى الى تفاقم الصراع وتهديد وحدة الدولة . ومع أن بعض الدول تأخذ بنظام تعدد الأحزاب ، الا أن الوضع ينتهى من الناحية العملية بسيطرة حزب واحد على باقى الأحزاب ، الأمر الذى يعنى بالطبع سيادة رأى واحد هو رأى السلطة . [١٣]

وفيما يتعلق بجماعات المصالح مثل نقابات العمال واتحادات الفلاحين وغرف التجارة ، والاتحادات المهنية ، يلاحظ أن منها من لا وجود له فى بعض الأحيان ، وفى حالة تواجدها ، فانها غالبا ما تعانى من ضعف يرتد الى أكثر من سبب . أولها التبعية للحكومة أو الحزب الحاكم بما يعنيه هذا من استخدامها أساسا فى تعبئة قطاع من السكان لتأييد أفعال الصفوة الحاكمة . وثانيها صغر حجم أعضائها . فنقابات العمال مثلا لا تضم سوى قطاع صغير من العمال (١٧٪ فى الجزائر ، ٢,٥٪ فى الهند ، ١٣٪ فى كولومبيا ، ١٪ فى ايران والعراق ونيكاراجوا) . ثالثها نقص مواردها المالية حيث لا يستطيع أغلب الأعضاء سداد الاشتراكات بانتظام . [١٤]

---

(١٢) Lucian Pye, "The Non-Western Political Process", H. Eckstein and D. Apter, eds., Comparative Politics, New York, Free Press of glencoe, 1963, p. 657.

(١٣) David Roth and Frank Wilson, The Comparative Study of Politics, Boston, Houghton, Mifflin Comp., 1976, pp. 207-211.

(١٤) Joseph La Palombara, Politics Within Nations, N. J., Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, 1974, pp. 358-359.

كذلك تشهد الحياة السياسية في الدول النامية غياب أو هامشية المعارضة السياسية (١٥) . فالقيادات السياسية لا تفتأ تزعم أنها تمثل مصالح كل أفراد الأمة وتعمل في سبيل تحقيقها ، وأن المعارضة معوق للتقدم . وبعيدا عن هذا الزعم ، يمكن القول أن الحكام في بعض الدول النامية يعطون الأولوية المطلقة للحفاظ على السلطة . ويتورطون في أشكال عديدة من الفساد السياسي . ويعكسون مستوى هابطا من الأداء السياسي . ولهذا ، فانهم يصرون على اسكات المعارضة حتى يتجنبوا أي انتقاد علني لتصرفاتهم ويضمنوا بالتالي استمرار وجودهم . وبهذا الخصوص ، فانهم غالبا ما يحظرون قيام أحزاب معارضة . واذا حدث وسمحوا بذلك ، فانهم عادة ما يعرقلون نشاطها . كما يفرضون رقابة على اجهزة الاعلام بما يجعلها مجرد أداة الاعلان ومباركة سياسات وقرارات الحكومة . وطبقا لنتائج مسح عن مدى حرية وسائل الاعلام في ١٠٧ دول نامية اجري عام ١٩٧٦ ، تبين أنه في ١٩ دولة ، تمتلك الدولة كل ادوات الاعلام . وفي ٥ دول فقط ، توجد أدوات اعلامية خاصة تتمتع بحرية شبه تامة . وفي ٤٠ دولة ، تتمتع الادوات الاعلامية الخاصة بقسط كبير من الحرية في استقصاء ونشر الأخبار ، وان كانت تخضع لرقابة حكومية تضمن عرض وجهة نظر الحكومة على الشعب . وفي ٤٣ دولة ، تتعايش أدوات الاعلام الخاصة جنبا الى جنب مع أدوات الاعلام الحكومية . غير ان الرقابة على الادوات الخاصة شديدة مع اختلاف أسلوبها - وطبيعتها من دولة الى أخرى . فمثلا ، يتعين على دور الصحف الهندية أن تقدم نسخة من كل صحيفة قبل النشر الى اداة الرقابة . بل لقد أصدر البرلمان الهندي عام ١٩٧٦ ، حينما اشتد ضغط المعارضة على حكومة انديرا غاندي ، قانونا يحظر نشر أي مادة تسيء الى شخص رئيس الجمهورية ونائبه ورئيس الوزراء ورئيس البرلمان وحكام الولايات . وفي بيرو والمكسيك ، تمارس الحكومة رقابة صارمة على دور الطباعة تكفي لمنع أي انتقاد لسياستها وفي تنزانيا ، يملك رئيس الدولة بموجب قانون صدر عام ١٩٦٨ حق فرض الحظر على أية صحيفة مادام ذلك من أجل الصالح العام . وفي أوغندة ، يعتقل ويعذب الصحفي الذي يتعرض بالنقد للحكومة .

ويتصل بما سبق الافتئات المستمر على الحريات . فحسب بيانات تعود الى منتصف السبعينات ، اتخذت ٧٠ حكومة في دول نامية اجراءات تراوحت بين حظر نشاط أحد الأحزاب وبين حلها جميعا . وفي ٦٩ دولة ، تم اعتقال أفراد بتهمة الافصاح عن معتقداتهم السياسية . وفي ٦٥ دولة ، فرضت الرقابة على أدوات الاعلام . وفي ٤٦ دولة ، تم حل أو وقف البرلمان . وفي ٢٩ دولة تعرض المسجونون السياسيون للتعذيب الى حد لفت انتباه منظمة العفو الدولية . وفي ٩ دول صدرت ونفذت أحكام بالاعدام ضد المناوئين لنظام الحكم .

كذلك يشيع في البلدان النامية ظاهرة مركزية اتخاذ القرار والانفصال بين الحكام والمحكومين ، الأمر الذي يؤدي الى نقصان المشاركة السياسية (١٦) . ان الحكام يعتبرون أنفسهم الأعلم بصالح الرعايا وبكيفية تحقيقها وأغلب ظنهم أن الرعايا لا يعرفون مصلحتهم جيدا . إنهم جهلاء وقصر وبالتالي يحتاجون لأوصياء . من ثم يبدو عدم واقعية

---

(١٥) لتفاصيل أكثر راجع : Edward Shills, Opposition in the New States of Asia and Africa, Government and Opposition, Vol. I, No. 2, 1966, PP. 175-204; Hans Daalder, Government and Opposition in the New States, Government and Opposition, Vol. 1, No. 2, 1966, PP. 205-226, and Arthur Banks, Op. Cit.

(١٦) Lucian Pye, op. cit, p. 661.

بعض العبارات التى رددتها قيادات كثيرة فى العالم النامى من قبيل « الشعب المعلم » و « الشعب القائد » و « الشعب الذى يلقن طلائعه الثورية » .

إن القرارات تصنع مركزيا وتفرض على الجماهير دون اعتداد بمطالبها الحقيقية ودون مشاركتها . واذا كانت هناك حالات دعيت فيها الجماهير الى المشاركة ، فقد كان ذلك بقصد التأييد والمساندة لا غير . لا عجب اذا فى وصف الديمقراطية التى عرفتها بعض الدول النامية بأنها « ديمقراطية تأييد » وليست « ديمقراطية مشاركة » .

هذا الوضع يرامله غياب ما يسمى « التغذية المرتدة Feedback حيث لا تعبأ القيادات السياسية عموما بمعرفة ردود أفعال الجماهير لما تتخذه من سياسات وقرارات .

وفضلا عن كل ما سلف ، تعانى الدول النامية من غياب الاتفاق العام حول غايات المجتمع وأفضل الأساليب لبلوغها . فالأهداف والأساليب ليست واحدة بالنسبة للحكام والمحكومين ، بل وقد تختلف فى الدولة الواحدة بتغير الحكام .

٣ ـ الاطار الثقافى :

على الرغم من وجود قشرة خفيفة من الثقافة الحديثة ، ما زالت عناصر الثقافة السياسية تقليدية لدى السواد الأعظم من أبناء الدول النامية [١٧] .

فالانسان العادى فى هذه الدول يفتقر الى الاستعداد لتكوين آراء حول المشاكل والأحداث البعيدة عن حياته اليومية المباشرة . وفى كثير من الأحيان ، نراه يجيب « لا أعرف » اذا سئل عن هذه الأمور .

كما ينقصه الاحساس بالقدرة على مجابهة وتغيير الاطار المجتمعى الذى يعيش فيه . ان موقفه تجاه المحيط ، خصوصا فى جانبه السياسى ، يعكس نوعا من القبول والتقليد والاستسلام ، والطاعة وليس المجابهة والتحدى . إنه يعتقد ، كما هو الحال فى بعض الدول العربية ، أن الله خلق الدولة لحكمة يعلمها سبحانه وما عليه الا ان يطيعها ويجاريها مهما كانت . هذا الشعور بالعجز إزاء المحيط يدفع المرء الى الاعتماد على غيره فى تقرير ما يعن له من أمور : كبير العائلة ، شيخ القبيلة ، وجهاء القرية . . . . الخ .

(١٧) حول مكونات الثقافة السياسية فى الدول العربية راجع مثلا :
د. حليم بركات ، « النظام السياسي بين القيم الحضارية التقليدية والحديثة » ، النظام السياسي الأفضل للأقطار في العالم الثالث ، آراء نخبة من رجال الفكر ، بيروت ، مكتبة الفكر الجامعي ، ١٩٧١ ، ص ٨٠ ـ ٩٢ ؛ د. كمال المنوفي ، الديمقراطية والثقافة السياسية للشعوب العربية دراسة للحالة المصرية ، الباحث ، اكتوبر ١٩٧٩ ، ص ٢١ ـ ٣٣ .

وحول الثقافة السياسية فى الدول النامية بوجه عام ، انظر :
A. Inkeles and D. Smith, Becoming Modern, Individual Change in Six Developing Countries, Cambridge Mass, Harvard, 1974; Philip Hauser, "Some Cultural and Personal Characteristics of the less Developed Countries", J. Finkle and R. Gable, EDS., Political Development and Social Change, N. Y., John Wiley and Sons, 1968, PP. 58-60.

كما ينقص المواطن ما يسميه علماء السياسة الشعور بالاقتدار السياسى political . efficacy، اى الاحساس بالقدرة على ابداء الرأى فى مختلف المسائل المحلية والقومية مع الاقتناع بأن هذا الرأى قيمة ويمكن أن يتصت اليه . ولقد اتضح من بعض الدراسات الميدانية التى أجريت فى مدن مصر وقراها أن أغلب المبحوثين لا يجرأون على إبداء وجهات نظرهم فيما تفعله الحكومة دون خشية أو جزع .

إن جماهير العالم النامى تتميز بقدر كبير من اللامبالاة السياسية يعكس على الارجح ، غياب الاقتناع بضرورة وجدوى المشاركة . واذا كانت تشارك فى بعض الأحيان فأغلب الظن أنها تفعل ذلك خشية الوقوع تحت طائلة القانون ، أو بدافع الضغوط الاجتماعية أو تشيعا للغير .

والى ما تقدم ، يلاحظ غياب « التسامح الفكرى المتبادل » اذ لا يكاد يوجد اقتناع عام بأن اختلاف الآراء والاجتهادات إزاء أية مشكلة تواجه المجتمع ظاهرة صحية . إن الشخص عادة ما يتعصب لرأيه ويعتبره جزءا لا يتجزأ منه ، وينظر الى الرأى المضاد على أنه هجوم شخصى عليه . وهذا ما يجعل الصراع الفكرى ينأى عن الموضوعية وأقرب الى المهاترات الشخصية . يتصل بذلك ضعف الميل عموما الى الحوار الذى ينظر اليه على أنه مضيعة للوقت واستنفاد للطاقة طالما لن يثمر شيئا ذا بال .

هذا النسق الثقافى هو فى الحقيقة نتاج للقهر الاجتماعى والسياسى الذى عانى ولا يزال يعانى منه انسان العالم النامى . وهو بدوره يعمل على تكريس أوضاع اجتماعية وسياسية متخلفة .

●●●

ثانيا : مشاكل قياس الرأى العام

لقياس الرأى العام ينبغى ان يوجد رأى عام متبلور إزاء موضوعات القياس ومراكز متخصصة لاجراء الاستطلاعات تتوفر لها الامكانيات المادية والباحثين الاكفاء ثم استعداد وتعاون من جانب المبحوثين ، وأخيرا جسد من البحوث الاجتماعية والاحصاءات عن المجتمع موضع الاهتمام .

والواقع أن قياسات الرأى العام فى الدول النامية عملية تكتنفها صعوبات شتى تتعلق بطبيعة الرأى العام نفسه فى تلك البلدان ، ووضع مراكز دراسة الرأى العام هناك ، وخصائص المبحوثين ، ووضع البحوث الاجتماعية والاحصاءات الرسمية . ونعمد فيما يلى الى مناقشة هذه الصعوبات .

١ : طبيعة الرأي العام :

في ضوء ما ذكرناه عن واقع المجتمعات النامية اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً ، يعكس الرأي العام في تلك الدول جملة من الخصائص تعقد قياسه .

فالرأي العام يفتقر الى النضج وتعتريه السطحية ، الأمر الذي يسهل انتقاله من النقيض إلى النقيض . [١٨] هذه السمة هي نتاج طبيعي لأوضاع الفقر والأمية وشيوع قيم العاطفية والفورية التي تأبى المنهجية العلمية القائمة على الربط بين الأسباب والنتائج . كما أنها أيضاً نتيجة لاختفاء المناخ الديمقراطي ، ومن ثم غياب منطق الحوار ، وغياب أو عدم فاعلية القنوات التي تثير اهتمام الناس بمشكلة ما وتغذيهم بالمعلومات التي تساعد على النقاش والجدل حولها . لقد سبق أن نوهنا إلى هامشية دور الأحزاب وجماعات المصالح في صياغة الرأي والتعبير عنه ، وكذلك إلى الرقابة الرسمية التي تخضع لها أدوات الأعلام بشكل يحد من دورها في إثراء النقاش حول قضايا المجتمع . ويبقى أن تذكر في هذا المقام أن الصحف كأداة إعلامية محدودة التوزيع والتأثير بسبب الأمية وعدم وجود نظام سريع للنقل ، وتواضع الإمكانيات المالية اللازمة لإنشاء دور الصحف وتزويدها بالتجهيزات . كما أن وسائل الاعلام المسموعة عموماً والمرئية خصوصاً ليست في متناول قطاعات لا يستهان بها من السكان لا سيما في المناطق الريفية . كما أن قصور الامكانيات المادية ونقص الأشخاص المهرة من مهندسين وفنيين ومعدي ومنفذي البرامج يحدان من إمكانية تطوير الإرسال الإذاعي والتلفزيوني لتغطية المناطق الريفية والنائية . فالخطط الخمسية الهندية المتتالية مثلاً لم تخصص للانفاق على الارسال الاذاعي والتلفزيوني سوى ٢ر٪ من جملة الاستثمارات وهو ما يمثل حوالي ٦ر٪ من مخصصات التعليم [١٩] . وحتى حينما تصل الرسالة الاعلامية إلى القرية من خلال قراء الصحف أو المستمعين إلى الراديو أو مشاهدي التلفزيون ، فلا توجد تقريباً تغذية عكسية . فالراديو يتحدث إلى القرويين ولا يتحدث معهم . كذلك فإن وسائل الاعلام تهتم أساساً بعنصر الترفيه وتتجاهل إلى حد كبير عرض القضايا التي تهم الرأي العام ، بل وغالباً ما تقتصر على عرض وجهة نظر معينة وتبتعد عن أسلوب الحوار كلما أمكن [٢٠] . ومن ناحية أخرى ، يتصف الرأي العام في الدول النامية بالتعصب الذي يعني عدم احترام الرأي الآخر المخالف [٢١] . وليس هذا بالأمر الغريب إذا تذكرنا ما قلناه سلفاً عن اختفاء قيم التسامح الفكري نتيجة القهر السياسي وعدم التعود على المناقشة منذ الصغر داخل المؤسسات الأولية كالأسرة والمدرسة .

وفضلاً عن هذا وذاك ، تظهر في الدول النامية حالة « اللارأي » بشكل ملفت للنظر . إذ تتسع هنالك شريحة من لا رأي لهم سواء كانوا هم كذلك بالفعل ، أم غير راغبين في إبداء آرائهم أم لم تتيسر لهم سبل المعرفة بالموضوع قيد الاستطلاع ، أم غير مبالين به أصلاً . هذه الظاهرة يوجدها ويكرسها نقص المعلومات ، والشعور بالاغتراب ونمط التنشئة الأبوي الذي يؤكد قيم الانصياع والتبعية وليس الاستقلال والحرية والاعتماد على النفس [٢٢] .

(١٨) د. حامد ربيع ، مقدمة في العلوم السلوكية ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٥٣ .

(١٩) M. Irish and E. Frank, Introduction to Comparative Politics, N. J. Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, 1978, P. 173.

(٢٠) ذلك ما خلصت إليه إحدى الدراسات القيمة عن الحالة المصرية ، انظر : د. عبد الباسط عبد المعطي ، الاعلام وتزييف الوعي ، القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٧٩ ، ص ٢٨ ـ ٩٨ .

(٢١) د. حامد ربيع : مرجع سابق ، ص ٢٥٥ .

(٢٢) د. ناهد صالح ، مرجع سابق ، ص ٩ .

٢ ـ أجهزة قياس الرأي العام :

الدول النامية دول حديثة الاستقلال لم تفرغ بعد من حل مشاكل بناء الأمة والدولة . قياداتها السياسية بوجه عام في واد ، والجماهير في واد آخر . لاغرو إذن أن تخلو غالبية هذه الدول من أجهزة متخصصة لقياس الرأي العام بغية ترشيد السياسات والقرارات [٢٣] .

حقاً إن بعض هذه الدول راحت في السنوات الأخيرة تنشيء أجهزة لسوح الرأي العام . إلا أن تلك الأجهزة لا تتمتع بأي استقلال عن الحكومة وإنما تتبع الجهاز الإعلامي الرسمي أو أي جهاز رسمي آخر . فعلى سبيل المثال ، يعود إنشاء جهاز قياس الرأي العام في مصر الى عام ١٩٧٦ . وهو جزء من جهاز رسمي هو المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية . ويتبع مباشرة رئيس مجلس إدارته [٢٤] .

وليس يخفى أن تبعية أجهزة استطلاع الرأي العام ، على قلتها ، للحكومات إنما يحد من حرية حركتها في اختيار الموضوعات التي تستحق إجراء قياسات الرأي بخصوصها . فتراها تتناول أساساً الموضوعات الاجتماعية أو الاقتصادية ، وتتجنب قدر الامكان الموضوعات الحساسة من الناحية السياسية . وحتى إذا تصدت لموضوع من طبيعة سياسية فعادة ما يكون الهدف إعلان التأييد والمساندة لأفعال القادة على المستويين الداخلي والخارجي . وإذا حدث وتبين من معالجة استجابات المبحوثين وجود معارضة معقولة نسبياً لسلوك القيادة ، فإن نتائج الاستطلاع لا تجد سبيلها إلى الاعلان .

ومن جهة أخرى ، تعاني أجهزة قياس الرأي العام ، رغم ضآلة عددها ، نقصاً شديداً في خبراء الرأي العام والباحثين الميدانيين الأكفاء ، الأمر الذي يرتب قصوراً منهجياً في مسوح الرأي العام سواء بالنسبة لاختيار موضوع الاستطلاع أو اختيار العينة أو تصميم صحيفة الاستطلاع ، وجمع البيانات من مفردات العينة وعرض وتفسير النتائج وكتابة التقرير النهائي . وللتدليل على هذا ، يكفي مثلاً استعراض جملة المثالب التي تعتور تقارير الرأي العام التي تعدها مراكز الإعلام الداخلي في مصر . فهذه التقارير تعد في المكاتب ولا تمثل رأي الجماهير الحقيقي بخصوص القضية أو الحادثة المثارة . ثم هي تعد بعد مضي فترة من الزمن على إثارة القضية بحيث يفقد التقرير قيمته . ويغلب عليها التطويل والأسلوب القصصي . وتستخدم لغة أقرب للعامية . وهي أخيراً تتسم بضعف المضمون [٢٥] .

(٢٣) د. ناهد صالح ، مرجع سابق ، ص ٧ .

(٢٤) جهاز قياس الرأي العام في ثلاث سنوات (١٩٧٦ ـ ١٩٧٩) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٤ ـ ٥ .

(٢٥) سوسن مشرفة ، العقبات التي تواجه عملية تجميع الرأي العام ، دورة أخصائي الرأي العام ، مركز النيل للاعلام ، القاهرة ، ١/٦ ـ ١٠/٦/١٩٨١ .

٣ ـ المبحوثون :

يفترض قياس الرأي العام علانية إبداء المبحوث لرأيه مع قيام الباحث بتسجيل هذا الرأي لا سيما في الدول النامية حيث تنتشر الأمية وحيث يستحيل استطلاع الرأي بالتليفون وذلك بطبيعة الحال ، يزيد من حساسية المفحوص مما قد يحمله على مجاراة السائل أو رفض الإجابة كلية .

إن المبحوث يرى في باحث الرأي العام شخصاً غريباً ، وربما رجل الحكومة . وإذا أخذنا بعين الاعتبار مشاعر الشك المتبادل التي تخيم على العلاقات الاجتماعية والسياسية في الدول النامية ، لا نعجب إذا ألفينا المبحوث يتحوط في الإجابة بقوله لا أعرف أو الادلاء برأي يتصور أنه يرضى الباحث بغض النظر عن اتساقه أو عدم اتساقه مع ما يعتقده ويؤمن به فعلاً .

ولما كان الفرد في الدول النامية ، خصوصاً في الريف قد نشيء على طاعة الكبار بصفتهم أهل الحكمة والرأي السديد ، ولم ينشأ على حرية إبداء الرأي ، فإنه قد لا يرى في نفسه الصلاحية أو لا يرى أن من حقه التعبير عن وجهة نظره إزاء العديد من القضايا . ففي دراسة حديثة أجراها كاتب المقال على عينة من الفلاحين في إحدى القرى المصرية بهدف التعرف على مكونات ثقافتهم السياسية ، كانت إجابة البعض ، وكلهم من الشباب ، على سؤال نصه « لو فرض وأن فيه مسئول جه البلد في اجتماع أنت حاضر فيه علشان يناقش مشكلة تهم البلد كلها ، وكان لك رأي يا ترى حتقوله ولا حتفضل قاعد ساكت » كما يلي : « ما يصحش الواحد يتكلم والناس الكبار قاعدين لأنهم همه اللي يقدروا يشوفوا المشكلة تتحل إزاي »(٣٦) .

ونظراً لأن القيادة السياسية لا تأبه كثيراً بآراء الناس وتضع السياسات وتتخذ القرارات في غيبة من هذه الآراء فإنه تنشأ لدى الفرد قناعة مؤداها أن رأيه لا قيمة له فيعزف عن الإدلاء به . ففي الدراسة المشار إليها آنفاً ، أجاب البعض على السؤال المذكور بالآتي : « أنا راجل فلاح . وكلامي مش هيكون له نتيجة لأن الحكومة بتعمل اللي هي عايزاه في الآخر . وعلشان كده الواحد أحسن له يقعد ساكت »(٣٧) .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، يميل الفرد في بعض البلدان النامية ، خصوصاً جنوب شرق آسيا ، إلى المجاملة(٣٨) . وفي مصر ، يسود نمط الشخصية الفهلوية على حد تصور عدد من الباحثين . وأحد المظاهر السلوكية للفهلوي يتمثل في

---

(٣٦) د. كمال المنوفي ، الثقافة السياسية المتميزة في القرية المصرية ، الأهرام ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، ١٩٧٩ - ٨١ .

(٣٧) د. كمال المنوفي ، نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٣٨) د. ناهد صالح ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

القدرة على التكيف السريع لمختلف المواقف وإدراك ما تتطلبه من استجابات مرغوبة والتصرف وفقاً لمقتضياتها . وأحد جوانب هذا التكيف السريع هو المسايرة التي يراد منها إخفاء المعتقدات والمشاعر الحقيقية (٢٩) . والمهم أن الباحث المجامل أو الفهلوي يعد عقبة في سبيل استطلاعات الرأي العام . وبيان ذلك أن نتائج الاستطلاع قد لا تعكس الرأي العام الحقيقي ، بل مجرد الآراء التي يظن المبحوثون أنها ترضي الباحث . كما قد تعكس ارتفاعاً في نسبة من لا رأي لهم إذ يحجم المبحوث عن إبداء رأيه إذا استشعر أنه قد لا يوافق هوى الباحث .

٤ ـ البحوث الاجتماعية والإحصاءات الرسمية :

لدراسة الرأي العام في مجتمع معين ، ينبغي أن يوجد مسبقاً تصور كامل ودقيق قدر الإمكان عن حالة هذا المجتمع إقتصادياً واجتماعياً وسياسياً . هذا التصور يساعد باحث الرأي العام في تصميم العينة ، وصياغة الأسئلة ، وإجراء المقابلة ، وتفسير النتائج . وتسهم في بنائه إلى حد كبير كل من الدراسات الاجتماعية التطبيقية الجادة والاحصاءات المفصلة والدقيقة .

والمؤسف أنه في الدول النامية بوجه عام ، لا يوجد ذلك التصور ، وإن وجد فبشكل جزئي ، ومعيب . هذا الوضع هو في الواقع نتاج لحالة البحث الاجتماعي والبيانات الرسمية (٣٠) .

فالدول النامية ليست لها تقاليد واضحة للبحث العلمي . وينقصها الإيمان بأهميته وتفتقر إلى سياسة عامة بخصوصه حتى وإن زعمت قياداتها خلاف ذلك . حقاً إن من بينها من شيد مراكز للبحث . غير أن هذه الأخيرة تخضع لإشراف وتوجيه الحكومة وتعاني من نقص التمويل وندرة الباحثين الملتزمين ، وتعسف الأداة البيروقراطية . كل هذا يعكس نفسه في قلة الدراسات الاجتماعية الجادة . وطول فترة إجرائها بل وتوقف بعضها أحياناً .

ورغم التسليم بأهمية الدراسات التي أجراها باحثون أجانب عن هذه الدول النامية ، إلا أنها محدودة من حيث العدد والموضوعات التي تصدت لها . كما أنها تعكس انحيازاً لقيم ومفاهيم وأطر فكرية مرتبطة بالتقاليد الغربية علاوة على رؤى باحث يعيد في الغالب عن المجتمع موضع الدراسة مادياً وثقافياً ، الأمر الذي يفرض التحوط في الاعتماد على ما تقدمه تلك الدراسات من تحليل وما تخلص إليه من استنتاجات (٣١) .

---

(٢٩) د. حامد عمار ، في بناء البشر ، القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٦٨ ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٣٠) د. حامد ربيع ، مرجع سابق ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩ .

(٣١) انظر مثلاً عرضاً نقدياً للدراسات الأمريكية للسياسة الإيرانية في :
James Bill, The American Analysis of Iranian Politics, Iranian Studies, Vol X, No. 3, summer 1977. PP., 64-195.

وفي بعض الأحيان ، يتم إجراء بحوث بتمويل أجنبي وبتعاون بين باحثين أجانب وباحثين من أبناء البلد محل الدراسة . إلا أنه يلاحظ بصفة عامة أن الكلمة الأولى والأخيرة في تحديد موضوعاتها عادة ما تكون للعنصر الأجنبي بوصفه مصدر التمويل ، كذلك تدفع إليها اعتبارات سياسية من قبيل محاولة خطب ود المثقفين أو جمع بيانات معينة توضع تحت تصرف صانعي السياسة الخارجية في الدول المانحة . تبقى بعد هذا الدراسات التي قام بها باحثون من أبناء المجتمع المدروس بصفة فردية وتمويل ذاتي . فكل هذه الدراسات تقريباً أعدت لنيل درجات علمية مع ما قد يلابس ذلك من احتمال التضحية بالجودة لحساب الانجاز السريع خاصة إذا تذكرنا ما يعنيه الحصول على الدرجة من زيادة في المرتب ، وما لهذا من أهمية بالنظر إلى ظروف العائلة الاقتصادية . كذلك فإن معظمها من طبيعة ميكروكزمية حيث ينصب مجالها الجغرافي والبشري على مجتمع محلي واحد (قرية ، حي ، قسم) . وفضلاً عن كل هذا ، يغلب عليها « النمطية » سواء من حيث الموضوع أم المنهج . (٣٦) . وليس الوضع بالنسبة للاحصاءات الرسمية أفضل حالاً . ففي بعض الدول النامية لا تكاد توجد إحصاءات أصلاً . وفي دول أخرى ، قد توجد إحصاءات قديمة نسبياً وغير مفصلة مما يحد من إمكانية الاستفادة منها . وفي حالات عديدة ، قد تتضارب البيانات مما يشكك في مصداقيتها ويجعل الاعتماد عليها أمراً محفوفاً بالمخاطر . ففي مصر مثلاً ، قدرت النتائج الأولية لتعداد ١٩٧٦ نسبة الأمية في المجتمع ككل بـ ٥٦ر٥٪ ، هذا في الوقت الذي قدرتها إحصاءات نشرتها اليونسكو عام ١٩٧٨ بـ ٨٨ر٩٪ (٣٣) . كما أظهرت نتائج التعداد المذكور عدد المسيحيين بـ ٢٫٣١٥٫٥٦٠ نسمة ، هذا بينما يقدر البابا شنوده الثالث عدد الأقباط بحوالي ٧ مليون نسمة . ويشكك في صحة الرقم الأول من إحصاءات التعداد ١٩٦٦ والذي قدر عددهم بحوالي ٤ مليون . وبالتالي لا يعقل أن يكون هذا العدد قد انخفض بشدة كما يفيد تعداد ١٩٧٦ خاصة وأنه لا توجد أحداث تبرره أو تفسره (٣٤) .

ملاحظـــــات ختاميـــــة :

١ ـ من العرض السابق ، وضح أنه بقدر تقدم المجتمع وديمقراطية نظامه السياسي بقدر إمكانية قياس الرأي العام فيه . فهذا القياس ليس مجرد مسألة فنية تتحقق بمجرد تواجد جهاز متخصص . ولكنها أيضاً مسألة سياسية وحضارية . وعليه فإن قضية استطلاع الرأي العام في الدول النامية بأبعادها المختلفة يحسن أن تناقش في إطار واقع هذه الدول . وكما رأينا ، يحد تخلف هذا الواقع من إمكانية إجراء مسوح الرأي العام بصورة منهجية وموضوعية .

٢ ـ ولا يعني هذا أننا نرى إرجاء القيام بمثل هذه الاستطلاعات حتى تتهيأ إمكانية ذلك تماماً ببلوغ الدول النامية مستوى عالياً من التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . إننا على العكس ، نعتقد أن الاستطلاعات ، حتى ولو

(٣٦) انظر : د . علي الدين هلال ، د . كمال المنوفي ، تقرير مبدئي عن الدراسات الاجتماعية حول القرية المصرية ، (غير منشور) ، مشروع بحث الاحتياجات الأصلية من أجل التنمية الريفية في مصر ، برنامج التخطيط التكنولوجي ، مركز التنمية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ .

(٣٤) جريدة الجمهورية ، ١٥/٧/١٩٧٨ ، ص٩ .

(٣٣) Makram Samaan and Soheir Sukkary, "The Copts and Muslims of Egypt, Suad aseph and Barbara Phillsbury, eds., Muslim-Christian Conflicts : Economic, Political and Social Origins, Colorado, Westview Press, 1978, P. 130.

كانت قليلة وحتى ولو كانت موضوعاتها من طبيعة غير سياسية ، يمكن أن تفيد بدرجة ما في ترشيد الجهود الانمائية إذ ما دامت المشاركة الشعبية إحدى مرتكزات التنمية ، تبدو أهمية نتائج الاستطلاع باعتبارها قياساً لرأي الجماهير .

٣ - إزاء المصاعب التي تواجه دراسة الرأي العام في الدول النامية باتباع التكتيكات التي تستخدم في دراسته في الدول الغربية ، ألا يمكن التوسل بطرق أخرى للوقوف على اتجاهات الرأي العام الحقيقي في الدول النامية ؟ سؤال اكتفي بطرحه للمناقشة . ولا أدعي في نفسي القدرة على تقديم إجابة مرضية عليه . كل ما أستطيعه مجرد إثارة المزيد من علامات الاستفهام : ما مدى إمكانية الاستدلال بالمظاهرات والاضرابات وغيرها من أعمال العنف الجماهيري على الرأي العام في الدول النامية ؟ هل يمكن من خلال دراسة الشكاوي والالتماسات التي يرفعها المواطنون إلى المسئولين معرفة اتجاهاتهم حيال المخرجات الحكومية ؟ ما مدى الاعتداد بحالات مخالفة قانون ونظام معين (الدورة الزراعية في مصر مثلاً) في الكشف عن رأي الجمهور في هذا القانون أو النظام ؟ هل حالات التهرب الضريبي يمكن الخروج منها بشيء عن اتجاه الجماهير إزاء النظام السياسي ؟ .



المسـرح السـياسى

أمين العيوطي

عندما نتكلم عن « المسرح السياسي » فإن أذهاننا غالبا ما تتجه إلى ذلك النوع من المسرح الذي ازدهر في ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، أو في أمريكا إبان أزمة ١٩٢٩ الاقتصادية ، وجاء محملا بوعي سياسي ، متوسلا بأساليب فنية جديدة سواء في أسلوب صياغة هذه الرسالة أدبيا ، أو في أسلوب عرضها على المسرح . غير أن هذا لا يعني أن المسرح لم يكن ، منذ بدايته ، يحمل رسالة سياسية في طيات رسالته الفكرية . بل إننا نخطىء إذا توهمنا أن الأدب في كل صوره ، وعلى اختلاف مذاهبه الفنية ، لم يكن يعبر ، في المقام الأول ، عن رؤيا سياسية .

هذا ، ليس من الغريب أن نجد الدراما الاغريقية تخضع بسهولة للتحليلات التاريخية والسياسية . فنجد ناقدة فذا مثل جورج لوكاتش ـ ولعله القمة النقدية الشامخة التي أنجبها القرن العشرون على الاطلاق ـ يتحدث عن ضرورة ربط ظهور التراجيديا الاغريقية بالتحول التاريخي العالمي في تاريخ الجنس البشري ، ويقول :

من المؤكد أنه ليس من باب الصدفة أن تتفق فترات التراجيديا العظيمة مع التغيرات التاريخية العالمية العظيمة في المجتمع الانساني . وقد رأى هيجل بالفعل في الصراع الذي ينشب في أنتيجون سوفوكليس ، رغم غموض رؤيته ، ذلك الصدام الذي نشأ بين تلك القوى الاجتماعية التي أدت إلى تحطيم الأشكال البدائية للمجتمع ، وإلى ظهور المدينة الاغريقية . وعلى الرغم من أن تحليل باتشوفين لاورستيا اسخيلوس يدفع بالاتجاهات الغامضة إلى مدى أبعد مما يفعل هيجل ، إلا أنه يضع صياغة لهذا

الصراع الاجتماعي بشكل أكثر تحديدا ، أي بصفته صراعا تراجيديا بين النظام الأمومي الذي كان يحتضر والنظام الأبوي الجديد . . .[1]

على هذا الأساس يمكننا أن نتبين في الدراما الاغريقية ، حتى في جانبها الغيبي ، انعكاس الصراع بين طبقة الأشراف وطبقة العامة . فحين اضطرت طبقة الأشراف في أثينا إلى تعبئة الشعب ضد الفرس ، لجأت إلى إصدار تعديلات ديموقراطية في الدستور تمنح الشعب حق الانتخاب ، بل حق شغل المناصب العليا . وبعد تحقيق النصر على الفرس تشكل في أثينا حزبان : الحزب الارستقراطي والحزب الديموقراطي . ومن ثم جاءت مسرحيات اسخيلوس ، من موقعه الارستقراطي ، تعبيرا عن موقف ينادي بالعدالة الاجتماعية والديموقراطية . يقول د . ابراهيم سكر في تحليله لمسرحية المستجيرات :

> لقد أثار اسخيلوس في هذه التراجيديا بعض المشاكل الاجتماعية والخلقية والسياسية . فهو يندد بالزواج القائم على الإكراه ، ويشيد بمبدأ حماية الصغار ، ورعاية المستجيرين ، كما أنه ينادي بضرورة أخذ رأي الشعب في كل أمر من أمور الدولة[2] .

والفرق بين موقف سوفوكليس السياسي وبين موقف يوريبيديس أمر معروف . هكذا يرد رأي جورج طومسون في سوفوكليس :

> لقد جاء سوفوكليس من عائلة ارستقراطية . وفي حياته الوافرة تبنى وجهة نظر طبقته التقليدية . وهذا ما يظهر دعمه الفعال للدستور المعادي للديموقراطية ، الذي وضع قيودا على حق الانتخاب في السنوات الأخيرة من الحرب البلوبونيزية ٤١٢ ق . م . كما يظهر موقفه حول الوحي الدلفي الذي كان يعاديه الديموقراطيون بسبب سياسته الرجعية[3] .

أما يوريبيديس ، الذي كان أول من يمزج في أعماله بين شخصيات من عامة الناس ، وشخصيات نبيلة أسطورية ، فإنه ، كما يقول عنه جلبرت مري :

> قدم في أعماله أناسا عاديين ، قريبين في موقفهم الطبقي ، وأسلوبهم في الحياة ، وموقفهم منها ، من موقف الغالبية العظمى من رواد المسرح في ذلك الحين ، مما يؤدي إلى أن يرى جمهور المشاهدين أنفسهم ممثلين على خشبة المسرح ، ويزيد من تأثرهم ، وسهولة استقبالهم للآراء والأفكار التي يحملها يوريبيدس لشخصياته . . .[4] .

وما يقال هنا عن المسرح الاغريقي ينطبق أيضا على المسرح الاليزابيثي في أبرز كتابه : وليام شيكسبير . فلم يكن في أعماله إثراء للمسرح العالمي على امتداد تاريخه فنيا فحسب ، بل إثراء لما يحمله من فكر سياسي وتاريخي ، وهو

---

(1) . Georg Lukacs, The Historical Novil, Hannah and Stanley Mitchell, London,1962,p.97.

(2) د . ابراهيم سكر ، الدراما الاغريقية ، المكتبة الثقافية ، العدد ٢٠٣ ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص . ٢٣ .

(3) جورج طومسون ، اسخيلوس وأثينا ، ت . جواد الكاظم ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص٤٨٦

(4) جلبرت مري ، يوريبيديس وعصره ، ترجمة د . عبدالمعطي شعراوي ، القاهرة ب . ت ، ص١٥٢ .

تلك العبقرية التي عاشت في فترة تميزت بالصراع التاريخي الحاد بين المجتمع الاقطاعي ، وبين المجتمع الرأسمالي الذي كان يسعى لتأكيد ذاته ، حتى وصل إلى الحكم من خلال الثورة الفرنسية في ١٧٨٩ ، أو من خلال الوسائل الدستورية في انجلترا في ١٨٣٢ ، وعن تصوير شيكسبير لهذا الصراع التاريخي يقول جورج لوكاتش :

إن شيكسبير يخلق في الملك لير أعظم ما عرفه الأدب العالمي من التراجيديات وأشدها أثرا عن انهيار الأسرة بصفتها مجتمعا انسانيا . . . إن شيكسبير يصور في علاقات لير وبناته ، وجلوستر وابنيه ، الحركات والاتجاهات الخلقية النمطية التي تبرز بشكل قوي إشكالية العائلة الاقطاعية وانهيارها(*) .

هذا الحس التاريخي عند شيكسبير هو الذي جعله هدفا للتحليلات السياسية المتباينة . هكذا نجد جورج برنارد شو يصور شيكسبير في مسرحيته الكوميدية الخفيفة السمراء في أغاني شيكسبير ، على أنه فنان ينمق الكلمات ولا يقدم فكرا ، يهتم بإرضاء أولي الأمر ، ويتملق السلطة ، ويقف إلى جانب الديكتاتورية في يوليوس قيصر(٦) .

غير أن شاعرا وناقدا آخر ، وهو الجرنون سوينبيرن ، يرى في شكسبير رأيا مختلفا . فهو يراه مفكرا حديثا في نظرته السياسية والاجتماعية ، ويرى أن النغمة الأساسية في مسرحياته هي الدعوة إلى الثورة الاجتماعية . ويستشهد على ذلك بمسرحية **يوليوس قيصر** أيضا ، فيقول إن شيكسبير كان في أعماقه جمهوريا ، وإنه في **الملك لير** ديموقراطي واشتراكي روحا(٧) .

ولعل مما يعزز وجهة نظر سوينبيرن في شيكسبير اختيار ايروين بيسكاتور ، رائد المسرح السياسي ، لمسرحية **الملك لير** لعرضها بأسلوب مسرحه السياسي ، واختيار برتولت بريخت لمسرحيتي ماكبث **وهاملت** لإعدادهما للإذاعة ، ومسرحيتي **يوليوس قيصر** وكوريولينوس لإعدادهما للمسرح ، فضلا عن استخدامه لأسلوب مسرحيات شيكسبير التاريخية في **الأم شجاعة** وجاليليو ، بل وتأثر المسرح الملحمي عموما بفن شيكسبير المسرحي .

بل لعلنا نستطيع أن نضيف إلى هذا الإدراك المبكر لوظيفة المسرح الاجتماعية والسياسية موقف النقد الكلاسيكي المتزمت في انجلترا في القرن السادس عشر . فوسط كل تأكيد النقد الشكلي عند فيليب سيدني ، وبن جونسون وغيرهما على الالتزام بالوحدات الثلاث ، والمحافظة على نقاء القوالب والتقاليد الفنية بحيث لا تمتزج الكوميديا بالتراجيديا ، أو النثر ، بالشعر ، نستطيع أن نتبين هدفا سياسيا واضحا ، وموقفا سياسيا محافظا . كان مزج الكوميديا بالتراجيديا يعني ، في التحليل النهائي ، مزج أنماط سامية من الشخصيات والموضوعات التي لا يصلح لها إلا القالب التراجيدي ، بأنماط متدنية من الشخصيات والموضوعات لا تصلح لها الا القوالب الكوميدية الشعبية . أو بعبارة أخرى ، كان مزج القالبين التراجيدي والكوميدي يعني مزج الأشراف والعامة في إطار واحد .

كذلك كانت الدعوة إلى فصل اللغة الشعرية عن الحوار النثري واللغة الدارجة تهدف إلى فصل الأسلوبين ، ، إذا أراد الكاتب المسرحي أن يحتفظ للأبطال الذين ينتمون إلى طبقات المجتمع العليا بتميزهم وسموهم فيما ينطقون به

(*) Georg Lukacs, op. cit., p.93.

(٦) انظر جورج برناردشو ، السمراء في اغاني شيكسبير ، ترجمة د . اخلاص عزمي ، مجلة المسرح ، العدد ، القاهرة ١٩٦٤ ، وايضاح . ب . شو ، « الفصل من شيكسبير » مقدمة يوليوس قيصر ، ت . د . اخلاص عزمي ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٧) See R. Wellek, A History of Modern Criticism, 1750-1950, vol IV, London, 1971 ed., p.380.

ويعبرون عنه من عواطف نبيلة ، وأن يترك للعامة العواطف واللغة الأكثر تدنيا . كان الإصرار على الاحتفاظ بالقوالب المسرحية والتقاليد الشعرية « نقية » يعني في المحصلة النهائية ، المحافظة على القوالب الاجتماعية على الإطار العام للمجتمع الطبقي ، بحيث لا تتهدده أية مزاوجات بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا من المجتمع . بل إن أي إخلال بهذه القوالب والتقاليد الفنية كان في نظر الكلاسيكية المحافظة إخلالا بالقوالب الاجتماعية ، وتهديدا للنظام الاجتماعي السائد .

مثل هذا المعنى يتأكد في الدعوة إلى إحياء الكلاسيكية التي نادى بها ت . أ . هيوم ، وعزرا باوند ، و ت . س . اليوت في أوائل القرن العشرين . ففي مقاله عن « الرومانسية والكلاسيكية » يرى هيوم أن الرومانسية ترتبط بموقف سياسي محدد . فالرومانسية ، في رأيه ، دعوة الى إعادة تنظيم المجتمع من خلال الإطاحة « بنظام غاشم » أي بالنظام الاقطاعي بطبيعة الحال . وهو يرى الرومانسية ترتبط بثورة الطبقة الوسطى في فرنسا ، ووصولها إلى الحكم في انجلترا ، مما يعني الفوضى في نظره . أما الكلاسيكية فترتبط بالكنيسة والاقطاع ، ولذلك تعني النظام . وهكذا يقول :

> لو انك سألت رجلا من مجموعة معينة ما إذا كان يفضل الكلاسيكيين أو الرومانسيين . لاستطعت أن تستدل من ذلك على اتجاهاته السياسية[٨] .

نادى هيوم بهذه الدعوة السلفية قبل أن تنشب الحرب العالمية الأولى ، التي قوضت الكثير من الأسس الاجتماعية والفكرية التي كان المجتمع الانساني يقوم عليها ، وقبل أن ترتفع الصيحة ضد المجتمع الطبقي في كل أشكاله ، وضد الرأسمالية التي جعلت الحرب ، والاستعمار ، واستغلال الشعوب ، واضطهاد الانسان أمورا ممكنة . كانت تلك هي الصيحة التي أطلقها المسرح السياسي كما نعرفه اليوم . وقد جاءت من ألمانيا ، لتتلقفها منها أمريكا ، ولتشرك على المسرح العربي الحديث بصمتها .

●●●

كان لهزيمة ألمانيا في ١٩١٩ آثارها المدمرة على المجتمع الألماني ، التي أدت إلى اهتزاز مؤسساته الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية . وجاءت ثورة ١٩١٩ الاشتراكية ، التي فشلت واغتيل كل زعمائها ، تعبيرا عن السخط عما أنزلته الرأسمالية والحرب بالشعب الألماني ، وعن الفوضى الاقتصادية التي أطاحت بكل الأمال المعقودة على نهاية الحرب من انتشار الأخوة والانسانية والحب ، وعن خيبة الأمل التي تولدت عن هذا كله . ولم تلبث الأزمة التي ضربت الاقتصاد الامريكي في ١٩٢٩ أن امتدت لتشمل آثارها العالم الرأسمالي كله بما في ذلك ألمانيا ، ولتنزل بكل فئات الشعب وعلى الأخص الطبقة العمالية التي انتشرت بينها البطالة ، مما أثار معارك في الشوارع بين العمال والشرطة ، ودفع بالبرجوازية إلى أن تحكم قبضتها على الأمور فأسلمت زمام السلطة إلى هتلر .

وسط هذا المناخ لم يعد المسرح الطبيعي ، بتركيزه على تصوير سطح الحياة اليومية وأساليب السلوك ، قادرا على التعبير عن آثار هذا الواقع الحاد على النفس البشرية وجدانيا وعقليا . وهكذا جاء المسرح التعبيري ، والمسرح السياسي ، وقد وضعا نصب أعينهما هدفا سياسيا محددا ضد الرأسمالية والحرب ، والاستعمار ، والاستغلال . التقى

R. Rushdy ed., Criticism from Matthew Arnold to the Present Day, Cairo, N.D. p53.

المسرحان على فكرة توعية الجماهير سياسيا ، وتوجيهها نحو فكرة مجتمع انساني يقوم على أسس اجتماعية وسياسية جديدة .

غير أن المسرح التعبيري اتبع في سبيل تحقيق هذا الهدف أساليب تختلف عن أساليب المسرح السياسي . ففي حين اتجه المسرح السياسي إلى أساليب مباشرة تخدم هدف التوعية السياسية ، اتجه المسرح التعبيري إلى أساليب عاطفية تترجم أفكار الشخصيات وخيالاتها وأحلامها ووقع العالم الخارجي على ذواتها ، وتنحو منحى تجريديا ، جماليا ، في استخدام الديكور والاضاءة الملونة والأداء التمثيلي ، حتى قال عنها برتولت بريشت :

« إن التعبيرية التي أغنت وسائل تعبير المسرح كثيرا ، وجاءت بحصيلة لم تستنفد حتى الآن . كشفت عن عجزها التام في تفسير العالم كموضوع نشاط انساني ، ودمرت القيمة التعليمية للمسرح »[٩].

لم تدم الحركة التعبيرية في المسرح ، على أية حال ، سوى فترة قصيرة من ١٩١٨ ـ ١٩٢٥ . كان ذلك لأن البرجوازية تنبهت الى أثر الحركة الثقافية في تنوير الفكر العمالي ، فأقامت العقبات في وجه أية عروض مسرحية يشتم منها رائحة معارضتها لها ومحاولة كشفها وتعريتها ، وأغلقت المسارح الكبيرة في وجه العروض « المشبوهة » . وهكذا تحول الكثير من أقطاب التعبيرية مثل فالتر هازنكليفر ، وبروكنر ، وتسوكماير ، إلى تقديم عروض تخدم أهداف البرجوازية وكانت تلك عروضا تستهدف الإثارة الجنسية والتسلية لا غير .

غير أن المسرح السياسي تبقى رسالة سياسية ، قبل أن يبقى أساليب فنية . أو أنه ، بعبارة أخرى ، استنبط من الرسالة التي حددها لنفسه الأساليب الفنية التي تخدم هدفه لتوصيل رسالته . كانت هذه الرسالة مباشرة ، وواضحة ، ترمي إلى التأثير في الجماهير من أجل توعيتها ، واجتذابها إلى جانب المعركة ضد المجتمع الرأسمالي الطبقي ، للوصول الى مجتمع العدالة الاجتماعية والسلام . ولم يكن الأمر مجرد طرح أفكار ، بقدر ما كان استفزاز الجماهير ، وتحريضها على الثورة .

وقد ارتبط بهذا المسرح اسم ايروين بيسكاتور . كان رأي بيسكاتور أن الاهتمام بالشكل الفني للعرض من الممكن أن يطمس ملامح الرسالة السياسية ، كما أن النص المسرحي لا يجب أن يكتفي بتصوير أحداث شخصية ، أو انعكاسات الواقع الاجتماعي على الذات الانسانية ، كما فعل التعبيريون . فلابد أن يكون العرض المسرحي ، بكل مقوماته ، تحليلا للظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية . لهذا كان تأكيده على عرض الظروف التاريخية والاجتماعية عرضا مباشرا لا كمجرد خلفية للأحداث الشخصية . وهكذا فإن أي عرض لمسرحية روميو وجولييت ، مثلا ، لا يجب أن يؤكد خط قصة الحب ، بحيث تبدو الظروف الاقتصادية التاريخية التي تحكم التنافس والثأر بين عائلتي مونتاجيو وكابيوليت مجرد خلفية للأحداث ، بل أن تتأكد الخلفية ذاتها . ويصاحب تأكيد هذه الخلفية إسقاطات على شاشة سينما في خلفية الديكور للقطات من الحروب ، وإحصائيات للإنتاج الصناعي في بلدان العالم الرأسمالي ، ولعدد القتلى في الحروب ، ولاستغلال البشر في المستعمرات ، وما شابه ذلك . ومعنى هذا أن تحتل السياسة المستوى الأول ، وأن تتراجع القصة الشخصية إلى المستوى الثاني ، بهدف توضيح التناقضات الاجتماعية ، وإدانتها ، والدعوة إلى الثورة عليها وتغييرها .

(٩) برتولت بريشت ، « حول المسرح التجريبي » ، مسرح التغيير ، مقالات في منهج بريشت الفني ، اختيار ومراجعة قيس البيدي ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص١٨٣

وتتضح الخطة المسرحية التي ينبني عليها هذا المسرح في أسلوب عرضه لمسرحية راسبوتين تولستوي ، على سبيل المثال . وفي وصف البيئة المنظرية لهذه المسرحية ، والوسائل التكنولوجية التي استخدمها بيسكاتور مزاوجا بها بين الفن والعلم لخدمة أهداف مسرحه في عصر أصبح العلم والآلة فيه يحكمان تفكير البشر ، يقول سعد أردش :

كان الديكور بانوراما ضخمة من الخيش تمثل العالم ، وقد ركبت من أقسام ، تتيح للمخرج أن يفتح كلا منها على قطاع مختلف من خشبة المسرح ، يعرض عليه مشهد من العرض المسرحي ، بينما تعرض الأفلام السينمائية على البانوراما الأمر الذي تتشوه معه الأشكال بفعل ثنيات الخيش . وكانت موضوعات هذه الأفلام الأحداث الكبيرة ، السياسية ، والعسكرية ، المرتبطة بفترة خدمة راسبوتين في بلاط رومانوف ، بشكل يؤدي إلى توضيح الخطوط التاريخية لقدر أوروبا . وقد لعبت السينما في هذا العرض ثلاث وظائف : التعليم ، والتفسير ، والمناخ الدرامي . فالوظيفة الأولى تتحقق بتوسيع دائرة الأحداث التي تجري على خشبة المسرح ، بحيث تبدو نتيجة منطقية لما كان يحدث في الماضي . والوظيفة الثانية تتحقق باستفزاز الجماهير إلى ممارسة النقد والاتهام . أما الوظيفة الثالثة فإنها تتحقق باعتبار أن ما يقدمه الفيلم هو في الواقع بديل لما لا يستطيع الممثلون تقديمه على خشبة المسرح لأنه في هذه الحالة سيكون مصطنعا وغير مقنع[١٠].

وإذا أضفنا إلى استخدامه للأفلام السينمائية كوسيلة لتوسيع مجال الحدث ، وربطه بالظروف التاريخية ، وإبراز دلالاته السياسية ، استخدامه لوسائل أخرى مثل اللافتات والشرائح الزجاجية ، والأفلام التسجيلية ، فإننا نتبين في أعماله الأخرى بداية فكرة المسرح الملحمي ، التي قام برتولت بريشت بعد ذلك بتطويرها لخدمة نفس الهدف السياسي التعليمي الذي بدأه بيسكاتور . ومن خلال استفادة بيسكاتور من امكانيات التقدم التكنولوجي في العرض المسرحي ، فإنه ، كما يقول بريشت ، حول خشبة المسرح إلى قاعة آلات ، وحول صالة العرض إلى قاعة اجتماعات . ويضيف بريشت قائلا :

وبالنسبة إلى بيسكاتور كان المسرح برلمانا ، والجمهور هيئة تشريعية . وقد عرضت أمام هذا البرلمان بوضوح المسائل العامة الكبيرة التي هي بحاجة إلى قرار . وبدلا من خطبة النائب حول ظروف اجتماعية لا يمكن تفاديها ظهرت نسخة فنية لهذه الظروف . وطمع المسرح بدفع البرلمان - الجمهور - استنادا إلى الصور المسرحية والإحصائيات والشعارات الى اتخاذ قرارات سياسية . ولم يستغن مسرح بيسكاتور عن التصفيق ، لكنه طمع أكثر من ذلك بالنقاش . ولم يسع إلى تهيئة تجربة لمشاهده ، وإنما دفعه الى اتخاذ قرار عملي بالتدخل في الحياة بنشاط[١١].

كان بيسكاتور مضطرا إلى ابتكار هذه الأساليب حين فشل في أن يجد مسرحيات تنطلق من موقف اشتراكي . غير أنه وجد أن الامكانيات التكنولوجية لمثل هذه العروض التي تتلاءم مع أهداف مسرحه ، كانت تتطلب تمويلا لا يمكن للمسارح الشعبية أن تتحملها لذلك لم يكن أمامه إلا أن يعمل من خلال المسارح البرجوازية . غير أن هذه الأجهزة

(١٠) سعد أردش : المخرج في المسرح المعاصر ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٩ ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص١٩٨ .

(١١) برتولت بريشت ، حول المسرح التجريبي ، سبق الاستشهاد به ص١٨٦ .

بدأت تفرض عليه الدخول في مساومات أيديولوجية ، وتنازلات ، مما اضطره آخر الأمر إلى التخلي عن عروض مسرحية تستخدم آلات وتكاليف ضخمة ، والاتجاه إلى المنظمات العمالية ، وكانت هذه تتألف من فرق عمالية بسيطة ، وفرق هـواة تعمل بامكانيات متواضعة في مسارح النوادي . وقد أدى إغلاق المسارح البرجوازية الكبيرة في وجه مثل هذه العروض الى أن يحاول فنان المسرح أن يلائم بين تقنيات العمل وبين الوسائل المتواضعة المتاحة للفرق العمالية ، كان هذا هو الدور الذي كان على برتولت بريشت أن يستكمله في مسرحه الملحمي .

●●●

من الأفكار الشائعة بيننا في العالم العربي أن برتولت بريشت بدأ حياته الفنية كاتبا تعبيريا بمسرحية **طبول في الليل** التي عرضت لأول مرة في ميونيخ ، ١٩٢٢ . وربما استند هذا التفسير إلى أن بريشت يتناول في هذه المسرحية نفس الموضوع الذي كان يتناوله تعبيريون آخرون مثل كايزر وتوللر ، وهو موضوع الجندي العائد من ميدان القتال ليجد حبيبته قد خطبها أحد أغنياء الحرب ، فينضم إلى الثوار ، لكن خطيبته تلحق به ، فيهجر الثوار ويمضي معها . وربما تلتقي هذه المسرحية مع المسرحيات التعبيرية في اهتماماتها السياسية ، وتعريتها للعلاقة بين الرأسمالية والاستغلال والحروب . كان هذا هو التفسير الذي أضفاه عليها إخراج مسرح الجيب بالقاهرة ، ١٩٦٦ . لكن المسرحية في الواقع لا تعالج التمزق الداخلي في الشخصية ، بل التمزق في العلاقات الانسانية ، وتكشف طبيعة هذه العلاقات في مجتمع تسوده الثورة والانحلال الخلقي . بل إنها تحمل البذور الأولى لمسرح بريشت الملحمي[١٢] من توجه بخطاب مباشر إلى الجمهور ، وتنبيهه إلى أن ما يجري على خشبة المسرح ليس إلا تمثيلا . وهكذا تحطم المسرحية الإيهام المسرحي ، وتدعو الجمهور إلى التفكير . كذلك يدخل بريشت العالم الموضوعي إلى مجال الحدث ، بحيث يؤكد عالم الثورة ، والعلاقات البشرية ، لا عالم الذات .

بل إن موقف بريشت من التعبيرية كان موقفا واضحا . فقد كان يكره ، كما يقول جون ويليت ، أن يصنف مع التعبيريين لما يطرحونه من أفكار طوباوية مجنحة ، في أشكال فضفاضة ، ولإغراقهم في الذاتية التي لا تسمح للمسرح أن يخلق شعورا جماعيا مشتركا . ويورد ويليت قول بريشت عن مسرحيات إرنست توللر :

> انها في أحسن حالاتها كلام جرالد موزون . الرؤى فيها مسطحة ، يحسن بنا أن ننساها على الفور . الكون فيها مهلهل . والانسان مصور على أنه مادة ، بيان سياسي ، لا على أنه انسان . الانسان مجردا ، مفرد انسان ، وأموره قد أوكلت إلى أيد هزيلة[١٣] .

---

(١٢) راجع للكاتب المقال :

١ ـ « بريشت من العرض الملحمي » ، مجلة المسرح ، العدد ٢٦ ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٦ ، ص٧١ ـ ٧٤ .

٢ ـ « طبول في الليل » ، مجلة المسرح ، العدد ٢٩ القاهرة ، مايو ١٩٦٦ ص٣٦ ـ ٣٧ .

٣ ـ « المسرح الملحمي عند بريشت » مجلة المسرح ، العدد ٣٥ ، القاهرة نوفمبر ١٩٦٦ ، ص١١ ـ ١٧ .

٤ ـ « الانسان الطيب » ، مجلة المسرح ، العدد ٣٨ ، فبراير ١٩٦٧ ، ص٤٢ ـ ٤٤ .

(١٣) See John Willett, The Theatre of Bertolt Brecht, London, 1967 ed pp. 107-108.

والواقع أن ما حققه بريشت في هذه المسرحية ، وفيما تلاها : بعل (١٩٢٣) وفي ظلمات المدينة ، والانسان هو الانسان ، لم يكن إلا نوعا من الواقعية الجديدة التي مهدت لمسرحه الملحمي كما نعرفه ، حتى في ملامحها السياسية .

ولم تكن محاولة بريشت تطوير الشكل المسرحي من المسرحيات الواقعية الجديدة ، مرورا بالمسرحيات التعليمية التي تبرز الجوانب السياسية من خلال مناقشة جدلية(١٤) إلى المسرحيات الملحمية التي كتبها أو أعدها عن مسرحيات أخرى(١٥) سوى محاولة للوصول إلى أكثر الأشكال دقة في توصيل رسالة مسرحه السياسية . ولقد قامت بعض المحاولات لعزل مسرحياته الملحمية عن المسرح السياسي نتيجة لعدم توخيه أسلوب الجدل المباشر فيها . وفي هذا يقول ماكس شريدر :

> إن مسرح بريشت مرتب بمقدرة فائقة للحد الذي يحاول فيه أرباب الفن أن يقيموا الدليل على وجود تناقض بينه وبين المسرح السياسي . والحق أن مسرح بريشت قد وصل إلى تفوقه الفني واستطاع أن يخرج الحقائق السياسية إلى النور ، كما أنه يكرس كل ذكائه لإزالة الأنقاض ولبناء مجتمع رجال سياسة الكوارث(١٦) .

الحقيقة ، إذن ، أن بريشت قد وجد الشكل الدرامي التقليدي عاجزا عن توصيل أية رسالة سياسية بشكل يضمن استفزاز المتفرج ، وتحريضه على أن يكون إيجابيا في العمل لتغيير الواقع الاجتماعي . لقد عرف ارسطو الدراما التقليدية بأنها عرض يحاكي حدثا كاملا بذاته ، وأن هذا الحدث لا يروى وإنما يعرض بواسطة الأشخاص المشتركين فيه ، وهذا الحدث يثير الشفقة والرهبة ، وبذلك يطهر نفوس المتفرجين عن طريق إثارة إشفاقهم على الشخصية التراجيدية ، وخوفهم من أن يحل بهم نفس المصير .

ولنبدأ هنا بالحديث عن الفرق بين الأثر الذي يخلفه الشكل الدرامي والأثر الذي يخلفه الشكل الملحمي ، قبل أن نصل إلى تحديد مفهوم المسرح الملحمي .

إن المسرح الملحمي يعترض على إثارة الشفقة والرهبة في نفس المتفرج ، بقصد تطهير عواطفه ، وعلى جذب المتفرج داخل الحدث بحيث يتوحد مع البطل وينسى ذاته نسيانا تاما ، وعلى إثارة الإيهام بواقعية الأحداث في نفس المتفرج كوسيلة لتحقيق هذين الهدفين . فهو يرى أن المتفرج ، في مثل هذه الدراما التقليدية ، يفقد القدرة على التفكير فيما يجري أمامه ، ويسلب القدرة على مواجهة المشاكل السياسية وحلها بشكل فعال يقضي على أصل المشكلة المطروحة ، بعد أن تكون عواطفه قد تطهرت .

وقد كان هدف بريشت الأول أن يجعل المتفرج يرى العالم الحقيقي ، ويفهمه ، أن يجعله يفهم كيف تدور الحياة في المجتمع الرأسمالي المعاصر بحيث يسعى إلى تغييره . كانت هذه هي الرسالة السياسية التي كرس لها مسرحه الملحمي . ولهذا فإنه راح يقيم مسرحه على أساس عقلاني يكاد يخلو من

(١٤) الرجل الذي يقول نعم والرجل الذي يقول لا ، الاجراء ، القاعدة والاستثناء .

(١٥) اوبرا بثلاث بنسات ، المرأة الطيبة من ستشوان ، دائرة الطباشير القوقازية ، الأم شجاعة ، حياة جاليليو ، القديسة جون .

(١٦) ماكس شريدر ، « الاسلوب المسرحي عند بريشت » ترجمة عبد خليل خليفة ، مسرح التغيير ، سبق الاستشهاد به ، ص٨٥ - ٨٦ .

العاطفة في أداء الممثل ، أو في تلقي المتفرج ، بحيث لا يتوحد المتفرج مع الممثل فيفقد بهذا قدرته على إعمال عقله . فالمسرح الملحمي لا يخاطب العواطف ، بل يخاطب العقل ، بهدف توجيهه إلى الأفكار الثورية التي تتضمنها المسرحية .

فقد كان هم بريشت الأول أن يركز المتفرج انتباهه على المضمون السياسي في مسرحه . كان هذا هو الهدف الذي سخر له كل عناصر العرض من ديكور ، وأداء ، وحرفية مسرح ، وموسيقى وإضاءة ، والمؤثرات الأخرى من شرائح وأفلام . كل هذه المقومات تخضع عنده لنوع من الواقعية الجافة ، واقعية عصر العلم والآلة بحيث تتحول وسائل التسلية إلى وسائل تعليم تشحذ إمكانيات المتفرج العقلية ، وتحفزه إلى تغيير واقعه .

وكما هاجم بريشت فكرة التطهر ، كذلك هاجم فكرة الإيهام في الدراما التقليدية . ففي رأيه أن المؤلف ، والمخرج ، والممثل الذين يهدفون إلى خلق إيهام قوي بأن ما يجري على خشبة المسرح إنما هو أمر واقع فعلا الآن في لحظة المشاهدة ، إنما يتآمرون على المتفرج . فتوحد الجمهور مع الشخصيات يجعل التفكير مستحيلا تقريبا ، لأن نفوس الجمهور التي ترحف إلى داخل نفس البطل ، ترى الحدث كلية من وجهة نظره . وبما أنهم يتابعون ما يجري أمامهم على أنه حقيقي ، فإنهم لا يتوقفون لكي يفكروا بروح نقدية في المعنى السياسي للمسرحية .

ورأى بريشت في هذا صريح ، فالمسرح لابد من أن يحاول تحطيم أي إيهام بالحقيقة . ولذلك لابد من أن يكون واضحا لدى المتفرج أنه لا يشاهد أحداثا واقعية تجري أمام عينيه الآن ، ولكنه جالس في مسرح يسمع تقريرا حيا ، واضحا ، عن أحداث حدثت في الماضي ، في وقت ما في مكان ما . وعليه أن يسترخي في مقعده ، ويفكر في الدرس الذي يتلقاه عن هذه الأحداث الماضية . ومن هنا كان المسرح الملحمي مسرحا تاريخيا يذكر الجمهور بأنه يتلقى تقريرا عن أحداث حدثت في الماضي ، لا أحداث تجري الآن .

ثم إنه مسرح سياسي ، ينقل رسالة على المتفرج أن يستوعبها من خلال الانفصال عن الشخصيات والأحداث ، لا التوحد معها . وعلى المخرج أن يحاول بكل الوسائل خلق تأثيرات تحافظ على انفصال الجمهور وتغريبه عن الحدث ، كأن يجعل الشخصيات تقدم نفسها مباشرة إلى الجمهور ، أو أن تسقط أسماؤها على شاشة . ويستطيع أن يخبر الجمهور مقدما بنهاية المسرحية ، وبهذا يحرر عقل المتفرج من التشتت الذي يفرضه التوتر في المسرح التقليدي . كما يستطيع أن يستخدم رواية يصف أفكار الشخصيات والدوافع التي تحركها . وبهذا كان بريشت يقول إن المسرح مسرح ، وليس الحياة ذاتها .

كذلك كانت عناصر العرض المختلفة تخدم نفس الهدف . ففي ديكور المسرح التقليدي يهدف المصمم أيضا إلى خلق إيهام بحقيقة المكان . أما ديكور مسرح بريشت فيلغي الإيهام بهذه الحقيقة . فمصمم الديكور لا يعيد بناء منظر واقعي ، بل يتجنب وضوح الطبيعة من خلال اختيار دقيق من تفاصيل الواقع . فبدلا من غرفة كاملة يختار جانبا منها : مجرد حائط أو باب ، أو قطعة أثاث ، بأسلوب تلخيصي ، أو كما قال بريشت لمصمم ديكور الأم مورد خاي جورليك :

> لیکن لدينا منصة ، وسوف نضع على هذه المنصة كراسي ، ومناضد ، وفواصل ، كل ما يحتاجه الممثلون ، ولكي نعلق ستارا أعطي عامودا خشبيا ، أو قضيبا معدنيا . ولتعليق صورة أعطي جدارا . وسوف أحتاج شاشة كبيرة للعرض . لتكن رشيقة ، نحيلة ، ناعمة ، مثل الأعلام اليابانية ، هشة مثل الطائرات والمصابيح الورقية اليابانية ، واعمل حسابك أن تجعلنا ندرك النسيج الطبيعي للخشب والمعدن . وسوف نضع آلتي بيانو بشكل واضح في جانب من منصة المسرح ، ويجب أن تكون للمسرحية نوعية الكونسرت ونوعية الدراما . وسوف نبين وحدات الضوء وهي تضيء وتنطفىء ، وتتلاعب فوق المشهد[١٧] .

كذلك يظل ستار المسرح مفتوحا حتى يرى المتفرجون إعداد المنظر ، وكيف يشيد ، وكيف يزال أمامهم ، ليظلوا واعين بأنهم في مسرح ، وذلك لكسر الإيهام . ولنفس السبب تظل مصادر الضوء مكشوفة ، وتظل الإضاءة بيضاء صريحة حتى لا تستوعب المتفرج أية إضاءة ملونة مبهرة .

أما الموسيقى كعنصر تغريب في العرض الملحمي فهي أشبه بوحدة مستقلة لها كيان قائم بذاته . فهي ليست كالموسيقى تصاحب الحدث ، وتكون عاصفة في المناظر العاصفة ، وهادئة في المناظر الهادئة . لكنها تضاد الحدث ، فتسمع الموسيقى الهادئة في المشاهد العاصفة ، في علاقة تضاد جدلية تفصل المتفرج عن الحدث .

وأسلوب أداء الممثل يعتمد على ألا يعتبر الممثل نفسه متقمصا للشخصية ، بقدر ما هو قصاص يسرد علينا أفعال شخصية أخرى في لحظة من الماضي . فهو أشبه برجل يعيد على مسامعنا حادثة رآها تحدث لشخص آخر . ويعيد علينا روايتها . فبما أنه لا يريد أن ينقل المتفرج إلى حالة غيبوبة يفقد فيها وعيه ، فلابد أن يظل محتفظا هو الآخر بحضوره ، وبمالك حواسه ، وأن يبتعد عن الإيماءات العصبية ، ويكتفي بالإيماءات التي تكفي لحكاية قصة ، أو كما جاء في كتاب عمل المسرح لمسرح البرلينر انسامبل : « ان التمثيل في المسرح الملحمي يعني سرد حكاية »[١٨] .

ولعل هذا في التحليل الأخير ، ما يعنيه « المسرح الملحمي » . فهو ، عكس المسرح التقليدي ، ينقلنا إلى عالم الحكايات البعيدة ، عالم السرد التاريخي الملحمي . فمن الشائع عندنا أن نتكلم عن أساليب التغريب ، ونعني بها المسرح الملحمي . أما التغريب فليس في حقيقة الأمر سوى وسيلة لسرد ملحمة ، ولتصوير الأحداث على أنها حالة تاريخية تنتمي إلى الماضي ، حتى ولو كانت معاصرة . المسرح الملحمي ، إذن ، مسرح سردي تاريخي يحكي لنا قصة . والقصة هي تتابع أحداث تكون التجربة الاجتماعية ، وتصور تفاعل الشخصيات إحداها مع الأخرى . وهذا التفاعل هو الذي يبرز لنا مغزى التجربة الاجتماعي . ومن خلال التركيز على التعبير عن السلوك الاجتماعي لانسان تجاه آخر يحول بريشت الاهتمام من حياة الشخصيات الداخلية إلى الطريقة التي تسلك بها تجاه إحداها الأخرى ، أو بمعنى آخر إلى العلاقات الاجتماعية ، ومغزاها السياسي .

---

(١٧) Reproduced by John Willett, op. cit., p.149.

(١٨) « عمل بريشت مع الممثلين » ، من كتاب (العمل الفني) فرقة برلين ١٩٥٢ ، ترجمة محمد خليل حليمة ، المرجع السابق ص٩٢ .

ولعل المشاهد لا يفتقد في كل هذا المتعة التي يتوقعها من المسرح . هي بالتأكيد ليست المتعة العاطفية التي تستأثر بلبه في العرض الدرامي التقليدي . لكنها متعة جمالية حسية تصل إليه من خلال تأثيرات الديكور وبناء المشهد ، ومتعة جمالية عقلية من خلال جدليات الصراع في العمل نفسه ، والعلاقة الجدلية بين الوسائل المختلفة ، بين الموسيقى والمشهد الذي يؤدي مثلا ، وهي أيضا متعة اكتشاف المعنى ، وشحذ القدرة على الفعل والتغيير .

بهذه الأساليب كان بريشت يهدف إلى استخدام المسرح كوسيلة لخدمة المجتمع . فلقد كان مؤمنا بأن المسرح الملحمي بتركيزه على تصوير الانسان في علاقاته الاجتماعية ، كان قادرا على إيقاظ قدرات المتفرجين لإحداث تغيير في المجتمع . فهو لا يترك ، كما في المسرح التقليدي للمتفرج أن يستخلص النتائج الممكنة من العرض . بل إنه يزودنا بالخلفية الاجتماعية ، ويعلق عليها من خلال الراوي . فعن طريق إبقاء المتفرج في حالة عقلية نقدية تمنعه من رؤية الصراع كلية من وجهة نظر الشخصيات ، ومن تقبل عواطفها ودوافعها على أنها محكومة بالطبيعة البشرية والمجتمع ، ولا يمكن تغييرها ، يستطيع المسرح أن يجعل المتفرجين يرون التناقضات الموجودة داخل المجتمع ، وأن يجعلهم يسعون لتغييرها .

●●●

لم يكن من الغريب أن يتأثر المسرح الامريكي بموجة المسرح السياسي الالماني . فقد كانت بدايات الأزمة الاقتصادية الامريكية محسوسة حتى قبل أن تقع في ١٩٢٩ ، حين وجد ثمانية عشر مليون عامل أنفسهم عاطلين . وبالتالي تأثر المسرح الامريكي بالممارسات الفنية التي بدأها التعبيريون ورواد المسرح السياسي والملحمي ، خاصة وأن بيسكاتور نزح الى امريكا في ١٩٣٢ ، حيث عمل أستاذا بمعهد ومسرح ورشة الدراما ، وهناك أنشأ مسرحا تجريبيا ، وتتلمذ على يديه الكثير من الطلبة قبل أن يعود الى المانيا في عام ١٩٥٠ . كما أن بريشت الذي بدأ منفاه الاختياري في ١٩٣٢ ، انتهى به المطاف في امريكا في ١٩٤٧ حيث كانت كتاباته في الصحف والدوريات الاوروبية قد سبقته ، وحيث وصل الى قمة نضجه الفني في صياغة المسرح الملحمي . وكان من بين من عملوا معه المصمم المسرحي موردخاي جورليك الذي سبقت الاشارة اليه ، والذي سيرد ذكره فيما يلي :

وهكذا نجد بعض كتاب المسرح ، وعلى رأسهم جون دوس باسوس ومايكل جولد ، يتجهون في عام ١٩٢٧ الى تأسيس مسرح جديد باسم « مسرح الكتاب الجدد » . كان هذا مسرحا يعكس وجهة نظر يسارية ، ويهدف الى مزيد من مزيج من الفن والسياسة معا ، خاصة وان من بينهم من كان ماركسيا مثل جولد ، او متعاطفا مع الفكر الماركسي مثل ام جو باش . وقد تأثر هذا المسرح بحرفيات المسرح البنائي الروسي عند فيزفولد مايرهولد ، واسكندر تايروف ، كما تأثر بالمسرح التعبيري والسياسي في المانيا .

وقد اسهم كتاب هذا المسرح الجديد بالعديد من الأعمال[١٩] ، كانت كلها أعمالا ثورية من نوع الدراما التحريضية ، على غرار الاعمال التي كانت تقدم في اوروبا ، تدور حول الحياة الامريكية . لكنها كانت تختلف في أنها

---

(١٩) جون هوارد لوسون ، مكبر الصوت (١٩٢٧) النشيد العالمي ، (١٩٢٨) ، مايكل جولد ، الفام هوبوكن الحزينة (١٩٢٨) ، ام جوباش ، الأرض ، الفرولد (١٩٢٧) ، جون سيفون ، الحزام (١٩٢٨) ، ابتون سنكلير ، المسيجونون الصداعون (١٩٢٨) ، جون دوس باسوس ، مؤسسة الخطوط الجوية (١٩٢٩) .

استخدمت الأسلوب الطبيعي ، الذي رفضه التعبيريون وبيسكاتور وبريشت ، في تصوير بذخ حياة رجال الاعمال الامريكيين وبحثهم عن الجنس والسلطة ، وصراع نقابات العمال معهم ، والاستغلال الذي كان يتعرض له العمال والاقليات من السود واليهود على حد سواء . غير ان العروض التي قدمها المسرح كانت عروضا تتوخى البساطة دون الابهار فقد كانت الديكورات التي قام بتصميمها موردخاي جورليك ، وجون دوس باسوس تتوخى البساطة في تكوينها ، بحيث لا تعدو ان تكون تركيبات من الدرجات والمنصات الخشبية على خلفية عارية ، او كتلتين خشبيتين يمثل احداهما ممثلو الطبقة المستغلة من الاثرياء ويحتل الاخرى ممثلو العمال ، ويفصل بينهما ممر يرتفع في آخره برج . وكانت تشترك في العرض فرقة من موسيقى الجاز ، وكورس غنائي لمنع المتفرج من الاندماج في العمل والتركيز على القضية السياسية المطروحة[٢٠] .

غير ان هذا المسرح كان قد سبقه في ١٩٢٦ قيام المسرح العمالي ، الذي كان يتألف من اثنى عشرة مجموعة تتحد في مجلس عمال درامي ، ويشرف على قيادتها مسرح العمال العملي . كانت هذه المجموعات مكونة على غرار المجموعات التي تأسست في روسيا بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ ، وكانت تقدم عروضا نضالية في ساعات الراحة ، او في اثناء الاجتماعات العمالية . كان الممثلون عمالا يعرضون امام زملائهم بهدف نشر الوعي الطبقي بين العمال . بل انهم اتخذوا شعارا لهم : « طبقة ضد طبقة » . ولما لم يكن لديهم مسارح مجهزة يعرضون عليها ، فقد كانت التجهيزات والازياء التي تلزمهم بسيطة . مثل هذا المسرح لم يكن يلزمه اعمال محبوكة تتألف من مادة معقدة عسرة الهضم بالنسبة لجمهور كان كله من بين العاملين من المحلات التجارية والمخازن الاستهلاكية والمصانع ولا يستطيع متابعة حدث معقد طويل ، او هضم عمل لا يتوخى المباشرة . لهذا فقد اعتمد كليا على لوحات من حواريات قصيرة عن موضوعات الساعة ، تهدف الى الدعاية والتحريض .

وقد اتخذت اعمال المسرح العمالي شكل لوحات من أغان ورقصات تؤديها جوقة من العمال . وكانت كلمات الأغاني وحركات الراقصين تشبه اعمال جورج كايزر وارنست تولر التعبيريين الالمانيين . غير انها كانت تتخذ احيانا شكل مسرحية هزلية قصيرة بين عامل يساري وصاحب العمل الذي يعضده وزير وزعيم عمالي ، في حوار يحاول فيه العامل ان يسحق اعداء العمال ، وان يدعو العمال الى الانتظام في الحزب الشيوعي . وكانت المسرحية تنتهي بالنشيد الوطني العالمي تؤديه الجوقة .

ولم يلبث هذا النوع من المسرح ان اتجه الى نوع من الدراما التعليمية ، على غرار مسرحيات بريشت التعليمية ، تخلو من الصياح ، والدعوة الى الثورة ، والسباب ، والتصوير الكاريكاتيري للشخصيات ، وان ظلت دعائية

---

(٢٠) See Malcolm Goldstein, The Political Stage, American Drama and the Theatre of the Great Depression, N.Y., 1974.

وقد اعتمد هذا الجزء من البحث الحالي في جمع الحقائق عن المسرح السياسي ، دون الرأي الذي خرجنا به من قراءة هذه الحقائق ، على هذا الكتاب .

تحريضية . بل ان الحركة عمدت الى فتح ستديو يقوم فيه ممثلون ومخرجون مشهورون بتدريب مجموعة من العمال ، كان من بينهم الكاتب المسرحي الذي لمع اسمه فيما بعد ، كليفورد اوديتس . وقد انضم الى العمل مع هذه المجموعة اعداد من العمال الذين كانوا يعملون ممثلين غير متفرغين . ولم يلبث هذا الاستديو ان تحول الى « مدرسة المسرح الجديد » ، كما تأسست جمعية عمالية لتدريب العمال على الرقص . واتجهت الحركة الى تقديم عروض مسرحية ماركسية تدعو الى النضال ضد الرأسمالية والمجتمع الطبقي .

وكان من نتيجة هذا التطور ان قام بعض العمال بخلق اعمال درامية محبوكة تقوم على تصوير موقف متصاعد تتغير فيه مواقف بعض الشخصيات العمالية التي تميل الى اليمين . كانت هذه المسرحيات تدور حول الصراع الطبقي ، واستغلال العمال . وقد اسقطت هذه الاعمال جانب الدعاية التحريضية المباشرة ودعت الى ما اسمته « مسرح الفعل » ، وان لم يخل هذا المسرح تماما من العنصر الدعائي التحريضي .

ومن ابرز هذه الاعمال كانت مسرحية كليفورد اوديتس في انتظار ليفتي وتدور احداثها حول اضراب سائقي سيارات الاجرة . وقد قدمت المسرحية على مسرح عار ، حيث تجمع الممثلون في شكل عرض غنائي ، وراح كل واحد منهم ينهض من وسط المجموعة ليؤدي دوره ، ويشرح اسباب طرده من عمله ، مؤيدا الدعوة الى الاضراب . وكانت الخطة التي تقوم عليها المسرحية تجمع بين مشاهد من حياة العمال ، تتلوها فقرات من الحوار تكشف الطبقة المستغلة ، وتنتهي بتضامن العمال وتبنيهم الدعوة الى النضال . وربما كانت المسرحية تدور حول مشاكل فئة من الطبقة الوسطى الصغرى ، لكن الهدف كان بالفعل اجتذاب تعاطف هذه الفئة مع طبقة العمال .

وقد اجتذب هذا النوع من المسرح عددا من الاكاديميين والكتاب من العناصر الليبرالية ، الذين وجدوا في هذا اللون شكلا جديدا يسمح بالتجريب . وهكذا انضم الى هذه الحركة اثنان ممن كانوا يقومون بتدريس الدراما ، هما هالي فلاناجان ومارجريت كليفورد ، بمسرحية **هل تستطيع ان تسمع اصواتهم** ، كانت المسرحية تنويعا على الدراما الدعائية التحريضية ، تقوم على الاسس الدعائية من ناحية تقسيم المسرح الى جانبين يحتل احدهما فئة تمثل السلطة والثراء ، ويحتل الجانب الآخر مجموعة تمثل العمال والفقراء والضعفاء ، ويتبادلان فيما بينهما الشد والجذب .

ثم قام تشارلز ووكر ، وهو روائي وباحث في اقتصاديات العمل ، بانشاء اتحاد المسرح ، وقد ضم في عضويته كل اصحاب المبادىء ابتداء من الليبراليين الى اليساريين الثوريين ، بحيث لم يعد للمسرح هوية سياسية معينة . ولعلنا نستطيع ان نستخلص من هذا ان دخول المثقفين الى حركة العمال المسرحية قد ادى الى تمييع قضيتهم . ويتضح هذا في ان الدعوة الى الثورة فقدت دفعها ، وحلت محلها الدعوة الى الديمقراطية . هذا هو ما نلمسه في الجزء التالي من بيان المسرح ، رغم اللغة اليسارية التي صيغت بها اجزاؤه الأخرى ، أو تعقيبات أخرى اكثر ثورية . يقول البيان :

اننا نعرض مسرحيات تتناول بجرأة الصراعات الاجتماعية الجارية ، والمشكلات الثقافية والعاطفية

والاقتصادية التي تواجه الأغلبية . ومسرحياتنا تخاطب مباشرة هذه الأغلبية التي عادة ما يتجاهلها المسرح او يصورها بشكل كاريكاتيري . ونحن لا نتوقع أن تتلاءم هذه المسرحيات مع الأنماط الاجتماعية المتعارف عليها . فهذا نوع جديد من المسرح الاحترافي ، يقوم على اهتمامات وآمال الجماهير الغفيرة من العمال[٢١] .

وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه الجديد كان يضم جماعة من خريجي الجامعات الذين كانوا يؤمنون بالحل الاشتراكي ، واعين باستغلال الرأسمالية للعمال وبأن أصحاب الأعمال هم أصحاب المصلحة في إشعال نار الحروب التي يدفع العمال أنفسهم ثمنها ، وعلى الرغم من دعوة المسرحة للعمال ان يتحدوا في وجه الحرب والطبقة الحاكمة ، الا ان همه الأول كان تحقيق توازن بين الدعوة إلى الفعل الثوري وبين أساليب مسارح برودواي في العروض . وهكذا راح يعرض مسرحيات تصور هزيمة شخصيات ذات نوايا طيبة تحاول النضال ضد السلطة القائمة ، كما تصور الصراع بشكل ميلودرامي، أو بأسلوب طبيعي ، وهو الاسلوب الذي وجده المسرح الملحمي عاجزا عن تصوير العلاقات في المجتمع الطبقي . ويتضح هذا تماما من قراءة مسرحيات **وعلى الأرض السلام** لجورج سكلار والبرت مولتز ، **وستيفدور** لجورج سكلار وبول بيترز ، وبحارة كاتارو لفريدريك وولف . وقد أوجز أحد النقاد الرأي في مسار المسرح السياسي بقوله عن مسرحية الحفرة السوداء لألبرت مولتز :

لقد اتخذ البرت مولتز خطوة باتجاه آخر مختلف عن المسرحيات السابقة . **فأهمية هذه المسرحية** ترجع الى انها تدلل على نمط مختلف في اختيار المادة وفي التناول . فاذا كانت مسرحيات مثل **وعلى الأرض السلام** ، **وستيفدور** ، وفي انتظار ليفتي تصور الانسان وهو يقاوم هجمات الرأسمالية ، ويقاتلها بلا هوادة ، ويقهرها ، **على الأقل مؤقتا** ، فان **الحفرة السوداء** تتناول انسانا مسحوقا . وكلا النوعين من المسرحيات يكشف قوى الظلم ، لكن النوع الأول يكشفها من خلال وسائل مباشرة ، والثاني بشكل غير مباشر . وكلا النوعين دعاية مؤثرة بالتساوي . لكن تظل هناك خاصية اخرى مميزة . **ففي ستيفدور** تصور افعال البطل تصويرا دراميا ، لكن الحفرةالسوداء لا تصور افعال البطل **فقط** بل الصراعات الخلقية والنفسية . وبعبارة اخرى ، اذا كانت ستيفدور تؤكد الفعل ، فان **الحفرة السوداء** تؤكد الشخصية وليس هناك بطبيعة الحال ما يستبعد كلا من الشخصية والفعل من ان يوجدا في مسرحية بنفس الدرجة . وليس هناك ، فيما نرى ، أي شيء في تناول المادة التي تحدد الضغوط تناولا مباشرا ، أو غير مباشر . وما زال أمامنا في امريكا ان تنتج مسرحية ثورية تحقق توازنا فعالا بين الصراع الداخلي والأحداث الخارجية ، بين دراما الفرد ودراما طبقته[٢٢] .

إنه في الحالين يؤكد على تخلي المسرح عن الرسالة السياسية كما نراها في المسرح السياسي او في المسرح الملحمي .

---

(٢١) Ibid., p.59.
(٢٢) Ibid., p.74.

كما أن هذا الاستعراض الذي أوردناه يؤكد أن المسرح السياسي في امريكا بدأ يتجه - بدخول العناصر المثقفة فيه - إلى تصوير دراما الفرد أكثر من التأكيد على العلاقات البشرية في المجتمع الطبقي ، كما نراها في المسرح الملحمي . أو لعله ، في أحسن أحواله ، كان صيغة أمريكية أخرى مختلفة عن صيغة المسرح السياسية والمسرح الملحمي الالمانيين اللذين حاولنا التعرف عليهما .

هذا الفرق الجوهري يتضح في اتجاه المسرح الامريكي ، في مرحلته الأخيرة في النصف الثاني من العقد الرابع ، إلى العروض المبهرة كما في فى النسر الذهبي لسيلفين ليفي ، أو في تبني أسلوب مسرح ستانيسلافسكي الطبيعي ، وكذلك في استخدام الديكورات الفخمة الثقيلة ، والاستعراضات النسائية الراقصة المثيرة كما في السيدة المهذبة التي كتبها لوسون .

ولعل هذا التحول يمكن تفسيره في ضوء التحسن الاقتصادي الذي طرأ في منتصف الثلاثينات ، مما سمح للنزعة الفردية في المجتمع الامريكي أن تستعيد توازنها مرة أخرى . كذلك كانت يقظة المانيا تهدد بحرب عالمية أخرى ، مما كان يدعو الى تضامن كل القوى الاجتماعية للوقوف في وجه النازية ، مما ادى بالفعل الى اتجاه اليسار الى التحالف مع البرجوازية . كما ظهر اتجاه واضح ضد المسرحيات الدعائية التحريضية بحجة أنها « غير محترمة » وأنها حافلة بالشعارات . وهكذا لم تعد الدعوة الى الثورة هي الصيحة ، بل تحولت دعوة الى الديمقراطية ، والى حق الطبقات المختلفة في عرض وجهة نظرها . ومن المؤكد ، على أية حال ، أن المسرح السياسي المحترف تحول الى تقديم العروض المسرحية الموسيقية ، والاستعراضات الراقصة ، والكوميديا الاجتماعية الساخرة ، أي انه ، بعبارة أخرى ، تحول إلى مسرح اجتماعي ، وفقد صفته السياسية .

●●●

ولعلنا مما تقدم نستطيع أن نلمس أن المسرح السياسي هو في أساسه مسرح أزمات . فهو لا يزدهر إلا في ظل الأزمات الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، سواء في ألمانيا المهزومة والقهر النازي ، أو في امريكا الأزمة الاقتصادية . ولهذا فلم يكن من الغريب ان يحفر المسرح السياسي ، والمسرح الملحمي أثرا عميقا في المسرح العربي في ظل الصراع العربي - الصهيوني الذي ألقى بظله الكئيب على الساحة العربية ، وعلى وجه الخصوص بعد هزيمة ١٩٦٧ بكل آثارها التاريخية والانسانية .

هكذا جاء اتجاه الفريد فرج الى نوع من المسرح السياسي في النار والزيتون التي عرضت في المسرح القومي بالقاهرة في ابريل ١٩٧٠ . لم تكن بالضبط نفس المسرح السياسي الذي قدمه بيسكاتور ، ولا المسرح الملحمي كما نعرفه عند بريشت . كانت نوعا له نفس اساليب العرض الفنية ، ونفس الرسالة السياسية . لكن رسالتها تجيء بشكل اكثر مباشرة من خلال التسجيل الوثائقي لحقائق تاريخية سياسية ، الذي نجد شبيها له في المسرح التسجيلي عند بيتر فايس .

والنار والزيتون لا تعتمد على تصوير حدث شخصي ، او عالم ذاتي ، او تفاصيل بين عالم الذات والعالم

الموضوعي . فهي مسرحية تتناول اساسا عالم الواقع الخارجي ، حيث صراع القوى الاقتصادية والسياسية التي تحاول تشكيل الواقع العربي المعاصر . والكاتب نفسه ينطلق من وعي بالغ الحدة بما يبغي طرحه . فهو يريد ، في المقام الأول ، أن يطرح قضية عامة ، لا قضية شخصية . فالقضية ، في نهاية الأمر ، قضية شعب ، ربما كان له وجه فلسطيني ، لكنه وجه يلوح على كل الأفق العربي . هو وجه له امتداده الجغرافي ، وجذوره التاريخية . ازاء هذه الخاصية العامة لا يملك الفريد فرج ان يتصدى لهذه القضية ، كما يقول في مقدمة المسرحية ، من خلال اختيار « قصة شخصية ، ذات دلالة شاملة ، لأحد الضحايا او لاحد المناضلين في هذه القضية »، فهو لا ينشد « اقل من طرح قصة شعب كامل »[٢٣] .

ولى ذلك تظل القضية المطروحة ذات مستويات متعددة . فمن خلال طرح مؤامرة الرأسمالية العالمية ، والامبريالية ، والصهيونية لاغتصاب فلسطين ، يتوسل الكاتب الى طرح القضية على مستوى كوني ، بحيث تصبح الثورة الفلسطينية جزءا من الثورة العالمية في فيتنام ، انجولا ، بوليفيا ، وغيرها ، ضد الامبريالية في كافة وجوهها ، والتي اكتسبت في مرحلتها الأخيرة ملامح الصهيونية العالمية . وليس الهدف النهائي مجرد طرح القضية على هذا النحو ، بل استفزاز الغضب ، والشحن ، والتعبئة ، والتحريض .

مثل هذه القضية ذات الامتداد التاريخي ، والجغرافي لا يمكن ان نتصور لها اطارا منظريا محددا . ولذلك لا يملك المؤلف الا ان يطرحها على خشبة مسرح عار ، مستغلا كل وسائل المسرح السياسي والوثائقي ، وكل الوسائل التكنولوجية الممكنة . فهناك ستار من الضوء يفصل مقدمة المسرح عن عمقه ، واقل ما يمكن من التجهيزات اللازمة لتصوير بيئة منظرية لمشهد درامي قصير ، وهناك شاشة عرض سينمائي في عمق المسرح . على هذه تسقط مشاهد فيلمية ، او شرائح ثابتة ، لأرض التدريب في معسكر ، لمعالم طريق جبلي يشقه الفدائيون في طريقهم لنسف مصنع ذخيرة في مستعمرة اسرائيلية ، لمشاهد الاعتقال الجماعي ، والقتل الجماعي في كفر قاسم ودير ياسين ، لمشاهد الهجرة الجماعية فوق جسر اللنبي ، كما تسقط افلام تسجيلية اخبارية . وهذه الشاشة تكتسب نكهة محلية في استخدامها وسيلة لعرض من عروض خيال الظل تصور عربات تجرها بغال ، او لوريات محملة بركاب عرب ، قبل ان يتجسم الركاب على خشبة المسرح افرادا يخضعون للاعتقال ، والاغتصاب ، والتعذيب ، والقتل .

وبالاضافة الى استخدام السينما ، هناك استخدام لوحات تحمل احصائيات بتعداد فلسطين من العرب واليهود في ظل الانتداب الانجليزي قبل ١٩٤٨ ، وبمقدار مساحات الأرض التي كان يمتلكها العرب واليهود ، وبتعداد العمال الزراعيين العرب ، وظروف حياتهم وعملهم ، بالمقارنة الى نظائرهم من الاسرائيليين ، واحصائيات عن المدارس وظروف التعليم ، ونسبة الطلبة العرب الى الطلبة الاسرائيليين . وهناك ايضا لافتات بأسماء الشخصيات الصهيونية التي تشترك في اداء مشهد ، أو تلقي بمقولات تاريخية .

---

(٢٣) الفريد فرج ، النار والزيتون ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص٣

واستخدام هذه الوسائل لا يهدف فقط إلى نقل معلومات إخبارية تاريخية إلى المتفرج ، أو إلى نقل تقرير تاريخي فهو يخدم أيضا نفس هدف المسرح السياسي ، والملحمي ، في خلق مسرح آلي . والفريد فرج واع تماما بهذا ، اذ يقول في مقدمة مسرحيته :

اني اطمح بتأليف هذه المسرحية الى التقدم خطوة نحو المسرح الميكانيكي المركب ، مسرح الفريق الكامل ، المسرح الذي يعمل كالآلات الدقيقة بقدرة وكفاءة ومهارة بحيث يكون لهذا الضبط الداخلي الدقيق قوة تضفي على مهارات الخلق الفني الطلق أطارها وإحكامها وحسن استثمارها[٢٤] .

كل هذه الخلفيات التقنية ليست الا وسائل لخلق مسرح شامل يقوم على تصوير مشاهد درامية تشخص صراعا انسانيا ، او معاناة انسانية تكشف علاقات القوى المتورطة في الصراع السياسي والعسكري ، كما يقوم على حكايات عن مآسي الهجرة الجماعية ، وحياة اللاجئين في الخيام ، والكفاح ، والاستشهاد ، وعلى تصوير لقاءات صحفية تذكرنا بمسرح الجريدة الحية ، وعلى الغناء الجماعي ، وتعليقات الجوقة ، والخطاب التقريري المباشر ، والتمثيل الصامت ، والرقص التعبيري الذي يعبر بالحركة عن كلمات المغنين على نحو ما نعرفه في مسرح بريشت .

المسرحية تستخدم إذن ، كافة الوسائل التي يتيحها المسرح الشامل لطرح قضية سياسية ، ولخلق مسرح دعائي تحريضي يستفز الجمهور الى فهم القوى السياسية ، الاقتصادية ، العسكرية ، التي تدير المعركة العربية الاسرائيلية . ومن خلال هذا الفهم يستفز المسرح الجمهور الى التحرك ضد الرأسمالية التي تسحب خيوط مؤامرة فلسطين ، وضد الامبريالية ، والنازية الصهيونية الجديدة ، لتغيير هذه الظروف بالقوة .

ولم يكن سعدالله ونوس في حفلة سمر من اجل ٥ حزيران أقل طموحا . فالتجربة التي تعرضها المسرحية لا يمكن ان تحدها حدود شخصية . ولم يكن في امكان الفنان ان يعبر عن هزيمة ١٩٦٧ على امتداد العالم العربي من خلال دراما شخصية ، او مجموعة من الشخصيات ، او كما يقول عبدالغني الشاعر ، المؤلف المسرحي في هذه المسرحية : « . . . المسرح . . اجل المسرح ، ولكن هذه المرة كم ان رقعته اوسع من الخشبة الصغيرة التي يمثلها مسرحنا »[٢٥] . حدة التجربة هنا ، واتساع رقعتها ، تفجر في الكاتب تصورا لشكل مسرحي جديد يحكمه هدفه السياسي الذي لا ينحصر فقط في التوعية ذلك انه يدرك ان وعي الجماهير اكثر اصالة من ان يزيف او ان يضاف اليه جديد ، بل في استحضار التجربة بكل ابعادها في لحظة حادة بهدف التعبئة والتحريض .

اننا هنا امام نوع من المسرح الواقعي الخشن ، مسرح شخصياته بلا ملامح شخصية ، ولا هموم خاصة . هي ، كما يقول المؤلف :

---

(٢٤) المرجع السابق ، ص٨ .

(٢٥) سعد الله ونوس ، حفلة سمر من اجل ٥ حزيران ، بيروت ، ب . ت ، ص١٩ .

أصوات ومظاهر من وضع تاريخي معين . ان الافراد بذاتهم لا يملكون اية ابعاد خاصة ، وملامحهم ترتسم فقط بما يضيفونه من خطوط او تفاصيل على صور الوضع التاريخي العام الذي هو شكل المسرحية ومضمونها في آن واحد [٢٦] .

هذه الصفة التاريخية هي التي تسقط عن الشخصيات ، والحدث المسرحي ، اي مجاز ممكن ، او اسقاط ، او رمزية . فهي شخصيات لا تميزها ملامحها ، وتتجاوز هذه الملامح الى صفات نمطية ، او رموز ، بل تميزها في الاساس اتجاهاتها ، ومواقفها من الحدث الاكبر ، هزيمة حزيران . اننا بعبارة اخرى ، امام نوع من المسرح التاريخي الذي يتم الى حد تعبير هيجل بتصوير « كلية الحركة »[٢٧] ، او كافة الاتجاهات الممكنة التي تتجسم في لحظة تاريخية حاسمة في حياة امة ، لتنصب على هذه اللحظة التاريخية . وهي شبيهة بمسرح بيسكاتور السياسي من حيث انها تركز على الخط العام ، لا على الخط الشخصي .

وتصوير هذا الوضع التاريخي يأخذ شكل الصراع بين المسرح الرسمي وما يمكن ان نسميه بالمسرح الشعبي : المسرح الرسمي الذي يحاول ان يبدي ولاءه للسلطة ، وان يساندها من خلال عروض تعتمد على خلق صور وتأثيرات درامية تفرغ الوضع التاريخي من محتواه الانفعالي والفكري ، والمسرح الشعبي الأكثر تلقائية ووعيا . الصراع في جوهره اذن ، صراع بين السلطة والجماهير الشعبية .

واللحظة التاريخية التي تتناولها المسرحية تتجسم على المسرح من خلال اتجاهين اساسيين : اتجاه يمثله المخرج ، واتجاه يمثله الناس . والاتجاهان يصطدمان حول الاسلوب الممكن لتصوير الكارثة . فالمخرج ، رغم ادراكه للظرف التاريخي الصعب الذي يسعى لتجسيده على المسرح ، يرى ان « الذاكرة ليست اختصاص المسرح ، لعلها اختصاص المؤرخ ، اما هنا فاختصاصنا الوحيد هو الفن . . . »[٢٨] وهو لذلك لا يزعم انه « يقدم نسخة وثائقية عما حدث . نحن هنا في سياق عمل مسرحي . . . »[٢٩] ، ويسعى الى تصوير الهزيمة من خلال تأثيرات سمعية وبصرية جمالية ، في صور لا تعبر عن الواقع ، بقدر ما تعبر عن تصور برجوازي مهترىء ، يخدر المتفرجين ، ويسلبهم القدرة على الفعل الايجابي في مواجهة الواقع المهين .

ولما كان الحدث السياسي في حفلة سمر يتم من خلال منظور جدلي يقوم على تصوير الفعل ورد الفعل ، فان تصور المخرج يدفع الجمهور الى الاحتجاج على هذا الاحتيال على اللحظة ، والتآمر على مشاعره وعقله : « نحن عشنا الصورة الواقعية »[٣٠] ولهذا يتجه الجمهور الى احتلال خشبة المسرح لطرح صورة اكثر واقعية وحيوية وعفوية .

---

(٢٦) المرجع السابق ، ص١٠٣ .

(٢٧) Georg Lukacs, op. cit., p.93.

(٢٨) سعد الله ونوس ، حفلة سمر ، ص٨-٩ .

(٢٩) المرجع السابق ، ٢٧ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص١٠٢ .

ففي حين بدأت المسرحية بخشبة المسرح الرسمية تخاطب الجمهور ، تنقلب الآية بحيث تصبح الصالة هي التي توجه خشبة المسرح ، او لنقل تخاطب خشبة المسرح .

المخرج : . . . الخشبة لنا ومقاعد الصالة لكم . تلك ابسط قواعد المنطق . وسيعلمك هذا كثيرا مما كنت تجهله .

المتفرج : قلت لك حاول مرة ان تكون متفرجا[31] هكذا تتبادل خشبة المسرح والصالة مكانيهما . عندئذ تتحول خشبة المسرح الى مسرح سردي ، يستعير الكثير من ادوات المسرح الملحمي ، يحكي عن الحرب ، والهجرة الجماعية والاكاذيب التي كانت تلقى الى الناس . هي حكايات تروي قصة اللحظة التاريخية من وجهة نظر شعبية . وهي حكايات تأخذ في لحظات شكل الخطاب المباشر الذي يوجه الى الجمهور :

المتفرج ٤ ـ كانت تلك حربنا .

المتفرج ٣ ـ ضد الغاصبين واللصوص .

المتفرج ٤ ـ كانت تلك حربنا .

المتفرج ٥ ـ ضد حماة اللصوص .

المتفرج ٤ ـ كانت تلك حربنا .

المتفرج ٦ ـ ضد الجوع والبؤس والموت كل يوم .

المتفرج ٤ ـ كانت تلك حربنا .

المتفرج ٥ ـ ولمنيا جميعا ان نكون ذلك الذي كالجنود يحمل بندقية ، لكنه لا يلبس ثيابا خضراء وعن الجنود يختلف[32] .

ان ما كان يقال سرا ، ينطلق الآن في ارجاء المسرح جهرا . فقد حول سعدالله ونوس المسرح الى قاعة اجتماعات تسيطر عليها الجماهير . وفي هذا المسرح الاستفزازي التحريضي يجد المتفرج طرحا لقضاياه الجوهرية يحفزه الى التحرك ضد الاعداء الذين يتآمرون عليه من الخارج ، والأعداء الذين يتآمرون عليه من الداخل ، ضد الهزيمة التي تمت ، والهزيمة التي مازالت مستمرة من خلال قوى القمع ، وهي القوى التي تنقض في نهاية المسرحية من بين الصفوف لتكمم الاصوات التي انطلقت من فوق خشبة المسرح .

وفي لبنان ، كان من الطبيعي ان ينبثق ايضا ، في ظل الظروف التي يمر بها ، نوع من المسرح له نفس الأهداف السياسية . ومن ثم كان مسرح الحكواتي . وهو مسرح ينطلق من موقف رافض للمسرح التجاري الاستهلاكي الذي تقوم البرجوازية بتمويله ، ويقوم على عروض تستهدف الاثارة والتسلية ، مثلما هو رافض للمسرح الرسمي الذي تقوم الدولة بتمويله ، ويعبر عن وجهة النظر الرسمية ، ولا يسمح بالتعبير عن الرأي المعارض او وجهة النظر الشعبية . مثل هذين المسرحين يتسمان ، من وجهة نظر مسرح الحكواتي ، بانعدام الاصالة ، كما يتسمان بقمع الرأي المعارض . فالمسرح السائد « مسرح غربي وقمعي في جوهره »[33] وهكذا يأتي مسرح الحكواتي مسرحا سياسيا في المقام الأول .

---

(٣١) المرجع السابق ، ص١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٣٢) المرجع السابق .

(٣٣) « بيان مسرح الحكواتي » البيان ، العدد ١٦٣ ، الكويت ، اكتوبر ١٩٧٩ ، ص٦ ـ ١١ .

هذا الموقف السياسي يتضح في خطوات العمل التي يحددها لانتاج عروض . فهو يبدأ من النقاش بين الاعضاء « من اجل الوصول الى وعي مشترك لمتطلبات الظرف والواقع »،[٣٤] والظرف والواقع ، اللذان ينطلق منها النقاش ، يتسمان بالصراع بين البرجوازية والفئات الشعبية . وهو صراع يأخذ شكل تشابك مصالح البرجوازية والاستعمار والصهيونية من ناحية ، وتشابك مصالح القوى المحلية الوطنية التقدمية والمقاومة الفلسطينية من ناحية اخرى . لذلك كان « الوعي المشترك » الذي ينشد المسرح الوصول اليه ، وتوصيله ، وعيا سياسيا في المقام الأول .

هذه الهوية السياسية تتضح معالمها اكثر في توجه المسرح توجها شعبيا . فهو يختار اعضاء الفرقة من خلال نوعية ارتباطهم بالجمهور الذي يمثلونه . وهو في هذا يؤكد على انتماء الاعضاء الى « اصول شعبية »[٣٥] كما يعتمد في اختياره لموضوعات من الحكايات الشعبية والتراث والتاريخ ، وهي ما يشكل في الاساس الذاكرة الشعبية ، وينتقل بعروضه الى مواقع الجماهير في الاندية ، والجمعيات المحلية ، والفروع الحزبية ، وينشد انتشار العمل المسرحي « بين اوسع الفئات الشعبية»[٣٦] وربما كان مكان العرض وامكانيات التمويل ، هي ما يفرض على عروض هذا المسرح البساطة في الديكورات والتجهيزات والاضاءة والازياء . لكن الهدف الاساسي في هذا كله ، وهو الهدف الذي وضعه المسرح نصب عينيه ، هو تكوين اسلوب مسرحي شعبي .

وربما نلتمس في اسلوب العرض ، واماكنه ، والتوجه الشعبي شيئا من اصول المسرح السياسي الامريكي : مثلما نلمس في الموضوعات المطروحة ، واعتماد الحكاية الشعبية مضمونا واسلوبا ، بعض ملامح المسرح الملحمي . فشأن المسرح الملحمي يعتمد العرض اساسا على الحكاية الشعبية التي تعيد الجمهور الى علاقاته بواقعه ، كما يستخدم الراوي ، والأدوات المسرحية البسيطة والمكشوفة لخلق التغريب الذي يخلق الانفصال النقدي الذي يركز لدى المشاهد المدلول السياسي للحكاية المعروضة . والصفة الملحمية تتأكد في اعتماد مسرح الحكواتي على ان « يشترك الجميع في بلورة طبيعة العلاقات التي تربط بين شخصيات المشهد »،[٣٧] أي انه يؤكد على العلاقات البشرية ، لا على الطبيعة البشرية مثلما يحدث في المسرح الدرامي التقليدي . كما ان اعداد الممثل من خلال الاداء الارتجالي الجماعي ، ثم المناقشة من اجل تحديد التركيب المسرحي الصحيح للمشاهد وتحديد اسلوب الاداء المناسب »[٣٨] يذكرنا مرة اخرى بأسلوب بريشت في الاخراج ، وهو الذي لم يكن يفرض على الممثل تأدية الدور ، في اطار الاداء الملحمي ، بشكل معين ، بل يطلب منه ان يكتشف ، من خلال الاداء الفعلي ، اثناء التدريبات ، طبيعة الشخصية التي يؤديها ، وطبيعة سلوكها ، قبل ان ينتقل الى مرحلة انفصاله عنها .

وربما دعا توفيق الحكيم من قبل الى استخدام الحكواتي كشكل شعبي ، او دعا يوسف ادريس بعده الى استخدام شكل السامر كشكل عربي شعبي ايضا . لكن الاضافة الحقيقية التي يضيفها مسرح الحكواتي اللبناني الى هاتين الدعوتين هي البعد السياسي بالتحديد ، واستفادته من تجارب المسرح الملحمي على وجه الخصوص ، من اجل نشر الوعي السياسي ، والدعوة الى تغيير الواقع من خلال الفعل الايجابي ، وهو ما كان على الدوام هدف المسرح السياسي .

---

(٣٤) المرجع السابق ، ص٧ .
(٣٥) المرجع السابق ، ص٨ .
(٣٦) المرجع السابق ، ص١٠ .
(٣٧) المرجع السابق ، ص٩ .
(٣٨) المرجع السابق ، ص٩ .

وسائل الاعلام وأثرها في شخصية الفرد

مصطفى أحمد تركي
أستاذ مساعد - قسم علم النفس
جامعة الكويت

١ - مقدمـــة :

يرى رجال الاعلام أننا نعيش الآن في سنوات الثورة الاعـلامية الثـالثة ، سنـوات السينـما والاذاعـة والتليفزيون . (حدثت الثورة الأولى بظهور المطبعة ، والثورة الثانية بظهور وكالات الأنباء) وتتميز الثورة الثالثة بأنها أتاحت للجمهور فرص اختيار هائلة بين الاستماع ، أو القراءة ، أو المشاهدة ، ولم تكن هذه الفرص متوفرة بهذا القدر من قبل .

ومن علامات الثورة الاعلامية الثالثة أن وسائل الاعلام احتلت مكان الوالدين والمدرسين في نقل العلم والمعرفة الى الأفراد ، فأصبح معظم التعليم يتم خارج الفصل الدراسي ، وأصبحت الكمية الفائقة من المعلومات التي تنقلها الصحف والمجلات والأفلام والاذاعة والتليفزيون في أيامنا هذه ، تفوق بكثير كمية المعلومات التي ينقلها مدرس الفصل ، وهذا التحدي حطم احتكار الكتاب كمساعد أساسي في العملية التعليمية ، وأحدث شرخاً في حائط الفصل الدراسي أدى الى إرباكنا . (٣ ص ٨٦ ، ١١ ص ١٦) * .

وخلال السبعينات من هذا القرن ، ظهرت مؤشرات جديدة تدل على تجدد واستمرار الثورة الاعلامية الثالثة ، فاتضح للعلماء أن هناك جوانب من السلوك الانساني تؤثر فيها وسائل الاعلام ، ولم يكن ذلك معروفاً لديهم قبل السبعينات ؛ كما برز عدد من الموضوعات الهامة التي أدت الى اتساع مفهوم « تأثير وسائل الاعلام » ، فازداد الاهتمام بموضوعات مثل دور النمو المعرفي عند الأطفال في فهمهم البرامج التليفزيونية ، وما اذا كان « المعنى » الذي يستخلص من الرسالة المطبوعة يدرك بنفس الطريقة التي تستخلص من التلفزيون ؟ ثم دور وسائل الاعلام في النمو الاجتماعي والاقتصادي .

---

* تشير الأرقام التي بين القوسين في نهاية الفقرة الى رقم المرجع ثم رقم الصفحة .

وبظهور تأثير وسائل الاعلام في عصرنا الحديث ، في هذه الجوانب ، ساد الاقتناع بين الباحثين والمربين ، والسياسيين ، ورجال الاعلام ، ورجال الأعمال ، بأن وسائل الاعلام تؤثر في كل جانب من جوانب السلوك : كالسلوك السياسي ، والسلوك الاجتماعي ، وسلوك المستهلك ، والصحة والتعليم ، والمعارف المهنية . وبايجاز أصبحت وسائل الاعلام لها دور حتى في تكوين الصور الذهنية عند الأفراد عن الدول والمواقف والأحداث ، بل يمكن القول انها تؤثر في الطريقة التي يدرك بها الناس الأمور ، والطريقة التي يفكرون بها ، وفي سلوكهم نحو عالمهم الذي يعيشون فيه . (١ ، ١٥) .

من هذه المقدمة السريعة عن مدى تأثير وسائل الاعلام في السلوك الانساني ، يتضح لنا أن هناك نوعين من التأثيرات التي تحدثها :

الأول على الأفراد الراشدين ، وهو ما سوف نطلق عليه في هذه الدراسة « التأثير المتعاصر » .

والثاني التأثير على الأطفال ، وهو ما سوف نطلق عليه « التأثير النمائي » . أما الأول فيحدث للأفراد وهم في مرحلة البلوغ والنضج ، أي بعد عبورهم مرحلة الطفولة ، والتأثير في هذه المرحلة العمرية يتم بالتفاعل بين شخصية الفرد الذي يتعرض للرسالة الاعلامية ، والرسالة الاعلامية ذاتها ، وكانت الدراسات السابقة قبل الخمسينات تركز على هذا التأثير المتعاصر ، فدرس العلماء تأثير وسائل الاعلام على تغيير الاتجاهات ، وتوجيه وخلق الرأي العام ، وخاصة في الانتخابات والدعاية ، والاعلام السياسي ، والتجاري .

أما النوع الثاني من التأثيرات وهو التأثير النمائي ، فهو الذي يهتم بدراسة أثر وسائل الاعلام في سلوك الأطفال خلال مراحل نموهم منذ الطفولة وحتى البلوغ ، وقد بدأت مثل هذه الدراسات بعد ظهور التليفزيون خاصة . وهذا النوع من التأثير هو موضوع الدراسة الحالية التي بين أيدينا .

وحتى يتضح التمييز بين النوعين من التأثيرات نتحدث بايجاز عن التأثير المتعاصر لوسائل الاعلام ، قبل أن ننتقل الى موضوعنا الرئيسي .

٢ ـ التأثير المتعاصر لوسائل الاعلام :

يمكننا القول ان التأثيرات الأساسية لوسائل الاعلام في التأثير المتعاصر هي تأثيرها في الجانب المعرفي عند الفرد أي اعطاؤه معلومات جديدة تختلف عن معلوماته السابقة ، وتغيير أو تعديل أو خلق صور ذهنية عنده عن الأحداث أو المواقف أو الدول أو الأشخاص . ويحدث تأثير الرسالة الاعلامية اذا كان مضمونها يتفق مع بعض جوانب شخصيته ودوافعه وقيمه ولذلك فان الرابطة الأساسية بين مضمون الرسالة الاعلامية والسلوك الاجتماعي للشخص الراشد تصاغ من خلال التفاعل بين المعلومات المنقولة من جهة وبين العمليات المعرفية عند الفرد الراشد ، وشخصيته بصفة عامة من جهة أخرى .

وهذا يعني أن استجابة الأفراد لهذه الرسالة تختلف من فرد الى آخر وأحد الاتجاهات الحديثة في مجال دراسات وسائل الاعلام ، الاهتمام بمعرفة الظروف والمواقف التي على ضوئها يستجيب الأفراد للرسالة الاعلامية .

ولأن الوسائل الاعلامية أصبحت في عصرنا أهم مصدر نستقي منه معلوماتنا ومعارفنا عن العالم المحيط بنا ، كما أوضحت ذلك الدراسة التي أجريت عام ١٩٧٧ على العينة القومية الأمريكية ، حيث تبين أن ٩٥٪ من أفراد العينة أجابوا على السؤال : من أين حصلت على معلوماتك حول ما يدور في العالم ؟ أجابوا بأنهم حصلوا عليها من وسائل الاعلام . فمن هنا يأتي تأثير وسائل الاعلام ، ويتضح مدى أهميتها في توجيه سلوك الفرد الراشد ، فيمكن مثلاً لوسائل الاعلام أن تبث ما تريد في ثنايا المعلومات والمعارف والأخبار ، وبالتالي تحدث تأثيرها على الأفراد الذين يتلقونها بالطريقة وبالاتجاه المطلوب .

ونحن جميعاً في العالم العربي نستطيع ببساطة أن ندرك مدى استخدام وسائل الاعلام الأجنبية في إعطاء العالم المحيط بنا صورة مشوهة عن الفرد العربي ، وقد لا ندرك مدى الجهد المطلوب لازالة أو التخفيف من هذه الصور المشوهة عنا .

ومن التأثيرات الهامة لوسائل الاعلام على الفرد الراشد هو أن وسائل الاعلام تلعب دوراً أساسياً في خلق وتكوين ما يسمى « بيئة الرأي » ، فحيث ان الناس يتحاشون العزلة الاجتماعية ، فانهم يميلون لأن يعبروا عن الآراء التي تؤيد ما يدركون أنها آراء سائدة أو شائعة بين الجماعة ، ويقمعون الآراء التي يرون أنها « غير شائعة » ، وهذا يدعم بدوره رأي الأغلبية ، الذي يؤدي بالتالي الى قمع أكثر لرأي الأقلية ... وهكذا . ويطلق العلماء على هذا الميكانزم « لولب الصمت » وتلعب وسائل الاعلام المختلفة دوراً هاماً في هذا المجال ، ازاء القضايا المطروحة للجماهير وتتطلب رأياً عاماً .

ومن التأثيرات المتعاصرة الهامة لوسائل الاعلام أيضاً ، ويركز عليها علماء العلوم الاجتماعية حديثاً ، مساهمة وسائل الاعلام في نقل الثقافة ، أي نقل ثقافة مجتمع الى مجتمع أو مجتمعات أخرى . ففي دراسة أجريت عام ١٩٧٩ في كندا عن المناطق التي كانت معزولة في شمال كندا ، وبعد ادخال الارسال التلفزيوني اليها ، اتضح أن التلفزيون قد أسرع بنقل البناء الثقافي والقيمي الأوربي - الكندي الى المراهقين في هذه المناطق المخدومة حديثاً بالارسال التليفزيوني ، مما أدى الى زيادة الهوة الثقافية بين هؤلاء المراهقين وآبائهم الأكثر تمسكاً بتقاليدهم . (١٥) .

ونحن في العالم العربي نعيش خبرة من هذا النوع ، فالفرد العربي المثقف يكاد يعرف بدرجة كبيرة من الدقة عادات وتقاليد وقيم معظم الدول الأجنبية على الرغم من أنه قد لا يكون سافر الى تلك الدول ، وذلك بفضل وسائل الاعلام التي تحيط به . وما ظاهرة احتفال الأسر في عالمنا العربي « بعيد الأم » أو بعيد ميلاد الأبناء الا أحد الأدلة الواضحة على انتقال بعض العادات من ثقافة أخرى الى ثقافتنا العربية من خلال وسائل الاعلام المختلفة أيضاً .

هذه شواهد على مدى تأثير وسائل الاعلام في سلوك الأفراد وهم في سن الرشد . وننتقل الى النوع الثاني من التأثير وهو محور بحثنا هذا .

٣ - التأثير النمائي لوسائل الاعلام :

لكي نتحدث عن التأثير النمائي لوسائل الاعلام في شخصية الفرد وسلوكه ، من المفيد أن نعرف بقدر من الدقة والايجاز معاً ما هي الشخصية ، وما معنى نمائي في سياقنا هذا .

هناك تعريفات متعددة للشخصية ، ولكن معظم علماء النفس الآن يتفقون حول نوع من التعريفات ، والتعريف التالي للشخصية أحد التعريفات من هذا النوع الذي اتفق حوله العلماء ، فيعرف أحد العلماء الشخصية بأنها « التنظيم الدينامي الذي يكمن بداخل الفرد ، والذي ينظم كل الأجهزة النفسية والجسمية التي تملي على الفرد طابعه الخاص في السلوك والتفكير » . وهذا التعريف يعرف شخصية الراشد السوي ، أن هذا « التنظيم » لا يصبح تنظيماً بهذا المعنى المتكامل الا في مرحلة البلوغ والنضج من حياة الفرد ، أما قبل ذلك أي خلال مرحلة الطفولة التي تمتد منذ الميلاد وحتى سن البلوغ فيكون الطفل في مرحلة نمو وارتقاء ، وهذا يعني أن شخصية الفرد لا تولد معه ، ولكنها تنمو بنمو الجوانب الأخرى ، كالجانب المعرفي ، اللغوي ، العضلي العصبي ، والاجتماعي للطفل . ويمكن القول ان نمو شخصية الفرد هي محصلة نمو كل هذه الجوانب مجتمعة . وبملاحظة هذه الجوانب ندرك أنها تتكون من جوانب فسيولوجية (الجانب العضلي والعصبي) وجوانب نفسية اجتماعية (النمو الاجتماعي) ولذلك فالشخصية تشكلها العوامل الفسيولوجية والعوامل الاجتماعية ؛ الأولى موروثة أساساً والثانية مكتسبة ومتعلمة .

ودراستنا هذه تتعلق بالثانية ، حيث ان الأسرة والمدرسة والأصدقاء ووسائل الاعلام تكسب الطفل وتعلمه عاداته وقيمه وتقاليده ، أي تكسبه العوامل الاجتماعية في شخصيته .

وباندماج وتفاعل وتكامل العوامل الفسيولوجية والاجتماعية معاً منذ الميلاد وخلال مراحل النمو المختلفة وحتى البلوغ ، تنمو شخصية الطفل ثم تصبح تنظيماً متكاملاً يوجه سلوكه عند البلوغ والرشد . وأثناء عملية النمو وعبر مراحله المبكرة تأتي التأثيرات الاجتماعية المختلفة ومنها تأثيرات وسائل الاعلام ، ولذلك أطلقنا على هذا التأثير « التأثير النمائي » .

ومن القضايا التي يتفق حولها علماء النفس أن خبرات الطفل أثناء عملية النمو في مرحلة الطفولة هي أساس شخصيته في مرحلة البلوغ والرشد .

وهذه الدراسة تركز على دور وسائل الاعلام وخاصة التليفزيون كأحد العوامل الاجتماعية وأثرها في تشكيل سلوك الطفل ومن ثم شخصيته وهو راشد .

ولكن لماذا التليفزيون خاصة ؟

أولاً : لماذا التليفزيون فقط :

منذ بدأ الارسال التليفزيوني في الانتظام لأول مرة في العالم في انجلترا عام ١٩٣٦ * والتليفزيون يتقدم بخطا ثابتة

* منذ عام ١٩٣٠ بدأت الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وفرنسا والمانيا والاتحاد السوفيتي سلسلة من التجارب ، ساعدت فيما بعد على ظهور الارسال التليفزيوني وفي عام ١٩٣٦ كانت انجلترا أول الدول في تقديم برامج تليفزيونية بصورة منتظمة ، وتبعتها الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي عام ١٩٣٨ انتشر جهاز التليفزيون في أكثر المنازل بالولايات المتحدة ، وفي سنة ١٩٤٨ أصبح عدد محطات التليفزيون في الولايات المتحدة ٢٤ محطة وفي عام ١٩٥٨ وصل عدد المحطات الى ٥٢٩ محطة .

وفي نهاية عام ١٩٥٨ بلغ عدد محطات التليفزيون في الاتحاد السوفيتي ٦٣ محطة .

أنظر : دكتور عبد اللطيف حمزة . الاعلام والدعاية . بغداد . مطبعة المعارف سنة ١٩٦٨ ص ٩٧ .

حتى أصبحت له مكانة متميزة بين وسائل الاعلام . فكثرت الدراسات والبحوث حول مدى تأثيره في السلوك الانساني ، وقامت احدى المؤسسات العلمية بحصر مثل هذه الدراسات فوجدت أنها تصل الى ٢٣٠٠ دراسة ومرجع وهذا العدد يفوق بكثير عدد الدراسات التي أجريت على وسائل الاعلام الأخرى . وهناك عدد من العوامل التي تجعل للتليفزيون هذه المكانة ، والتي تجعلنا نركز في دراستنا على التليفزيون فقط دون وسائل الاعلام الأخرى من هذه العوامل ما يأتي :

أ ـ التليفزيون له دور في عملية التنشئة الاجتماعية للطفل :

ان التنشئة الاجتماعية للطفل من أهم مهام الأسرة وخاصة الوالدين ، فدورهما الأساسي هو تحويل الطفل من كائن بيولوجي كل وظائفه تناول الطعام والنوم والاخراج ، الى كائن بشري اجتماعي يستطيع التفاعل والتوافق مع غيره من البشر . وهذه هي عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال . ومع أن هذه العملية من أهم وظائف الوالدين ، الا أن التليفزيون أصبح له دور فيها وذلك بنقل عادات وقيم وتقاليد المجتمع الى الأطفال في الأسرة ، وسوف نرى بعد قليل أن هناك عدداً من العوامل جعلت للتليفزيون مثل هذا الدور في الأسرة المعاصرة .

والحقيقة أن الوالدين لم يقفا موقفاً سلبياً أمام هذا الجهاز ولكنهما ساهما بايجابية في أن يكتسب التليفزيون هذه المكانة بين أفراد الأسرة ، فلقد قلت عدد الساعات التي يقضيها الوالدان مع أطفالهم ، وبعد أن كان الطفل ينام على حكايات وقصص الأم أو الجدة ، أصبح ينام وهو يشاهد التليفزيون وبرامجه التي تحمل له غالباً قيماً وعادات وتقاليد لا تستطيع الأسرة التحكم في مضمونها ، ولا في مشاهدة الأطفال لها .

بل ان بعض الأسر أصبحت على وعي بذلك ، بل وتشجعه . ففي دراسة أجريت في الكويت اتضح فيها أن ١٢٫٩٪ من أفراد عينة البحث وهم من آباء وأمهات الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون بانتظام ، يرغبون في أن يشاهد أطفالهم بعض برامج التليفزيون لأنها « تكسب الطفل العادات والقيم المرغوبة » . كما اقترح معظم أفراد العينة من الآباء والأمهات (٨٤٫٣٪) انتاج برامج خاصة للأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية (٢ ـ ٦ سنوات) تتوافر بعض الصفات منها : « أن تنمي مهارات وعادات واتجاهات سليمة (١٩٫٣٪) . (٥)

وهذه النتائج تدعم قولنا بأن معظم الأسر قد تنازلت عن بعض أدوارها في التنشئة الاجتماعية للتليفزيون ، وهذا العامل يجعلنا نهتم في دراستنا هذه بالتليفزيون اهتماماً خاصاً ، دون وسائل الاعلام الأخرى .

ب ـ التليفزيون أداة مسلية في متناول يد الطفل :

فضلاً عن أن التليفزيون وسيلة شيقة للتسلية ، فانه كجهاز كهربائي ، سهل الاستعمال فيمكن للطفل في عمر سنتين ونصف أو ثلاث سنوات أن يجعله يعمل ثم يجلس ليشاهده دون مساعدة من أحد من الكبار . فضلاً عن أن الجهاز متوفر في المنزل ولا يحتاج الطفل الى الذهاب خارج المنزل بمصاحبة أحد الكبار كالسينما .

والتليفزيون وسيلة متوفرة أمام الطفل في جميع أوقات اليوم ، كما أن البرامج التليفزيونية لا تحتاج الى معرفة القراءة مثل المجلات والصحف ، ولذلك يبدأ الأطفال في الانتباه والالتفات له منذ بداية ادراكهم للصوت والصورة .

جـ ـ يجذب التليفزيون انتباه الأطفال :

يتميز الارسال التليفزيوني عن وسائل الاعلام الأخرى ، بأن برامجه تجذب انتباه الأطفال في الأعمار المختلفة ، وذلك لعوامل جذب الانتباه التي تصاحب البرامج مثل : الموسيقى والألوان ، والأشكال الجذابة ، والتي تستعين بها البرامج عادة ، بالاضافة الى ألفة الأطفال بالمذيعين ومقدمي البرامج لتكرار مشاهدتهم مع البرامج الشيقة .

وقد أوضحت بعض البحوث أن الأطفال يبدأون المشاهدة الهادفة للتليفزيون من سن سنتين الى ثلاث سنوات وهي سن مبكرة جداً . (٥)

ولذلك يكاد يشترك التليفزيون مع الوالدين في الاتصال المبكر المستمر نسبياً مع الأطفال في الأسرة ، وبذلك يبدأ تأثير التليفزيون وارتباط الطفل به منذ بداية حياته .

د ـ يقضي الأطفال فترة طويلة يومياً أمام جهاز التليفزيون :

من العوامل الرئيسية التي تساعد على أن يكون للتليفزيون تأثير في سلوك الأطفال هو أن الأطفال لأسباب عديدة : منها ما يرجع الى برامج التليفزيون ، ومنها ما يرجع الى حاجة الطفل ذاته ، مثل حاجته الى المثيرات ، ومنها ما يرجع الى ظروف الأسرة في الحياة الحديثة تجعل الطفل يقضي وقتاً طويلاً أمام جهاز التليفزيون .

ففي دراسة أجريت في الكويت على عينة من الأسر الكويتية ، وكان بها أحد الأسئلة عن متوسط عدد الساعات التي يقضيها أطفال هذه الأسرة في مشاهدة التليفزيون ، اتضح من الاجابة على السؤال أن الأطفال يقضون ساعتين وربع تقريباً أمام التليفزيون يومياً طوال أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة . أما يوم الجمعة فيزداد متوسط عدد ساعات المشاهدة الى ثلاث ساعات وثلث تقريباً . وذلك بالنسبة للأطفال من عمر سنتين حتى ست سنوات . (٥)

وفي دراسة أجريت في مصر على عينة من أبناء الأسر التي تملك جهاز تليفزيون ، تتراوح أعمارهم من ٨ ـ ١٨ سنة ، اتضح أن حوالي ٥٤٪ من أفراد العينة يشاهدون التليفزيون لمدة ساعة على الأقل في اليوم أثناء شهور الدراسة بالمدارس . أما خلال العطلات الدراسية فاتضح أن ٩٦٫٤٪ من الأبناء يشاهدون التليفزيون ساعة على الأقل يومياً . (٧)

ويلاحظ من هذه الدراسات التي أجريت في عالمنا العربي ، أن الأطفال في أعمار مختلفة يقضون حوالي ١٦ ساعة أمام التليفزيون في الأسبوع . مما يجعل التليفزيون له فعالية وتأثير على الأطفال نظراً لعامل طول الوقت الذي يقضونه في مشاهدته .

كما نلاحظ من الدراسة التي أجريت في مصر أن معظم الأطفال (٨٢٫٤٪) يفضلون التليفزيون عن السينما أو المذياع أو القراءة أو اللعب .

أما لو انتقلنا الى خارج العالم العربي ، لوجدنا أن متوسط عدد الساعات اليومية يزداد بشكل ملحوظ ، ففي

دراسة أجريت في أمريكا اتضح أن الوقت الذي يقضيه الأطفال أمام التليفزيون في ازدياد مستمر منذ الستينات من هذا القرن . فاتضح بمقارنة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٦ أن متوسط عدد الساعات التي يعمل أثناءها التليفزيون في المنزل ازدادت من ٥ر٦ ساعة يومياً سنة ١٩٧٠ الى ٨ر٦ ساعة يومياً سنة ١٩٧٦ ، وذكر بعض أفراد عينة الدراسة أن التليفزيون يعمل على الأقل ٩ ساعات في اليوم ، وفي بعض الأسر يعمل التليفزيون في المنزل معظم فترة بعد الظهر وخلال فترة العشاء ، ومعظم المساء .

ومما يدعم نتائج الدراسة السابقة ، اتضح من دراسة أخرى أجريت في أمريكا عام ١٩٦٩ ، أن الطفل الذي عمره من ٥ ـ ٦ سنوات يقضي أمام التليفزيون أربع ساعات يومياً . (١٥)

وفي دراسة ثالثة أجريت عام ١٩٧٢ اتضح أن الأطفال في سن السادسة يقضون أمام التليفزيون من ٣٠ ـ ٣١ ساعة في الأسبوع في المتوسط ، أما الأطفال في سن الثامنة فيقضون ٢٧ ـ ٢٨ ساعة في الأسبوع أمام جهاز التليفزيون . (١٣)

وأفضل تعليق على طول الوقت الذي يقضيه الأطفال أمام جهاز التليفزيون ذلك التعليق الذي قاله أحد الباحثين حين قال :

« عندما يحين وقت دخول الطفل الحضانة يكون قد قضى فعلاً ساعات عديدة يتعلم عن العالم أمام جهاز التليفزيون ، أكثر مما سيقضي في قاعة المحاضرات بالكلية للحصول على الشهادة الجامعية أو على درجة الماجستير » . (١١)

من كل ما سبق يمكن أن ندرك أهمية عامل الوقت الذي يقضيه الطف[illegible]ام جهاز التليفزيون كأحد العوامل الهامة التي تجعل التليفزيون من أهم وسائل الاعلام تأثيراً في سلوك الأطفال .

هـ ـ ازدياد الاقبال على مشاهدة التليفزيون وانخفاض الاقبال على وسائل الاعلام الأخرى :

لاحظنا في البند السابق ازدياد إقبال الأطفال على مشاهدة التليفزيون ، وأصبحت هذه الظاهرة عالمية لا تقتصر على بلد دون الآخر ، ولكن على الرغم من هذا الاقبال على مشاهدة التليفزيون نجد في مقابله انخفاضاً في الاقبال على وسائل الاعلام الأخرى . فلقد أوضحت الدراسة التي أجريت في مصر أن نسبة أفراد العينة الذين يقبلون على مشاهدة التليفزيون بعد الانتهاء من الاستذكار يفوق نسبة الذين يقبلون على الوسائل الاعلامية الأخرى . فأوضحت الاجابة على السؤال « أين يذهب الأبناء بعد الانتهاء من الاستذكار » ، اتضح ما يلي :

٨٪ يذهبون الى السينما .

٨ر٣١٪ يستمعون الى الراديو .

٤ر٣٥٪ يلجأون الى القراءة .

٩ر٢٥٪ يلجأون الى الألعاب المختلفة .

٤ر٨٢٪ يشاهدون التليفزيون .

ويلاحظ أن أعلى نسبة (٨٢٫٤٪) من الأبناء تلجأ الى التليفزيون ولو لبعض الوقت ، بعد الانتهاء من الاستذكار . وأن التليفزيون هو الوسيلة المشتركة السائدة بين معظم هؤلاء الأبناء . (٧)

وفي دراسة أجريت على قراء الصحف في أمريكا ، اتضح أن نسبة من يقرأون الصحف يومياً في انخفاض مستمر ، فالذين أعلنوا أنهم يقرأون الصحف كل يوم انخفض من ٧٣٪ في سنة ١٩٦٧ الى ٦٦٪ في سنة ١٩٧٥ ثم الى ٧٥٪ في سنة ١٩٧٨ . وعند سؤال أفراد عينة الدراسة عن تفسير هذا الانخفاض ، اتضح أن أهم تفسير ذكر هو : مشاهدة البرامج الاخبارية في التليفزيون ، مما لا يجعل هناك حاجة الى الصحف اليومية . (١٥)

ونلاحظ من نتائج هذا البحث اعتماد عدد كبير من الأشخاص على مشاهدة البرامج الاخبارية في التليفزيون ، وترك قراءة الصحف اليومية ، ومن الملفت للنظر أن عينة هذه الدراسة كانت من الراشدين ، أي أن التليفزيون يجذب الراشدين كما يجذب الأطفال .

وفي دراسة حديثة نشرت بعض نتائجها بمجلة « أكتوبر » القاهرية الأسبوعية (العدد ٣٨ ، لسنة ١٩٨١ الصفحة الثالثة) أجريت في المجتمع الامريكي ، وكان أحد الأسئلة بها هو : المؤسسات التي تحكم أمريكا فكان التلفزيون في المرتبة الرابعة من بين المؤسسات التي تحكم أمريكا . وذلك بعد « البيت الأبيض » (المرتبة الأولى) ، و « كبار رجال الأعمال » (المرتبة الثانية) و « مجلس الشيوخ » (المرتبة الثالثة) . أما « الصحافة » فجاءت في المرتبة الثالثة عشرة ، والراديو في المرتبة التاسعة عشرة ، أما السينما فجاءت في المرتبة الثلاثين والأخيرة !

وهذه الدراسة تكشف لنا موقع ومكانة التليفزيون ومدى تأثيره في أمريكا .

هذه العوامل المختلفة والمتعددة جعلت للتليفزيون مكانة خاصة في الأسرة والمجتمع ودوراً أساسياً في امكانية التأثير على سلوك الأطفال خاصة . ولهذا ستقصر دراستنا هذه على أثر التليفزيون في سلوك الأطفال .

ويمكن القول ان اهتمام العلماء قد تركز حول دراسة أثر التليفزيون في سلوك الأطفال ونموهم في جوانب محددة هي :

- السلوك العدواني .
- الجوانب المعرفية .
- التنشئة الاجتماعية .

ونتحدث عن كل منها بقدر من التفصيل لتوضح لنا أثر التليفزيون في سلوك الأطفال بجوانبه المختلفة .

ثانيا : أثر التليفزيون في السلوك العدواني عند الأطفال :

منذ بدأ الارسال التليفزيوني في العالم بدأت معه الدراسات حول أثره في المجالات المختلفة ، كمجال الاعلام ، والتسويق ، والتأثير في الرأي العام ، وتأثيره في سلوك الأطفال .

ومن المجالات التي بدأت فيها الدراسات منذ ذلك الوقت واستمرت حتى الآن مجال تأثير العنف في التليفزيون في سلوك الأطفال . وبمعنى آخر هل عرض برامج العنف والعدوان في التليفزيون يؤدي الى السلوك العدواني عند الأطفال المشاهدين ؟

وتفوق عدد الدراسات في المجال الأخير ، كل البحوث والدراسات في المجالات الأخرى بنسبة ٤ ـ ١ وهذه النسبة تعطينا فكرة واضحة عن مدى اهتمام علماء العلوم الاجتماعية بهذا الموضوع ، وأيضا مدى اهتمام المجتمع بهذه المشكلة .

وعلى الرغم من الانخفاض في معدل الدراسات حول هذا الموضوع منذ بداية السبعينات الا أن الدراسات لا تزال مستمرة فيه حتى وقتنا هذا ، لدراسة مختلف الظروف التي يمكن أن تتوسط بين مشاهدة الأطفال العنف في التليفزيون والعدوان في سلوكهم . [١٥]

ويمكننا القول ، بناء على ما نستمده من نتائج الكثير من البحوث في هذا المجال وآراء الآباء والباحثين ، أنه يكاد يكون هناك اتفاق بين المهتمين بهذه المشكلة على أن مشاهدة الأطفال العنف والعدوان في التليفزيون يؤدي الى السلوك العدواني عندهم .

ولكن اذا كانت هناك بحوث قد أيدت نتائجها هذه الخلاصة الا أن هناك أيضا بعض البحوث عارضت نتائجها هذا المضمون ، ويمكن القول ان الذي أدى الى هذا التعارض بين نتائج البحوث عدم دقة المنهج الذي يتبعه بعض الباحثين في دراسة هذه المشكلة ، وهذا يكشف عن النظرة السطحية غير الملائمة لسلوك الانسان ونموه . ولأهمية هذا الموضوع نعرض بتفصيل موضحين رأينا الخاص في نتائج البحوث المختلفة . ولكن قبل ذلك نعرض بعض صور العنف في التليفزيون حتى يتضح لنا معنى العنف والعدوان الذي يشاهده الأطفال ، ونسبته ودلالته . حتى يمكننا متابعة الموضوع بعد ذلك .

١ ـ صور العنف في التليفزيون :

من أكثر الدراسات دقة وعمقا في هذا الموضوع الدراسة التي قام بها جربنر Gerbner عام ١٩٧٢ وركز فيها على تقدير مقدار العنف المعروض في برامج التليفزيون وتحليل نوع العنف المعروض .

وقامت هذه الدراسة على منهج تحليل المضمون ، فقام الباحث بتحليل مضمون البرامج التي عرضت خلال ثلاث سنوات هي ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ واتضح من نتائج الدراسة ما يلي :-

أ ـ مقدار العنف الذي يعرض في برامج التليفزيون : وقد خرج الباحث بالنتائج التالية :

١ ـ يوجد أعلى مستوى للعنف في التليفزيون التجاري الأمريكي ، اذ تحتوي كل ٨ برامج من ١٠ على العنف .

٢ ـ انخفض معدل عرض العنف من سنة ١٩٦٧ الى سنة ١٩٦٩ ، وظهر ذلك في انخفاض عدد الأشخاص المساهمين في العنف والقتل .

٣ ـ فيما يتعلق ببرامج الأطفال ، وخاصة ما يسمى بالكارتون ازداد فيها العنف ، فمن ٩٥ كارتونا عرضت في السنوات الثلاث للبحث ، اتضح أن اثنين فقط في سنة ١٩٦٧ ، وواحدا في كل من سنة ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ لا تحتوي على عنف .

ب ـ نوع العنف ونمطه المستخدم في برامج التليفزيون : وينقسم ذلك الى ثلاثة عناصر هي :

الذي يقوم بالعنف ، وسيلة العنف أو العدوان ، نتائج العنف أو العدوان .

من الذي يقوم بالعنف : بتحليل مضمون البرامج في فترة البحث ، اتضح أن الذي يقوم بالعنف في ٧٠٪ من الحالات هم من البشر . أما الكارتون الذي به عنف فيحتوي على أعلى نسبة من القائمين بالعنف من غير البشر (حيوانات ، كائنات فضائية ....)

أما عن الأدوات المستخدمة في العنف : اتضح أنه ازداد استخدام الأسلحة من ٥٢٪ الى ٨٣٪ من سنة ١٩٦٧ الى سنة ١٩٦٩ في جميع صور العنف المعروض متضمنا ذلك الكارتون الخاص بالأطفال .

أما عن نتائج العنف والعدوان : فقد اتضح أنها الجروح أو الموت للشخص المعتدى عليه ففي سنة ١٩٦٧ و ١٩٦٨ كل عنف أدى الى جرح على الأقل للمعتدى عليه ، وفي سنة ١٩٦٩ قل ذلك بنسبة ١ : ٣ .

وبالنسبة للموت ، ففي سنة ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ كل ٢ من ٣ برامج بها عنف ، كانت نتيجة العنف فيها الموت ، وفي سنة ١٩٦٩ كان معدل الموت ١ : ١٠ ، أي أنه في سنة ١٩٦٩ انخفضت نسبة حدوث الجروح ونسبة حدوث الموت كنتيجة للعنف في البرامج المعروضة .

وفي دراسة أخرى حديثة قام بها باركوس Barcus ١٩٧٥ على احدى قنوات التليفزيون الأمريكي اتضح ما يأتي :ـ

أن ٥٩٪ من التمثيليات المعروضة لا يوجد بها عنف الا عرضا .

١٦٪ من التمثيليات مشبعة بالعنف .

٢٥٪ من التمثيليات بها عنف واضح .

أي أن ٤١٪ من التمثيليات بها عنف ، كما اتضح من نتائج البحث أن ٥٠٪ من البرامج التي بها عنف استخدمت فيها الأسلحة كأداة للعنف . (١٣)

ونخرج من نتائج هذه البحوث أن نسبة يعتد بها من البرامج التي تعرض في التلفزيون ومعظمها يشاهدها الأطفال بها عنف واضح . وهذه النتائج تجيب على السؤال : هل هناك عنف في برامج التليفزيون ؟ بالايجاب وبشكل حاسم وواضح . كما أوضحت هذه البحوث صور العنف كما يقدم في برامج التليفزيون المختلفة سواء تمثيليات أو كارتون خاص بالأطفال .

يبقى بعد ذلك الاجابة على السؤال التالي : هل هذا العنف الذي يعرضه التليفزيون في برامجه المختلفة يؤدي الى السلوك العدواني عند الأطفال ؟

وللاجابة على هذا السؤال أجريت دراسات عديدة منذ الخمسينات من هذا القرن وحتى الآن ، ونعرض لبعض هذه الدراسات حتى نتعرف على الطريقة التي يتناول بها علماء العلوم الاجتماعية وخاصة علماء النفس هذه المشكلة ، وكيف يجرون بحوثهم في السلوك الانساني ، ويتضح لنا المنهج الذي استخدمه الباحثون مما يساعدنا على الحكم على نتائج الدراسات عند تقييمنا لها .

٢ ـ بعض البحوث التي لم تظهر نتائجها وجود علاقة بين العنف في التليفزيون والسلوك العدواني عند الأطفال :

في دراسة أجراها سايجل عام ١٩٦٥ Siegel ، على مجموعة من الأولاد والبنات (عددهم ٢٤) تتراوح أعمارهم بين أربع وخمس سنوات ، قسمت المجموعة الى مجموعات أصغر كل مجموعة تتكون من طفلين ، على ان يعرض على كل مجموعة في أوقات مختلفة نوعان من أفلام الكارتون ، أحدهما عدواني جدا ـ والآخر غير عدواني . وكان يطلب من كل مجموعة أن تبقى في غرفة خاصة بها بعد مشاهدة الأفلام ، وتحتوي هذه الغرفة على أنواع من اللعب بعضها عدواني (مثل خنجر من المطاط) وبعضها غير عدواني (مثل التليفون) وكان الباحث يلاحظ سلوك الأطفال في الغرفة الخاصة التي بها اللعب بعد مشاهدتهم الأفلام العدوانية ثم غير العدوانية وذلك لتسجيل مقدار العدوان الذي سيظهر على سلوك كل مجموعة بعد مشاهدتهم الأفلام ، وتسجيل أي علامات تظهر للعدوان ، أو الشعور بالقلق . ولم يكن الأطفال على علم بأنهم ملاحظون أو أن سلوكهم يسجل .

ولم توضح نتائج البحث وجود فروق في سلوك الأطفال بعد مشاهدتهم للأفلام العدوانية والأفلام غير العدوانية ، أي يمكن القول بناء على هذه النتائج ان العنف والعدوان في التليفزيون لم يؤد في هذه التجربة الى سلوك عدواني عند الأطفال . (٩)

وفي دراسة أجراها فيشباك وسنجر ١٩٧١ Feshbach & Singer على مجموعة من الأولاد (وعددهم ٣٩٥) في سن ما قبل المراهقة والمراهقة ، وطلب من الأولاد مشاهدة التليفزيون ٦ ساعات على الأقل في الاسبوع وذلك لمدة ستة أسابيع . وأجابت عينة البحث على مجموعة من الاختبارات النفسية قبل بداية التجربة ثم بعد انتهاء التجربة ، وذلك لمقارنة نتائج قبل و بعد مشاهدة التليفزيون .

والاختبارات النفسية التي طلب الى عينة البحث استيفاء بياناتها هي :

- مقياس للعداوة الصريحة .
- مقياس للعداوة المستترة .
- مقياس العصابية .
- مقياس للصراع .
- مقياس لقلق العدوان .

واتضح أن من أهم نتائج البحث التي تهمنا في دراستنا هنا ما يلي :

أ ـ أن التعرض للبرامج التليفزيونية ذات المضمون العدواني لمدة ستة أسابيع لم يؤد الى زيادة في السلوك العدواني عند عينة البحث .
ب ـ أن مشاهدة البرامج التليفزيونية ذات المضمون العدواني تقلل أو تنظم التعبير عن العدوان . (٩ ص ٥٥ ـ ١٤٠)

وفي دارسة ثالثة أجراها هملويت وآخرون عام ١٩٥٥ Himmelwiet et al. جمعت بياناتها من أربع مدن انجليزية ، وذلك في بحث موسع عن « تأثير التليفزيون في الأطفال الصغار » . وتكونت عينة البحث من ٤٥٠٠ طفل مجموعة منهم تتراوح أعمارهم بين ١٠ ـ ١١ سنة ومجموعه أخرى تتراوح أعمارها بين ١٣ ـ ١٤ سنة . وتتكون عينة البحث من أطفال تحوز أسرهم أجهزة تليفزيون في المنزل ويشاهدون البرامج بانتظام ، وأطفال لا تملك أسرهم أجهزة تليفزيون ولا يشاهدون البرامج التليفزيونية الا نادرا . والمجموعتان متساويتان تقريبا في السن ، والنوع ، والذكاء ، والطبقة الاجتماعية . ويجيب القائمون بالبحث على السؤال : هل البرامج البوليسية ، والقتل والجرائم المخيفة في التليفزيون تجعل الأطفال عدوانيين ؟ بأنهم لم يجدوا ما يبرهن على أن الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون بانتظام اكثر عدوانية من الاطفال الذين لا يشاهدون التليفزيون الا نادرا . فالتليفزيون في رأي هؤلاء الباحثين لا يؤدي الى السلوك العدواني ، وان كان يعمل به عند الاطفال المضطربين انفعاليا ، كما ان له جانبا تفريغيا للعدوان ايضا ، اي ان مشاهدة العدوان في التليفزيون قد يقلل من ظهور سلوك عدواني عند الاطفال .(١٦)

٣ ـ بعض البحوث التي اظهرت نتائجها وجود علاقة بين العدوان في التليفزيون والسلوك العدواني عند الاطفال :

في دراسة أجريت بكندا عام ١٩٧٧ تعتبر فريدة من نوعها ، حيث وجد الباحث فرصة نادرة وهي وجود مدينة ليس بها ارسال تلفزيوني ثم أدخل بها الارسال ، فقارن الباحث بين هذه المدينة ومدينة أخرى كان بها قناة واحدة ، ومدينة ثالثة بها عدة قنوات . ودرس العدوان عند أطفال المدارس الابتدائية في المدن الثلاث في بداية الدراسة (وقبل بدء الارسال التليفزيوني في المدينة المحرومة من الخدمة التليفزيونية) واشارت النتائج الى عدم وجود فروق في السلوك العدواني لاطفال المدارس الابتدائية في المدن الثلاث . وبعد سنتين وبعد ادخال الارسال التليفزيوني في المدينة المحرومة درس الباحث مرة اخرى السلوك العدواني عند اطفال المدن الثلاث ، فوجد ازديادا واضحا في العدوان عند اطفال المدينة التي ادخل فيها الارسال التليفزيوني حديثا ، واكدت هذه النتيجة المقارنات التفصيلية بين المدن الثلاث عند تقسيم عينة المدن الثلاث بناء على النوع والسن .

ويرى روبرت وباشن Roberts & Bachen ان هذه النتيجة ونتائج اخرى تمدنا بشواهد مقنعة نسبيا على ان هناك علاقة إيجابية سببية بين مشاهدة العنف في التليفزيون والسلوك العدواني عند الأطفال .(١٥)

ولكن الباحث لم يفسر لنا لماذا لم يظهر فرق في العدوان بين اطفال المدن المخدومة تليفزيونيا واطفال المدينة المحرومة من هذه الخدمة قبل بدء دراسته ، وقبل الارسال التليفزيوني في المدينة المحرومة .

ومن الدراسات التتبعية الهامة ، تلك التي قام بها ليفكوبتز وآخرون ونشرت نتائجها عام ١٩٧٢ Lefkowitz ، حاولوا فيها الربط بين وصف زملاء الفصل الدراسي لافراد عينة البحث (في سن ٨ سنوات) فيما اذا كانوا عدوانيين ام لا ، ومدى عدوانيتهم ، وبين وصف الوالدين عن مدى تفضيل افراد عينة البحث للبرامج العدوانية . وبعد ذلك باحدى عشرة سنة وافراد العينة في سن ١٩ سنة ، اعادوا الدراسة مرة اخرى لنفس افراد العينة .

وبمقارنة نتائج البحث عن افراد العينة وهم في عمر ٨ سنوات ثم وهم في سن ١٩ سنة اتضح ما يلي : ـ

أ ـ وجود ارتباط واضح بين تفضيل الطفل لبرامج العنف في التليفزيون وهو في سن ٨ سنوات ، ووصف الزملاء لهم كعدوانيين في سن ١٩ سنة .

ب ـ وجود ارتباط واضح بين وصف الزملاء لمدى عدوانية عينة البحث في سن ٨ سنوات وسن ١٩ سنة .

جـ ـ وجود ارتباط بين تفضيل عينة البحث لبرامج العنف في التليفزيون ووصف الزملاء لهم عن مدى عدوانيتهم وهم في سن ١٩ سنة .

د ـ عدم وجود ارتباط بين وصف الزملاء لمدى عدوانية افراد عينة البحث وهم في سن ٨ سنوات ، وتفضيلهم العنف في التليفزيون في سن ١٩ سنة .

وتشير هذه النتائج وخاصة التي اوضحت العلاقة بين تفضيل برامج العنف في التليفزيون في سن ٨ سنوات ووصف الزملاء لهم كعدوانيين في سن ١٩ سنة ، مع وجود الارتباط بين وصف الزملاء لعينة البحث في سن ٨ سنوات ، وتفضيلهم برامج العنف في سن ١٩ سنة ، الى ان تفضيل مشاهدة برامج العنف في التليفزيون في سن ٨ سنوات مرتبط سببيا بالعدوان عند افراد عينة البحث ، كما ظهر في وصف زملائهم لهم وهم في سن ١٩ سنة . ان اهمية هذه الدراسة تكمن في انها امدتنا بأدلة واضحة وجيدة على التأثير التراكم المستمر لمشاهدة برامج العنف في التليفزيون .[١٣]

وفي دراسة اجراها كل من ستين وفريدرك ١٩٦٦ على مجموعة من اطفال الحضانة لمدة ثلاثة اسابيع ، حيث جعل الاطفال يشاهدون ثلاثة انواع من البرامج التليفزيونية ، برامج عدوانية ، برامج محايدة ، وبرامج تعلم الاطفال القيم والعادات المقبولة اجتماعيا . وقسم الاطفال الى ثلاث مجموعات كل مجموعة شاهدت نوعا من الافلام ، وبعد مرور الاسابيع الثلاثة للمشاهدة فحص الباحث درجة العدوانية عند كل مجموعة من المجموعات الثلاث ، فاتضح له ان المجموعة التي شاهدت الافلام العدوانية اكثر عدوانية من هؤلاء الذين رأوا الافلام المحايدة .[١٣]

٤ ـ نقد وتعليق على البحوث السابقة :

يبدو للقارىء لأول وهلة ان هناك تناقضا في نتائج البحوث ، وبالتالي في موقف علماء النفس وعلماء العلوم الاجتماعية بصفة عامة فيما يتعلق بتأثير العنف في التليفزيون في سلوك الاطفال ، وما اذا كان العنف والعدوان في البرامج التليفزيونية يؤدي الى السلوك العدواني عند الاطفال ؟

والحقيقة الواضحة لنا الآن ، وبعد عرض بعض نماذج من الدراسات والبحوث التي اجريت للاجابة على السؤال المطروح ، اختلاف طرق تناول الموضوع ودراسته . فيبدو لنا واضحا من المجموعة الأولى من البحوث - التي لم تظهر نتائجها علاقة بين التليفزيون وسلوك الاطفال - ان تناولها للموضوع يتسم بالبساطة وعدم الدقة ، فضلا عن النظرة السطحية للسلوك الانساني وكيف يتكون .

ففي الدراسة الأولى ، دراسة سايجل ١٩٥٦ مثلا ، يتوقع أن الأطفال عندما يشاهدون برامج عدوانية سوف يسلكون سلوكا عدوانيا بعدها مباشرة ، وهذا أمر لا يمكن توقعه ومن العسير أن يحدث ، ولو حدث فهو تقليد مؤقت قد لا يعمم على مواقف أخرى .

وهذا ما حدث أيضا في تجربة فيشباك وسنجر ١٩٧١ حيث توقعا أن يظهر أثر البرامج التليفزيونية في المراهقين الذين يشاهدونها ٦ ساعات في الاسبوع لمدة ٦ أسابيع . وهذا تصور سطحي لكيف يتعلم السلوك ، وكيف يكتسب الطفل عاداته السلوكية . ان السلوك والشخصية ليس مكونا آليا من بعض العناصر اذا وضعناها معا تؤدي آليا الى منتج محدد جديد ، كما في بعض الصناعات أو المنتوجات ، ان الأمر جد مختلف ، فالعوامل أو المؤثرات التي تؤثر أو تدخل الفرد أو بمصطلح علم النفس يدركها الطفل أو الفرد تتفاعل داخله مع عوامل أخرى متعددة منها عوامل ذاتية خاصة بادراكه الخاص لها ، . وعوامل خارجية أخرى ، وعوامل خاصة بالطفل ذاته ، وبعد هذا التفاعل يظهر نتاجها في سلوك الطفل بطريقة خاصة به أيضا وفي وقت لا نستطيع تحديده . وهناك ظاهرة - فريدة بالسلوك البشري - تعرف عليها كل من كاجان وموسن في الستينات من هذا القرن ، وهي ظاهرة التأثير النائم ، وتعني أنه قد تكون هناك مؤثرات معينة أحدثت تأثيرها عند الطفل ولكن النتائج هذا التأثير لا يظهر نتاجها مباشرة فيظل نائما فترة طويلة ينتظر عوامل - خارجية وداخلية في الطفل - توقظه ليظهر . فقد يظهر في مرحلة البلوغ أو المراهقة أي بعد حدوث التأثيرات بسنوات عديدة . ولذلك ليس من المتوقع أن نرى سلوكا عدوانيا عند طفل ما بعد مشاهدته فيلما كارتونيا فيه عنف وعدوان واذا ظهر مثل هذا السلوك فمن العسير أن ترجعه الى الفيلم وحده ، لأن هناك عوامل عديدة تتوسط بين الفيلم وسلوك الطفل . (١٤)

وهناك عامل آخر هام يؤثر في تعلم الطفل للعادات السلوكية وهو التكرار ، فلابد من تكرار حدوث المثير لمدة طويلة ومرات عديدة حتى يحدث تأثيره في الطفل أو يظهر في سلوكه .

ولذلك فمنطق نمو وتكوين السلوك البشري يختلف الى حد كبير عن منطق المنهج والطرق التي استخدمتها البحوث التي لم تجد علاقة بين برامج التليفزيون وسلوك الأطفال العدواني .

وهناك نقد آخر يمكن أن يوجهه كاتب هذا المقال الى بحث فيشباك وسنجر ، حيث كانت عينة بحثهما من الأولاد في سن ما قبل المراهقة والمراهقة أي من سن ١٠ - ١٢ سنة تقريبا ، ان المراهق في هذه السن يكون قد خضع احدى عشرة سنة تقريبا لتأثيرات أخرى في بيته وأحدثت مفعولها قبل هذه التجربة ، فكيف نتوقع أن يتعدل سلوكه من مشاهدة

برامج تليفزيونية لمدة ستة أسابيع مثلا . فعمر الأطفال هام للغاية عند النظر الى مدى تأثير برامج التليفزيون في سلوكهم ، وهذا ما سيتضح فيما بعد ، فكلما اقتربنا من الطفولة وابتعدنا عن البلوغ والرشد كان ذلك أسلم منهجيا في سياقنا هذا ، حيث يكون هناك فرصة أكبر لمساهمة التليفزيون مع العوامل الأخرى في احداث تأثيره . ولذلك يجب ألا نعول كثيرا على نتائج مثل هذه البحوث .

ويمكن القول في ضوء ذلك ان بعض بحوث النوع الثاني ، والتي أظهرت نتائجها علاقة واضحة بين برامج التليفزيون وسلوك الأطفال ، يتفق منهجها والعينة التي درستها وطول فترة التأثير مع منطق نمو وتشكيل السلوك ، ومثال على ذلك الدراسة التي أجريت في كندا عام ١٩٧٠ ، وبحث ليفكوتز وآخرين ١٩٧٢ ، الذى تتبع فيه الباحثون أفراد عينة البحث احدى عشرة سنة ، فدرسوا الأطفال وهم في سن ٨ سنوات ثم درسوهم وهم في سن ١٩ سنة مرة أخرى . ومثل هذه البحوث تسير تبعا لمنطق تشكيل ونمو السلوك البشرى ، ولذلك يمكن الاعتماد على نتائجها .

وبعد أن استعرضنا بعض البحوث التى عالجت موضوعنا وناقشناها ، نعرض للأساس العلمى لتفسير تأثير التليفزيون في سلوك الأطفال عامة ، والسلوك العدواني خاصة .

٥ ـ التفسير العلمى لتأثير التليفزيون في السلوك :

ان الأساس العلمى الذى يمكن أن نفسر به تأثير التليفزيون في سلوك الطفل وشخصيته فيما بعد يقوم على كيف يدرك الطفل ـ وهل هو قادر على ادراك محتوى برامج التليفزيون التى يشاهدها ، فأى تأثير قد يحدث من التلفزيون في الطفل ـ يعتمد الى حد كبير على معنى البرامج كما يدركها أو يفهمها أو يفسرها الطفل المشاهد . ومع ذلك لم يهتم بهذا الأمر الا القليل جدا من البحوث ، والتى ظهرت حديثا فقط ، والتى نتوقع أن يزداد عددها بشكل ملحوظ خلال العشر سنوات القادمة . وقد بدأ الاهتمام بهذا العامل مع بداية انتاج البرامج التعليمية في التليفزيون ، كما بدأت محاولات حديثة لبحث التغيرات المرتبطة بالعمر والتي تحدث في الادراك والانتباه لفهم محتوى رسالة التليفزيون وأثرها في الجوانب المختلفة للنمو المعرفي عند الأطفال .

ففي احدى الدراسات المبكرة في هذا المجال أجريت على مستوى دولى عام ١٩٦٦ في خمس دول هى : انجلترا ، المانيا ، فرنسا ، تشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة الأمريكية ، حول أحد البرامج التليفزيونية الخاص بالأطفال والذى يعرض في هذه الدول ، وخرجت كل دولة منها بتقرير خاص عن هذه الدراسة .

وفي التقرير الانجليزى الذى نشر عام ١٩٦٩ ركز على العلاقة بين المستوى المعرفي للأطفال وفهمهم لبرامج التليفزيون ، أوضح أن الأطفال في عمر ٦ سنوات لم يفهموا تفاعل وتتابع أحداث الفيلم المعروض ، ويدركون الفيلم على أنه أحداث غير مترابطة . كما توصلت الدراسة الى الأطفال قبل عمر ٦ سنوات يدركون كل شيء في التليفزيون كما لو كان حقيقة وصادقا .

وهناك خلاصة أساسية توصلت اليها البحوث في هذا المجال وهي أن الطفل في السنوات المبكرة من عمره ، يمر خلال مرحلة نمو مبكر للعمليات المعرفية تقيد فهمه لمضمون الشيء المدرك ، أو الفيلم الذى يشاهده ، وفي عمر ٧ سنوات تحدث تغيرات كيفية في نمو الطفل ونمو قدراته المعرفية تؤدى به الى البحث عن البناء المنطقي خلف التغيرات التى تحدث في مظهر الأشياء ، وبذلك يرجع عدم فهم الأطفال قبل سن سبع سنوات ، وفي الوقت نفسه الفهم الخاص بهم لاحداث الفيلم الى عدم نمو القدرات المعرفية في السنوات المبكرة من حياة الطفل . (١٣ ص ٣ ـ ٤) كما برهنت بحوث حديثة أجريت عام ١٩٧٨ على أن الأطفال الصغار (٢ ـ ٦ سنوات) يختارون معلومات مختلفة من العرض الدرامي ، عما يفعله الأطفال الأكبر سنا . ويفشلون في ادراك الاطار الدرامى لتنظيم وفهم المناظر القصصية ، ولذلك يقومون بعمل القليل من الاستدلال حول معنى المضمون والعلاقات بين عناصر البرنامج ، أو الربط بين الأفعال والنتائج . ولذلك فالطفل في هذه السن يدرك ويفهم مضمون الفيلم التليفزيونى بناء على ادراكه هو ، وخبراته المحدودة القاصرة ، وعوامل ذاتية خاصة به ، وليس بناء على الادراك الموضوعي ، أو على المعنى الذى أراده المؤلف أو سياق العمل الدرامى .

ولذلك فتأثير التليفزيون يكون أعظم في أطفال ما قبل المدرسة الابتدائية . (١٥) وهذه النتائج تتفق مع ما توصل اليه علم نفس النمو ، حيث توصل العلماء الى أن الطفل في سن الثالثة مثلا يكون عاجزا أيضا عن التمييز الدقيق بين الشخص والموقف الذى يوجد فيه أو بين الشيء ومحيطه ، حيث لايزال الأنا غير ناضج وفي مستوى منخفض من النمو ، ولذلك فكثيرا ما يعمم الطفل تجاربه على الآخرين ، وتجارب الآخرين على ذاته ، فيكون عنده خلط بين الحقيقة والخيال (بين الفيلم والواقع) . وفي هذه المرحلة يكتسب الطفل بعض الأنماط السلوكية الشائعة في مجتمعه ، والتى تؤثر فيها بعد في تشكيل شخصيته ، وذلك بفضل ومساعدة اللاتمايز بين الأنا والآخر .

ويذكر لنا الدكتور مصطفى سويف في كتابه « الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي » موقف ابنته عندما كان عمرها سنتين وسبعة شهور ، ورأت نموذج الذئب يأكل الحمل في المتحف الزراعي بالقاهرة ، فبكت وانزعجت انزعاجا شديدا ويعلق الدكتور سويف على ذلك بقوله : إن هذا الانزعاج ينطوى على نوع من الاتحاد بين ذات الطفلة والحمل ، أى خلط بين الحقيقة والخيال بين الذات والموضوع ، ويظل الطفل على ذلك حتى قرب نهاية السنة الثالثة من عمره . (٦ ص ١٢٢ ـ ١٣١) .

بل ان كتب التحليل النفسي تعلق على مواقف سوء الحظ التى قد تحدث في السنوات المبكرة من حياة أحد الأطفال ، حينما يتشابه تتابع الخيال عند الطفل مع تتابع السلوك الواقعي ، فعلى سبيل المثال ، اتضح أن الطفل الصغير قد يلوم نفسه اذا توفى أحد الأقارب بعد فترة كان الطفل خلالها مشغولا في عداء خيالي مع هذا الشخص وقد يشعر بقدر كبير من الشعور بالذنب لما حدث .

وتعطينا هذه النماذج مدى الخلط عند الأطفال بين الحقيقة والخيال ، ويوضح لنا مدى القصور في الادراك والعمليات المعرفية عند الأطفال الصغار . كما يعطينا مؤشرات الى ادراك الطفل الصغير للمشاهد التى يراها في برامج التليفزيون ، فعدم التمييز الدقيق بين الخيال والواقع عند طفل ما قبل السادسة ، تجعل الأشياء الخيالية التي يعرضها

التليفزيون عالما حقيقيا واقعيا بالنسبة له ، ومن هنا يأتي تأثير المثيرات الخارجية ومنها التليفزيون في سلوك الأطفال ، فيصبح ما يسمع أو يشاهد جزءا من حياته الخاصة التي تؤثر فيه ، فالقصة المخيفة قد تؤدي الى التوتر والى الكابوس أثناء النوم ، ومما لا شك فيه أن تكرار واستمرار مثل هذه التوترات أمام الطفل يؤدى الى أن تصبح جزءا من مكوناته السيكولوجية في الطفولة وبالتالي جزءا من سلوكه وشخصيته في الكبر .

واذا حاولنا أن نحلل الخيال ، حتى تتضح جوانبه المختلفة ومدى علاقته بالجوانب المزاجية والمعرفية الادراكية ، لوجدنا أنه يتكون من ثلاثة جوانب أساسية هي :

الأول : أن الخيال (وخاصة الذى يكون مصدره خارجيا) يتضمن جوانب حسية ، منها أساسا السمعية والبصرية ، واحتمال أن يكون هناك احساسات أخرى مثل : الاحساسات الحركية وحتى السمعية .

ثانيا : يتضمن الخيال جوانب معرفية ، فالخيال يتعلق بأمور يكون الناس قادرين على التفكير فيها ، وقد يكون هذا التفكير معقدا أو بسيطا ، صحيحا أو خاطئا ، ولكن الخيال يتضمن أساسا يكون الفرد قادرا على تصنيفها بطريقة أو بأخرى .

ثالثا : الخيال له جانب انفعالي أو عاطفي ، أي له بطانة وجدانية ، وقليل من الأخيلة ـ وربما لا يوجد ـ محايد . فالخيال يتضمن الأمل ، المرح ، التوتر ، الراحة ، السرور ، الخوف ، الغضب .... ومشاعر أخرى .

ومن الضرورى التمييز بين حدوث أو عرض العدوان الفعلي الواقعي ، وعرض أو تصوير العدوان الخيالي ، ولكن الأطفال الصغار ـ غالبا ـ لايستطيعون القيام بهذه التفرقة ادراكيا ولذلك ربما يستجيبون للعدوان الخيالي بنفس الطريقة التى يستجيبون بها للعدوان الحقيقي الواقعي وبطريقة مماثلة أيضا للأفكار التي تدور حول ايذاء الأخرين ، وبنمو الطفل وارتقائه التدريجي يصبح قادرا على التمييز بين الحقيقة والخيال ، ولا يتصرفون لكل منها نفس التصرف وعندئذ لا يخاف الأطفال في هذه المرحلة من البرامج التليفزيونية التي كانت تخيفهم من قبل .

ومن المهم أن نذكر هنا وفى هذا السياق ، أن الأطفال عندما يصبحون قادرين على التمييز بين الحقيقة والخيال لا يتم ذلك بطريقة آلية ، وبناء على ميكانزمات النضج فقط ، ولكن أيضا من خلال خبراتهم الخاصة اليومية وادراكهم لنتائج أفعالهم المختلفة ، بالاضافة الى ـ وهو هام للغاية ـ التفسيرات المختلفة ، والمساعدة المباشرة للوالدين . ومن هنا يأتي دور الوالدين والبيئة المحيطة بصفة عامة في نمو الادراك والنمو النفسي عموما . فيعلم الوالدان الأبناء أنهم يجب أن يعملوا ليحصلوا على ما يريدون ، ويوضحون لهم من أن تلك المشاكل في حاجة الى حل وعمل ولا يمكن أن نرغب فيها فقط لكى تحل ، وبتكرار تفاعل الأطفال بالأشخاص المحيطين بهم يصبحون قادرين على التمييز بين الحقيقة والخيال . (٩ص ٣٦) .

يتضح لنا من المناقشة السابقة أن المرحلة العمرية التي يمر بها الطفل ترتبط بنموه النفسي الجسمي وتعمل كعامل

فعال في تحديد ما يستطيع الطفل أن يدركه أو يتعلمه كما يتضح أن تأثير التليفزيون في سلوك الطفل يختلف درجته من مرحلة عمرية الى مرحلة عمرية أخرى . وأن الأطفال في المرحلة العمرية ٢ـ٦ سنوات أكثر تأثرا بالتلفزيون من المراحل العمرية التالية .

واذا انتقلنا من العوامل التى تساعد على أن يحدث التليفزيون تأثيره في سلوك الأطفال ، الى الحديث عن النظرية التى وراء هذا ، لوجدنا أن النظرية التى يعتمد عليها معظم الباحثين في هذا المجال هى نظرية التعلم الاجتماعي : وترى هذه النظرية أن الأطفال يتعلمون من التليفزيون تماما مثلما يتعلمون من أى عرض مرئى آخر ، فالطفل يتعلم أساليب وطرق العدوان أو العنف التى قد لا تأتي في مجال انتباهه ، فقد يتعلم كيف يستخدم السكين في شجار ، كيف يشتق فردا ، كيف يطلق بندقية، أو قد يتعلم كيف يحصل على هذه الأدوات ، وذلك بالطريقة التى شاهدها في التليفزيون .

فضلا عن أن الكثير من البرامج التليفزيونية لها تأثير الاثارة العامة ، والتي تجعل العنف والعدوان أكثر ترجيحا . ويمكن تفسير ذلك بأن مناظر العنف في حد ذاتها مثيرة ، إنها ترفع من مستوى التوتر ومستوى النشاط عند الفرد ، والطفل النشط أكثر قابلية لأن يؤذى شخصا آخر أكثر من الطفل العادي» . وتتفق هذه النظرية الى حد كبير مع نظرية أيزنك القائلة بأن الشخص المنبسط أكثر ميلا لأن يكون عدوانيا وأكثر ميلا الى أن يقع في سلوك مضاد للمجتمع من الشخص المنطوى ، ومن صفات الشخص المنبسط أنه نشط وتفسير ذلك واضح ، اذ أن علاقاته الاجتماعية تكون أكثر اتساعا ، وأكثر اندماجا بالآخرين من الشخص المنطوى ، مما يزيد من فرص العدوان وفرص السلوك المضاد للمجتمع .

وقد يكون العنف والعدوان من بين الميول السلوكية الكثيرة التي يتعلمها الطفل من المشاهدة ، ويعتقد أن النشاط العدواني في برامج التليفزيون يثير خيال الطفل العنيف من خلال التوحد ، والتوحد عملية سيكولوجية تعني أن يدمج الطفل ذاته في ذات الشخص الذى يثير اعجابه ، فيدرك أنه هو وهذا الشخص شخص واحد ، وخلال عملية التوحد هذه يكتسب الطفل أنماطا وعادات سلوكية كثيرة . فعلى سبيل المثال عندما يرى الطفل البطل وهو يقتل شريرا في التليفزيون ، قد يجعل ذلك الطفل يتخيل نفسه الفتى الخير المعاقب الذى يعاقب أخاه السيء ، وبتكرار تعرضه لمثل هذه المواقف وهذه التخيلات تزداد فرصة أن يؤذى أخاه بطريقة ما وبذلك قد يرى الطفل نفسه مماثلا للشخص ـ او هو الشخص ـ الذي يرتكب العنف في برامج التليفزيون ، ويرى الشخص الآخر الذي يقوم بايذائه انه الذي يستحق الايذاء . (٩ص١١ ـ١٢) ويقارن بندبورا ١٩٧٣ Bandura ، وهو من رواد نظرية التعلم الاجتماعي ، بين تأثير الاعلان التجاري على المشاهدين وخاصة الاطفال ، وبين تأثير العنف في التليفزيون على السلوك ، وهذه المقارنة ذات منطق واقعي ، حيث اتضح في كثير من الدراسات ان الاعلان التجاري له تأثير فعال على سلوك المستهلكين وخاصة الاطفال منهم ، ففي احدى هذه الدراسات تبين ان ٧٤٪ من اطفال العينة يغنون أغاني الاعلانات التجارية ، كما ان الشركات التجارية لاحظت ازدياد مبيعاتها من السلع التي تعلن عنها في التليفزيون وخاصة عندما تكون هذه السلع خاصة بالأطفال .

كما يرى بنديورا ان السلوك الذي يتعلمه الطفل عن طريق المشاهدة لا يحتاج ـ لكي يتعلمه ـ لا الى مكافأة ولا الى عقاب . ويرد على المزاعم التي ترى ان التليفزيون ليس له تأثير على السلوك العدواني خاصة ، وان نتائج بعض البحوث اوضحت ذلك ، بقوله : ان عدم ظهور الاستجابة العدوانية عند الاطفال ، لا يعني ان الطفل لم يتعلمها ، فمن الممكن ان يكون الطفل قد تعلم هذه الاستجابة من الملاحظة ، او من مشاهدته لبرامج التليفزيون ، ولكنها لا تتحول الى سلوك ، ولذلك حتى اذا لم يقلد الطفل السلوك العدواني بعد مشاهدته مباشرة ، وهو ما حاولت بعض البحوث التحقق منه فأظهرت نتائج سلبية ، ويرى بنديورا انه لا يوجد دليل على ان الطفل لم يتعلم الاستجابة العدوانية عندما لا تظهر مباشرة ، ان ظهور الاستجابة العدوانية في سلوك ملاحظ يحتاج الى وقت وبيئة سيكولوجية وموقف خارجي حتى يمكن ملاحظتها . وقد لا تظهر الا بعد سنوات ، كما سبق القول عند الحديث عن « التأثير النائم » .

ويبرهن بنديورا على ان الاطفال يتعلمون من الملاحظة اكثر مما يظهرون عادة في سلوكهم الظاهر .

ويمكن القول ان قبول نظرية التعلم الاجتماعي ، ونتائج بحوث بنديورا يؤكد المضمون القائل بأن التعرض للافلام العدوانية في التليفزيون يمكن ان يؤدي الى :

أ ـ ان يقلل من قدرة الاطفال على كف او منع الدفعات العدوانية مما يؤدي بهم الى ارتكاب العنف والسلوك العدواني .

ب ـ المساهمة في تشكيل صورة ونمط السلوك العدواني لدى الاطفال .

جـ ـ ان يقلد الطفل السلوك الذي يكافأ فاعله ، اكثر من ان يقلد السلوك المعاقب فاعله .

د ـ ان يقلد الاطفال السلوك العدواني الذي يشاهدونه ، وخاصة حينما يثاب الشخص الذي يقوم بالعدوان (١٣ص ٥ ـ ١٩) .

ويبدو لنا الآن ان معظم العلماء والمهتمين بمشكلتنا هذه يرون ان التليفزيون له تأثير واضح في سلوك الاطفال وان العنف والعدوان في التليفزيون يؤدي الى السلوك العدواني عند الاطفال . ولقد توصل لايبرت عام ١٩٧٣ « Liebert » الى ذلك في قوله :

« هناك درجة ملحوظة من الاتفاق . . . على وجود ارتباط بين العنف المشاهد والسلوك العدواني عند الصغار ، فالدراسات المعملية والبحوث الارتباطية الحقلية اظهرت جميعها ان التعرض للتليفزيون يمكن ـ وغالبا ما يحدث ـ ان يجعل المشاهد اكثر عدوانية ، وذلك عندما استخدمت المقاييس والمعاني المختلفة للعدوان » . (١٣٠ص٩) .

ولكن مع هذا الاتفاق ، يجب ان نضع في اعتبارنا ان العوامل التي تؤثر في السلوك وتشكل الشخصية متعددة ، فهناك عوامل اخرى تشترك مع التليفزيون في احداث مثل هذا التأثير في السلوك ، فلوحظ مثلا ان تأثير التليفزيون في السلوك العدواني المكشوف قد يختلف من الذكور الى الاناث ، ويختلف من الراشدين الى المراهقين والأطفال . كما ان درجة ونمط العدوان الذي قد ينجم عن مثل هذا التعرض للتليفزيون قد يختلف باختلاف مقدار الوقت الذي يقضيه الفرد امام التليفزيون ، ونوع البرامج بالاضافة إلى عوامل هامة اخرى خاصة بالفرد مثل : مستوى ذكائه ، ومستواه الاجتماعي الثقافي .

ففي دراسة مسحية امريكية ، اوضحت نتائجها ان الاطفال الذين من الطبقة الاجتماعية المتوسطة ، والذين يقضون وقتا طويلا امام التليفزيون اظهروا عدوانا ضد المجتمع اكثر من اطفال الطبقة المتوسطة والذين يقضون وقتا اقل في مشاهدة التليفزيون ووقتا اطول في القراءة . ولم تبين نتائج البحث مثل هذه العلاقة عند الاطفال الذين من الطبقة الاجتماعية الاقتصادية الأدنى ، ويبدو ان خيال التليفزيون بالنسبة لأطفال الطبقة الوسطى يجعلهم يتعرضون لاحباطات اكثر مما يواجه اطفال الطبقات الاخرى ، كما يبدو انه يعكس قدرا كبيرا من الصراع مع الوالدين .

كما اوضحت بعض الدراسات المسحية التي اجريت في عامي ١٩٥١ ـ ١٩٥٩ ان الشعور بالاحباط الشديد يرتبط بتفضيل برامج العنف ، كما ان استعدادات الشخصية العدوانية عند الاولاد ترتبط بتفضيل المضمون العدواني في برامج التليفزيون ، ما اتضح ان الاولاد الذين يفضلون مادة البطل العدواني يميلون الى ان يكونوا مضطربين انفعاليا ، ويأتون من اسر غير مستقرة .

كما اتضح ان الأولاد العدوانيين الذين في الصف الثالث (تسع سنوات) يفضلون برامج العنف في التليفزيون ، على الرغم من انهم قد لا يشاهدون التليفزيون كثيرا . (٩ص٢٥ ـ ٣٢) .

ويمكن الاستناد الى هذه النتائج كشواهد على ان برامج التليفزيون العدوانية تعتبر مكافأة للاطفال المحبطين ، غير المتوافقين والعدوانيين . كما يمكن الاعتماد عليها كبراهين على ان العدوان عند الأطفال تثيره برامج العنف والعدوان في التليفزيون ، وهو ما يتفق مع الخلاصة التي خلصنا اليها .

ويبدو لنا واضحا الآن ان صفات المشاهد تتفاعل مع خصائص البرنامج عند تحديد التأثيرات النهائية للعنف والعدوان لبرامج التليفزيون .

وبعد الانتهاء من الحديث عن العلاقة بين برامج العنف في التليفزيون وتأثيرها في شخصية الأطفال ، ننتقل الى موضوع آخر هو علاقة برامج التليفزيون بالجوانب المعرفية عند الأطفال .

ثالثا : أثر التليفزيون في النمو المعرفي للأطفال :

كان حديثنا عن علاقة العدوان في التليفزيون بالسلوك العدواني عند الاطفال ، بعد حديثنا عن علاقة التليفزيون بالجانب المزاجي او الانفعالي من الشخصية ، اما حديثنا عن علاقة التليفزيون بالنمو المعرفي عند الاطفال فهو حديث عن الجانب المعرفي من الشخصية ايضا . وكلا الجانبين يكونان الشخصية وبتفاعلهما تتكون الشخصية ، وأي تأثير في احدهما يؤثر في الآخر وأي نمو لأحدهما نمو للآخر ، وعندما تحدثنا عن أثر التليفزيون في السلوك العدواني قلنا ان ادراك الطفل لمعنى ومضمون البرنامج التليفزيوني هو الذي يحدد مدى تأثيره فيه ، والادراك جزء من الجانب المعرفي .

ولكن على الرغم من ان الجانبين هامان في تنظيم الشخصية ، وتحديد مدى تأثير التليفزيون في السلوك ، الا ان العلماء كانوا اكثر اهتماما بتأثير التليفزيون في السلوك العدواني ، وبدأ هذا الاهتمام مبكرا جدا ، اي عندما بدأ الارسال التليفزيوني ينتظم في العالم . اما علاقة التليفزيون بالجانب المعرفي فلقد تأخر العلماء في الاهتمام به او دراسته حتى السبعينات من هذا القرن ، ويبدو ان الاهتمام العلمي العملي بهذا الموضوع بدأ مع بداية انتاج البرنامج الامريكي الشهير « شارع السمسم » حيث يؤرخ العلماء بداية عصر التليفزيون التعليمي ببداية انتاج هذا البرنامج ، وما دمنا نتحدث عن التعليم والتعلم فنحن نتحدث عن جزء من الجانب المعرفي .

ولم يعد عرض برنامج شارع السمسم مقصورا على امريكا ، بل يعرض في ٤٨ دولة ، ويشاهده مرة كل اسبوع على الاقل ٨ ملايين طفل ، ويشاهده ثلاث مرات او اكثر في الاسبوع ٦ ملايين طفل . وصمم ونفذ البرنامج لكي يعلم اطفال ما قبل المدرسة الابتدائية وخاصة في سن من ٣ ـ ٤ سنوات الذين يعيشون في المناطق الفقيرة والمحرومة من الخدمات في المدن ، ولكن يبدو انه كان اكثر انتشارا من ذلك .

وبتحليل مضمون برنامج « شارع السمسم » كما يقدم في امريكا ، وجد أنه يعلم الأطفال الجوانب التالية بالنسبة لقرين كل منها :

البنـد	النسبة المئوية
أجزاء الجسم	٪٤٠.٠
حروف الكتابة	٪١٣.٩
الاشكـال	٪٢.٥
الأرقـام	٪٩.٩
العلاقـات	٪٤.٩
الفـرز	٪١.٩
التصنيـف	٪٠.٧

ومنذ بداية عرض هذا البرنامج الخاص بالاطفال بدأت الدراسات والبحوث حول تأثيره في الجانب المعرفي للاطفال . ومن أولى الدراسات في هذا المجال الدراسة التي أجراها مالكوم Malcolm ونشرت نتائجها عام ١٩٧٠ واوضح الباحث ان برنامج « شارع السمسم » له هدف اساسي هو تعليم اطفال ما قبل المدرسة المهارات التي يتعلمها الطفل في المدرسة مثل : الحروف الابجدية ، الارقام ، الاشكال ، العلاقات ، التصنيف ، واجزاء الجسم .
وتبين من البحث النتائج التالية :

١ ـ ان الاطفال المحرومين الذين يعيشون في الاحياء الفقيرة ويشاهدون البرنامج بانتظام قد تعلموا اكثر من الاطفال

الاحسن حالا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والذين يشاهدون بعض الحلقات فقط ، وذلك دون النظر الى العمر او السن او المنطقة الجغرافية .

٢ ـ ان الاطفال الذين في سن ٣ سنوات ويشاهدون البرنامج بانتظام يتعلمون اكثر من الاطفال الذين في سن ٤ او ٥ سنوات واقل انتظاما في مشاهدة ومتابعة البرنامج .

٣ ـ تبين ان الاطفال يتعلمون جيدا عندما يشاهدون البرنامج في المنزل او في المراكز الخاصة باطفال ما قبل المدرسة .

كما تبين ان الاطفال الذين يتعلمون من البرنامج افضل من الآخرين ، تشاهد امهاتهم البرنامج معهم وتتناقش معهم حوله بعد عرضه .

واجريت دراسة اخرى عام ١٩٧١ وكانت عينة البحث من اطفال تتراوح اعمارهم بين ٥ ـ ٦ سنوات ، وتبين من نتائج البحث عدم وجود فرق واضح في المعلومات التي يبثها البرنامج بين الاطفال الذين يشاهدونه والاطفال الذين لا يشاهدونه كما لم يجد فرقا واضحا بين الاطفال الذين شاهدوه لمدة سنة واحدة والاطفال الذين شاهدوه لمدة سنتين .

وفسر البعض ان هذه النتائج متوقعة لأن البحث أجري على فئة عمرية لم يصمم البرنامج لتعليمها ، فلقد صمم البرنامج لتعليم الاطفال الذين في سن من ٣ ـ ٤ سنوات فقط .

ثم تعاقدت ورشة تليفزيون الاطفال التي تنتج برنامج « شارع السمسم » مع احد مراكز البحوث التربوية ليقيم فعالية البرنامج ، وقام المركز بدراسة مدى فعالية البرنامج ، وقدم تقرير البحث بنتائجه سنة ١٩٧٠ جاء فيه :

ان الاطفال من سن ٣ الى ٥ سنوات ، ومن مستويات اجتماعية واقتصادية متباينة ، ومن مناطق حضرية وريفية ، يكتسبون مهارات معرفية هامة ، وذلك نتيجة لمشاهدتهم البرنامج وتبين ان الذين شاهدوه اكثر تعلموا اكثر .

كما بينت الدراسة ان التليفزيون التعليمي كوسيلة ذات فعالية لتعليم مهارات معينة للاطفال الصغار بواسطة برنامج « شارع السمسم » قد برهنت عليها البحوث . كما اورد التقرير النتائج التالية :

١ ـ يحدث تحول للتعلم[١] الذي يكتسب نتيجة لمشاهدة برنامج « شارع السمسم » مثل التعرف على الكلمات الكاملة ، أو قدرة الأطفال على كتابة أسمائهم ، مع أن هذه المهارات لم تعلم في البرنامج .

٢ ـ أن الأطفال في سن ٣ سنوات أكثر تعلما وتحصيلا من البرنامج ، من الأطفال الذين في سن ٥ سنوات .

---

(١) تحول التعلم يعني انه قد يكون لتعلم مهارة معينة احيانا تأثير في تعلم مهارة اخرى وقد يكون هذا التأثير ايجابيا ، بمعنى ان تعلم المهارة الأولى يسهل تعلم المهارة الاخرى ويسمى هذا التأثير بتحول التعلم الايجابي ، وقد يكون التأثير سلبيا اي ان تعلم المهارة الأولى يجعل تعلم المهارة الأخرى صعبا ، ويسمى التأثير في هذه الحالة بتحول التعلم السلبي . لمزيد من التفصيل عن تحول التعلم انظر :
دكتور محمد عثمان نجاتي . علم النفس في حياتنا اليومية . دار القلم . الكويت . الطبعة الثامنة . ١٩٨٠ ص١٧٨ ـ ١٨٠ .

٣ ـ يتعلم الأطفال المهارات أفضل عندما تقدم هذه المهارات خلال البرنامج بطريقة مباشرة .

ونخرج من نتائج هذه البحوث بأن تأثير التليفزيون على الجانب المعرفي للأطفال يكون أكثر وضوحا عند الأطفال من سن ٣ الى ٤ سنوات ، وعندما تشارك الأم الأطفال في مشاهدة البرنامج وتناقشهم في معلوماته ، فلقد أشار تقرير مركز البحوث التربوية الى أن البرنامج يكون أكثر فعالية وتأثيرا عندما تستجيب بيئة المنزل ايجابيا للمثيرات التعليمية التي يعرضها البرنامج .

ثم انتقل اهتمام العلماء الآن خطوة أخرى الى الأمام في مجال النمو المعرفي ، فبعد أن كانوا يهتمون بدراسة مدى تأثير التليفزيون على الجانب المعرفي للأطفال ، بدأوا يهتمون حديثا جدا بمدى مساهمة التليفزيون في زيادة معدل النمو المعرفي عند الأطفال ، وانتقل هذا الاهتمام الى علماء النفس ، وعلماء النمو النفسي خاصة ، لدراسة ما اذا كان من الممكن زيادة معدل النمو المعرفي ؟ وسوف تزداد بحوث المستقبل القريب حول هذا الموضوع .

(١٣ ص ٤٣ ـ ١١٧ ، ١٥)

رابعا : دور التليفزيون في التنشئة الاجتماعية للطفل :

سبق الحديث عن أهمية التليفزيون ومكانته المتميزة عن وسائل الاعلام الأخرى ، ومن العوامل التي ذكرت وجعلت له هذه المكانة أنه أصبح له دور في تنشئة الأطفال اجتماعيا في الأسرة .

ولأهمية عملية التنشئة الاجتماعية وخطورتها على المجتمع ، اهتم علماء العلوم الاجتماعية ، وخاصة علماء النفس بدراستها ، وعندما اتضح أن التليفزيون له دور في هذه العملية بدأ العلماء يهتمون بتأثير هذا الدور على الأطفال ، ومدى قيام التليفزيون بدوره فيها ، ومدى تأثيره في السلوك الاجتماعي للأطفال .

فاهتم العلماء بأنماط محددة من السلوك الاجتماعي للأطفال وأثر التليفزيون فيها مثل : مساعدة الآخرين ، التعاون ، الصراع ، الصداقة ، التعاطف ، الشفقة ، المثابرة في عمل الواجب ، طاعة القواعد التي تضعها الجماعة .

ورغم أهمية موضوعنا هذا الا أن الدراسات حوله قليلة بل تكاد تكون نادرة .

وتبين من إحدى الدراسات التي أجريت عام ١٩٧٠ أن البرامج الاجتماعية في التليفزيون تدعم وتقوي من تعلم السلوك الاجتماعي للأطفال الذين في سن ما قبل المدرسة .

كما أوضحت دراسة أخرى أجريت في بريطانيا عام ١٩٥٥ وجود عدد من الأدلة على تأثير التليفزيون في سلوك الأطفال الذين في سن من ١٠ ـ ١١ سنة ، حيث تبين وجود تأثير قليل ولكن متسق للتليفزيون في الطريقة التي يفكر بها الأطفال عن العمل ، كما اتضح أن الاطفال الذين يشاهدون التليفزيون يظهرون طموحا أكثر في نظرتهم وقيمهم التي تتعلق بالعمل عن الأطفال الذين لا يشاهدون التليفزيون ، فلقد اقتربت قيم الأطفال الذين يشاهدون برامج التليفزيون من قيم الطبقة المتوسطة عن العمل .

وفي دراسة قامت على مضمون بعض المسرحيات التي تقدم للراشدين في التليفزيون البريطاني لا تتضمن هذه المسرحيات الفكاهية أو الاجرامية أو البوليسية) وحيث أن الأطفال يستمتعون بالعديد من المسرحيات التي تقدم للراشدين فيمكن أن تكشف لنا الدراسة عن محتوى هذه المسرحيات من قيم ، ومدى تأثيرها في الأطفال وقيمهم .

فاتضح من هذه الدراسة أن عالم الدراما في التليفزيون البريطاني يقدم قيم مجتمع أهل الطبقة المتوسطة التي تعيش في المدن الكبرى ويتعرض لمهن الأفراد وعملهم في هذا المستوى الاجتماعي بشكل موسع . كما اتضح ان المسرحيات تقدم العمل اليدوي على أنه غير شيق ، وتعلم الأفراد أن الثقة بالنفس والصلابة لابد من توفرها لكي تحقق النجاح ، ونادرا ما تجلب الفضيلة السعادة ، وأن العنف جزء من الحياة يتعذر اجتنابه ، والأفراد الطيبون غالبا ما يكونون ضحايا .

كما اتضح من هذه الدراسة أن أوصاف الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون لمنازل الأغنياء تعكس علامات الثراء التي تصور في التليفزيون .

وتوضح هذه الدراسة أن القيم الاجتماعية التي يعرضها التليفزيون يمكن أن تحدث تأثيرا اذا ما قدمت في شكل درامي وبطريقة مستمرة[١٢] .

ويرى أحد علماء النفس أن هناك اختلافات بين الطبقات الاجتماعية في أساليب تنشئة الطفل ، وحتى تظل هذه الاختلافات باقية يجب أن تنقل الى الأجيال القادمة عن طريق أنماط تنشئة الطفل الخاصة بكل طبقة اجتماعية ولقد وجد في أمريكا فروق ملحوظة بين الطبقات في أساليب تنشئة الطفل سنة ١٩٤٠ ، حيث وجد أن الآباء الذين من الطبقة الوسطى أكثر صرامة مع أبنائهم من الآباء الذين من الطبقة الدنيا ، ولكن في سنة ١٩٥٨ أوضحت احدى الدراسات تقارب الفروق بين الطبقات وتغيرت نظرة المجتمع الى معاملة الطفل ، ويرجع بعض علماء النفس هذا التقارب بين الطبقات الاجتماعية في أساليب تنشئة الطفل الى التليفزيون ، فيقول أحد علماء النفس :

« في الحقبة الحديثة ، عندما حدث تغير في نقل المعايير من المجلات والكتب التي تتطلب قدرا عاليا من الثقافة والتعلم الى التليفزيون الذي ينقل أساسا وسائل متشابهة عن تربية الطفل الى كل من أمهات الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا على السواء ، فان فروق الطبقة التي كانت ملحوظة يوما ما أخذت تميل الآن الى الاختفاء كلية ، ومن المحتمل أيضا أن نفس عملية التقريب يمكن أن تحدث عبر الثقافات التي أصبحت أقل انعزالا بعضها عن بعض ومن ثم توثق الصلة أيضا بين الثقافة والشخصية »[٤] .

هذا عن دور التليفزيون في التنشئة الاجتماعية بصفة عامة للأطفال ، ومنذ خمس سنوات فقط بدأ الباحثون يهتمون بموضوع محدد من موضوعات التنشئة الاجتماعية وهو تأثير التليفزيون في اكتساب دور النوع . ويقصد بدور النوع أن كل نوع (ذكر أو أنثى) له دور محدد في الأسرة والمجتمع ، وله مهن معينة يزاولها ويقبل المجتمع مزاولته لها ، وله حقوق وواجبات محددة وله مكانة معينة في الأسرة والمجتمع ، والذي يحدد كل هذا المجتمع والثقافة السائدة فيه والذي ينقل كل ذلك الى أبناء الأسرة ، فنحن لا نولد بهذا الدور ولكن نتعلمه ونكتسبه خلال عملية التنشئة الاجتماعية في الأسرة ، ويصبح جزءاً من شخصيتنا ، ويحدد سلوكنا في المواقف الاجتماعية المختلفة ، ولذلك يختلف دور الأنثى - ودور الذكر في الأسرة وفي المجتمع من مجتمع الى آخر .

فهل التليفزيون له دور في تعليم الأطفال دور نوعهم ؟

• أوضحت إحدى الدراسات أن مجموعة من البنات في سن من ٥ الى ٦ سنوات شاهدن كارتونا تليفزيونيا لا يفرق بين الذكور والاناث في الدور الاجتماعي ، وبعد مشاهدته أظهرن في سلوكهن دور نوع أقل تمييزا بين الذكور والاناث .

وعند تقييم أحد البرامج المصممة لتقليل نمط دور النوع بين الذكور والاناث من الأطفال الذين في سن من ٩ الى ١٢ سنة ، وليوسع الوعي والاهتمام المهني للبنات في هذه المرحلة العمرية اتضح ما يلي :

أنه على الرغم من أن البرنامج كان له تأثير محدود في تعديل نمط الاهتمام الفردي الا أن المشاهدين من سبع مدن أمريكية أصبحوا أكثر تقبلا واستحسانا للبنات في أدوار غير تقليدية (أدوار كان الذكور يقومون بها عادة) وأصبحوا أقل تنميطا في ادراكهم لدور النوع . وكان حدوث هذه التأثيرات أكثر يسرا عندما شاهد أفراد عينة البحث البرنامج في المدرسة ، مع مناقشته في الفصل الدراسي . كما تبين أن ٦٠٪ من تأثير البرنامج استمرت مع أفراد العينة لمدة ٩ أشهر بعد مناقشتهم للبرنامج(١٥).

ويمكننا أن نختتم حديثنا عن دور التليفزيون في التنشئة الاجتماعية للأطفال بالعبارة التي ذكرها رائد من رواد نظرية التعلم الاجتماعي ألبرت بندبورا عام ١٩٧٧ حيث قال :

« انه بازدياد استخدام نماذج رمزية (التليفزيون) فان دور الوالدين والمدرسين والنماذج التقليدية الأخرى للأدوار ، سوف تحتل دورا أقل أهمية في التعلم الاجتماعي »(٨).

واذا حاولنا في نهاية هذه الدراسة أن نستعرض مدى تأثير وسائل الاعلام وخاصة التليفزيون في سلوك الأطفال لوجدنا أن هذا التأثير حيوي وفعال ، وبرهنت عليه البحوث العلمية ، والملاحظات الخاصة الدقيقة ، وذلك في السلوك العدواني ، والجوانب المعرفية والتعلم الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية ، وأن فعالية هذا التأثير تزداد عندما يكون الطفل عنده الاستعداد النفسي لمثل هذه التأثيرات ، وعندما تكون ظروف الأسرة هذه تساعد على ذلك . وعندما أيضا يكون الطفل في مرحلة عمرية تساعد على حدوث مثل هذا التأثير ، حيث اتضح أن عمر الطفل عامل هام في حدوث تأثير التليفزيون .

ويرى كاتب هذه الدراسة أنه اذا كانت الدول الأخرى قد اهتمت بدراسة تأثير التليفزيون في سلوك الأطفال فاننا في الدول العربية ، يجب أن نهتم اهتماما مضاعفا ، فيجب أن نهتم بتأثير برامجنا العربية ومضمونها في سلوك أطفالنا ، ثم وهذا هو الأهم أن نهتم بتأثير البرامج الأجنبية في سلوك واتجاهات وقيم وعادات أطفالنا في العالم العربي ، خاصة بعد أن اتضح مدى تأثير التليفزيون في الجوانب المختلفة لسلوك الأطفال وشخصياتهم في الرشد .



مراجع البحث

١ - دكتورة سهير بركات . الاعلام وظاهرة الصورة النمطية . مجلة العلوم الاجتماعية . السنة الثامنة . العدد الأول . ١٩٨٠ . ص ١٠٣ - ١١٩ .
٢ - دكتور سيد غنيم . سيكولوجية الشخصية . القاهرة : دار النهضة العربية . ١٩٧٣ .
٣ - دكتور عبداللطيف حمزة . الاعلام والدعاية . بغداد . مطبعة المعارف . ١٩٦٨ .
٤ - لازاروس . (ترجمة دكتور سيد غنيم) . الشخصية . القاهرة : دار الشروق . ١٩٨١ .
٥ - دكتورة عفاف أحمد . التنشئة الثقافية والمعرفية لطفل ما قبل المدرسة الابتدائية : الطفل والتليفزيون . بحث مقدم الى اسبوع التربية الثامن . الكويت . ١٩٧٨ .
٦ - دكتور مصطفى سويف . الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي . القاهرة : دار المعارف . ١٩٧٨ .
٧ - دكتورة ناهد رمزي . المفاضلة بين التليفزيون والوسائل الاعلامية الأخرى . المجلة الاجتماعية القومية . العدد ١ - ٣ ، المجلد ١٦ ، ١٩٧٩ . ص ٤٩ - ٦٨ .
8 — Bandura, A. Social Learning Theory: New Gersey: Prentice — Hall. 1971.
9 — Feshbach, S. & Singer, R. Television and Agression. San Franciscr: Gessey — Bass. 1967.
10 — Frank, G. Television: How to use it wisely with children. Child study Association of America, INC. 1969.
11 — Heinty, A. et al. Mass Media. Loyola university Press. Chicage: 1972.
12 — Himmelwiet, H. et al. Television and the child. in: Berleson, B. & Gavowity, M. Reader in Bublic Opinion and Communication. New york Free Press. pp. 418 — 448.
13 — Lesser, H. Television and the preschool child. London: Academic press. 1977.
14 — Kagan, G, & Moss, H. Birth to Maturity. London: Wiley. 1962.
15 — Roberts, D. & Bachen, C. Mass Communication Effects. Aunnal Review of psychology. V. 32, 1981, pp. 307 — 356.

مصادر أخرى للبحث :

- دكتور أحمد الخشاب ، دكتور أحمد النكلاوي . المدخل السوسيولوجي للاعلام . الاسكندرية : دار الكتب الجامعية . (بدون تاريخ) .
- دكتور سيد خيري . النمو الجنسي في مرحلة الطفولة . عالم الفكر . المجلد السابع . العدد الثالث . ١٩٧٦ . ص ١٣ - ٥٠ .
- دكتور سيد غنيم . النمو النفسي من الطفل الى الراشد . عالم الفكر . المجلد السابع . العدد الثالث . ١٩٧٦ . ٥١ - ١١٤ .
- ولبور شرام . ترجمة : محمد فتحي . أجهزة الاعلام والتنمية الوطنية . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . ١٩٧٠ .
- دكتور عبدالرحمن العيسوي . النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية في مرحلتي الطفولة والمراهقة . عالم الفكر . المجلد السابع . العدد الثالث . ١٩٧٦ . ص ١٧٤ - ١٩٠ .
— Bandura, A. Aggression: Asacial Learning analysis. New Gersey: prentice — Hall. 1973.
— Liebert, R. et al. The Early Window: Effects of Television on Children and youth. New York: pergamon press. 1973.

الصحافة الافريقية

بين التبعية والاستقلال

عواطف عبدالرحمن

كلية الاعلام - جامعة القاهرة

تقدم لنا الدول الافريقية فى مجملها وجهين متضادين فهى تمثل من جهة ظاهرة اقتصادية واجتماعية وسياسية وسكانية متشابهة عند مقارنتها بالدول المتقدمة ولكن ما أن ينظر الى هذه الدول بمعزل عن بقية العالم حتى تبدو شديدة التنوع . وهذا التنوع لا يقتصر على الدول ذاتها بل إن فى كل دولة منها تنوعا مذهلا يرجع الى مجموعة من العناصر المركبة . فهى تتكون أولا من سكان ذوى أصول قبلية متنوعة وفى داخل كل وحدة من هذه المجموعات تتمتع الجماعات التى تكونها بأصالة قوية . كما أن تنظيم هؤلاء السكان كان يقوم عند احتكاكهم بالغرب على أسس اجتماعية مختلفة . كما توصلت الدول الافريقية فى تطورها الى نظم اقتصادية واجتماعية شديدة التباين يمكن وصف خطوطها العريضة بأنها تتراوح بين التنظيم القبلى الذى يقوم على الشيوع وبين النظم شبه الاقطاعية التى يتفاوت تنظيمها من بلد الى آخر بدرجات مختلفة . وفى معظم هذه البلاد تتعايش أشد أشكال التنظيم تطورا مع أكثرها بدائية . وخلافا للدول المتقدمة التى تطورت بصورة ذاتية فان الدول الافريقية لا يمكن تقييم أوضاعها الراهنة اذا أغفلنا النفوذ الأجنبى . فلقد تباينت النظم الاستعمارية كثيرا بتباين الأمم واختلاف العصور وكذلك اختلفت وسائلها وأهدافها اذ تختلف بصورة واضحة نماذج كل من الاستعمار الاسبانى والبرتغالى فى القرنين ١٦ ، ١٧ عن تلك التى تقابل العهود الأولى من الثورة الصناعية [١] .

وقد يبدو من الضرورى أن نستعرض بشكل موجز آثار الظاهرة الاستعمارية الأوربية على الواقع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للمجتمعات الافريقية ثم نتابع ردود الفعل الافريقية التى تمثلت فى حركة التحرر الوطنى الافريقى التى بدأت تفرض نتائج

---

(١) جون هاتش : تاريخ افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية ترجمة عبدالعليم منسى - دار الكاتب العربى - القاهرة ١٩٦٩ ص ٤٣٧ - ٤٥٦ .

وجودها منذ نهاية الخمسينات . وعندما نتأمل قليلا الظاهرة الاستعمارية الأوربية نلاحظ أنها تمخضت عن ثلاثة أشكال كان لكل منها أسلوبه المميز سواء فى الحكم أو فى الاستغلال الاقتصادى أو فى ادارة الصراع مع القوى المحلية . فنلاحظ أن الرأسمالية التجارية الاوربية قد أفرزت أقدم الاشكال الاستعمارية وأكثرها تخلفا وتتمثل فى كل من الاستعمار الاسبانى والبرتغالى فى القرنين ١٦ ، ١٧ تليها فى الترتيب الزمنى الرأسمالية الصناعية الأوربية التى أدى تطورها فى القرنين ١٨ ، ١٩ الى ظهور كل من الاستعمار البريطانى والفرنسي والألمانى والبلجيكى . أما الشكل الثالث والأخير فهو يتجسد فى ظاهرة الاستعمار الاستيطانى الأبيض فى بداية القرن العشرين وكان الجزء الجنوبى من القارة الافريقية هو مجالها الحيوى ولقد ساهمت طبيعة المستعمر ودرجة تطوره فى سلم الرأسمالية الأوربية فى تحديد شكل ومضمون الصراع مع شعوب المستعمرات . فنلاحظ أن كلا من الاستعمار الفرنسي والبريطانى قد خلق مناخا للصراع مختلفا عن ذلك المناخ الذى فرضه كل من الاستعمار البرتغالى والاستيطانى فقد اتسمت السلطة الاستعمارية الفرنسية بالطابع الأوتوقراطى أكثر من الاستعمار البريطانى الذى كان يعتمد على أساليب للحكم اتسمت بالمرونة والليبرالية من حيث السماح بقيام أحزاب وطنية وبالتالى صدور صحف وطنية تعبر عن هذه الأحزاب . وقد ساعد هذا المناخ على نشوء حركات وطنية اتبعت الأسلوب السلمى فى كفاحها ضد الاستعمار البريطانى . وقد حققت هذه الحركات السلمية أهدافها فى الحصول على الاستقلال الكامل أو المشروط أو مجرد وعد بالاستقلال ووصلت الى ذروة نجاحها فى نهاية الخمسينات وبداية الستينات . . هذا بينما نجد أن المستعمرات الافريقية التى لجأت الى الكفاح المسلح هى التى خضعت للاستعمار الأكثر تخلفا والذى يتميز بروح القهر الصليبية حيث قام بتحويل الشعوب الافريقية التى خضعت له الى مجموعة من الكادحين المعدمين وبالتالى فقد جاءت ثوراتها الوطنية متأخرة عن سواها ولكنها تتميز بالعنف المسلح وتشتمل على مطالب كل من الثورتين الوطنية والاجتماعية معا .

هذا وقد تبلورت على أرض القارة الافريقية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وحتى أوائل الستينات ثلاثة اتجاهات رئيسية لتحقيق التحرر الوطنى والحصول على الاستقلال يمكن ايجازها على النحو التالى : ـ

أولا : الاتجاه السلمى المعتدل الذى تمثل فى اقتناع بعض الزعامات الافريقية بفكرة العمل داخل النظام الاستعمارى للحصول منه على الاستقلال من خلال العمل الدستورى وقد عبر عن هذا الاتجاه كل من نيجيريا والسنغال وساحل العاج .

ثانيا : الاتجاه السلمى الراديكالى وقد تبنته التنظيمات الشعبية التى تصدت للقوى الاستعمارية ووضعتها أمام الاختيار بين منح الاستقلال السياسى لهذه التنظيمات الوطنية أو المواجهة الشعبية الحادة التى كانت تملك هذه التنظيمات القدرة على تفجيرها وقد عبر عن هذا الاتجاه كل من غينيا وغانا وتنجانيقا .

ثالثا : الكفاح المسلح وقد لجأت اليه الجماهير الأفريقية لمواجهة حكم المستوطنين الأوربيين مباشرة الا أنها لم تجد مفرا من اللجوء الى الكفاح المسلح الذى واجه عدة انتكاسات فى روديسيا وصفى فى كينيا ونجح فى اطار الثورة الوطنية الشاملة فى كل من الجزائر وانجولا وموزمبيق وغينيا بيساو وزيمبابوى [٢] .

---

(٢) جاك ووديس : جذور الثورة الافريقية ، ترجمة فؤاد بلبع ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧ .

وقد انقسم المجتمع الافريقى أثناء الفترة الاستعمارية الى ثلاثة قطاعات ، القطاع التقليدى وقطاع المهنيين وعمال المدن وفيما بينها قطاع الحرفيين الذى كان ينتمى بعض أفراده الى عائلات لها وزنها فى المجتمع اذ كانت تتمتع برسوخ مكانتها وثرائها النسبى . وقد كان للاستعمار الأوربى أثر على التركيب الاجتماعى للمجتمعات الافريقية يتكون من عدة أبعاد أولها أنه أضعف الحكم القبلى بأن قلل من شأن طبيعة المجتمع المستقرة وثانيها أنه خلق طبقة بورجوازية جديدة من المحامين والأطباء والمدرسين والتجار وثالثها أنه خلق طبقة بورجوازية صغيرة متمدينة ومتداخلة مع العمال وتتكون من العمال المهرة والكتبة وصغار المدرسين والتجار والصحفيين وهذه الطبقة تمثل غالبية سكان المدن كما كانت تعيش قريبة من القطاعات الواسعة من العمال الريفيين (٣) .

المثقفون الأفريقيون فى مرحلة التحرير الوطنى :

لقد لعب المثقفون الافريقيون دورا قياديا فى مرحلة التحرير الوطنى سواء الرعيل الأول منهم والذين كانوا ينتمون فى غالبيتهم الى الأوساط البورجوازية الاصلاحية وكانوا يهدفون فى أفضل الأحوال الى تحقيق التسويات مع السلطات الاستعمارية . أما الرعيل الثانى من المثقفين الأفريقيين فقد تبنى بالاسلوب الراديكالى فى مواجهة السلطات الاستعمارية مما ساعدهم على تحقيق الاستقلال الوطنى وقد كان الحصول على الاستقلال نذيرا يحمل كثير من التغييرات الجوهرية التى طرأت على موقع المثقفين الافريقيين وأدوارهم فى الدول الافريقية المستقلة . اذ تبنى بعضهم فكر ومصالح الجماهير الافريقية بينما انصرف البعض الآخر عن مواقع الريادة يأسا من الأوضاع التى نشأت بعد جلاء المستعمرين هذا فى الوقت الذى تعلق فيه الفريق الثالث بأذيال الحكومات الافريقية الجديدة كناطقين باسمها ومبررين لسياستها . هذا هو التغير الذى طرأ على مواقع المثقفين الأفريقيين بعد الاستقلال . أما أدوارهم فقد تعرضت لتغيرات أساسية وذلك بسبب المهام والمسئوليات التى أصبحت تواجهها الحكومات الأفريقية بعد الحصول على الاستقلال من ناحية وبسبب التغير الذى طرأ على علاقة المثقفين الافريقيين بالسلطة السياسية من ناحية أخرى . فقد أصبحت المهمة الأولى أمام الحكومات الأفريقية هى اعادة بناء الدولة بصورة جذرية سواء على المستوى الاقتصادى أو السياسى أو الثقافى . واذا كانت هذه المرحلة لا تحتاج بالدرجة الأولى الى دعاة سياسيين وخطباء بقدر حاجتها الى مهندسين وأطباء وخبراء فنيين فى شتى المجالات فان ذلك لا يعنى انتهاء دور المثقفين بقدر ما يعنى التغير فى نوعية هذا الدور اذ يبدأ دورهم فى التراجع كطليعة سياسية ويفتح أمامهم امكانيات وآفاقا جديدة لم تكن موجودة فى المرحلة الاستعمارية وتبدأ أمام المثقفين مهمة اعادة بناء الثقافة الوطنية وبعث الجوانب الايجابية فى التراث الأفريقى . والواقع أن الدور القيادى للمثقفين الأفريقيين فى مرحلة التحرر الوطنى ذو طابع مؤقت ومحدود تاريخيا . ويظل هذا الدور ممكنا طالما أن هناك ضرورة موضوعية تفرضها أوضاع الدول الأفريقية للتحرر من السيطرة الأجنبية . ولكن فى سياق تحول المجتمعات الافريقية التى كانت خاضعة للسيطرة الاستعمارية الى مجتمعات مستقلة تتطلع الى التصنيع واعادة البناء من خلال برامج طموحة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية هنا يتغير موقع ودور المثقفين الافريقيين وتفرض عليهم المرحلة الجديدة مسئوليات ومهام جديدة (٤)

---

(٣) عدد من العلماء السوفيت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ـ ترجمة داود حيدر ومصطفى الدباس ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٤ ـ ص ٣٥٧ ـ ٣٦٧ .

(٤) عواطف عبدالرحمن : مقدمة فى الصحافة الافريقية ـ منشورات الجمعية الأفريقية ـ القاهرة ١٩٨٠ ـ ص ٤٠ ـ ٤٢

الصحافة الأفريقية في مرحلة التحرر الوطني :

لم تشهد الدول الافريقية نشوء صحف وطنية طوال المرحلة الأولى من وجود الاستعمار الأوروبي والتي امتدت حتى بداية القرن العشرين فيما عدا بعض الدول مثل غانا ونيجيريا اللتين شهدتا ظهور صحافة وطنية مزدهرة وقادرة على توجيه النقد للسلطات الاستعمارية وذلك منذ وقت مبكر يرجع الى نهاية القرن التاسع عشر . وتتميز منطقة غرب أفريقيا الناطقة بالانجليزية بأنها كانت مهدا لأول صحيفة أفريقية تصدر بالقارة ويمتلكها ويصدرها صحفي أفريقي هو شارل بانومان الذى أصدر صحيفة (أكرا هيرالد) منسوخة على اليد ١٨٥٧ . وقد تحولت فيما بعد الى صحيفة مطبوعة وتغير اسمها الى وست أفريكان هيرالد . ولا شك أن الاختلاف الأساسي بين السيطرة الفكرية والثقافية لكل من الاستعمار البريطاني والفرنسي علاوة على اختلاف نوعية ومعدل تطور الحضارات التقليدية في الدول الافريقية التي خضعت لهذين النوعين من الاستعمار كان له تأثيره الواضح في ازدهار الكلمة المطبوعة في المناطق الناطقة بالانجليزية (الانجلو فون) عنها في المناطق الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفون)

وقد ارتبط نشوء الصحافة الوطنية في أفريقيا بنمو النخبة الوطنية التي تصدت لقيادة الحركة الوطنية في الدول الأفريقية وقد تبلور نشاطها في شكل تجمعات أو تنظيمات شبه حزبية . وفي معظم الحالات الوطنية تتمحور حول النشرة السياسية ثم يأتي بعد ذلك التجسيد المادى للحركة في شكل أعضاء أو كيان تنظيمي . وتبرز مصر كمثال واضح في هذا الصدد فمن الظواهر الجديرة بالذكر في تاريخ الحياة السياسية المصرية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو أن أغلب الأحزاب قد بدأت خطواتها الأولى بتجمعات حول الصحف بمعنى آخر أنه بدلا من أن تنشىء الأحزاب صحفا ناطقة باسمها أنشأت الصحف أحزابا كتجسيد مادى لآرائها فالحزب الوطني كونه مصطفى كامل مؤسس صحيفة اللواء وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ترأسه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد كما أن حزب الأمة خرج أساسا من صحيفة الجريدة وكان لطفى السيد مدير تحريرها سكرتير الحزب والمعبر الحقيقى عن آرائه . هذا وقد لعبت الصحافة الوطنية في أفريقيا عدة أدوار اختلفت وتنوعت باختلاف وتنوع مهام كل مرحلة من مراحل الكفاح الوطني من أجل الاستقلال . فاذا كانت الصحافة قد استندت في مرحلة الكفاح السلمى الى تنظيمات سياسية وأحزاب تمثل الشرائح المتوسطة أو الصغيرة من البورجوازية الوطنية . فان الصحافة الأفريقية في مرحلة الكفاح المسلح قد عبرت عن ثورات وطنية يشكل الفلاحون الفقراء هيكلها النضالي وقد اقتصرت الصحافة الوطنية في مرحلة الكفاح السلمى على رفع شعار الاستقلال السياسى وانحصر دورها في طرح المطالب الوطنية فقط دون التعرض للأبعاد الاجتماعية . أما صحافة الكفاح المسلح فقد كانت تطالب بالاستقلال السياسى الشامل وتطرح رؤية كاملة للتغيير الاجتماعي . ولذلك فان مضمون هذه الصحافة كان أكثر شمولا وراديكالية في طرحها لمختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من صحافة المرحلة الأولى وأبرز مثال لذلك صحيفة المجاهد لسان حال الثورة الجزائرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢) التي لم تكن امتدادا للصحافة الوطنية السابقة عليها سواء من حيث الشكل أو المضمون أو كوادر المحررين . وقد عانت صحافة الكفاح المسلح من نقص الامكانيات وعدم وجود كوادر مدربة واعتمدت على المعونات التي كانت تتلقاها من الدول الافريقية المستقلة . والدول الاشتراكية وبعض الهيئات الأوربية المتعاطفة مع النضال الأفريقي . هذا بينما لم تعان صحافة الكفاح السلمى من نقص الامكانيات بقدر معاناتها من قيود السلطة الاستعمارية (المصادرة -

اعتقال المحررين ـ الغاء تراخيص الصحف) . واذا كان التراث القبلى والأمية وتعدد اللغات تمثل أبرز الصعوبات التى واجهتها الصحافة الافريقية فى المرحلتين فان صحافة الكفاح المسلح قد نجحت فى استخلاص أساليب جديدة للتغلب على أمية الجماهير وذلك بالاستعانة بالمسئولين السياسيين الذين كانوا يقومون بقراءة النشرات الثورية للجماهير وابلاغهم بنتائج المعارك علاوة على دورهم فى مجال التعبئة السياسية والثورية هذا بينما اقتصرت الصحافة الوطنية فى مرحلة الكفاح السياسى على التعامل مع شريحة صغيرة من الجماهير الملتفة حول النخبة الوطنية (٥) .

الصحافة الافريقية فى مرحلة الاستقلال :

لقد طرأ تغير شبه جذرى على دور الصحافة الأفريقية فى مرحلة بناء الدولة الوطنية بعد الحصول على الاستقلال اذ فقد النشاط الصحفى والدعائى أهميته السابقة وتغيرت طبيعة المهام التى كانت تقوم بها الصحافة أثناء مرحلة التحرر الوطنى . كما كان للميراث الاستعمارى تأثيره السلبى على مواقف الزعماء الافريقيين من الصحافة بعد الاستقلال . فلعله من المثير حقا أن نعلم أن معظم هؤلاء الزعماء قد بدأوا نضالهم السياسى فى الميدان الاعلامى كمحررين أو ناشرين لصحف أو نشرات وطنية وقد برز منهم كينياتا فى كينيا ونيريرى فى تانزانيا ونكروما فى غانا وازيكوى فى نيجيريا . وانطلاقا من هذه البداية فان معظم الزعماء الافريقيين أصبحوا يخشون الصحافة لانهم يدركون قدراتها التأثيرية على الجماهير وبالتالى قدرتها على تغيير النخبة الحاكمة . لذلك نجد أن كثيرا من الزعماء الافريقيين قد توسعوا فى الاطار القمعى ليس فقط من أجل المحافظة على نفوذهم وبقائهم فى السلطة فى الأساس ولكن أحيانا من أجل أهداف وطنية مثل ربط مسئوليات الاعلام بأهداف التنمية الوطنية

ومن أبرز ما تتسم به الصحافة الافريقية فى مرحلة الاستقلال ذلك الانقسام القوى بين الصحف التى تكتب بالفرنسية وتتوجه الى العالم الناطق بالفرنسية وتلك التى تكتب بالانجليزية وتوجه أخبارها الى المناطق الناطقة بالانجليزية . ان هذا الانقسام حاجز معترف به فى أفريقيا المستقلة ويمثل عقبة فى طريق الوحدة الافريقية . وتعمل كثير من الصحف الافريقية الوطنية بوعى للتغلب على هذا الحاجز عن طريق محاولة إيجاد اجراء تغطية اخبارية حقيقية تشمل القارة الافريقية بأكملها ومن أبرز هذه الصحف (هوريا) فى غينيا و (ليسور) فى مالى وصحف تانزانيا والجزائر كذلك تتميز الصحافة الافريقية فى مرحلة ما بعد الاستقلال بعدم انتمائها للتراث الأوربى خصوصا فى المضمون اذ أنها تعد امتدادا لصحافة النضال ضد الاستعمار ولذلك غلب عليها الطابع الايديولوجى والتربوى أكثر منه الطابع الاخبارى والتثقيفى العام . كما استمرت كصحافة رأى تعتمد على المقال والريبورتاجات التى تتضمن خطب الزعماء والحكام . بينما تضاءل اهتمامها بالنشاطات الأخرى التى تزخر بها الحياة اليومية فى الميادين المختلفة مثل الاقتصاد والفن والخدمات والرياضة حتى كاد ينعدم فى بعض الاحيان .

(٥ أ) Rosalynde Ainslie: The press in Africa communications past and present — New york. 1967.

(٥ ب) Dennis Wilcox: Mass Media in Black Africa, philosphy and control. praeger publisher New york. 1976. pp 48 — 51.

(٥ ج) عواطف عبدالرحمن : الدعاية الثورية فى افريقيا ـ دراسة تحليلية لصحافة حركات التحرر الافريقية ـ مذكرات غير منشورة ـ كلية الاعلام جامعة القاهرة ١٩٧٧ .

وقد شهدت أفريقيا في السنوات التي تلت الاستقلال (خلال عقد الستينات) عدة مؤتمرات تناولت تطوير وسائل الاتصال وانشاء وكالات أنباء وطنية وتطوير استخدام الاذاعة والتليفزيون في أغراض التنمية الاجتماعية والثقافة وتحقيق الوحدة بين شعوب القارة . وقد أسفرت ذلك عن انشاء ثلاثة تجمعات تتولى الاشراف على وسائل الاتصال الافريقية وهي اتحاد الصحفيين الافريقيين في باماكو ١٩٦١ واتحاد الاذاعات الافريقية في داكار ١٩٦٢ واتحاد وكالات الانباء الافريقية في تونس ١٩٦٢

واستطاعت هذه التجمعات الاعلامية من خلال العديد من الدراسات التي قامت بها للاعلام الافريقي أن ترصد أهم السلبيات التي يعاني منها الاعلام الافريقي في المرحلة الراهنة وتتلخص فيما يلي :

١ - نقص الكوادر المتخصصة والمدربة ونقص الأجهزة الاعلامية الحديثة .
٢ - سيطرة وكالات الأنباء الغربية على أجهزة الاعلام الافريقية .
٣ - وقوع وكالات الأعلان الافريقية في أيدي الشركات الأجنبية .
٤ - ارتفاع أسعار الورق والمواد الطباعية وارتفاع قيمة الاشتراكات في وكالات الأنباء العالمية .

هذا علاوة على المشكلات التقليدية التي تعاني منها الصحافة الأفريقية مثل تعدد اللغات وانتشار الأمية بنسبة مرتفعة بين الجماهير الأفريقية (٦-أ) ورغم مرور عقد كامل على نشوء هذه التجمعات وبدء ممارستها لنشاطها ولكن توقفت إنجازاتها عند حدود التوصيات والقرارات العامة

وإذا كانت قضية الاعلام الوطني في أفريقيا قد نالت هذا الاهتمام المكثف على مستوى القارة من خلال المؤتمرات السابق ذكرها فإنها لم تحسم داخل الدول الأفريقية إذ بدأت الضغوط تظهر وتتصاعد بعد الحصول على الاستقلال من أجل أفرقة وسائل الاعلام سواء من حيث الملكية أو مضمون المواد الاعلامية الذي كان ولا يزال يدين بالتبعية للفكر الغربي . وقد حملت الستينات والسبعينات إجابات حاسمة على بعض التحديات التي يواجهها الاعلام الأفريقي بعد الاستقلال ولكن لا يزال الاتجاه الايديولوجي للاعلام الأفريقي لم يتحدد بعد وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل .

ولعل أبرز ما يميز الستينات عن الخمسينات في مجال الاعلام الأفريقي هو نشوء وانتشار وكالات الأنباء الوطنية . وتتضح أهمية ذلك إذا تذكرنا أنه حتى منتصف الخمسينات لم يكن يوجد بالقارة الأفريقية بأكملها سوى وكالة أنباء جنوب أفريقيا التي أنشئت ١٩٣٨ كي تقوم بتزويد النصف الجنوبي من القارة الأفريقية بالأخبار المحلية والأجنبية ولم تكن هيئة حكومية . وقد كانت وكالة أنباء الشرق الأوسط أول وكالة افريقية أنشئت في الخمسينات (١٩٥٦) ثم

(٦-أ) MOHSEN TOURNI: la presse en Afrique. Rev ve Francaise d'etudes politiques Africaines No. 841 — Paris, Decembre, 1972 — pp. 50 — 52.

(٦-ب) Ali MAZROUI: The press, intellectuals and the printed world in Masthoughts. Kampala Makere univ. press, 1972. pp. 18 — 22.

تلتها وكالة أنباء غانا (١٩٥٧) وعند بداية السبعينات كان يوجد حوالي سبع وعشرين وكالة أنباء وطنية في أفريقيا بعضها رسمي والآخر شبه رسمي (٧) . ولا شك أن نمو السيطرة الحكومية على وسائل الاعلام الأفريقية وتزايد عدد الوزارات الاعلامية الوطنية وتأميم وسائل الاذاعة والتليفزيون وإنشاء وكالات الأنباء الوطنية كل هذه الانجازات وغيرها كانت كفيلة بإحداث مرحلة التحول الرئيسية بالنسبة لوسائل الاعلام الأفريقية حيث أصبحت في الغالب أدوات للدعاية في أيدي السلطة السياسية سواء كانت ممثلة في الحزب الواحد أو في النظم العسكرية كما استخدمت لدى بعض الأنظمة كأدوات للتغيير الاجتماعي ولتحقيق التنمية الوطنية .

هل توجد نظرية إعلامية لأفريقيا .؟ !

تواجهنا مجموعة من الصعوبات النظرية والتطبيقية عندما نحاول أن نضع تصنيفا يضم كل التعقيدات التي يتسم بها الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي والتي تسهم في صياغة شكل الصحافة الأفريقية ومضمونها . ومهما اختلفت الآراء حول الصحافة ودورها في الدول النامية فمن الضروري مراعاة الانصاف عند إجراء مقارنة بينها وبين الصحافة الغربية . فالتقدم الذي حققته الصحافة الغربية سواء في النواحي التكنيكية أو مجال حرية التعبير استغرق مئات السنين فضلا عن أنه كان نتاجا للتطور المادي والفكري الشامل للمجتمعات الأوربية الذي تحقق من خلال استغلال الشعوب الافريقية والأسيوية أثناء فترة السيطرة الاستعمارية .

ويرى الصحفي الاسترالي ليلود سومرلاد مؤلف كتاب (الصحافة في الدول النامية) (٨) بأنه من غير اللائق أن نحاول تقييم الحكومات والصحافة في افريقيا طبقا لنفس المعايير التي نستخدمها في تقييم المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة الأمريكية فالدول الأفريقية تمر بمرحلة أنتقال حيث لا تزال تقوم بتجربة كثير من الصيغ والتنظيمات الجديدة . ففي الغرب لا يوجد تناقض بين قيام الحكومات بإصدار الصحف وبين قيام المؤسسات المستقلة عن الحكومات بإنشاء صحف خاصة بها بينها في الدول الأفريقية فإنه يعتبر من الطبيعي والمنطقي أن تقوم الحكومات بإصدار الصحف التي لا تختلف في أساليب عملها عن أجهزة الاعلام الأخرى مثل الاذاعة والتليفزيون .

لكل هذه الأسباب وغيرها فإنه لا يمكن تناول الصحافة الأفريقية وتقييمها طبقا للمقاييس والفلسفات المتعارف عليها في الغرب وعند محاولة استخلاص الاطار النظري العام الذي يحكم الصحافة الأفريقية ينبغي تجنب الاعتماد على نظريات سابقة نابعة من واقع مختلف وتستند إلى قيم وأفكار غربية في معظمها . وسنحاول مناقشة التطبيقات المختلفة للنظريات الاعلامية أملا في التوصل إلى التصنيف النظري الذي يفسر لنا الواقع الاعلامي الأفريقي بكل معطياته وتناقضاته . . وسنبدأ بالتصنيف الذي وضعه ولبور شرام وزملاؤه ١٩٥٦ (٩) ويتضمن النظريات الاعلامية الأربعة وهي نظرية السلطة والنظرية السوفيتية والنظرية الليبرالية ونظرية المسئولية الاجتماعية .

---

(٧) عواطف عبدالرحمن : وكالات الأنباء الافريقية ـ مذكرة غير منشورة ـ كلية الاعلام ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ ـ ص ١٥

(٨) Sommerlad, E.L. The press in developing Countries — Sydney univ. press — 1966.

(٩) انظر : Schram, peterson and Sebert: The Four theories of Mass Communica tion URbana Univ. Newyork 1956

وترتبط نظرية السلطة بنشأة وتطور الصحافة الانجليزية منذ القرن السادس عشر وتقوم على وجوب إخضاع الصحافة ذات الملكية الخاصة لسيطرة الحكومة من خلال قوانين الرقابة ووسائل السيطرة الأخرى مثل التصريح الرسمي والرقابة السابقة على النشر وفرض رسوم باهظة على البريد . وتعكس هذه النظرية الأهمية المتزايدة لسلطة الدولة على حساب حريات الأفراد . والواقع أنها تهدف إلى قهر الرأي المخالف أكثر مما تهدف إلى استخدام الصحافة بشكل إيجابي لتطوير الحياة القومية وترقية مستوى المعيشة . والواقع أن الصحافة الأفريقية رغم وجود كثير من التشابه بين ظروفها العامة وبين بعض ملامح نظرية السلطة غير أنه لا يمكن تصنيفها داخل هذا الاطار . فالنظرية تفترض ضرورة وجود صحافة ذات ملكية خاصة وتخضع في ذات الوقت للقيود الحكومية بينما تلحظ أن النمط السائد في أفريقيا هو ملكية الحكومة وإدارتها للصحف . كذلك النظرية السوفيتية التي قد تبدو في ظاهرها أنها أقدر على تفسير الوضع الاعلامي في أفريقيا إذ أن هناك بعض الدول الأفريقية التي تنتهج أسلوبا يماثل الأسلوب السوفيتي في ملكية الحكومة والحزب للصحافة وخضوعها للسياسة التي يضعها الحزب الحاكم . كما أن معظم الدول الافريقية تؤكد على ضرورة تعبئة وسائل الاعلام من أجل خدمة الأهداف القومية مثل قضايا التنمية والوحدة الوطنية . ورغم ذلك تظل النظرية السوفيتية قاصرة عن تفسير الأوضاع الاعلامية في أفريقيا فهي تستمد أساسها النظري من الفكر الماركسي اللينيني ولا يمكن تعميمها على الدول غير الاشتراكية التي تستخدم الصحافة كأداة للتنمية القومية فمن الواضح أن معظم الدول الأفريقية قد تحددت مواقفها من الصحافة طبقا لاختيارات سياسية واقتصادية وليس طبقا لاعتبارات أيديولوجية .

ومن الواضح أن النظرية الليبرالية لا تصلح للتطبيق على الواقع الأفريقي أو العالم الثالث ككل فهي مستمدة من التطور التاريخي للفكر الديموقراطي في أوربا الغربية . ويكمن الجوهر الرئيسي لهذه النظرية في وجود صحافة مستقلة من الناحية الاقتصادية وقادرة على القيام بدور الحارس لمصالح من تمثلهم في مواجهة الحكومة . ولا تتلاءم هذه النظرية مطلقا مع واقع الدول الأفريقية حيث تسود الأمية والفقر وحيث يستحيل قيام صحافة مستقلة ماليا .

أما فيما يتعلق بالنظرية الرابعة والتي تعرف بالمسئولية الاجتماعية فهي تجيز التدخل النسبي للحكومة كي تضمن أن جميع وجهات النظر سوف تأخذ طريقها للنشر . وتهتم هذه النظرية في الاساس بالمجتمعات التي تجاوزت مرحلة التصنيع ولذلك تنعدم علاقتها بالمجتمعات النامية في أفريقيا . وتؤكد هذه النظرية على أهمية المسئولية أكثر من تأكيدها على أهمية الحرية .

ومن الواضح أن النظريات الاعلامية الأربعة قد ركزت على متغير واحد هو علاقة الصحافة بالسلطة السياسية ولم تتعرض للبناء الاجتماعي والثقافي أو الواقع الاقتصادي الذي أفرز النظم الاعلامية القائمة في العالم الثالث وخصوصا أفريقيا . هذا فضلا عن أن جميع المحاولات الأخرى التي قام بها الباحثون الغربيون لحل الأشكالية النظرية للصحافة الأفريقية كانت في أغلبها محاولات ترقيعية حيث اعتمدت على اقتباس بعض جزئيات غير متسقة من النظريات الاعلامية السالفة الذكر مع إضفاء أسماء جديدة عليها . ومن أبرز هذه التصنيفات تصنيف رالف لوينشتين[١٠] الذي ركز على متغيرين هما الملكية والسلطة السياسية وقد خرج بتصنيف مقارب لتصنيف شرام مع اختلاف الأسماء فالنظرية السوفيتية

(١٠) Tohan C. Merril and Ralph Lowenstein: Media Messages and Men New York, David Nackay 1971 p.186

أطلق عليها اسم المركزية الاجتماعية ونظرية المسئولية الاجتماعية أصبح اسمها الليبرالية الاجتماعية . وكذلك دينيس ويلكوكس (١١) الذي أجرى تصنيفا للصحافة الأفريقية طبقا لأنماط الملكية الاعلامية السائدة وحاول استخلاص مواقف الحكومات الأفريقية من الصحافة في ضوء هذا التصنيف . وقد خرج بمجموعة نتائج أولية لا يمكن اعتبارها نظرية عامة بقدر ما هي توضيح للملامح الرئيسية لصورة الصحافة الأفريقية بشكل عام من حيث ارتباط الالتزام السياسي بنمط الملكية وقد اتضح أن جميع الدول الأفريقية تعكس دون استثناء تداخلا واضحا بين مختلف الأنظمة والنظريات الاعلامية وخصوصا كلا من نظرية السلطة والمركزية الاجتماعية . كذلك تبين أن هناك الكثير من الدول الأفريقية التي لم تمتلك أو تحدد بعد النظرية أو الفلسفة التي تحكم علاقتها بالصحافة . ويلاحظ أيضا بالنسبة للدول الأفريقية التي أعلنت التزامها بنظرية إعلامية محددة بأن ذلك لم يتم بناء على تحديد نظري أو فلسفي مسبق بقدر ما يعد ذلك بمثابة رد فعل لمشكلات ما بعد الاستقلال .

نظرية التبعية ومردودها في المجال الاعلامي :

إزاء القصور الذي تتسم به النظريات الاعلامية الأربعة السالفة الذكر وفشل المحاولات التي قام بها بعض الباحثين الغربيين لاستخلاص النظرية الاعلامية التي تحكم الدول الأفريقية كجزء من العالم الثالث أو في مقابل هذه الاتجاهات النظرية ظهر اتجاه آخر يركز على علاقة التبعية التي تربط دول العالم الثالث اقتصاديا وسياسيا وثقافيا بالعالم الرأسمالي المتقدم . والواقع أن هذا الاتجاه قد ظهر كرد فعل للأزمة التي عانت منها التفسيرات الليبرالية أو بالأحرى النظرية الوظيفية للواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي في دول العالم الثالث . وكذلك كرد فعل لأزمة الفكر الماركسي الكلاسيكي في فهم البناء الاجتماعي السياسي لمجتمعات العالم الثالث . ولعل أول ما يمكن أن يقال في هذا المجال إن مفهوم التبعية قد ظهر من خلال الجدل الحاد الذي دار بين العلماء الاجتماعيين حول مفهومي التخلف والتنمية فمفهوما التنمية والتخلف بالمعنى الذي استخدمته النظريات التقليدية لايتمتعان بقوة تفسيرية معبرة طالما أنهما لا يشيران بدقة إلى لب المشكلة التي تعاني منها الدول النامية وهي التبعية . لذا فمن الواضح أن مفهوم التبعية يستطيع أن يفسر لنا سبب تبني دول العالم الثالث أسلوبا في التنمية يختلف عن ذلك الذي اتبعته الدول الرأسمالية المتقدمة . فمن الطبيعي أن تختلف الظروف التي مرت بها الدول المتخلفة عن تلك التي مرت بها الدول المتقدمة فالدول المتخلفة كانت تمثل المورد الرئيسي للمواد الخام التي تحتاج اليها الدول المتقدمة . كما كانت تشكل سوقا هائلا ضخما لمنتجات الدول الرأسمالية المتقدمة ومن شأن هذا الموقف أن يخلق تبعية مطلقة من جانب الدول المتخلفة . وسيطرة كاملة من جانب الدول الاستعمارية ● فلا شك أن تخلف العالم الثالث أو تبعيته بمعنى أدق يرجع إلى خضوعه للسيطرة الاستعمارية لعدة قرون و الشيء الذي لا يمكن تجاهله هو أن بقاء دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية في حالة التبعية هو من فعل التقسيم الدولي للعمل الذي يتسم بالطابع الأمبريالي والذي فرض على دول العالم تفاوتا اجتماعيا واقتصاديا شديدا . وقد

---

(١١) Dennis Wilcox: Op. cit pp 101 — 105

● لقد أوضح فرانك هذه القضية بقوله إن تاريخ العالم ماهو إلا تاريخ واحد ومن لم فإن التنمية والتخلف وجهان لعملة واحدة من حيث إنهما نتاج التوسع الرأسمالي الذي تتغلغل في أعماق أكثر القطاعات انعزالا في المجتمعات المتخلفة . ومن لم فإن ماتراه من نظم اجتماعية وسياسية وثقافية في هذه المجتمعات بدءا من أصغر وحداتها الاجتماعية في الريف وحتى أعقد هذه الوحدات في المدن المتروبوليتانية ماهي الا نتاج للتطور التاريخي للنظام الرأسمالي .

تشكلت الأنظمة السياسية والأوضاع الاجتماعية والثقافية في دول العالم الثالث من خلال وضعها كمجتمعات تابعة داخل النسق الرأسمالي العالمي . وتتسم القوة السياسية في المجتمعات التابعة بالتركيز في أيدي فئة قليلة تتحكم في مصادر القوة الاقتصادية والتعبير السياسي والثقافي . وتتميز الأجهزة السياسية والبناء الفوقي بصفة عامة في دول العالم الثالث (التوابع) بالتضخم والبيروقراطية بشكل تقدمت فيه بصفة عامة على الأبنية التحتية التي تمثل امتدادا لمركز العالم الرأسمالي المتقدم . وإذا كان الدور المنوط بأجهزة الدولة في الفترة الاستعمارية هو إخضاع الطبقات المحلية لصالح علاقة التبعية الاستعمارية . فإن الوضع لم يختلف كثيرا في مرحلة ما بعد الاستقلال وفي ظروف تبعية ما بعد الاستعمار . إذ أصبحت الدولة بمثابة وسيط بين الرأسمالية العالمية والبرجوازية المحلية وملاك الأرض . والدولة هنا ليست أداة في يد طبقة واحدة وإنما تمثل هيكلا مستقلا يقوم بالدفاع عن مصالح الطبقات المسيطرة سواء في المركز أو في المجتمع التابع (١٢) . ولا يقتصر دور الدولة على إنجاز المهام السياسية المنوطة بها أو حماية المصالح الاقتصادية للرأسمالية العالمية والمحلية فحسب بل تخلق لنفسها إطارا أيديولوجيا يساعد على تعزيز هيمنتها الفكرية وترويج قيمها الثقافية من خلال أجهزة الاتصال والاعلام التي تحرص على امتلاكها والسيطرة عليها . غير أن تفسير التبعية يجب ألا يقتصر على العوامل العالمية وحدها بل يجب تفسيرها في ضوء العوامل المحلية الخاصة بدول العالم الثالث . مما تستلزم ضرورة التعرف على طبيعة البناء الاجتماعي والقوى الاجتماعية التي تستفيد من عائد التنمية وتلك التي تتحمل أعباءها في دول العالم الثالث . ذلك أن الاحتكار العالمي وحده لا يستطيع أن يفسر لنا تبعية دول العالم الثالث إلا إذا حاولنا التعرف على آثاره على هذه الدول وردود أفعالها إزاءه . كذلك لا نستطيع أن نتجاهل التأثير الذي أحدثته ثورة الاتصال على النظام الدولي . فلقد خلقت هذه الثورة عالما جديدا أشبه بوحدة واحدة .

ورغم وجود بعض الاختلافات بين أنصار اتجاه التبعية إلا أنهم يلتقون حول مجموعة من العناصر الأساسية التي يمكن تلخيصها على النحو التالي :-

١ - وجود العلاقة الوثيقة بين البناء الاجتماعي - والاقتصادي والبناء السياسي والثقافي في المجتمعات التابعة في العالم الثالث وارتباط ذلك بالنسق الرأسمالي العالمي .

٢ - الدور الذي تلعبه البورجوازيات المحلية في دول العالم الثالث التابعة في توجيه النظام السياسي والثقافي والاعلامي لخدمة مصالحها واستمرار علاقة التبعية .

ويترتب على ذلك غياب المناخ الديموقراطي الذي يسمح لجميع القوى الاجتماعية بحرية التعبير والمشاركة في الممارسات السياسية والثقافية والاعلامية وفي هذه الظروف لا تستخدم الديموقراطية الا بالقدر الذي يسمح باستمرار علاقات التبعية والتخلف (١٣) .

ويتضح مما سبق أنه على الرغم من أن النصف الثاني من القرن العشرين قد شهد استقلال ٨٠ دولة في العالم الثالث وحصول اثنين مليار من البشر على حريتهم وتخلصهم من السيطرة الاستعمارية إلا أن الظروف العالمية الراهنة

---

(١٢) انظر : السيد الحسيني : العالم الثالث تنمية أم تبعية - كتاب دراسات في التنمية الاجتماعية - القاهرة - دار المعارف ١٩٧٧ - ص ١٦٨ - ١٧٥ .

(ب) أحمد زايد : التفاعل بين جماعات الصفوة القديمة والصفوة الجديدة في الريف المصري - رسالة دكتوراة غير منشورة - جامعة القاهرة - فبراير ١٩٨١ - ص ١٦٠ - ١٦٦ .

(١٣) أحمد زايد : مصدر سابق - ص ١٦٨ .

السياسية والاقتصادية والثقافية والتقنية والعسكرية تتجه إلى تأكيد سيطرة الدول المتقدمة وتبعية غالبية الدول النامية . فمع تعزيز الاستقلال السياسي بحلول الستينات أصبح واضحا بصورة مطردة أن القضاء على الاستعمار السياسي لا بد وأن يستكمل بالقضاء على الاستعمار الاقتصادي والثقافي ذلك إذا ما كانت هناك رغبة في إحداث تغيير حقيقي في علاقات التبعية في دول العالم الثالث . وفضلا عن ذلك فإنه نتيجة لخضوع دول العالم الثالث خلال المرحلة الاستعمارية للاستعمار الاجتماعي والثقافي علاوة على الاستعمار السياسي والاقتصادي فقد أدى ذلك إلى تحول القيم والأنماط السلوكية في جزء كبير من العالم الثالث كي تعكس قيم وسلوكيات الدول الاستعمارية وبعد الاستقلال لم يحدث أدنى تغيير بل تم تدعيم الأنماط المنقولة من خلال مجموعة متنوعة من الميكانيزمات . ومن ثم فبقدر ما يكون هناك إدراك لعدم إمكانية تحقيق الاستقلال السياسي بدون الاستقلال الاقتصادي لا بد أن يكون هناك أيضا إدراك بأن الاستقلال الشامل لا يتحقق إلا بالتحرر الاجتماعي ـ الثقافي . ولذلك فإنه من المستحيل تصور استمرار السيطرة السياسية والاقتصادية على العالم الثالث بدون الدعم الهائل الذي يوفره نسق إعلامي فعال كأداة للسيطرة الثقافية والأيديولوجية . لذلك توجد درجة ملحوظة من عدم التكافوء في توزيع القوة على أساس أن وسائل الإعلام مصدر رئيسي من مصادر القوة والنفوذ إذ يوجد عدد قليل من الدول (الدول الرأسمالية المتقدمة على وجه التحديد) يتولى عملية الأرسال بشكل أساسي . أما غالبية الدول (من العالم الثالث) فهي تستقبل ما يرسل إليها . وينتج عن ذلك عدم توازن ملحوظ في تبادل المعلومات والأنباء بين العالم المتخلف والعالم المتقدم بالرغم من اهمية ذلك الدور على المستوى الدولي إذ يرتكز عليه ضرورة إبلاغ الرأي العام العالمي بالمشاكل التي تهدد الانسانية وخصوصا تلك التي لن تتوفر حلولها إلا بالتعاون بين الدول مثل مشاكل سباق التسلح والبطالة والفقر والأمية والجوع ونقص الخدمات الصحية وتلوث البيئة والعنصرية والانفجار السكاني واضطهاد المرأة . ومن هنا يمكن استخلاص مفهوم التبعية الاعلامية بأنها العلاقة التي تجسد عدم التكافوء في الامكانيات المادية والمصادر الاعلامية بين الدول الغربية المتقدمة وبين الدول النامية كما تجسد عدم التوازن في التغطية الاخبارية وتبادل المعلومات بين الشمال والجنوب . مما يترتب عليه تشويه الصورة الذهنية لشعوب العالم الثالث لدى الرأي العام العالمي فضلا عن إلحاق الضرر الجسيم بالثقافة القومية والقيم والأنماط السلوكية لدى هذه الشعوب وتعميق الاغتراب الثقافي . وتحتل وسائل الاتصال موقعا مزدوجا عند أي مستوى من مستويات التحليل للتخلف والتبعية . لذا يجب عند تحليلنا لوسائل الاتصال أن نأخذ في الاعتبار مستويين للتحليل :

١ ـ المستوى الأول : ويتعلق بالبعد الذاتي الذي يتمثل في الامكانيات المادية والبشرية وتشمل الوسائل التكنولوجية والمراسلين .

٢ ـ المستوى الثاني : ويمثل الاتجاه الاعلامي الذي ينقل بواسطة وكالات الأنباء أي صيغة الأنباء ومضامينها .

وفيما يتعلق بالمستوى الأول الخاص بالامكانيات المادية والبشرية فالواقع أن وكالات الأنباء الخمسة العالمية تحتكر أكثر من ٨٠٪ من الأنباء في العالم تخصص ما بين ٢٠ ، ٣٠٪ للدول النامية وهناك ٣٥ دولة في العالم ليست فيها أية وكالات أنباء منها ١٨ دولة أفريقية . كذلك يتميز التدفق العالمي للأنباء بعدم التوازن في توزيع المراسلين على النطاق العالمي ويتميز أيضا بالتغطية المتفاة لمناطق معينة على حساب مناطق أخرى . وتوضح إحصائيات (١٩٧٤) للتوزيع

العالمي لمراسلي وكالات الأنباء العالمية أن أوربا وأمريكا الشمالية هما الموقعان الرئيسيان لمراسلي الوكالات وأن أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط وأفريقيا هم اقل المناطق بالنسبة لعدد المراسلين العالميين .

والمستوى الثاني الذي يؤكد تبعية دول العالم الثالث وفي مقدمتها الدول الأفريقية في المجال الاعلامي هو وجود التباين السافر في نوع التغطية الاخبارية للأحداث الدولية فقد أجمعت الدراسات العديدة على أن الأحداث في الدول الغربية المتقدمة هي المستهدف الأول في التغطية الاخبارية باستثناء بعض الأحداث في الدول التابعة . وتشير هذه الدراسات الى أهمية الاعلام الاخباري الذي تنقله وكالات الأنباء العالمية في تشكيل صورة الحقيقة العالمية وأن أهميته تتفوق على الصورة الذهنية المسبقة وذلك لانتظامه ومواظبته وانتشاره(١٤) . كذلك نوع التغطية الاخبارية التي يقوم بها مراسلو وكالات الأنباء العالمية فهناك أسس وتعليمات لا يمكن أن يحيد عنها المراسل في تحديد الأولويات والأفضليات سواء في اختيار الأحداث أو تحريرها أو نشرها . ويؤكد ميليبان (أن وسائل الاعلام الدولية وخصوصا وكالات الأنباء الغربية تقدم خدماتها الاعلامية وفقا لمخطط مدروس ولتحقيق أهداف محددة وبشكل لا يخلو من التسلط والسيطرة وذلك من خلال إمكانياتها الهائلة وقدراتها على تكوين الأخبار بما يتفق مع مصالحها ولقد أثبتت وكالات الأنباء الغربية بصورة قاطعة أنها عنصر فعال تعتمد عليها المجتمعات الرأسمالية في نشر أفكارها ومعتقداتها ولا يمكن للوكالات أن تتخلى عن هذه الوظيفة(١٥) .

جدول (١) التوزيع العالمي لمراسلي وكالات الأنباء العالمية لعام ١٩٧٤

أمريكا	٣٤٪	أوربا	٢٨٪
آسيا واستراليا	١٧٪	أمريكا اللاتينية	١١٪
الشرق الأوسط	٦ ٪	أفريقيا	٤ ٪

ونلحظ من سياق هذا التصريح مدى أهمية وخطورة الدور الذي تلعبه وكالات الأنباء العالمية في الصراع الدولي وتشويه الصورة الحقيقية للأحداث وفرضها على الرأي العام العالمي كحقيقة إعلامية .

مظاهر التبعية الاعلامية (دور الشركات غير القومية) :

لا يمكن التطرق إلى قضية التبعية الاعلامية دون الاشارة إلى الدور الذي تلعبه الشركات غير القومية في هذا المجال وهو لا يتلخص فقط في ارسال التكنولوجيا ورؤوس الأموال بل يتسع ليشمل بيع العديد من المنتجات

(١٤) Phil Harris. International News Media Authority and dependence in Introduction to Mass communication in Nigeria. Lagos 1976. p.H10

(١٥) Miliband, R. The state in the Capitalist Socity. London Quarter books 1973. P.211

الاستهلاكية ذات الطابع الاجتماعي ـ الثقافي أو السوسيو ـ ثقافي التي تهدف في الغالب إلى نشر أفكار ومعتقدات تؤدي إلى تعميق الاغتراب الثقافي والاجتماعي لدى شعوب العالم الثالث التي تمثل دولهم الساحة الرئيسية لأنشطة هذه الشركات . هذا وسنحاول أن نحدد أبعاد التأثير الذي تمارسه الشركات غير القومية من خلال الدور الذي تقوم به كأحزمة ناقلة يتم من خلالها ترويج التفضيلات الاجتماعية ـ الثقافية (بل وأكثر من ذلك التفضيلات الاجتماعية ـ السياسية والاقتصادية) من البلدان الأصلية إلى البلدان الأخرى مما يؤدي إلى فقدان الخصائص القومية المميزة لثقافات الشعوب التي تتعرض لهذه التأثيرات . إننا سنحدد ملامح الدور الذي تقوم به الشركات غير القومية بوصفها نظماً للاتصال الدولي مما يستلزم تفنيد المكونات الرئيسية للعمليات الاتصالية التي تتم عبر هذه الشركات وأنشطتها المتنوعة . وذلك سعيا للتعرف على مدى ما تسهم به هذه الشركات في تكريس تبعية الدول النامية للدول الرأسمالية المتقدمة وخصوصا في مجالي الاتصال والاعلام . وتتحدد مكونات العمليات الاتصالية في ضوء المحددات الخمس المعروفة وهي :

١ ـ من (منتج المادة الاتصالية) ؟
٢ ـ قال ماذا (مضمون المادة الاتصالية) ؟
٣ ـ لمن (الجمهور المتلقى) ؟
٤ ـ كيف (الوسيلة الاتصالية) ؟
٥ ـ وماهو الأثر (الصدى) ؟

ويشير المحدد الأول إلى مصدر المادة الاتصالية أو منتجها الأصلي فنلاحظ أن الشركات غير القومية (حوالي ٢٠ ألف شركة غير قومية تسيطر على نحو ٨٠ ألف شركة تابعة) توجد مقارها الرئيسية في كل من الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وجمهورية ألمانيا الاتحادية وسويسرا والمملكة المتحدة وفرنسا . وأن الأغلبية الساحقة من الشركات الأجنبية التابعة لهذه الدول توجد في دول العالم الثالث التي كانت تابعة لها بشكل رسمي أو غير رسمي وخصوصا المملكة المتحدة وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . والأهم من ذلك هو أن هذه الدول هي موطن وكالات الأنباء العالمية الأربعة (الوكالتان الأمريكيتان اسوشيتدبرس ويونيتدبرس وانترناشيونال ورويتر البريطانية وأجنس فرانس برس الفرنسية) وعليها تعتمد في الواقع كافة اقتصاديات السوق (ماعدا اليابان) اعتمادا كبيرا لأخبارها الخارجية . . وبالمثل فإن نسبة عالية من البرامج التليفزيونية لمعظم دول العالم الثالث يتم استيرادها من الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة وأخيرا فمن بين أكبر الوكالات العالمية الخمسة والعشرين في العالم في الاعلان الدولي (وهو صناعة رئيسية يتصل الأمر بالتأثير الاجتماعي الثقافي) هناك ٢٠ وكالة أمريكية ومعظمها تحصل على إعلاناتها من الخارج[١٦].

المحدد الثاني (ماذا ؟) الخاص بمحتوى الرسائل المنقولة من الدول التي توجد بها المقار الرئيسية للشركات غير القومية ولا سيما ما يتعلق بالثقافة التجارية لهذه الشركات والواقع أن الثقافة التجارية تتضمن مجموعة من العناصر يمكن

---

(١٦) انظر : كارل سوفانت وبرنارد بيلس : الاستثمارات الاجتماعية الثقافية في نطاق الاقتصاد السياسي الدولي لعلاقات الشمال والجنوب ـ دور الشركات غير القومية ـ مركز دراسات الشركات غير القومية بالأمم المتحدة ـ نيويورك ـ يونيو ـ ١٩٧٩ .

تلخيصها في بعدين أساسيين أولهما يتعلق بالاتجاهات والقيم وأنماط السلوك وثانيهما يتعلق بكل من أنماط التنظيم والانتاج والاستهلاك . ويتسع البعد الأول كي يشمل نطاقا أكبر من نطاق الثقافة التجارية فيتضمن على سبيل المثال التفضيلات الأيديولوجية العامة أو الاتجاهات وأساليب الحياة وأنماط السلوك العامة ويتضمن البعد الثاني للثقافة التجارية ميكانزمات تشجيع أنماط وعمليات إنتاجية واستهلاكية لا تلبي احتياجات المجتمعات التابعة بل تؤدي إلى خلق الإحساس بالحاجة إلى التوسع الاستهلاكي . ويمكن أن يتم هذا بصفة خاصة من خلال العلاقات العامة والتسويق والاعلانات الباهظة التكاليف .

المحدد الثالث (لمن ؟) ويتضمن الجمهور المتلقي للرسائل الإعلامية والسوسيوثقافية . ويلعب العاملون في الشركات الأجنبية التابعة دورا هاما في نقل القيم وأنماط السلوك باعتبارهم نماذج حية تجسد خبرة الشركات الأجنبية التابعة ويركز هؤلاء على الطبقات العليا والفئات العليا من الطبقة الوسطى في مجتمعات العالم الثالث . أما الشرائح الدنيا والطبقات الفقيرة الأمية التي تتكون منها أغلبية دول العالم الثالث فإنها بمعزل عن التأثيرات المباشرة ولكن هذا لا يمنع من تعرضها لتأثير الإعلانات عبر الإعلام المرئي والمسموع (الإذاعة والتليفزيون) .

والمحدد الرابع (كيف ؟) الخاص بالقنوات التي يتم عبرها إرسال الرسائل الإعلامية والتي تسهم في تشكيل الأنماط الاستهلاكية . وهنا تلعب الإذاعة والتليفزيون دورا رئيسيا ثم الصحف والمجلات والنشرات المهنية والكتب والأسطوانات وشرائط الفيديو ووكالات الأنباء . وثمة قنوات أخرى ذات صلة بالموضوع ألا وهي المعاهد التعليمية والمديرون والعاملون في الشركات الأجنبية التابعة بل وحتى اللغة وأساليب تدريسها وفضلا عن الإعلان وخصوصا في سياق الثقافة التجارية فإن شبكات الشركات الأجنبية التابعة للشركات عبر القومية تعد بطبيعة الحال القناة الرئيسية للاستثمارات الاجتماعية الثقافية . وهذه العوامل مجتمعة بالإضافة إلى التكنولوجيا الحديثة للاتصال تجعل من شبكات الشركات الأجنبية التابعة في الواقع جهازا عالميا ديناميكيا للاتصال . أما المحدد الخامس والأخير فهو يتعلق بالتأثيرات التي تحدثها الرسائل الاجتماعية الثقافية لدى الجماهير المتلقية من شعوب العالم الثالث عبر الإعلانات وسواها من المواد الاعلامية والاتصالية سواء المنشورة في الصحف أو المذاعة والمعروضة في كل من الاذاعة والتليفزيون . ومن الممكن قياس حجم التأثير ومداه من خلال توفر بعض الشروط الضرورية مثل مضمون الرسالة الإعلامية ومدى اختلافها عن البيئات الاجتماعية الثقافية للمتلقين أي اشتراط وجود فارق حضاري يعتد به . ومن المرجح على أساس هذا الشرط وحده أن يكون الأثر بالغ القوة في مجتمعات العالم الثالث . وثمة شروط أخرى تتعلق بالمضمون ألا وهي وضوح الرسالة وتكرارها ومدى قدرتها على الاقناع . كذلك عدد القنوات الإعلامية ومدى تنوعها يلعب دورا هاما في التأثير . وعندما يتعلق الأمر بالجمهور المتلقي فمن المعروف أنه كلما زاد تعرض أكبر عدد ممكن من الأفراد والمؤسسات للرسالة الاعلامية كانت الآثار أعظم وأعمق . ويبدو على وجه الإجمال أن مجموعة الشروط الرئيسية الواجب توافرها لحدوث التأثيرات تتحقق في عموميتها في معظم دول العالم الثالث وخصوصا الدول الأفريقية التي تتنوع فيها التأثيرات السوسيوثقافية طبقا للشركات عبر القومية التابعة لها . فنلاحظ أن المناطق الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفون) تعتبر مناطق نفوذ ثقافي فرنسي وذلك على عكس باقي المناطق الأفريقية الناطقة بالانجليزية والتي تعتبر مجالات حيوية للنشاط الثقافي الذي تمارسه الشركات عبر القومية الأمريكية والبريطانية من خلال وسائل الاتصال العديدة .

وفي النهاية فإن التأثير الأساسي يتمثل في مدى استيعاب شعوب العالم الثالث للاستثمارات الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالدول الرأسمالية من خلال الشركات عبر القومية والتي تؤدي إلى حدوث تغيير في الاتجاهات الاجتماعية والثقافية لمواطني العالم الثالث إزاء الصورة الاجتماعية والثقافية للدول الرأسمالية المتقدمة .

التبعية الإعلامية وحرية الصحافة في أفريقيا

لقد رأينا كيف أدى التطور الاقتصادي العالمي وما ارتبط به من تقدم تكنولوجي إلى التطور في وسائل الاتصال العالمية الأمر الذي جعل الحصول عليها واستيرادها وتصنيعها يحتاج إلى أموال طائلة وخبرات فنية متخصصة ووسائل تكنولوجية متطورة . مما أدى إلى سيطرة الدول الرأسمالية المتقدمة على وكالات الأنباء العالمية والاذاعات الدولية البارزة والصحف والمجلات الدولية وترتب على هذا الوضع ظهور مايسمى بالاحتكار والتركيز في الاتصال الدولي أي احتكار قلة من الدول الرأسمالية المتقدمة لمصادر الأنباء في العالم في الوقت الذي لا يتجاوز العالم الثالث الحدود الدنيا في المصادر الاعلامية وتعتبر أفريقيا أفقر القارات في المصادر الاعلامية من حيث الصحف والاذاعات ووكالات الأنباء .

وقد اتضح لنا أبعاد الدور الذي تقوم به الشركات عبر القومية في تكريس تبعية الدول النامية للدول الرأسمالية المتقدمة ليس في المجالين الاقتصادي والسياسي فحسب بل في الميادين الاجتماعية والثقافية وذلك من خلال استخدامها لوسائل الإعلام الدولية السالفة الذكر (وكالات الأنباء العالمية ـ المجلات الدولية ـ الاذاعات ـ التليفزيون) . وتعد الاعلانات الأداة الرئيسية التي تستخدمها هذه الشركات لنشر الثقافة التجارية ولتهديد الخصائص القومية للثقافة الوطنية في الدول الأفريقية . والواقع أن الإعلانات تلعب دورا مزدوجا في خلق عدة مستويات للتبعية الإعلامية والثقافية في الدول الأفريقية كما أنها تمثل خطراً مباشراً يهدد حرية الصحافة في أفريقيا . والدور الأساسي الذي تقوم به الإعلانات التجارية الخاصة بالشركات عبر القومية وتوابعها في الدول الأفريقية هو الترويج للسلع الاستهلاكية المستوردة مما يؤدي إلى خلق أنماط للاستهلاك تتعارض مع خطط التنمية القومية ومستلزمات الاقتصاد الوطني .

وهكذا يتم تكريس واستمرار تبعية الدول الأفريقية اقتصاديا وسياسيا للسوق الرأسمالية العالمية وممثليها حيث تسهم الاعلانات التجارية في تقويض محاولات الاستقلال الاقتصادي بشكل غير مباشر من خلال ترويض العقول وتنمية رغبات استهلاكية جديدة لدى الجماهير الافريقية .

ويتحقق ذلك في الغالب من خلال وكالات الإعلان الأجنبية التي تقوم باختراق وسائل الإعلام الأفريقية وتفرض عليها شروطها وأولوياتها بكل ما يحمل ذلك من تهديد لحرية الصحافة وللاقتصاد الوطني في آن واحد . وهناك أمثلة عديدة على وكالات الإعلان الأجنبية في أفريقيا منها الوكالة الفرنسية (وكالة هافاس للاعلانات) وهي تملك نفوذا واسعا في المنطقة الناطقة بالفرنسية (في غرب أفريقيا ومدغشقر) ولا تقل العقود التي توقعها مع الصحف الأفريقية عن خمسة أعوام تضمن خلالها نشر حد أدنى من الاعلانات وتحصل على ٤٠٪ عمولة على الاعلانات الأجنبية . ولها مساحات محجوزة بصفة دائمة في هذه الصحف . ولا يخفى ما تمثله هذه العقود من تهديد سافر لحرية الصحافة إذ من خلالها تستطيع وكالات الإعلان التدخل في مضامين المواد الإعلامية التي تنشرها تلك الصحف . وقد بدأت بعض

الصحف الأفريقية تتحرر من سيطرة وكالة هافاس الاعلانية عندما بدأت تظهر للوجود وكالة غرب أفريقيا للاعلانات رغم أنها تقتطع ٥٠٪ عمولة على الاعلانات . وقد أنشأت كل من مصر وتونس والجزائر وكالات إعلان حكومية في بلادهم ويتم من خلال هذه الوكالات تزويد الصحف بالاعلانات(١٧).

أما الدور الذي تقوم به الإعلانات في تهديد حرية الصحافة في أفريقيا فهو يأتي أصلا من التمويل . إذ أن استخدام أو الاعتماد على الاعلانات كمصدر لتمويل الصحف يضع في أيدي المعلنين سلطة كبيرة تجعلهم يتحكمون في مضمون ما تنشره الصحف إلا إذا كانت هذه الصحف خاضعة لإشراف الحكومة ، وهنا يمكن تحييد موقف المعلنين رغم أن هذا لا يلغي احتمال المواجهة بين بعض المعلنين الأقوياء والحكومة حينما يحاول هؤلاء فرض ضغوطهم غير المباشرة على الصحيفة والتي تهدف في النهاية الى تخريب خطة التنمية القومية داخل الدولة . ويزداد الصراع بين المعلنين والحكومة عندما يكون هؤلاء المعلنون ممثلين للشركات الأجنبية .

وأخيرا فإذا كان لنا أن نلخص أنواع التبعية الإعلامية التي تخضع لها الصحافة الأفريقية فيمكننا أن نشير إلى ثلاثة أنواع من التبعية أولها التبعية للسلطة الحاكمة وثانيها التبعية لرؤوس الأموال المحلية والدولية وثالثها التبعية لاحدى القوتين العظميين وخصوصا الكتلة الرأسمالية لأسباب تاريخية ورغم تفاوت درجات خضوع الدول الافريقية لأنواع التبعية المذكورة إلا أنه يبقى التحدي الرئيسي أمام الصحافة الوطنية في أفريقيا وهو كيفية التخلص من كافة أشكال التبعية الإعلامية . وهذا الأمل لن يتحقق بالطبع إلا إذا تخلصت الشعوب الأفريقية من الصور الأخرى للتبعية الاقتصادية والسياسية التي يعني استمرارها منح عمر أطول للتبعية الاعلامية والثقافية .



(١٧) Ekani O nambele: L., exploitation de la Presse en Afrique Sud de Sahara Thesis Universite de Paris 1965 p.45.

الاسلام والابداع الشعرى

سليمان الشطي

الاسلام والابداع الشعري ، موضوع يفترض ان الحواشي قد تشعبت والتفت من حوله حتى كادت تفقده ملامحه الاساسية ولعلها فعلت !..

ولكن أبواب البحث في أي موضوع توارب ولا تقفل مادام الحديث يمس اصلا من أصول الثقافة لا يسهل هزه بما انه يعتمد على منظور معين ويسعى الى هدف محدد هو مناقشة هذه الغلالة التي أحاطت بفكرة الشعر فراح قول يصر على تلك الجفوة بين الاسلام والشعر وهي مفتعلة عند البعض وحقيقة عند آخرين وقد أصبح النظر مشدودا الى حشد نصوص كثيرة تغري الكاتب باستعراضها ومناقشتها ومن ثم التعليق عليها ..

ان التأكيد واجب على ان هناك منفذا دائم التوقد للمناقشة العقلية والمقارنات الواقعية والتي تؤكد وتنفي ، تضيف وتدفع بالتعليقات المقيدة مادام مثل هذه الموضوعات تعني الكثير للمتأمل الذي يرى جدية الموضوع وأهميته ، خاصة حينما يكون طرفاه يمثل هذه الأهمية الخاصة والمتميزة والدقيقة ، وتكون وثيقة الصلة بذات الانسان في جانبها الروحي والعقلي والعملي بحيث يشكل الحاق الضرر والنقص باحدهما أو حتى وضع الحواجز بينهما خطورة واضحة ، حينئذ يكون البحث والتناول المخلص جديرا بما يبذل فيه .

العلاقة بين الدين والفن ليست بالأمر العابر أو الشكلي ، ولكنها من الدقة بحيث تستدعي المراجعة دائما ، فالدين كمفهوم عام يتحلق حوله الفنانون لانه يقدم التشوق الروحي الذي يسعى اليه الفنان ، وهو من جهة اخرى ، ليس معنى غامضا ولكنه حقيقة اجتماعية لا يمكن تجاهلها . لذلك تلاقيا منذ الأزل فأصبح تاريخ الفن يتلمس بدايته الحقيقية من خلال الدين تماما كما أن اولئك الذين بحثوا في تاريخ العقيدة الدينية لم يجدوا خيرا من تلك التي احتضنها الفن . وحين دراسة التاريخ

الديني والفني نلمس ذلك التلازم بين شعور التدين والقلق الروحي والاجتماعي الذي يجسده الفنانون .

هناك حشد طويل من الدراسات العلمية الدقيقة التي درست هذا التلازم من جانبه الايجابي الواضح ، تؤكد وتبرهن وتوضح ولكن كل هذا لم يستطع ان يزيل من الاذهان الأقوال الشائعة التي تجد سندها في بعض الأقوال المتناثرة ، وكما يقول كاسيرر فانه « منذ افلاطون حتى تولستوي كان الفن يتهم بانه يثير عواطفنا فيزعزع النظام والانسجام في حياتنا الاخلاقية » . وقد ذهب افلاطون الى أن الخيال الشعري يروي تجارب الشهوة والغضب والرغبة والألم فينا فيمكنها من النمو بدلا من أن يظمئها ويخليها تجف . أما تولستوي فقد رأى في الفن مصدرا للعدوى[1] . وجمهورية أفلاطون لا يباح فيها من قول الشعر الا أن يكون تسبيحا لله ومدحا للصلاح ، وانه اذا أبحت تعظيم عرائس الشعر الغنائي القصصي حينئذ يتحكم الألم واللذة في دولتك بدلا من تحكم الشريعة والمبادىء »[2] وينبغي أن يكون الشعر مفيدا ، وانه على أنصار الشعر أن يثبتوا أنه مفيد علاوة على كونه سارا[3] . ومثل هذه الأقوال سارت على شفاة عصور كثيرة دون أن تطامنها الأقوال الأخرى الجادة في اثبات مكانة الشعر البارزة . فقد ظلت كلمات الرنين باقية تضرب في جوانب لا حدود لها ، فليس القول القائل « أعذب الشعر أكذبه » الا واحدا من مقولات عديدة حرفت عن مقاصدها .

لقد تحول الخيال وتوسيع اطار المعرفة الانسانية والدور الايجابي الى عبث خطير يهدد المجتمع أو الدولة . وما يقوله ابن فارس هو أحد وجوه النظرة الافلاطونية فهو حين ينفي عن الرسول قول الشعر يستطرد متحدثا عن ذات الشعر حين يرى انه « للشعر شرائط لا يسمى الانسان بغيرها شاعرا . وذاك ان انسانا لو عمل كلاما مستقيما موزونا يتحرى فيه الصدق ومن غير أن يفرط أو يتعدى أو يمين أو يأتي فيه باشياء لا يمكن كونها بتة ، لما سماه الناس شاعرا ، ولكان ما يقوله مخسولا ساقطا . وقد قال بعض العقلاء ـ وسئل عن الشعر ـ فقال : « ان هزل اضحك ، وان جد كذب » فالشاعر بين كذب واضحاك . . . الخ .

وبعد فإننا لا نكاد نرى شاعرا إلا مادحا أو ضارعا أو هاجيا ذا قذع ، وهذه أوصاف لا تصلح لنبي[4] . . « واذا وضعنا هذا القول بجانب ما ذهب اليه الاصمعي ـ وهو راوية الشعر المعروف ـ من ان طريق الشعر اذا ادخلته في باب الخير لان[5] وقد حاولت جهود كثيرة ان تزيل هذه الفكرة من الأذهان ، فموقف أرسطو الدقيق في دراسته للشعر ودوره ، انما هو رد واضح على ما قاله سابقوه . وجاء بعد ذلك دفاع شيللي عن الشعر الذي رفع الشاعر الى مستويات عالية . وقد كان في دفاعه يرد ردا مباشرا على افلاطون حين طالب أن يكون الشعر مفيدا بجانب كونه سارا فقد نبه الى أن المنفعة ليست تلك التي تلبي غاية حيوانية وان اللذة منفعة حقيقية يجلبها لنا شعراء أو فلاسفة وشعراء .

(١) مدخل الى فلسفة الحضارة الاسلامية : ص ٢٥٦ ، يقول افلاطون ان الفن « يروي العواطف التي يجب ان تجف عطشا ، ويرسمها ويحكمها فينا ، وكان يجب أن نتحكم فيها املا رجاء ان نكون اسعد وارقى بدل كوننا ادنى واشقى » الجمهورية ص ٣٨٩ .
(٢) جمهورية افلاطون : ص ٣٨٩ .
(٣) السابق : ص ٣٩٠
(٤) الصاحبي : احمد بن فارس ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥ .
(٥) امالي المرتضى : القسم الأول ص ٢٦٩ ، وانظر النص موسعا في الموشح ص ٩٠ ولنا عودة له

واذا كان شيللي يختم كلماته بان الشعراء هم شراح الالهام الالهي وانهم المحرك بل هم مشرعو العالم فان هذه الكلمات تذكرنا وتدخلنا عالم الفكر الاسلامي الذي لم يخلو من مثل هؤلاء ، فهذا جابر بن معدان يقول « كل حكمة لم ينزل فيها كتاب ، ولم يبعث بها نبي ، ذخرها الله حتى تنطق بها السن الشعراء »(٦) .

ومن ذلك بقيت هذه الغلالة السوداء راسخة أو شبه راسخة . اذاً هي شنشنة باقية في كل الآداب وعند كل الأمم ويبقى الجانب الاسلامي له خصوصية تستلزم التوقف والافاضة قليلا .

●●●

ولنبدأ من حيث يجب أن تكون البداية ، من العصر الجاهلي لنرى طبيعة الدور الذي قام به الشعر فلعل فيها بعضا من تفسير أوجهة هذا الفهم الخاص . ان أكثر الكلمات قسوة على حقيقة الشعر العربي الجاهلي هي تلك المقولة التي ربط الدكتور طه حسين ومن قبله مرجليوث(٧) بين انعدام الحس الديني الجاهلي في ذلك الشعر وصحته ، وقولهما ان انتفاء هذا التعبير الديني - كما زعما - دليل حي على أن هذا الشعر ينتمي الى غير عصره .

ومع أن هناك شواهد كثيرة تكذب زعمهما ، فالتعبير الديني المباشر موجود وغير خاف فاننا أيضا نقول ان هذه الكلمات قاسية وانها تبسط الأمور تبسيطا مخلا ، وتنظر الى التعبير الديني من جهة جد مسطحة ، ترى ان التدين يقتضي رفع لواء فاقع اللون أو انه طبول ودعاية وحديث فقهي عقائدي . وفي هذا منافاة لطبيعة الفن الشعري التعبيرية والذي هو ليس اداة رخيصة للقول . ولكنه يحمل في داخله المساواة الحقيقية للتوق الروحي والتأمل الباطني ، وحينما يلتصق بالواقع المبسط يقف موقف الراصد للحياة رصد رؤية متميزة لما تراه عينه وتلمسه يده فيصوغها صياغة تعمق وتجسيد وتفاعل ، متخذا طبيعة الفن والدين في الاصلاح والتغيير .

الشعر ليس أداة سخرة ولكنه تعبير ، لذلك لبس ثيابه لا ثياب غيره ، واستعمل اداته ولم يستعر وسائل غير وسائله ، ولم يحل ، ولا يريد ، مكان الكاهن أو الواعظ أو المبشر اللهم إلا أن يكون الشاعر قد توحدت فيه هذه واختلطت حينئذ يكون هناك قول آخر(٨) .

اذن ليست من مهمة الشاعر أن يكون رجل دين ، ولكن مهمته انه يعبر عن شعوره وموقفه العام ، وقد يزودنا ويغذينا بالملجأ الروحي ، بل انه يسعى في حالات كثيرة الى قلب السكون الذي يرون على سطح الحالة الروحية فيحد من بروز تقلباتها ، وهذا ما نلمسه في كثير من الشعر ، فالتعبير الشعري في الجاهلية لم يخفه أو يتجاوز عن حالة الشعور بالتدين وعدمه أو الحاجة اليه أو الاحساس بهذا الفراغ الذي تهوي فيه النفوس ، وهذه طبيعة الاشياء ، فها نحن نرى في

(٦) بهجة المجالس : ١/٣٨ .

(٧) رأي طه حسين مبسوطا في كتابه « الأدب الجاهلي » وعلى سبيل المثال نلاحظ قوله « فأما هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية ، وإلا فأين تجد شيئا من هذا في شعر امرىء القيس أو طرفة أو عنترة أوليس عجيبا ان يعجز الشعر الجاهلي عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين » ص ٧٢ - ٧٣ ورأي مرجليوث مذكور في مقاله « أصول الشعر العربي » انظر على سبيل المثال ص ٧١ وما بعدها من ترجمة الدكتور يحيى الجبوري .

(٨) نجد على سبيل المثال شاعرا متدينا أو يميل الى فكرة التدين مثل اليوت نجده يؤكد قائلا « ان الشعر لا يمكن أن يحل محل الفلسفة أو الدين لأن له مهمته الخاصة ، ولما لم تكن هذه المهمة فكرية بل شعورية كان من الصعب تعريفها تعريفا يسهل على الفكر ادراكه . وكل ما نستطيع قوله هو ان الشعر يزودنا بالعزاء » ، وهو عزاء غريب لأننا يمكننا أن نناله على حد سواء من شاعرين مختلفين كل الاختلاف مثل دانتي وشكسبير » مقالة الفلسفة والشعر » ص ٦٠ من كتاب مختارات من النقد الأدبي المعاصر .

العصر الحديث حيث تمر حالة التدين بأزمة واضحة فنرى مسوح الشك والضياع والقلق والخراب والرجال الجوف ، وهذا احساس بوحدة الانسان وخشيته من ان يكون وحيدا ، بل ان انتباهه لهذه الوحدة ، يثير في نفسه الرعب فيكون لا مهرب له من القلق . ومادام ليس ثم حائط يقف في وجه الظلم والألم والعزلة والموت ، فلابد من أن يعتمد على نفسه ، وهذا هو نفسه موقف الانسان الجاهلي الذي خشي الخشية ذاتها ووقف الموقف نفسه ، فها هو طرفة تشتد به وحدته وخوفه فينمو تحديه :

فان كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني ابادرها بما ملكت يدي
فلولا ثلاث هن من لذة الفتى
وجدك لم احفل متى قام عودي
.... الخ

وان القسوة كل القسوة ، والألم الذي لا حد له حينما :
نرى جثوتين من تراب عليهما
صفائح صم من صفيح منضد

ولا مفك من هذا ، فالمأساة الحقيقية انه يحس بهذا « الطول المرخى وثنياه في اليد » وليس ثمة ما يحميه ، فداخله هواء لم يعرف سكينة الاستقرار الذي يحققه الايمان .

وليس طرفة وحده ، بل ان شعراء ما قبل الاسلام يعانون من هذه المعاناة ، كل بمقداره ويند باطن النفوس الى الظاهر فها هو سلمى بن ربيعة ينظر من المنظار نفسه والشراف على الحقيقة التي عاناها طرفه ، يقول :

ان شواء ونشوة
وخبب البازل الامون
يجشمها المرء في الهوى
مسافة الغائط البطين
والبيض يرفلن كالدمى
في الريط والمذهب المصون
والكثر والخفض آمنا
وشرع المزهر الحنون
من لذة العيش والفتى
للدهر والدهر ذو فنون
واليسر كالعسر والغنى
كالعدم والحي للمنون[9]

ان هذه الابيات تمثل هذا الموقف الانساني المعبر عن تجربة شعورية واحدة وتعطي رؤية الانسان للحياة ، وتصور قصة الانسان على الأرض ، فمتع ولذات الحياة التي قدمها الشاعر لم تصرفه عن رؤية الحقيقة المختفية وراء هذه المظاهر الخادعة وهو انه ملك للدهر يتصرف فيه كيف يشاء ، وعندما يأتي الموت يتساوى لدى الانسان كل شيء ، فيصبح العسر كاليسر والغني كالعدم[10] .

ان هذين الشاعرين يؤكدان لنا انعدام التجاوب مع الاحساس الديني السائد أو أن الشك تسرب الى هذه النفوس فراحت تتحدى ، وهذا التحدي دليل على الطرف الأخر الذي قام هذا التحدي في وجهه ، فهذا الشك لم يأت من فراغ ولكنه ، كالعادة ، استجاب لحالة التحدي هذه ، فهذه النفوس المتوثبة لم تجد في المألوف والسائد بين الناس ما يشفي غليل هذا التوثب فيها . وهذا الاحساس يزداد كلما أحس بان الدين من حوله عاجز مشلول .

اننا نغفل ان الشاعر هو عصره مجسدا من الناحية الاجتماعية والنفسية والخلقية فهو لا يعيش جسدا ميتا أو

(٩) شرح الحماسة للمرزوقي ج ٣ ص ١١٣٧ .
(١٠) قضايا النقد الأدبي والبلاغة . د . محمد زكي العشماوي ص ٢٠٨ .

حركة آلية . فهو ، وان كان صنيعة هذا المحيط ، فانه يملك قدرة التجاوب والايجابية التي يتجاوز بها السطوح فيشير الى أعماق الروح العامة ، بل يملؤها تشوقا لاستقبال الثمرة القادمة .

ان دلالة هذه المواقف واضحة ، فالهاجس من القوة بحيث يدفعنا الى أن نقول ان حاسة الشعراء المخترقة لحاجز الظاهر تنفذت الى ادراك الجديد القادم ، أو الحاجة الى ملء هذا الفراغ الذي بدأ يملأ النفوس ، فطرفه وسلمى يعكسان هذا التشوق أو يجسدان هذا القلق . لذلك نجد أن التساؤل العقلي ينفذ الى الذين تجاوزوا ما أحاط بهم ، فها هو قس بن ساعدة نعرف حق المعرفة يطرح اسئلته ويشير الى هذا التلازم بين العيش والموت « من عاش فات ، ومن مات فات وكل ما هو آت آت » و « مالي ارى الناس يموتون ولا يرجعون ، ارضوا فاقاموا ، ام حبسوا فناموا »[١١].

ان تساؤلات قس بن ساعدة ـ ان صحت ـ هي نفسها ما اثاره هذان الشاعران ، انها حاسة سابقة للامة ، ولكنها قائمة على أساس موضوعي ، لذلك نجد أن الشاعر سلمى في ابياته يبدأ من ذاته الى الحقيقة الكبرى التي تحيط به ، وكذلك فعل طرفه وهذا نفسه الذي دارت حوله تساؤلات قس بن ساعدة . لقد تحولت هذه الافكار الى هاجس يقلق الانسان الجاهلي ، ومن غير الشاعر يعبر عن مثل هذا ، وهو ما نلحظه واضحا عند شاعر مثل أمية بن أبي الصلت الذي آمن لسانه وكفر قلبه .

ان هذه الحيرة قد لا تجد مثلها في عصور اخرى ، بعد الاسلام ، شهدت جدلا عقليا حادا ، ولكن التوق الجارف سمة مميزة للعصر الجاهلي لمن يحسن تأمل النصوص . وقد انتبه ابن سلام الى هذه القضية فرأى نمطين من الشعراء : شاعر يتأله وآخر يتعهر ، وعندما قدم الشاعر المتأله قال : « فكان من الشعراء من يتأله في جاهليته يتعفف في شعره ولا يستبهر بالفواحش ولا يتهكم بالفواحش[١٢] ولم يشر الى شعراء حملوا دعوات معينة ولكن قدم الذين التمسوا المفهوم الخلقي الذي يكون عادة محل احتفال ودعوة في أحوال التفكك ، فالمنظور الخلقي هو البقية الباقية التي تستند عليها نواميس الحياة والا اختل كل نظام ، لذلك نرى أن أي مجتمع ، مهما تحطمت عنده القناعات الدينية يتشبث بالمفاهيم الخلقية العامة بعد ان يقننها لصالحه . فالتأله ، اذن ، خلق وفرع من حالة التدين .

●●●

ان هذه المقدمات الاولى عندما نسوقها انما لاننا نريد أن نؤكد أمرا أساسيا هو أن العلاقة بين التدين والفن ليست علاقة تنافر بل تناغم واضح حينها تتبلور الحاجة . ونريد ، من جهة أخرى ، ان نشير الى ان هذا الميل القلق في الجاهلية والذي تبناه الشعر وجسده سيكون له دوره المتميز في الاسلام . .

وأمر آخر نستخلصه مما سبق وهو أن صفة الشعر التي وصف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لها مبرراتها عندهم لانهم عرفوا دور الشعر ولم يدرك عامتهم الفرق الدقيق بينه وبين القرآن ، لذلك كان القول انه : كاهن ، شاعر . الخ . . أما الذين تعمقت ثقافتهم فقد لمسوا الفارق بوضوح[١٣]. وهذا الخلط عند البعض

---

(١١) البيان والتبيين . الجاحظ ج ١ ص ٣٠٩ ط هارون ؟ .

(١٢) طبقات فحول الشعراء : ١/ ٤١ .

(١٣) انظر تعليق انيس في صحيح مسلم ولقد وضعت على اقراء الشعر فما يلتئم على لسان احد بعدي : انه شعر » ص-١٩٢ وكذلك ما ذكره الوليد بن المغيرة حين قال « ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر » .

مشروع ومقبول خاصة حينما تشير الى استغلال الكهان للايقاعات اللفظية في سجعهم فقد أفادوا من تأثير موسيقى الكلمة . وهذا الاستخدام لعب دورا خطيرا في العقائد القديمة . فاذا اختلطت الكلمة بسجعها وشعرها في الذهن مع السحر فان المتلقين للقرآن الكريم لابد أن تنهض في عقولهم مثل هذه المقارنة فيثور النقاش والجدل . ويضاف الى هذا كله ذلك الدور الذي لعبه الشعر سلاحا مشهرا في وجه الدعوة الاسلامية وكان سلاحا ماضيا .

ومادام هذا كله قائما فليس من الغريب ان تثار هذه العلاقة وان يخصص لها هذا الحيز الواضح لان الشعر قد دخل طرفا في الموضوع دخولا مباشرا عن طريق دوره الذي كان في الجاهلية وما تبقى منه في الذهن .

ولكن الذي يعنينا حقا هو نوعية المناقشة ومؤداها ، وطبيعة القضايا المثارة حول الموضوع لنرى مسارها أولا ، وهذه هي الخطوة الثانية التي نقترب بها من هذه القضية الكبرى : الاسلام والشعر وبعد ، فللموضوع تاريخ طويل متتابع يحسن الالمام ببعض أطرافه . بدأت الحكاية بمقولة عابرة نطق بها عمر بن الخطاب حين قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » . وظاهره العبارة واضح ، فهي لا تتحدث عن أن الاسلام أضعف الشعر أو انصراف الناس عنه ، ولكنها تقرر واقعا كان معلوما خبره عمر بن الخطاب ، وهو أن الشعر كان أعم علوم الجاهلية واصحها . وهذا الرأي يتناسب مع ثقافة عمر ودرايته التي تكشفها الاخبار والأقوال التي انحدرت عنه فشاعت وذاعت .

وقد جاء بجانب هذا مقولة الاصمعي التي أشرنا اليها من قبل وكذلك نص ابن فارس الى آخر تلك الأقوال . ولكن أهم هذه الآراء تلك العبارة التي التصقت بها ،جاءت تكملة لها أو متابعة فأصبحت جزءا منها ، ولقد أضاف أو علق ابن سلام على قول عمر السابق بقوله : « فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته[14] » .

وتتقاذف الاقلام والالسن هذا الرأي ، لقد أصبحت هذه القضية مطروحة على بساط البحث . حتى ابن خلدون ، صاحب التصورات والنظرات الصائبة يؤكد ما ذهب اليه ابن سلام فقال « ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام ، بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فاخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمنا ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد في الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه »[15] .

ولا يفوتنا ان نشير الى هذه اللفتة الذكية من ابن خلدون حين فصل بين القول القائل ان الاسلام حرم الشعر وضعف الشعر ذاته ، وهذا يدل على أن ابن خلدون لا يرى أن الاسلام هو الذي أضعف الشعر ، ولكن الشعر قد ضعف لأن الناس تشاغلوا بالدعوة الكبرى ، وبمعنى أدق أن الشعر قد ضعف في تلك الفترة حقا ، ولكن ليس لان الاسلام حرمه فظروف الحياة في تلك الفترة هي السبب ، وهذا الرأي ينسجم مع دراسة ابن خلدون للحضارة في مقدمته تلك .

(١٤) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥ .

(١٥) مقدمة ابن خلدون : ص ١١٢٢ .

آراء المحدثين : -

ايد بعض الباحثين المحدثين الرأى القائل بضعف الشعر ، وقد لخص الاستاذ نجيب البهبيتي أهم هذه الأراء قائلا : (ضعف الشعر فى صدر الاسلام نظرية صحيحة - والعرب قوم ذوو لسن وذوق قول ممتاز . فلم يلبثوا أن أخذهم القرآن بجماله كما اخذتهم بالدهشة تلك الشريعة الكاملة ، المبرأة من النقائص التى كانت تصيب الشرائع الاخرى . فشغلوا بالقرآن وسكت الشعراء ليستمعوا الى كلمة الله . .

ثم ان تشبيه مشركى قريش النبى بالشاعر ، ورفع القرآن نفسه عن هذا المعنى جعل الناس ينظرون الى الشعر على أنه تقليد جاهلى ، فاصابه ما أصاب جميع التقاليد الجاهلية التى حاربها الاسلام ، وكأنما كان الناس ينظرون اليه نظرتهم الى أثر وثنى لعصر ذهب بكل رجاله وبذكرياته الدامية الرهيبة . . .

وساعد على اضعاف الشعر ايضا أن اعداء الاسلام كانوا يحاربونه بالشعر ، فلما عم الاسلام - كانت كراهة هذا الشعر قوية فى نفوسهم فتناسوه ، وامتنعوا عن رواية ما كان منه من هذا القبيل . وللنبى فى ذلك احاديث مشهورة لا داعى لترديدها . كما ساعد على اضعافه ايضا أنه كان قد أخذ فى العهد السابق للاسلام مباشرة يتجه الى نحو من التفكير جار حول العقائد والدين ، والشعر انما يذهب هذا المذهب فى طور شيخوخته فأرخصه ذلك ، وحطه عن مستواه القديم من ناحية ، واوقفه موقف المخالفة فى الاسلام من ناحية أخرى .

وبذلك ذهب مع عصر التقلقل ملوك الشعر الذين كانوا . اثرا من آثار عهد النضج الفنى وخلاصة عظمى لازهر مقاييسه . .) [١٦]

ونستطيع أن نلخص أهم الافكار فيما يلى :

١ - ان القرآن أخذهم بجماله وشريعته . .

٢ - ربط المشركون بين النبوه والشعر ، مما جعل القرآن ينزه نفسه عنه ، وقد اعتبر الشعر تقليدا جاهليا بحيث انصرف الناس عنه . .

٣ - محاربة اعداء الاسلام له بالشعر فأصبح الشعر كريها الى نفوسهم ، خاصة ما يتعلق منه بهذه الحرب .

٤ - اتجاه الشعر الى العقائد انزله عن مستواه ، وجعله فى موقف المعادى للاسلام .

ويتابع هذا الرأى الاستاذ محمد الكفراوى فى كتابه « الشعر العربي بين التطور والجمود » الذى يؤكد هذا الاراء ، خاصة ما يتعلق بالشعر الذى قيل فى الحرب التى دارت بين المسلمين والكفار ، ويؤكد أن الشعر كان شديد الوطأة على المسلمين بحيث استحل الرسول دماءهم ، كما أن القرآن هاجم الشعراء ، إن اخلاقيات القرآن تختلف عن ما تعارف عليه الاقدمون فلم يعد هناك تفاخر بالآباء ، وقد حرم الخمر وينفر من التعرض للناس . . الخ . . .

ويختم كلامه بقوله (ولقائل يقول فما بال الشعراء لم يتجهوا الى الحديث عن المبادىء التى جاء بها الاسلام من زهد فى الدنيا ، وعمل للآخرة وجهاد فى سبيل الله .

والرد :

١ - ان المسلمين فى الصدر الاول كانوا على العمل احرص منهم على القول . .

٢ - سلطان الكتاب على نفوسهم كان اقوى من أن يدع لهم فرصة للتفكير فى سواه .

٣ - ان لغة القرآن كانت مقدسة ومعجزة ، ولعل الجيل الاول من المسلمين قد ظنوا أن مجرد التفكير فى

(١٦) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث . . . ص١١٣ .

محاكاتها أو النسج على منوالها يعد تحديا لقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)

سورة الاسراء - الآية ٨٨

وهذه الآراء تتكرر في كتب الادب التي تردد هذا الرأي ولسنا بحاجة الى تكرار القول فالجوهر واحد وان اختلفت الالفاظ [١٧] .

وقفة للنقاش : -

وقبل أن نواجه القضية الاساسية ، احب اناقش قليلا بعض الاسباب التي أخذ يضيفها كل باحث معللا بها ضعف الشعر مثلا : -

١ - يقولون ان القرآن قد أخذهم باسلوبه فانصرفوا عن الشعر . وهذه دعوة لاتنهض الادلة لتأيدها ، لان لدينا احتمالين لا ثالث لهما وهما : اما أن يكون الشاعر كافرا فليس هناك ما يدعوه الى ترك الشعر والا لكان قد آمن بالاسلام !! . . او يكون الشاعر مسلما والادلة تثبت ان الشعراء المسلمين لم يقفوا عن نظم الشعر ، فهذا حسان بن ثابت ، وعبدالله بن ابي رواحة وكعب بن مالك ، ولم يقف من الشعراء الا الذين توقفوا عن العطاء الشعري منذ زمن ولم يكن الاسلام سببا مباشرا ، ولنترك لبيدا جانبا فقد ادرك الاسلام وهو شيخ كبير والا فالاسلام بحاجة الى شعره ، اما كعب بن زهير فها هو يلقي قصيدته « بانت سعاد . . » امام الرسول ، ومن الظلم ان نقول انه توقف عن قول الشعر لان الاسلام قد منعه بينما هذا حسان بن ثابت ينشد قصائده في عاصمة الاسلام وتعني بها يثرب مدينة الرسول . .

ان القرآن الكريم كتاب عقيدة وليس وسيلة لسحر العقول بحيث تمنع الشعراء من ان يقولوا الشعر ، بل ان هذا القرآن خليق بأن يفتح ابوابا للشعراء ينفذون من خلالها الى آفاق رحبة فسيحة الارجاء . . وحسبنا الواقع فالشعراء الذين ضربنا بهم المثل شعراء مسلمون هز القرآن اعماقهم وحركت نفوسهم فجاشت بشعر يعبر عن موقفهم ، اما القول في انهم لم يتأثروا باسلوب القرآن فهذا قول يجافي منطق الفن . فشعراء تلك الفترة تأثروا بروح القرآن في بعض قصائدهم ولا يستطيعون ان يوجدوا تقاليد جديده للشعر بهذه السرعة . . فالفن ليس ردة فعل سريعة انما تقاليد قد تأصلت بحيث تحتاج الى شاعر يحمل في شعره ثورة فنية ، وهذا النوع من الشعراء لا يجود بهم الزمان الا بين فترة واخرى وليس ضربة لازب ان يكون في صدر الاسلام شاعر من هذا الطراز ، وحسبهم اشارات تنم عن عقيدتهم . حتى الحطيئة ، الذي يتهم بأنه من اكثر الهجائين فحشا ، نجد انه باستثناء بعض الابيات التي تساق للمبالغة ، نلاحظ بقية قصائده وفيها صفاء الفكرة وان كان الهجاء هو الطابع فلان الحطيئة شاعر ركب بهذه الصورة . فلا يستطيع ان يتخلص من اخلاقه التي جبل عليها ولو لم يكن هذا طبعه لكان هو احق الشعراء بتمثيل الاسلام ، ألم يكن استاذه زهير بن ابي سلمى ؟ و نحن نعرف عفة وكرم اخلاق ذلك الشاعر الجاهلي .

٢ - أما القول القائل ان انصراف المسلمين عن قول الشعر راجعا الى اعتقادهم ان في هذا محاكاة للقرآن ، الذي لا يستطيع احد ان يحاكيه ، وانه تحدى لقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن . . . . الآية) .

هذا الرأي في قولنا السابق رد عليه ، كما انه لم يقل

(١٧) يلاحظ مثلا كتاب تاريخ الأدب العربي للاستاذ عمر فروخ ، وكذلك تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان وتاريخ الأدب العربي ، لأحمد حسن الزيات .

احد من المسلمين ان القرآن شعر والآية رد على المشركين الذين تحداهم القرآن في ان يأتوا بمثله - اي القرآن - في اكثر من موضع لذلك نجد أن الشعراء استمروا ينظمون الشعر وموقف القرآن والرسول واضح منهم كما سنبين بعد ذلك ولم يقل احد ان مسلك الشعراء هذا يتحدى القرآن .

٣ - اما القائلون بأن السبب هو محاربة الكفار للاسلام بالشعر ، فالرد على هذا واضح الم يرد المسلمون كذلك عليهم بالشعر ؟ . .

٤ - ما ذكره الاستاذ البهبيتي من ان سبب نزول الشعر عن مستواه هو انصرافه الى العقائد فلا يؤيده الدليل فليس هناك الا امية بن الصلت وابيات قليلة لبعض الشعراء ويقابل شعر كثير لا يمت بصلة الى ما ذهب اليه ، ولم يقل احد ان موضوع الشعر يضعفه ولكن الموضوعات كلما تشعبت أعطت الشاعر مجالا مفتوحا كي يعبر عن خلجاته ، لذلك نشطت - فيما بعد - المدائح النبوية وقصائد التصوف . . هذه ملاحظة حول بعض الاراء التي كانت تعلل - او بلفظ ادق تلتمس التعليل لضعف الشعر وقد تعرضنا لها مسرعين .

●●●

ولم تكن هذه الاراء وحدها في ساحة المناقشة ، فهناك اقلام كثيرة انبرت للدفاع عن حقيقة وضع الشعر في صدر الاسلام لذلك لا يحسن تجاوز هذا العرض دون الاشارة الى بعضها .

يقف عبدالقاهر الجرجاني في مقدمة المنافحين ، ففي تمهيده لكتابه « دلائل الاعجاز » يناقش بمنطقه المحكم فكان ، كالعهد به : مجليا موفقا ، وقد ادار رأيه حول ثلاث ركائز هي : أن الذي زهد بالشعر لا يخلو رأيه من أمور ثلاثة : -

الأول : ان يرفضه لما فيه من هزل وسخف وهجاء وسب وكذب وباطل على الجملة .

الثاني : لأنه موزون مقفى ويرى ان هذا بمجرده يقتضي الزهد فيه والتنزه عنه .

الثالث : يتعلق باحوال الشعراء وانها غير جميلة في الاكثر وانهم ذموا في التنزيل .

ويقول ان الذي ذمه لما فيه من هزل وسخف فليذم الكلام كله فان ما فيه في عصر واحد يربو على ما في الشعر كله ، وانك تستطيع ان تختار ما لا يعاب عليك فيه ، وراوي الشعر حاك وليس على الحاكي من عيب اذا لم يقصد بحكايته ان ينصر باطلا او يسوء مسلما ، فالله قد حكى كلام الكفار ، وان العلماء استشهدوا لغريب القرآن واعرابه بالأبيات الفاحشة ، وانهم لاقرار الحق تمثلوا بها وقد مثل لهذا بالحسن البصري وعمر بن الخطاب ، ويقول « واذا كان الباطل في الشعر قد وضعه عندك فلماذا لم يرفعه في نفسك ما فيه من حق وصدق وحكمه وفصل خطاب » الى آخر هذه الأثر .

ويعيب على الذين لهجوا بالحديث السالف الذكر « لأن يمتلىء جوف احدكم قيحا فيريه خيرا له من ان يمتلىء شعرا » وتركوا قوله ﷺ : « ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا » وان الرسول امر بقول الشعر حينما قال لحسان : « قل وروح القدس معك » . وقد سمعه من الذين مدحوه ، واستنشده طالبا السماع وهناك اخبار تشير الى علمه عليه الصلاة والسلام بالشعر وارتياحه واستحسانه له .

اما الذي ذم الشعر من حيث هو موزون مقفى وان الكلام اذا نظم تغيرت معالمه فقد قال قولا لا معنى له « انما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح ». واما الذي كره الوزن لأنه سبب للتغني ، فان الدعوة للشعر انما لما فيه من لفظ جزل وقول فصل ومنطق حسن الخ . وانه لا حجة لمن تعلق بقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » فالرسول لم يمنع من الشعر من اجل انه كان قولا فصلا وكلاما جزلا ، فان هذا يقتضي ان الله قد منع الرسول من البيان والبلاغة مع انه كان افصح العرب . واذا قيل انه نزه الرسول عن الشعر فان هذا التنزيه يتوجه الى الشعر من حيث انه كلام بليغ وليس لانه موزون ، ولكن التنزيه منه كالتنزيه من الخط وان الرسول لا يقرأ ولا يكتب حتى تكون الحجة ابهر واقهر .

ويبقى المعترض الثالث والذي يكره الشعر لما يتعلق باحوال الشعراء وليس هذا بسبب لذم الشعر وتهجينه ، لأنه يلزم ان يعيب استشهاد العلماء بالشعر مثل شعر امريء القيس واهل الجاهلية في تفسير القرآن وغريبه وغريب الحديث ، وان يدفع سائر ما ذكر من امر الرسول والشعر . وان من الواجب اذا ذم الشاعر على الشعر ان يستثني كما استثنى الله عز وجل ـ(١٨) .

ولا يخرج صاحب كتاب « نصرة الاغريض » عن هذا الذي ذهب اليه عبدالقاهر الجرجاني ، وقد افرد صفحات كثيرة اورد فيها أخبارا وحوادث وناقش موقف الاسلام من الشعر بعرضه ومناقشته لها ، وعرض لذامي الشعر ، ويرد الاحاديث التي تروي في تهجين الشعر ، وان بعضها قصد به زمانا وقوما معينين لأن الرسول سمعه واستنشده وأمر به ، الى آخر هذه المناقشات .

ولكن المفيد في عرضه هو ذلك الربط بين الشعر والحكمة ، فان الرسول قال « ان من الشعر لحكما » وان الله عز وجل قال في القرآن الكريم في مدحه لداود عليه السلام قال : « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » . وقال عن لوط « ولوطا آتيناه حكما وعلما . » فجعل الرسول ﷺ بعض الشعر جزءا من الحكمة التي خص بها الأنبياء(١٩) .

●●●

لنا ان نقف الآن امام القضية الرئيسية والتي تدور حول امرين : ـ

١ ـ موقف الاسلام من الشعر .
٢ ـ ضعف الشعر في فترة صدر الاسلام .

وسنعرض لكل قضية على حدة .

أولا : موقف الاسلام من الشعر :

لنشر اولا الى أمر لا يصعب الاتفاق حوله ، ملاحظة اولى ندفعها لتكون محور اهتمام خاص ، او لنقل انها تنبيه الى امر ظاهر وبارز قد يخفى على بعض الاعين احيانا . نقول انه مهما كانت حصيلة نقاش الموقف الاسلامي واينما امتدت دروبه ، فان هذا الموقف ان كان رافضا او مؤيدا او متوسطا او تنازعته الافهام بين هذه

(١٨) انظر تفصيل هذا الرأي في كتاب (دلائل الاعجاز) ص٩ الى ص٢١ .

(١٩) نصرة الأغريض . ص٣٥٢ وما بعدها .

واذا كانت هذه الاشارات تمثل رأي القدماء وتقدم موقفهم المدافع عن موقف الاسلام المؤيد للشعر فان المحدثين لم يتخلفوا عن الساحة في هذا ، ويدفعنا الواجب الى التنويه بالكتاب الذي خصصه الأستاذ يحيى الجبوري فقد استقصى عددا كبيرا من النصوص وعرض لموقف القرآن والرسول والصحابة ويطول علينا الأمر لو استشهدنا بما قال . ونشير هنا الى الملاحظات القيمة التي ذكرها الاستاذ شوقي ضيف في كتابه (العصر الاسلامي) ص٤٦ وما بعدها .

كلها او بعضها ، ان كان هذا او ذاك فلا يشكل سببا وحيدا لضعف الشعر او تدنيه كما ذهب الزاعمون . وتفصيل هذا ان الدين قد يأمر فلا يستجاب له وقد ينهي فلا يسمع له ، ومصداق هذا ما نلاحظه من ان الدين هدى وحث على مكارم الاخلاق المتواضع عليها ، ودفع لمزاولة الحسن من الامور ، وهذا موقف تؤكده شواهد هي اكثر من ان تصف في سطور الصحائف . ولكن المؤكد ايضا ان هذا ليس بلازم او متحقق في الواقع الملموس والا لكانت الارض هي الجنة الموعودة ، فالامر المؤكد لم يثمر نتيجة واضحة في الواقع ، والسر الموقف الاسلام العام لم ينعكس على الحياة انعكاسا تاما او لنقل انه لم يشمل واقع الحياة اليومية ، فالأمر والنصيحة لم يثمرا كما يجب الموقف الديني ان يثمر الا عند من رحم .

ومثل ذلك النهي ، فهو لا يجد كل الاذان صاغية له ، وما اكثر ما تجاوز الناس الامر المنهي واقترفوا ما غلظت الدعوات من حوله بل وقرنت بالروادع المبرحة في كثير من الاحيان ، وها هي امامنا النصائح العامة وقد كثر متجاوزوها ، فالخمر ، مثلا ، تواترت آيات محرمه له وقيل فيها ما قيل ، وقرن القول الزاجر بعقوبات مؤكدة ، ومع ذلك فالواقع والتاريخ يؤكدان لنا ان شاربيها سلسلة متتالية تذكر الكتب اخبارهم ويشاهدهم المشاهد . ويستوي حولها من خفت جذوة اسلامه ومن امتحن تدينه بخضوعه لها .

ان سوقنا هذه الملاحظة انما للتنبيه فقط ولتأكيد الامر الواضح من ان واقع الناس قد لا تكون استجابته مساوية للدعوة المرفوعة . وهذا يصدق على الشعر ايضا فقد ينهي ولا ينتهون وقد يأمر ولا يطيعون وعندما يتوسط ويشترط لا يخضع له الا البعض وهكذا . وليس هذا القول تقليلا من اهمية الموقف العقائدي واثره على الواقع العملي ، وستأتي بعد ذلك سطور تالية تعرض لهذا الامر من الواقع لا التصورات .

عندما ننظر الى الاسلام نجد ان حقيقة موقفه العام تختلف عن بعض الاديان الاخرى - ككل المبادىء الكبرى - فهو لم يكن يدفع عنصر التدين الى ما تحت الستار الروحي والانضواء تحته مع مثاليات عامة وقيم خلقية متعارف عليها كما فعلت المسيحية ، دون ان تتجاهل دورها حينما قامت على مبادئها دول . وهو كذلك ليس كاليهودية انحسار ضمن حدود عرقية ضيقة . فمن الحقائق الثابتة ان الدعوة الاسلامية لامست الواقع مباشرة ، فهو - وان قامت دعوته على الجانب الروحي تطهيرا واطمئنانا - فانه لم يركز على هذا الجانب فقط . فقد اعطت الدعوة اهتماما ملحوظا لواقع الناس ، وكان التجاذب واضحا بين ثبات العقيدة وواقعية التشريعات لأنه ارتبط بتكوين المجتمع واقامة دولة تفرع منها عدة وجوه اثناء جهود صاحب الدعوة نفسه ، فصنعت لها وجها اجتماعيا وسياسيا وثقافيا . . وهذا الوجه الثقافي تتمثل صورته الكبرى في الفن - الشعر خاصة - ومن ثم فالتلازم قائم بين هذا الفن والدعوة ، فلم يعد الشعر تعبيرا فرديا - وان تحقق - وانما وظيفة . محدودة داخل اطار دعوة كبرى شملت كل جزء من هذا المجتمع الوليد .

١ - القرآن الكريم : ان الموقف الاسلامي ينبع اساسا من القرآن الكريم - فهو اصل لكل الاراء - ثم تأتي السنة مفسرة وموضحة ومبينة محددة ، ويبدأ بعد ذلك توالي الفهوم بين الدارسين . وها نحن مع القرآن اولا نبحث فيه الآيات التي تناولت الشعر عرضا او على القصد الصريح ، فنجد أن كلمة « شعر » وما اشتق منها قد وردت في عدة مواضع ها هي : -

١ ـ « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين » .

سورة يس ـ الآية ٦٩

٢ ـ « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » .

سورة الحاقة ـ الآية ٤١

٣ ـ « بل قالوا اضغاث احلام ، بل افتراة ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما ارسل الاولون »

سورة الانبياء ـ الآية ٥

٤ ـ « ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون »

سورة الطور ـ الآية ٣٠

٥ ـ « ويقولون ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون »

سورة الصافات ـ الآية ٣٦

٦ ـ « والشعراء يتبعهم الغاوون . الم تراهم في كل واد يهيمون . وانهم يقولون مالا يفعلون . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون »

سورة الشعراء ـ الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧

ست آيات ترددت فيها الكلمات : شعر . شاعر ـ شعراء :

الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ اوردت كلمة شاعر

الآية رقم (١) اوردت كلمة الشعر

الآية رقم (٦) اوردت كلمة الشعراء

واذا نظر نظرة سريعة سنلاحظ ان :

١ ـ الآيات (١) ، (٢) رد على الكفار الذي ادعوا انه شاعر

٢ ـ الآيات (٣) ، (٤) ، (٥) حكاية ماورد على لسانهم حينما ادعوا انه كان شاعرا .

٣ ـ الاية رقم (٦) وهي الوحيدة التي تتحدث عن الشعراء .

نلقي نظرة سريعة على الايات ٢ ، ٤ ، ٥ ، فنلاحظ أن الاية رقم (٢) جاءت في سياق رد على ما كان يقوله الكفار ، الذين قالوا عن القرآن المنزل انه قول شاعر تماما كما قالوا انه قول كاهن الى آخر اقوالهم ، فكان الرد القرآني ان هذا ليس بقول شاعر ، وهو ايضا ليس بقول كاهن .

واضح تماما ان هذا الرد يقرر حقيقة واضحة ، فلم يكن الرسول شاعرا ولاكاهنا تماما كما انه لم يكن ملكا او وزيرا .

اما الايتان الأخريان (٣ + ٤) فقد جاءتا حكاية على لسان الكفار ، فقد قالوا انه شاعر ، والشاعر انسان يخضع للموت ، ومن ثم ننتظر موته ليهلك كما هلك غيره .

اما الاية الاخرى فتنقل وصفهم للرسول من انه شاعر مجنون . . . وليس في هذه الايات ماتمس فن الشعر من حيث كونه فنا ، وهي كذلك لاتمثل رأيا اسلاميا ـ ومن حقنا القول : .

● ان ماجاء حكاية عن الاخرين لايمثل موقفا انما ينقل الاراء والاقوال .

● ان ما جاء نافيا عن الرسول كونه شاعرا لايحمل اي موقف فهو رسول وليس بشاعر وهذا تقرير واقع ولايمثل اي اتهام .

● ان ما جاء صريحا في قول يحدد الطرف المعين الذي سنتحدث عنه فيما بعد ويضاف الى هذا الاستثناء الواضح الذي لايحتاج الى تعليق .

يأتي منبع هذه المجادلة من طبيعة الدعوة الاسلامية ذاتها ، فعندما قذف الرسول (ﷺ) في سكون بيئته رسالته وتلا آيات القرآن الكريم عليهم وقفوا متحيرين في أمرهم ، ماهذا الذي جاء به مؤثرا واضح التأثير ، هاهي كلمات تهز سامعيها وتحركهم دافعة الى الايمان به ، وما كانوا يعرفون من سحر الكلمات الا ما القوا من

شعر ، لذلك بدأت اقوالهم تضطرب حول هذا المجال ، فنظروا الى أقواله على انها اضغاث احلام ولكنهم يعلمون حق العلم ان تماسك هذه الاقوال لايصدر عن الاحلام ، فلجأوا الى القول انه اخترعه اختراعا وليس هذا القول بأكثر تماسكا من سابقه . اذا لم يبق الا أن يزج في دائرة الشعراء فهذا التميز جدير ان ينظر اليه من زاوية الابداع الشعري . ولكن هل هذا حق تنطبق عليه كلمة شعر ؟ . حكي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « خرجت اتعرض رسول الله ﷺ قبل ان اسلم فوجدته . سبقني الى المسجد فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت اعجب من تأليف القرآن : قال فقلت : هذا والله كما قالت قريش . قال فقرا انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون .

قال قلت كاهن قال : ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من احد عنه حاجزين . الى آخر السورة . قال فوقع الاسلام في قلبي كل موقع . »[٢٠] وليس هذا فقط فها نحن ننتزع من اخبار كثيرة . مثل هذين الخبرين الكاشفين لمسار هذا الجدل والحوار حول دعوة الرسول والقرآن الكريم . روت كتب الصحاح خبر انيس الذي عاد من رحلة الى مكة فقال لاخيه ابي ذر الغفاري : (لقيت رجلا بمكة على دينك[٢١] يزعم ان الله ارسله . قلت فماذا يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر[٢٢] وكان انيس احد الشعراء .

قال انيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم . ولقد وضعت قوله على اقراء الشعر (اي طرقه وانواعه) فما يلتئم على لسان احد بعدي انه شعر والله انه لصادق . وانهم لكاذبون[٢٣] .

ونضع بجانب الخبرين السابقين خبر ضماد فقد سمع سفهاء اهل مكة يقولون : ان محمدا مجنون . وكان يرقي من هذه الريح (اي يكتب التعاويذ التي تشفي من الجنون) فقال : لو اني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي . قال فلقيه . فقال : يامحمد اني ارقي من هذه الريح . وان الله يشفي على يدي من يشاء . فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ « ان الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له . واشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وان محمدا عبده ورسوله . اما بعد . . »

قال فقال : أعد علي كلماتك هؤلاء . فاعادهن عليه رسول الله ﷺ . ثلاث مرات . قال فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء . وقد بلغن ناعوس البحر »[٢٤] .

اشارة هذه الاخبار وغيرها الى هذه المقارنة بين القرآن الكريم والشعر هي التي دفعت الى مثل هذا الحوار من طرفين ، وقد ساعد على هذا ان اعتماد الدعوة على الكلمة المؤثرة المعجزة والمقنعة وقيام الشعر على بعض هذه المقومات ، اودخول هذه في البناء الفني السائد عند العرب ، اي الشعر ، ان هذا هو الذي اوجد هذه

(٢٠) مسند الامام احمد ١/ ١٧ .

(٢١) اي من أبي ذر الذي كان قد ذكر انه صلى قبل ان يلقى الرسول بثلاث سنين وسمي قوله انه كان يتبع طرق الخطة .

(٢٢) وهي مقولاتهم نفسها التي أوردتها الآية الكريمة .

(٢٣) صحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة ص ١٩٢٠ ، وانظر مسند الامام احمد ٥/ ١٧٤

(٢٤) السابق . كتاب الجمعة . ص ٥٩٣ . وناعوس البحر وسطه او لجته .

المقارنة من جانبهم ودعت القرآن الكريم الى نفي هذا الا عنه .

وعندما ننظر الى الاية الثالثة (بل قالوا اضغاث احلام . . الاية) نلحظ فيها هذا الاجمال لموقفهم المتذبذب والذي يناقشه الفخر الرازي بعقليته الفذة ، فيقدم اقوالهم الخمسة التي ساقوها في حق الرسول والقرآن الكريم . :

قال : « فاعلم انه تعالى عاد الى حكاية قولهم المتصل بقوله (هل هذا الا بشر مثلكم افتأتون السحر) ثم قال (بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر) فحكى عنهم ثم هذه اقوال الخمسة فترتيب كلامهم كأنهم قالوا : (٢٥)

١ ـ ندعي ان كونه بشرا مانع من كونه رسولا لله تعالى . سلمنا انه غير مانع ولكن لانسلم ان هذا القرآن معجز .

٢ ـ ثم اما ان يساعد على ان فصاحة القرآن خارجة من مقدور البشر ، قلنا لم لا يجوز ان يكون ذلك سحرا .

٣ ـ وان لم يساعد عليه فان ادعينا كونه في نهاية الركاكة قلنا انه اضغاث احلام .

٤ ـ وان ادعينا انه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا انه افتراه .

٥ ـ وان ادعينا انه كلام فصيح قلنا انه من جنس فصاحة سائر الشعراء وعلى جميع هذه التقديرات فانه لايثبت كونه معجزا ، ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا « فليأتنا بآية كما ارسل الاولون (٢٦)

ان الالمام بهذا الموقف يجعلنا اكثر تصورا لطبيعة هذا الحوار ، فالقرآن لايعرض للشعر من حيث كونه فنا او تعبيرا ، وهو لايعرض تصوره ابتداء ولكنه يعرض أو يعقب على الامر المعروض ، والذي يمس هذا الصراع الدائر بين الرسول ومناقضيه ، وهذا متعلق بجوهر الرسالة ، فنحن نلاحظ تصاعد اتهاماتهم والذي يسلمنا الى قمة التشكيك بالرسالة من خلال الطعن بانصع صفحاتها وابرز وجوهها وقد تصاعدت اتهاماتهم حتى وصلت قمتها الى أن هذا نوع من الشعر ، وان الناطق به يمتلك موهبة الشعر القادرة على التحكم بمواضع الكلام فتحسنه ، مع علمهم انه ليس بشعر لأنهم يعلمون حق العلم معنى الشعر ، الم يضعه انيس على اقراء الشعر وقد تبينه عمر بن الخطاب والوليد بن المغيره وآخرون . ولكن هذا الشكل اللغوي لابد له من وصف يقترب منه ، لذلك كان الاضطراب والتصاعد من الادنى الى الاعلى من اضغاث الاحلام الى الافتراء ثم الشعر بعد ان قالوا كذلك انه ساحر وكاهن ، ولما كان الشعر علوا وسموا في فن القول فليكن القرآن منه ، فهذا اقصى مايمكن قوله بالنسبة لهم .

ليست مناقشة الامر وعرض حكاياتهم والتصدي لها تمثل اي موقف من الشعر ولكنها توضيح وتبيين الفارق بين أمور حاول الكفار ان يقيموا بينها علاقات لهدم اساسات الدعوة الاسلامية ، فقد قالوا ، فعرض موقفهم ورد عليها . بل انهم وصفوا الرسول باوصاف ليعتمدوا على نتائجها ، فهو « شاعر نتربص به ريب المنون » ، اي انه سيموت كما يموت الشعراء وتنقضي دعوته ، واضافوا كذلك انهم لن يتركوا آلهتهم لشاعر مجنون ، وهذا الجمع بين صفة الجنون والشعر يمثل غاية التردي العقلي والتوتر النفسي عندهم والا فكيف يجتمع قول الشاعر ودقته مع الجنون ؟ . .

لقد توترت العلاقة بين الدعوة والوسط المحيط

(٢٥) الترقيم والتقسيم ليسا من الرازي وضعتها للتوضيح .

(٢٦) التفسير الكبير . الفخر الرازي ج ٢٢ ص ١٤٣ .

فاشهرت كل الاسلحة ولم تكن هذه الايات الا نتيجة لهذه المواقف ومن ثم يبرز الموقف الاسلامي واضحا ، لايكتفي بأن يحكي الوقائع حكاية انما يتدخل موضحا الفرق بين وظيفتين : النبوة والشعر . فان بينهما فرق لايحسن تجاهله [٣٧] .

تأتي الاية الكريمة : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له أن هو الا ذكر وقرآن مبين » وهي تحمل معنى التنزيه . وهذا التنزيه - اي تنزيه الرسول عن قول الشعر - قد يدفع البعض الى ان في هذا ما يمس فن الشعر . ولكن الامر بين وواضح بعد ان المنا بالواقع والمعركة الدائرة خاصة حينما حاول الكفار انقاص معنى الرسالة والقرآن بمقارنتها بامور كثيرة من بينها الشعر ، وكان من الواجب الرد عليهم مع الالتزام بالاطار الذي تحدد على ضوء هذا النقاش [٣٨] .

ومن هذه الجهة فقط كان دخول موضوع الشعر ، فالله لم يعلمه قول الشعراء وصناعة الشعر ، ولم يعطه العلم بانشائه وما ينبغي له ان يقول الشعر من عند نفسه [٣٩] . وهذا يقف عند نفي صفة الشاعرية عن الرسول (ﷺ) وهو امر خاص بطبيعة الرسول وغير متعلق بفن الشعر من حيث هو فن . بل ان الرسول بذاته ، كما يقول الطبري : « ان هو ، اي محمد ، الا ذكر لكم ايها الناس ذكركم الله بارساله اياه اليكم ونبهكم به على حظكم وقرآن مبين »[٣٠] ..

وتبقى كلمة « وما ينبغي له . » ، فالاية كانت تعرض امرين اولهما : ان الله لم يعلم الرسول الشعر ، والامر الثاني ان الشعر لاينبغي له ، وهذا ، الثاني ، هو الذي تراوحت التفسيرات بين اقوال او الفاظ لها دلالتها ، من مثل : لايجوز ، لايسهل ، لايليق ، هذه مستويات من الاحكام لم تلتزم بمنطوق « ماينبغي » انما حاولت ان تلقي بظلال تفسيرها عليها ، فرأت انه « لايمكن له ولا يصح ولايناسب » والتعليل لهذا « لانه عليه السلام في طريق جد محض والشعر اكثره في طريق هزل وتحسين ما ليس حسنا تقبيح لما ليس قبيحا . » وان الله جعله لايقرض الشعر كما جعله اميا لايخط لتكون الحجة اثبت والشبهة أدحض » ، ورأوا في هذه الاية دلالة على غضاضة الشعر ، لان الرسول قال « ما انا بشاعر ولاينبغي لي » . وواضح ان الرسول استخدم اللفظة القرآنية التي تمثل التنزيه له دون المقارنة لانه لا يحسن المقارنة بين نبي وشاعر .

ولعل الامر الدقيق هنا ، ان التفريق واجب لطبيعة الموضوعين ، فليس التشابه اللفظي في كلمة الوحي يعني تساويهما ، فلابد من التفريق بين مفهوم الكلمتين فالوحي عند الشاعر انما يعني لحظة الصفاء في الذهن البشري الموهوب حينما تتجاوز لحظته هذه طبيعته اليومية وكأن الامر خارج عن المألوف فكان هذا الوضع الهاما او سمي كذلك .

اما طبيعة الوحي عند النبي فهي مختلفة تماما ، بل ان النبوة فيها نزوع الى مخاطبة الواقع من جهة الاقناع العقلي والروحي ، وقولها تنظير وتشريع ، اي ان الجانب العقلي المنطقي لازم لها ، داخل دخولا مباشرا لا يقبل الجدل ،

---

(٣٧) يقول ابن كثير : « هذا أخبار عن تعنت الكفار والحادهم واختلافهم فيما يصفون القرآن ويرمون به ، وضلالهم عنه ، فتارة يجعلونه سحراً وتارة شعراً وتارة يجعلونه أضغاث أحلام وتارة يجعلونه مفترى كما قال : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » . التفسير ج ٣ ص ١٧٣ .

(٣٨) روى الزمخشري (الكشاف ج ٣ ص ٣٢٩) القائل أن هذا شاعر هو عقبة بن أبي معيط . ولكن الأمر المؤكد أن وصف الرسول بهذه الصفة كانت عامة لا تختص بها واحد بدليل تواتر الأخبار حول هذه النقطة .. انظر كذلك البحر المحيط ج ٧ ص ٣٤٥ .

(٣٩) الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ٨/ ٤٣٢ .

(٣٠) الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ج ٢٣ ص ١٩ .

فالنص محدد في منطوقه ، لذلك نجد الرازي يلمس بدقة هذا الجانب حينما يشير الى انه يجب حمل « ما ينبغي له » على مفهومه الظاهر وهو ان الشعر لا يليق به ولا يصلح له ، وذلك لأن الشعر يدعو الى تغيير المعنى لمراعاة اللفظة والوزن ، فالشارع يكون اللفظ تبعا للمعنى ، والشاعر يكون المعنى منه تبعا للفظ ، لأنه يقصد لفظا به يصح وزن الشعر او قافيته فيحتاج الى التحيل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ ، وعلى هذا نقول : الشعر هو الكلام الموزون الذي قصد الى الوزن . قصدا اوليا ، واما من يقصد الى المعنى فيصدر موزونا فلا يكون شاعرا[٣١] .

ولنا ان نقبل هذا الرأي او نذهب - كما ذهب قوم - الى انه لا يسهل على الرسول قول الشعر حفاظا على مكانة الرسول واشفاقا وتهيبا من المقارنة ، وقد كانت قائمة وملموسة .

ان الاخبار تؤكد عدم درايته بفن الشعر ، وان كان متذوقا له ، فانتفاء الدراية بالفن تعني انه ليس من اصحاب هذا الفن . اما تذوقه فلانه ابن بيئة يدرك مواضع الحسن بالقول ، فقد اوتي جوامع الكلام ، وملك ناصية البيان حينما يتحدث او يعظ .

تأتي الاخبار التي تؤكد تعجبه من هذه الملكة ، فها هو ابن ابي رواحة يروي حادثة مؤكدة لهذا حينما مر على الرسول وهو جالس بين نفر من اصحابه فدعاه اليه ، يقول : « فانطلقت اليه مسرعا فسلمت فقال » ها هنا « فجلس بين يديه فقال - كأنه يتعجب من شعري : - كيف تقول الشعر اذا قلت ؟ . قلت : انظر في ذلك فاقول . . قال فعليك بالمشركين[٣٢] » . فالرسول مثل غيره من الناس في تعجب من هذه القدرة الخاصة التي يتمتع بها الشعراء فيسأل ويستفسر ويدعو الشاعر الى استخدامها في سبيل نصرة الدين[٣٣] .

فليس في نفي الشعر عن الرسول عليه الصلاة والسلام او انه لا ينبغي له ، اية اشارة الى فن الشعر من حيث هو فن ، واخراجه من دائرة الشعراء امر لا يمس الشعراء من حيث كونهم اهل فن وصناعة تماما كما اخرج من دائرة القارئين الكاتبين دون ان يخص هذا من القراءة والكتابة .

●●●

ان اهم نقطة جديرة بالتوقف هي تلك التي تحوم حول آخر آية من سورة الشعراء ، تلك الآية التي برزت وتصدرت فكانت اسما للسورة كلها . ونعني هنا « والشعراء يتبعهم الغاوون ، . . الآية » .

عندما نستحضر ذلك التاريخ المتوتر بين كفار قريش والرسول ، وقد رأينا طعنهم للنبوة وتسمية الرسول بالشاعر ووصفهم القرآن بالشعر حين نتمثل هذا كله ندرك ان هذه الآية من جنس السابق . ولكن ، مع هذا ، فان هنا امر متميز وخاص يحسن عرضه وابرازه فالقرآن يذكر هنا « الشعراء » بالذات ولا يتحدث عن الفن ، بل يشير الى هذه الذوات الحاملة للشعر ، أي الانسان من جهة كونه شاعرا ، وقد وضع ازاءهم ما يلي : يتبعهم الغاوون

في كل واد يهيمون

وانهم يقولون ما لا يفعلون

الا الذين آمنوا .

. وبعد هذا كله يأتي الاستثناء :

---

(٣١) الفخر الرازي : التفسير الكبير : ج ٢٦ ص١٠٥ - ١٢٦ .

(٣٢) السيوطي . الدر المنثورة ص ١٠٠ .

(٣٣) ويدخل في هذا الجانب ما روي من أنه لم يكن يحسن رواية الشعر والأخبار حول هذا الموضوع كثيرة .

ثلاثة اتهامات ، تتحدث عن امر محدد ، عن حالة متميزة ، تحمل معها جانب التأثير الذي يتركه الشعر عن الاخرين ، وانسحاب التهمة على التابع كما لصقت من قبل على المتبوع .

ولهذه القضية وجهان كلاهما جدير بالابراز ، اولهما الوجه التاريخي والثاني دلالة النص القرآني وسياقه .

الجانب التاريخي والذي لا يمكن اغفاله ، فهو مفسر وموضح وجزء من فهم النص ، فالعلم بالوسط القرآني وحوادثه واشاراته وعلاقاته له اهمية قصوى في التدبر والفهم .

تأتي الاخبار الموثقة والتي لازمت هذه الآية لتحد من اي تأويل ، فقد قال ابن عباس[٣٤] « والشعراء » عبدالله بن الزبعري ، واصحابه يقولون الشعر ، وان الغاوين هم الراوون يروون عنهم « الم تر » الم تخبر يا محمد « ان الشعراء يهيمون في كل فن ووجه يذهبون ويأخذون يذمون ويمدحون ويقولون في شعرهم مالا يفعلون ، وكلاهما غاويان كذا الشاعر والراوي الا الذين آمنوا وهم حسان واصحابه . وقد تناقل المفسرون هذا النص ، فالزمخشري مثلا يقول : « وقيل هم شعراء قريش عبدالله بن الزبعري وهبيرة بن ابي وهب ومسافع بن عبدمناف وابو عزة الجمحي ، ومن ثقيف امية بن ابي الصلت قالوا : نحن نقول مثل قول محمد وكانوا يهجونه ويجتمع اليهم الاعراب من قومهم يستمعون اشعارهم واهاجيهم[٣٥] » . ومعنى هذا ان الآية نزلت في شعراء معينين ، او في موقف محدد متعلق بالصراع الدائر لتثبيت اركان الرسالة ، ومن ثم لا تنسحب على ذوات الشعراء على العموم من حيث كونهم اصحاب فن ، لذلك يكون الاستثناء الذي يختم الآية مزيلا للبس الذي يمكن ان يرد على الذهن . والرسول ﷺ قد نبه اصحابه الشعراء الى هذا الاستثناء حينما جاءوا يبكون خوفا من ان يشملهم القول .

ومن هذا الباب ما اشار اليه الطبري[٣٦] من ان هذه الآية نزلت في رجلين تهاجيا على عهد الرسول ، كان احدهما من الانصار والاخر من قوم اخرين ، وكان مع كل واحد غواة من قومه وهم السفهاء . وهذا التحديد الجديد لا ينفي ، بل يؤكد المعنى السابق ، فليس هجاء الرسول والمسلمين هو وحده الذي يمكن ان يوصف بالغواية ولكن كل شاعر يسعى الى اثارة الشقاق واظهار التنافر ، يدخل في هذا المضمار وتبعه تابعون محرضون ومن ثم تخرج الآية من خصوصية السبب الى عمومية الموضوع دون ان تمس الشعر في ذاته او الشعراء انفسهم تماما كطبيعة الكلام بوجوهه الحسنة والسيئة ، وكما قال الزمخشري من ان الامر لا يزيد عن « القول فيه ان الشعر باب من الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبح الكلام » .

وعندما ننظر الى الوجه الاخر من الموضوع بعيدا عن الملابسات التاريخية ، نجد ان دلالة النص تركز على الهيام في اودية القول وتشعباته وعلى القول دون الفعل . ولما كانت الآية كلا واحدا لا يمكن الفصل بينه ، وبعضه يفسر البعض الاخر ، فان السياق العام منصرف الى الحديث عن النص القرآني وانه تنزيل من رب العالمين ولم تتنزل به الشياطين ، فاذا كان لكل شاعر شيطان ، كما وقر في ذهنهم ، فان هذا لا ينطبق على الرسول . وهو يفرق بين طبيعة التكوين القرآني والبناء الشعري الذي

---

(٣٤) أهمية ابن عباس في مثل هذه الأمور لا تخفى عند دارسي التفسير ، انظر النص في تفسير ابن عباس ، هامش كتاب الدر المنثور للسيوطي ج ٤ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٣٥) الكشاف : ج ٣ ص ١٣٣ وانظر كذلك الطبرسي في تفسيره لهذه الآية .

(٣٦) الطبري : م ٩/ج ١٩ ص ٧٨ ونشير هنا الى ان ابن كثير في تفسيره يذكر ان هذه الآية مكية وليست خاصة بشعراء الأنصار ، وقوله تعالى : الا الذين آمنوا . استثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم .

يستمد من الخيال اشياء كثيرة ، اما هذا القول القرآني فيطابق المنطوق وما يحمل من معنى .

وعندما ننظر الى كلمة « الشعراء » فان هذا لا يشمل كل جنس الشعراء ولكنها تتجه الى جهتها المعينة ، وهي لا تمس ذوات الشعراء على العموم الا بعد ان دمجتهم باهل الغواية واعتبرتهم كلا واحدا . فالشاعر الذي يستهوي اهل الغواية انما هو يقول او يعبر عن غواياتهم ، واذا هام في اودية الكلام دون تحديد لخدمة هذا الاتجاه وقال ما لا يفعل . كل هذا يضع الشعراء في الجانب المذموم دون ان يشمل الحكم فن الشعر من حيث هو فن . وليس في القرآن ما يتعرض لهذا الفن كما لاحظنا . ولم يذم هؤلاء الشعراء لانهم قالوا الشعر ولكن لمحاربتهم بشعرهم الدعوة او تزيينهم الباطل . ويمكننا القول ان الله عز وجل عندما قال « قتل الانسان ما اكفره » لا ينصرف هذا القول الى جنس الانسان كله ، فهناك عباد الرحمن الذين مدحهم وكلامهم بعينه .

٢ ـ بين يدي الرسول :

حلقة القول لا تكتمل في هذا الموضوع الا بالاحاطة بقول الرسول وفعله ، ففيها تجلية لاية غمامة تحجب النظر الصحيح الى الموضوع بسياج من شك ، فالرسول ادرى واعلم بدقائق القرآن ، فهو الذي هدّأ حسانا وابن ابي رواحة ومن معهما حينما هزهم القول القرآني حول الشعراء ، بل انه قال لكعب بن مالك حين سأله « ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما بوجههم مثل نضح النبل[٣٧] .

فالموقف الاسلامي يأخذ شكله التطبيقي من تلك الاحكام القولية والممارسات العملية التي يسنها الرسول الكريم ، فهي المدخل الذي يساعد على ازالة اي ابهام وينحي اي شك ، وكما ان آيات القرآن الكريم احيطت باقوال واجتهادات كثيرة فان اقوال الرسول واجهت الامر نفسه ، فمع انها وردت متناسقة متكاملة ويحكمها منطق محكم فان الانفراد بخبر دون آخر او وصول بعض الكلام دون البعض الاخر ، او النظر اليه من غير جهته عند البعض كل هذا قد يسحب عليه رداء يحجب الرؤية السليمة فالاقوال الطائرة تنتشر وتأخذ شهرة ويبقى الحق يبحث عن الاقوال المدافعة .

ان الشيء المؤكد الذي نبدأ به هو ان الاخبار المنحدرة عن الصدر الاول تقول ان الصحابة لم تضطرب مواقفهم حول هذا الموضوع ، فكان الشعر ديدنهم ومحل سماعهم واستشهادهم . ولن يذهب هذا المذهب من قام الاسلام على اكتافهم ولا نظن انهم علموا غير الواقع القابل للشعر والمؤيد له المدرك لابعاده .

بين أيدينا الآن أقوال الرسول (ﷺ) من اوثق مصادرها نضعها لنرى الوجهة التي يمكن أن نخرج بها .

أولا : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣٨] : « ان من الشعر حكمة . »[٣٩] .

وبجانب هذا الحديث نذكر هذا الخبر « قال النبي عليه الصلاة والسلام ـ للعلاء بن الحضرمي : هل تروي من الشعر شيئا فأنشده :

حيِّ ذوي الأضغان تسب قلوبهم

(٣٧) الدر المنثور ٥/ ٩٩ .

(٣٨) حذفنا الأسانيد اكتفاء بالاشارة الى المصادر ففيها هذه الأسانيد .

(٣٩) البخاري : باب الادب ج ٨ ص ٤٢ وانظر سنن أبي ماجه : كتاب الادب ص ١٢٣٥ وهناك رواية أخرى : « ان من الشعر حكما » ابن ماجه ص ١٢٣٦ ويروي أبو داود : « ان من البيان سحرا وان من الشعر حكما » ج ٥ ص ٢٧٧ .

فقال النبي عليه السلام : ان من الشعر لحكما »(٤٠)

٢ ـ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

وكاد ابن أبي الصلت أن يسلم ، »(٤١) وفي رواية أخرى : « أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

٣ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن الشعر كحسن الكلام وقبيح الشعر كقبيح الكلام »(٤٢) .

٤ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد فيقوم عليه يهجو من قال في رسول الله (ﷺ) فقال رسول الله (ﷺ) : ان روح القدس مع حسان ما نافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٤٣) .

٥ ـ روى الترمذي أن النبي (ﷺ) حينما دخل مكة في عمرة القضاء وكان يمشي بين يديه عبدالله بن أبي رواحة ـ وقيل كعب بن مالك ـ وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله . ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر : يا ابن أبي رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل »(٤٤)

هذه هي أقوال الرسول واضحة ناطقة بمعناها ولا يمكن أن تحمل على غير وجهها الصحيح ، فالرسول في هذه الأقوال يقف بجانب الشعر ويرعى الشعراء ، وينظر الى الفن نظرة متسامحة من جهة ومقدرة لدوره من جهة أخرى . وهو في تقديره هذا يضعه في صف الحكمة التي يتصف بها أهل النبوة والعقل .

فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم بعض الشعر جزءا من الحكمة التي خص الله تعالى بها أنبياءه ووصف بها أصفياءه . وامتن عليهم بذلك اذ جعلهم مخصوصين بها من قبله »(٤٥)

ونجده في الحديث الآخر يرتبط الشعر عنده بالصدق ، والصدق هنا من جهته الدينية التي يحرص عليها الرسول . وقد رأى أن في الشعر مدخلا للتدين ، فالقلق الروحي المشع في شعر ابن أبي الصلت كاد أن يدخله في زمرة المسلمين ، وقد استخدم الرسول كلمة « كاد » في هذا الحديث ، يوشك أن يدخله لولا ذلك الصراع التاريخي . ويعزز ما تذكر ما ذهب اليه العيني حينما ذكر ان شعر أمية ينشد بين يدي النبي (ﷺ) ويعجبه وان كان يريد أن يؤمن لولا العصبية والحزن على الأهل الذين قتلوا في القليب(٤٦) فالشعر هنا كان معبرا عن الأرواح القلقة والمتشوقة للتدين ، أو لاعطاء تفسير مقبول لمسار الحياة . وقد كان أمية بن أبي الصلت مؤهلا لكي تصله الدعوة . فارادة الايمان كامنة فيه ولكن التعصب ومبررات الصراع والحزن على من قتل في

(٤٠) العمدة في علم الشعر ص ٣٢
(٤١) البخاري : باب الأدب ج ٨ ص ٤٣ صحيح مسلم ص ١٢ وما بعده وقد أورده مسلم بأسانيد مختلفة ، وانظر مسند الامام أحمد ٢/٢٤٨ و ٢٩٣ ووردت بعدة أسانيد ٢/٤٥٨ ، ٢/٤٧٠ وانظر ابن ماجه ص ١٢٣٦ .
(٤٢) فتح القدير : ٤ ص ١٢٤ وعلق القرطبي قائلا انه قد رواه اسماعيل بن عبدالله بن عروة الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح .
(٤٣) سنن أبي داود ٥/ ٢٨٠ ، وانظر سنن الترمذي ٤/٢١٦
(٤٤) سنن الترمذي ٤/٢١٧
(٤٥) ونتذكر هنا قوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله . . » سورة لقمان ـ الآية ١٢ .
(٤٦) عمدة القاري ج ٢٢ ص ١٨٣

معركة بدر . كل هذا كان حاجزا حجب الرؤية عنه لقد كان طلب الايمان يختلف تماما عن مواجهته على صعيد الواقع . ولعل الاضافة الأخرى يقدمها لنا النص الثالث ، حينها يسمع الرسول شعر أمية فالرسول كان يتذوق هذا الشعر ويستحسن سماعه ، ويستزيد منه لأنه يلامس ذوق الرسول فهو يدور حول أفكار كان يسعى الى اقرارها . ولم يقف عند السماع العابر ، ولم يكتف بالبيت أو البيتين ، ولكنه يطلب الزيادة حتى سمع مائة بيت . وليس في هذا النص ما يشير الى الازدراء أو التحقير ، ما دام الأمر لا يمس العقيدة الدينية أو يصادم أفكارا اسلامية أو يمس المسلمين ، فسماع شعره وترديده وتذوقه أمر مطلوب الا ما استثنى منه ، وقد رووا أن الرسول قد سمح برواية شعر أمية الا قصيدته الحائية . بل ان الرسول ينتقل بنا الى خطوة أخرى فلا يكتفي بالسماع والتذوق ولكنه يتجاوز هذا الى الاستحسان بل ويصدق عليه ، فها هو ابن عباس يروي من أن الرسول (ﷺ) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أمية بن أبي الصلت في شعره ، وقال :

رجل وثور تحت رجل يمينه ... واليسرى للأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله (ﷺ) « صدق » وقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة ... حتى الصباح ولونها يتورد

يأبى فما تطلع لنا في رسلها ... الا معذبة وان لا يجلد

فقال رسول الله (ﷺ) : « صدق »[47] .

وهذا التصديق لأمية ، ولغيره ، انما هو يخضع للمنطق العام الذي تخضع له الفكرة الاسلامية ، والتي تمثل الموقف المضطرد من الشعر وغيره ، وهذا المنطق يتجلى في النص الثالث والذي أجمل الرأي في الموضوع ، حين يكون القياس قائما على أساس أن الشعر كالكلام ، من جهة الحسن والقبح ، فحسن الشعر كحسن الكلام وقبحه كقبحه . ومن ثم يكون النظر الى الشعر من حيث هو فن وقالب قابل لما يسكبه الفنان فيه ، فان كان حسنا فهو حسن وهكذا . وهذا المنطق الشامل هو الجدير بالنظر ، فكون بعض الشعر لا يماشي الفكرة الاسلامية لا يستدعي اسقاط الفن ، كما ان وجود الكفر بين بني البشر لا يستدعي اسقاط فكرة الانسان ، ووجود القبح في الكلام لا يعني اسقاط فكرة الكلام وهكذا . وعندما نتجاوز هذه النصوص الجامعة سنجد في النصين الأخرين اشارة الى التطبيق العملي لهذه الفكرة ، فالموقف الايجابي هو دخول الشعر دخولا مباشرا في الدعوة ، فهو يصنع له منبرا في داخل المسجد يقف فوقه حسان مدافعا ومنافحا ، فالطرف الأول الذي شاهدناه حينما وظف الكفار الشعر لخدمة موقفهم المعادي ، هذا يستدعي ليس فقط التحذير من الشعر ولكن لا بد من مواجهته بمثله ، ما دام هذا هو السبيل لردعهم وايلامهم فنجد أنه عندما مشى ابن أبي رواحة منشدا ، في النص الآخر ، وينهره سيدنا عمر نجد أن الرسول يوقفه مشيرا الى أثر هذا الفن على الأخرين : خل عنك يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل » . . ان هذه النصوص الواضحة ناطقة صريحة لا تحتاج الى بيان . .

ثانيا : أخبار ومواقف

يضاف الى الأقوال السابقة تلك الأخبار الكثيرة التي تسند وتكمل الأقوال السابقة فهي تحمل مواقف متعاطفة مع الشعر تضعها متتالية فهي ناطقة بنفسها عن دلالاتها ومدار اتجاهاتها .

(٤٧) الطحاوي : شرح معاني الآثار ٤/ ٢٩٩

ان الأخبار الواردة عن مواقف مختلفة للرسول تجاه الشعر كثيرة جدا ، واذا وضع بعضها بجانب البعض الآخر سيكون أبلغ من أي حديث آخر ، فصاحبها هو حامل الرسالة الذي يدرك خفاياها ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقول قولا أو يسلك سلوكا منافيا لجوهر الدعوة ، خاصة وأن المصادر التي روت هذه الأخبار من الأصول التي يعتمد عليها أو ما يقترب منها في الرتبة ، فلنتظر ونتدبر .

١ ـ حدث عمر بن الشريد عن أبيه قال : « ردفت رسول الله (ﷺ) يوما فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء . قلت نعم . قال هيه . فأنشدته بيتا فقال : هيه . ثم أنشدته بيتا . فقال : هيه . حتى أنشدته مائة بيت .(٤٨)

٢ ـ يخرج الرسول الى الخندق والمهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فيرى ما بهم من النصب والجوع فيقول : اللهم أن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ، فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا
على الجهاد ما بقينا أبدا(٤٩)

٣ ـ حدث البراء رضي الله عنه قال : « كان النبي (ﷺ) ينقل التراب يوم الخندق حتى اغمر بطنه أو اغبر بطنه يقول :

والله لولا الله ما اهدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام ان لاقينا

ورفع بها صوته : أبينا أبينا . »(٥٠)

٤ ـ حدثنا ابن مرزوق قال : ثنا أبو الوليد قال : ثنا شريك ، عن المقدام بن شريح ، عن أبيه قال : قلت لعائشة رضي الله عنها « أكان النبي (ﷺ) يتمثل بشيء من الشعر ؟ » فقالت : نعم ، من شعر ابن رواحة ، وربما قال هذا البيت .

ويأتيك بالأخبار من لم تزود(٥١)

٥ ـ حدثنا ابن أبي داود ، قال : ثنا المقدمي ، قال : ثنا أبو معشر البراء ، عن صدقة بن طيسلة قال : حدثني معن ابن ثعلبة والحربعده ، قال : حدثني أعشى المازني قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنشدته :

يامالك الناس وديان العرب
أني لقيت دربه من الدرب
خرجت أبغيها الطعام في رجب
فخلفت العهد ولطت بالذنب
وهن شر غالب لمن غلب

قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « وهن شر غالب لمن غلب »(٥٢) .

٦ ـ روى أن مسلما الخزاعي ثم المصطلقي قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر المصطلقي :

لا تأمنن وان أمسيت في حرم
ان المنايا بكفي كل انسان
واسلك طريقك تمشي غير مختشع
حتى تبين ما يمني لك الماني

(٤٨) صحيح مسلم بشرح النووي : ١٥/ ١١ وما بعدها . وزاد : قال ان كاد ليسلم أو فلقد كاد يسلم في شعره . ورواه ابن ماجه ص ١٢٣٦
(٤٩) البخاري . ج ٥ ص ١٣٧ ـ ١٣٨
(٥٠) السابق . ج ٥ ص ١٤٠ والأبيات لابن أبي رواحة .
(٥١) شرح معاني الآثار : الامام الطحاوي ج ٤ ص ٢٩٧
(٥٢) المرجع السابق ص ٢٩٩ (الطحاوي)

فكل ذي صاحب يوما يفارقه
وكل زاد وان أبقيته فان
والخير والشر مقرونان في قرن
بكل ذلك يأتيك الجديدان

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أدركته لاسلم » ، فبكى مسلم ، فقال له ابنه : يا أبه ، ما يبكيك من مشرك مات في الجاهلية ! فقال : يا بني ، لا تفعل فما رأيت مشركة تلقفت من مشرك خيرا من سويد[٥٣] .

٧ - حدثنا محمد بن علي بن داود ، قال : ثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن عمرو بن الحكم ، عن جابر بن عبدالله قال : قال الاقرع بن حابس ، لشاب من شبانهم « قم فاذكر فضلك وفضل قومك » فقام فقال :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا
نحن الكرام وفينا يقسم الربع
ونطعم الناس عند القحط كلهم
من الشريف اذا لم يونس القرع
اذا أبينا فلا يعدل بنا أحد
أنا كرام وعند الفخر نرتفع

قال : فقال رسول الله (ﷺ) « يا حسان أجبه » فقال :

نصرنا رسول الله والدين عنوة
على رغم عات من بعيد وحاضر
بضرب كايزاغ المخاض مشاشة
وطعن كأفواه اللقاح الصوادر
ألسنا نخوض الموت في حومة الوغى
اذا صار برد الموت بين العساكر
ونضرب هام الدار عين وننتمي
الى حسب من جذم غسان باهر
ولولا حبيب الله قلنا تكرما
على الناس بالخنين هل من مفاخر
فأحياؤنا من خير من وطىء الحصى
وأمواتنا من خير أهل المقابر[٥٤]

٨ - ومنها ، ما حدثنا أحمد بن داود ، قال : ثنا ابراهيم بن المنذر بن الحزامي ، قال : ثنا معن بن عيسى ، قال : حدثني عبدالله بن عمر رضي الله عنه ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنه قال : لما دخل رسول الله (ﷺ) عام الفتح ، رأى نساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر فتبسم فقال « يا أبا بكر ، كيف قال حسان بن ثابت ؟ فأنشد أبو بكر :

عدمت بنيتي ان لم تروها
تثير النقع من كنفي كداء
ينازعن الأعنة مسرجات
يلطمهن بالخمر النساء

هكذا حدثنا أحمد بن داود ، وأهل العلم بالعربية يرون البيت الأول على غير ذلك .

(تثير النقع موعدها كداء)

حتى تستوي قافية هذا البيت ، مع قافية البيت الذي بعده[٥٥]

٩ - قال الجرجاني : « وكان عليه الصلاة والسلام يذكر لهم بعض ذلك كالذي روى من أنه صلى الله عليه وسلم قال كعب : « ما نسي ربك ، وما كان نسيا ،

(٥٣) امالي المرتضى ج ١ ص ٣٦٨ .
(٥٤) شرح معاني الآثار : ج ٤ ص ٣٠٠
(٥٥) السابق ص ٢٩٦

شعرا قلته » . قال وما هو يا رسول الله . قال : أنشده يا أبا بكر فأنشده أبو بكر رضوان الله عليه :

زعمت سخينة ان ستغلب ربها
وليغلبن مغالب الغلاب[٥٦]

١٠ ـ قال العيني : وروى الترمذي وابن شيبه من حديث جابر بن سمره رضي الله تعالى عنه . قال : كان أصحاب رسول الله (ﷺ) يتذاكرون الشعر وحديث الجاهلية عند رسول الله (ﷺ) فلا ينهاهم وربما يبتسم »[٥٧] .

١١ ـ وقال أيضا : « ان شعر أمية ينشد بين يدي النبي (ﷺ) ويعجبه وانه كان يريد أن يؤمن لولا العصبية والحزن على الأهل الذين قتلوا في القليب »[٥٨] .

١٢ ـ حدث هشام عن أبيه قال : « ذهبت اسب حسان عند عائشة فقالت : ألا تسبه فانه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت عائشة : استأذن النبي (ﷺ) في هجاء المشركين ، قال : كيف بنسبي . قال : لا سلنك منهم كما تسل الشعر من العجين . »

وقالت أيضا : انه كان ينافح ، أو يهاجي عن رسول الله (ﷺ)[٥٩] .

١٣ ـ وحدث سعيد بن المسيب فقال : مر عمر بحسان وهو ينشد في المسجد فلحظ اليه فقال : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك . »[٦٠] .

١٤ ـ حدثنا سليمان بن شعيب قال : ثنا يحيى بن حسان ، قال : ثنا ابراهيم بن سليمان التميمي ، عن مجالد بن سعيد عن الشعبي قال : كنا جلوسا بفناء الكعبة أحسبه قال « مع أناس من أصحاب رسول الله (ﷺ) ، فكانوا يتناشدون الاشعار .

فوقف بنا عبدالله بن الزبير ، فقال : في حرم ، وحول الكعبة ، يتناشدون الأشعار ؟

فقال رجل منهم : يا ابن الزبير ، ان رسول الله (ﷺ) ، انما نهى عن الشعر ، الذي اذا أتيت فيه النساء وتزدوى فيه الأموال .[٦١]

حدثنا ابن أبي عمر ان قال : ثنا أبو ابراهيم الترجماني ، قال : ثنا ابن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة عن أبيه ، عن عائشة أن رسول الله (ﷺ) وضع لحسان بن ثابت منبرا ، في المسجد ، ينشد عليه الشعر[٦٢] .

١٥ ـ قال ابن كثير في تفسيره : « روى الأموي في مغازيه ان رسول الله (ﷺ) جعل يمشي بين القتل يوم

---

(٥٦) دلائل الاعجاز : ص ١٩ وقد أورد عدة أخبار لم نقل والأخبار فيما يشبه هذا كثيرة والاثر به مستفيض ص ١٩ .
(٥٧) عمدة القاري ج ٢٢ ص ١٨٢ .
(٥٨) السابق ص ١٨٣
(٥٩) البخاري ج ٥ ص ١٥٥ .
(٦٠) سنن أبي داود : ٥/ ص ٢٧٩ وانظر مراجعه الهمة ، وانظر كذلك شرح معاني الآثار للطحاوي ص ٢٩٨ .
(٦١) شرح معاني الآثار ٤/ ٢٩٧
(٦٢) المرجع السابق ص ٢٩٨

بدر وهو يقول « نفلق هاما » ، فيقول الصديق رضي الله عنه متمما البيت :

... من رجال أعزة
علينا وهم كانوا أعق وأظلما[٦٣]

ان هذه الأخبار التي سقناها تكفينا لتأكيد تلك الرعاية وذلك الاهتمام اللذين كان يوليه الرسول (ﷺ) للشعر والشعراء ولا نملك أيضا الا أن نشير الى تلك النصوص التي كانت تذكر ان الرسول قد انحدرت عنه أقوال تندرج تحت الشعر ، وقد جاءت متفقة مع ما أثر عن كثير من العرب الذين ربما قالوا البيت أو البيتين تمثلا أحيانا أو واقعة من غير قصد .

يقول ابن كثير « وكذا ثبت أنه (ﷺ) قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو :

أنا النبي لا كذب
أنا ابن عبد المطلب

ويعلق ان هذا وقع اتفاقا لوزن شعر جرى على اللسان من غير قصد اليه . ومثل هذا ما ثبت في الصحيحين مما ذكر أن الرسول (ﷺ) كان في غار فنشطب أصبعه فقال (ﷺ) .

هل أنت الا أصبع دميت
وفي سبيل الله ما لقيت

وكل هذا لا ينفي كونه (ﷺ) ما علم الشعر ولا ينبغي له فان الله تعالى انما علمه القرآن العظيم[٦٤] .

القضية من جهة أخرى

وسط هذا الحشد من الأقوال والأخبار التي قدمت لنا الرأي الاسلامي واضحا ومطبقا على صعيد الواقع ، نقول وسط هذا يبرز لنا خبران يناقضان ، أو يقدمان وجهة نظر أخرى تثبث بها كثيرون ، فدارا على الألسن لأنها يقدمان لنا الوجه الآخر المفترض في كل قضية .

الحديث الأول ذكرته كتب السنة ، قالت . قال رسول الله (ﷺ) : « لأن يمتلىء جوف رجل قيحا يريه خير من أن يمتلىء شعرا »[٦٥] .

وفي رواية أخرى ترافق هذا الحديث مناسبة معينة ، قال « عن أبي سعيد الخدري قال بينما نحن نسير مع رسول الله (ﷺ) بالعرج اذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله خذوا الشيطان أو امسكوا الشيطان لأن يمتلىء رجل قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا »[٦٦] .

هذا هو الأول .

أما الثاني فقد انفرد به من اصحاب كتب الأصول الامام أحمد في مسنده قال « حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا هشيم ثنا أبو الجهيم الواسطي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ﷺ) « امرؤ القيس صاحب لواء الى النار »[٦٧] .

ان الحديث الأول ورد في أصح كتب السنة .

(٦٣) تفسير ابن كثير ٥٧٨ وانظر التاريخ ٣/ ٢٩٢ ويلحق هذا ما رواه الترمذي من أن الرسول قال :

ان تغفر اللهم تغفر جما … وأي عبد لك ما ألما

الترمذي : ٧/ ٧١ وهو بيت جاهلي ورد على لسانه (ﷺ) أنظر ابن كثير ٤/ ٥٦١ .

(٦٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٧٩ .

(٦٥) صحيح البخاري . باب الأدب ص ٤٥ . صحيح مسلم : كتاب الشعر ص ١٤ ابن ماجه ص ٣٦ ، ٧٢ ، ٣٧ . ورواية مسلم « لأن يمتلىء جوف الرجل قيحا يريه خير من أن يمتلىء شعرا » وله رواية أخرى « ... جوف أحدكم قيحا يريه ... » ص ١٥

(٦٦) صحيح مسلم . شرح النووي باب الشعر ص ٥ والخبر نفسه في مسند الامام أحمد : ٣/ ٨ ، ٤١ مع حوله الرجل بدلا من رجل .

(٦٧) مسند الامام أحمد ٢/ ٢٢٨ .

البخاري ومسلم ـ بجانب سنن ابن ماجة ومسند أحمد مما يرفعه الى درجة عالية من الثبات . ولكن هذا لا يعني ان الأمر يتوقف عند هذا الحد ، فهذا يدعو الى النظر والتمحيص قبل التسليم بالأمر ، فعندما نتأمله في صورته الحالية نجد أن هناك ما يدعو الى التساؤل فنصه مطلق عام قد ينصرف الى الشعر عامة « شاعر ينشد » و « لأن يمتلىء جوف الرجل قيحا يريه خير من أن يمتلىء شعرا » .

وهذا النص المطلق الذي اذا أخذ على اطلاقه سيصادم ـ حتما ـ الاخبار والنصوص الكثيرة التي حشدناها والتي تناقضه ، لأنها تحترم بعض الشعر وتشجعه وتنظر ، وهي قاطعة الثبوت أيضا ، وكثرتها تمنع من اسقاطها أو تقييدها بسهولة ، فالسؤال اذن يفرض نفسه هو : كيف كان الرسول ﷺ يشجع ويمتدح في مواقع متعددة ثم يأتي هنا لينقد ويمنع ، اذا لم يكن في نفس الشعر المسموع ما يدفعه الى مثل هذا القول ؟ وحاشا أن يكون الرسول متناقضا مع احكامه وأقواله وأفعاله السابقة .

اذن ، ما الأمر ؟ .

لننظر الى الحديث وما أحيط به من اخبار ، ومن حقنا أن نربط بينه ومناسبته ورفع هذه المناسبة الى القرينة الموجهة لمعناه . لقد قالوا انه عندما كان الرسول يسير مع صحبه عندما سمع شاعرا ينشد ، ومن المفترض أن الأمر بين حالات ثلاث : اما أنه قد سمع شيئا حسنا ولا يمكن أن نقول أو نقبل أن يكون تعليق الرسول ﷺ على كلام حسن بأن القيح خير منه وهو الذي قال : ان من الشعر لحكمة . وقد يكون سمع ما يكره ، أو قولا سيئا واضح السوء . ولأنه معلم يهدي من معه لا بد أن ينتهز كل فرصة للتعليم والهداية ، وحينئذ نستطيع القول أن هذا التعليق ليس على فن الشعر ولكن للسوء الذي فيه ، فليس من تجاوز الحد أن نقول ان المنهي عنه هو كل ما يمس الروح الاسلامية أيا كان مصدره . والاحتمال الثالث أن يكون القول متوسطا لا يحمل خيرا مباشرا أو شرا واضحا فليس هناك من سبب يدعو الى مثل هذا التعليق الحاد .

ونحن لا نقول هذا تقولا ـ وان ارتضاه العقل السليم ـ ولكننا أيضا نجد بين أيدينا ما يؤيد ما نذهب اليه مباشرة ، حيث نضع هذا الحديث في موضعه الطبيعي ويسهل فهمه على وجهه الصحيح .

روى الامام الطحاوي قال : « قيل لعائشة رضي الله عنها ان أبا هريرة يقول « لان يمتلىء جوف أحدكم قيحا ، خير له من أن يمتلىء شعرا » فقالت عائشة رضي الله عنها : يرحم الله أبا هريرة ، حفظ اول الحديث ، ولم يحفظ آخره ان المشركين كانوا يهاجون الرسول ﷺ فقال : لأن يمتلىء شعرا ، من مهاجاة رسول الله ﷺ . » .

هذا أول . .

أما الثاني « فقد » حدث علي بن عبد العزيز البغدادي عن أبي عبيده ، سمع يزيد عن القطامي عن الشعبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لأن يمتلىء أحدكم قيحا خيرا من أن يمتلىء شعرا » يعني من الشعر الذي هجي به النبي ﷺ » (٦٨)

اذن فلهذا الحديث وجهته التي ينصرف اليها بعيدا عن التعميم الذي وضع فيه ، وحينئذ يصبح لفن الشعر مكانته اللائقة داخل اطار المفهوم الاسلامي الخاص .

---

(٦٨) شرح معاني الآثار ج ٤ ص ٢٩٦ وانظر عمدة القاري ج ٢٢/ ١٧٩ .

وهذا حق من الحقوق ، فلكل دعوة أطرها التي تحرص عليها .

ومع ذلك نقول ان هناك من حاول توجيه هذا الحديث حتى ضمن الاطار الأول الذي وضع فيه ، فان أصحاب النظر ابدوا وجهة نظر بعيدة عن التوجيه الذي قدمه لنا تفسير السيدة عائشة للحديث ، فقد قال أبو عبيدة : « ان وجهه أن يمتلىء قلبه حتى يشغله عن القرآن اذكر الله ، فاذا كان لقرآن والعلم الغالب فليس جوف هذا عندنا ممتلئاً من الشعر » (٦٩)
وانه لقول حسن !

●●●

ويبقى الحديث الأخر تعليق الرسول ﷺ بشأن امرىء القيس ـ وهذا يخضع لما يخضع له الحديث الأول من جهة أنه لا يمكن أن ينهض ليسقط كل الأخبار السابقة ولا بد أن في نفس التعرض ما يدعو الى هذا القول .

ولكننا ننبه كذلك الى قضية عقائدية ، والاجابة عليها تشمل أمرأ القيس وغيره . ان هذا الشاعر جاهلي ، لم يدرك الاسلام ، ومن ثم لم يبلغ بالدعوة ، فلا يختلف وضعه عن الجاهليين الذين ماتوا قبل الاسلام ، الذي لم يبزغ نوره بعد ، فهل هؤلاء يدمغون بنفس صفة الكفر ويلزمون بالاسلام مثلهم مثل الذين ادركوه أم أنهم يعاملون على أساس الديانات السابقة ؟ . أو أنهم يمثلون أجيالا ما بين دينين ؟ .

على كل لن نخاطر بالاجابة على أمر لا نملك علما فيه ، ولكن الذي نؤكده أن الحكم على امرىء القيس هنا ليس لكونه شاعرا ولكنه كانسان جاهلي يخضع لما يخضع له الجاهليون من أحكام ـ والله أعلم أين يضع خلقه .

أما هذا الحديث فان من حقنا أن نستعين بذوي العلم في شأن تخريجه ، ولنا كذلك أن نركن الى رجل يطمئن اليه المؤمن حين تتحقق عنده شروط البحث العلمي الدقيق في دراسة الحديث وتخليصه من الشوائب ، يقول الشيخ أحمد شاكر (٧٠) حين ذكر ابن قتيبة هذا الخبر !

« وقد ذكره النبي ﷺ فقال « وهو قائد الشعراء الى النار »وفي خبر آخر « معه لواء الشعراء الى النار »

« قال ابن الكلبي : أقبل قوم من اليمن يريدون النبي ﷺ ، فضلوا ووقعوا على غير ماء فمكثوا ثلاثا لا يقدرون على الماء ، فجعل الرجل منهم يستذري بفيء السمر والطلح ، فبينما هم كذلك أقبل راكب على بعير ، فأنشد بعض القوم بيتين من شعر امرىء القيس : « لما رأت . . . البيتين » ، فقال الراكب : من يقول هذا الشعر ؟ قال : امرؤ القيس ، قال : والله ما كذب ، هذا ضارج عندكم ، وأشار لهم اليه ، فأتوه فاذا ماء غدق ، واذا عليه العرمض والظل يفيء عليه ، فشربوا منه وأرتووا ، حتى بلغوا النبي ﷺ فأخبروه ، وقالوا : أحيانا بيتان من شعر امرىء القيس ، فقال النبي ﷺ : « ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسي في الآخرة خامل فيها ، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء الى النار » .

وقد علق الشيخ على هذا الحديث قائلا : ـ هذه القصة نقلهاـا المؤلف أيضا في عيون الأخبار ١ :

---

(٦٩) سنن أبي داود : ٥/ ٧٦ .

(٧٠) لنا ان نطمئن الى هذا الشيخ الجليل ، فما من رجل استطاع ان يخدم السنة كما خدمها في اخراجه لمسند الامام احمد رحمه الله وجزاه خيراً .

١٤٣ : ١٤٤ عن ابن الكلبي ورواها صاحب الاغاني ٧ : ١٢٣ في قصة أخرى باسناده عن عبد الله بن جعفر ، ونقلها ياقوت في البلدان : ٤٢١ ـ ٤٢٢ ثم قال « هذا من أشهر الأخبار » . وهي مشهورة عند الأخباريين والأدباء ولكنها غير معروفة عند المحدثين ، وهم الحجة فيما ينسب الى رسول الله ﷺ من الأخبار ، فاني لم أجد أحدا منهم رواها أو أشار اليها . الا حديث « امرؤ القيس صاحب لواء الشعر الى النار » فقد رواه أحمد في المسند ٢ : ٢٢٨ من حديث أبي هريرة مرفوعا الى النبي ﷺ ، وهو حديث ضعيف جدا ، ذكره ابن كثير في التاريخ٢ : ٢١٨ عن المسند وقال : « هذا منقطع ، وورد من وجه آخر عن أبي هريرة . ولا يصح من غير هذا الوجه » . ورواه أيضا البزار ، كما في مجمع الزوائد٨ : ١١٩ وجمع الفوائد ٢ : ١٦٨ واسناده عند أحمد « ثنا هشيم ثنا أبو الجهم الواسطي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة » وأبو الجهم هذا يذكر في بعض كتب الرجال باسم « أبو الجهم الايادي » وهو مجهول ، وضعفه أبو زرعة الرازي وقال ابن عدي : « شيخ مجهول لايعرف له اسم ، وخبره منكر ، ولا أعرف غيره » وقال ابن عبد البر « لايصح حديثه » . وفيه علة أخرى أنه موقوف على أبي هريرة ، فقد رواه البخاري في كتاب الكنى المطبوع في حيدر آباد ١٣٦٠ ص ٢٠ برقم ١٥٤ قال : « أبو الجهم الأيادي ، قال مسدد : نا هشيم قال : نا شيخ يكنى أبا الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : صاحب لواء الشعراء الى النار امرؤ القيس ، لأنه أول من أحكم الشعر ، » وفي مجمع الزوائد ١ : ١١٩ « عن عفيف الكندي قال : بينا نحن عند النبي ، ﷺ اذ أقبل وفد من اليمن فذكروا امرء القيس بن حجر الكندي ، وذكروا بيتين من شعره فيهما ذكر ضارج ـ ماء من مياه العرب ـ فقال رسول الله ﷺ : ذاك رجل مذكور في الدنيا منسي في الآخرة يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء يقودهم الى النار . رواه الطبراني في الكبير من طريق سعد بن فروة بن عفيف عن أبيه عن جده . ولم أر من ترجمهم » . وانظر تعجيل المنفعة ٤٧٢ ـ ٤٧٣ ولسان الميزان ٣ : ١٨١ و٦ : ٣٥٩ والكنى والأسماء للدولابي ١ : ١٣٧ والمناوي على الجامع الصغير ٢ : ١٧٦ رقم ١٦٢٤ و١٦٢٥ . ورواه الخطيب في تاريخ بغداد ٩ : ٣٧ باسناده عن أبي هفان المهزمي عبد الله ابن أحمد بن حرب الشاعر عن الأصمعي عن ابن عون عن محمد ـ يعني ابن سيرين ـ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « امرؤ القيس قائد الشعراء الى النار » وهو خبر باطل ، كما قال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٣ : ٢٤٩ ـ ٢٥٠ و ٦ : ٤٤٩ .[٧١]

ان هذا التخريج يفي بغرض الباحث عن الحقيقة ، ففيه توضيح لما نريد على أساس من علم الحديث وتمييزه ونقد رجاله .

ثانيا : ضعف الشعر

كان حديثنا السابق عن العلاقة بين الشعر والاسلام ، وفي عرض هذه العلاقة كانت محاولة لتبين رأي القرآن والرسول ﷺ في الشعر . وهذا الرأي على جلاله وخطورته لا يمنع من أن تضع السؤال الثاني أمامنا متسائلين : هل حافظ الشعر على مستواه أم دب فيه الضعف بعد أن ظهر الاسلام ؟ !

من الواضح أن الآراء التي عرضنا طرفا منها فيما سبق

---

(٧١) الشعر والشعراء ١ / ١٢٦ ـ ١٢٧ .

قد وضحت المحورين الاساسيين اللذين دارت حولهما القضية : -

فرأى يقول : ان الاسلام أضعف الشعر ، وهو يرى أن الشعر الجاهلي قد بلغ قمته قبيل الاسلام ثم دب فيه الضعف ليعود بعد ذلك في عصر بني أمية الى سالف عهده . . .

ورأى آخر يقول : ان الشعر لم يضعف لان الاسلام وقف بجانبه ، وقد روى شعر كثير يؤكد هذا النمو في الشعر . . .

ان كلا الرأيين يربطان بين الشعر والاسلام ، متناسين حقيقة الشعر ذاته ودون تحقيق لما هو موجود فعلا من نصوص ، وقد تجاهلا أيضا النظر الى نوعية الترابط ، متناسين أو واضعين جانبا طبيعة الدين من جهة وطبيعة الفن ومراحله وتمايز هذه المراحل .

علينا أولا ، اذا أردنا أن ندخل للموضوع دخولا علميا سليما ، أن نحدد الأرضية التي يدور حولها الجدل لنعرف موقع اقدامنا على بساط الزمن المقصود ، ونتلمس حقيقة هذه الآراء لنرى صدق المقولة على صعيد الواقع الحقيقي لا المفترض ، فان تحديد هذه المرحلة هو الذي يحصر النقاش في محيطه الطبيعي .

هناك اتفاق لا يتسلل اليه الشك على أن العصر الجاهلي يمثل أحد المراحل العالية القيمة في الادب العربي ، ويزداد التركيز على المرحلة القريبة والمتداخلة مع أول العصر الاسلامي ، ويعتبرونها هي ذروة ذلك العصر حيث اجتمع في زمن متقارب أعظم شعراء العصر فيما بين ٥٣٠ م الى ٦٢٠ م تقريبا عاش كل من امرىء القيس ، زهير ، والنابغة ، الاعشى ، (وهؤلاء هم طبقة ابن سلام الأولى) ، وضع بجانبهم أوس بن حجر ، طرفة بن العبد ، لبيد العامري وأسماء أخرى كثيرة معروفة ، وبعض هؤلاء شهد أول هذه المرحلة وآخرها ، بل عاش بعضهم زمنا يطول ويقصر في الاسلام ، فهذا لبيد قد عاش حتى عهد معاوية ، ويلحق به أيضا شعراء آخرون ، ولكن من الواضح أن الأعشى هو آخر هؤلاء الاعلام ، وانه يمثل استمرار هذه الذروة حتى وفاته سنة ٧ هـ .

نحن - اذن - أمام عصر فني يمتد حتى هذا التاريخ المحدد ، فوفاة الأعشى ثابتة معروفة وقد ظل يقول الشعر الجيد المنسجم في قيمه ونظامه ومنظوره مع العصر الجاهلي .

وهناك مرحلة أخرى يعتبرها الدارسون ومؤرخو الأدب القمة الثانية بعد العصر الجاهلي وانها مساوية له أو اعادت الشعر الى رونقه وهي المرحلة التي اصطلح على تسميتها بالعصر الأموي ، وهذا العصر - من منظور سياسي - يبتدىء بسنة ٤٠ هـ .

ولا يختلف الأمر عند النظر الفني ، فان الاخطل - أو الثلاثة العظام في هذا العصر - قد ولد سنة ٢٠ هـ . وفي السنة نفسها ولد الفرزدق [٧٢] ، فهما - اذن - بدأ يقولان الشعر حول هذه الفترة فأعادا - حسب الزعم السائد - للشعر رونقه وقوته .

يؤكد هذا تلك الحكاية المشهورة مع الامام علي حينما أتى به والده اليه « فقال الامام : من هذا معك . قال : ابني ، وهو شاعر فقال له : « علمه القرآن ، فانه خير من الشعر » وقد كان الفرزدق يقول : « كنت أجيد الهجاء في أيام عثمان » . وهذه الاخبار تسبق تلك الفترة المحددة بسنوات خمس على الأقل .

---

(٧٢) الفرزدق . شاكر الفحام . ص ٢٢ ، وانظر الأغاني ج ٢١ ص ٢٨٣ .

ونضيف الى هذا أنه قد سبق هذين ابن قيس الرقيات . ولد سنة ١٢ هـ ولحقها كل من عمر بن ربيعة سنة ٢٤ هـ وجرير سنة ٣٠ هـ ، وبجانب هؤلاء حشد كبير لا يخطىء الدارس عددهم اذا أراد فالعصر الجديد بدأ في هذا العام ـ سنة ٤٠ هـ ـ قريبا محيا الشعر من جديد ، هكذا قالوا ، وهذا حق ولكنه لا ينفي أن هناك حقا آخر . .

أمامنا الآن تاريخان : الأول ٧ هـ
الثاني ٤٠ هـ .

وبينهما ثلاثون عاما هي السنوات العجاف في تاريخ الشعر العربي ، حيث افتقرت الى الشعر الكثير والجيد وخلت من الشعراء الكبار ، فضعف الشعر وتأخر مما استدعى مثل هذا الجدل الكثير حول هذه القضية . من حقنا ـ أولا ـ ان نختصر الفترة الزمنية الى ما دون هذه المدة . فمن المفترض أن الشاعر الجاهلي لم يتوقف عن قول الشعر بمجرد أن برزت الدعوة الاسلامية ، فمن لم ينضو تحت لواء الاسلام استمر على سجيته في قول الشعر تبعا للتقاليد الفنية التي اعتادها وألفها فليس ثمة سبب شخصي أو فني يدعوه الى التغيير . وهذا ما نلمسه في القصائد التي قيلت في الرسول ﷺ ـ قصيدة الأعشى مثلا ـ أو بين يديه مثل قصيدة كعب بن زهير . واذا كان المستوى العام اقل من أن يصل في مجموع شعر الشاعر الى سوية ذلك الشعر السابق فهذا خاضع لمؤثرات كثيرة لا لسبب معين ، واذا كانت قصيدة الأعشى جيدة فلأن شاعرها كبير ، أما اذا كانت أقل من مستواه العام فقد تكون الأسباب كثيرة ، واذا كان ثمة سبب فليس هو الاسلام حتما . وليس هناك من يشك في تميز قصيدة كعب بن زهير .

وهناك شعراء جاهليون آخرون استمروا ينظمون الشعر على سجيتهم وطريقتهم الى ما بعد استقرار الاسلام واستمرار دعوته . وهذا واضح عندما يستعرض المرء اسماء الشعراء الجاهليين الذين امتد بهم العصر بعده بقليل أو كثير . .

ومن جهة أخرى فان شعراء العصر الأموي العظام لم ينتظروا حتى سنة ٤٠ هـ فكثير منهم أثرى المرحلة الأخيرة من هذه الفترة المعينة فليس من المعقول أن شاعرا مثل ابن قيس الرقيات والذي ولد سنة ١٢ هـ ينتظر حتى يبلغ الثامنة والعشرين ليقول الشعر ، وكذلك آخرون .

ان اهمال هؤلاء وأولئك انما هو اهمال متعسف يمحق أن هذه الفترة الزمنية قد اختصرت من جهتين !! . .

وهناك تنبيه آخر واجب ذكره ، فنقول انه ليس هناك في تاريخ الشعر من خط مستو يحافظ فيه الشعر دائماً على سوية واحدة من النضج ، ففي كل الآداب العالمية تسير الخطوط متعرجة بعضها يحظى بشاعر كبير أو أكثر فيرتفع مع هؤلاء من حولهم ، فاذا العصر كله على قمة سامقة تقاس بها العصور . هذه هي الأزمان التي توفر فيها العظام : أمروء القيس وصحبه واسخيلوس ويوريبدس وسوفوكليس . او تبرز شخصية فذة مثل المتنبي وشكسبير ، حينئذ يرتفع هذا العصر الى المستوى الذي يصعب على الفترات الأخرى ان تصل اليه مهما كان فيها من نضج فني أو شعر متميز . وعندما ننظر ونقارن نجد أن هذه التغيرات الطبيعية سائدة في كل عصر .

والا فهل نستطيع القول ان الفترة الناضجة الممتدة من بداية العصر العباسي وحتى زمن المعري أي طوال ثلاثمائة عام ، هذه الفترة الناضجة ـ هل خلت من فترات أطول من هذه الفترة التي نتحدث عنه ، فتأخر الشعر عن مستواه السابق واللاحق ؟ . (٧٣) .

---

(٧٣) أفدنا بصورة رئيسية في هذا الترتيب على كتاب تاريخ الأدب العربي : لعمر فروخ والسنة الموضوعة تعني الوفاة .

فمن المقبول - اذن - بل من الطبيعي ان تتفاوت الدفقات الفنية بين العصور تبعاً لظروف كثيرة ، وأحياناً تكون متكررة . ومن ثم فلا يمثل هذا اي اخلال في مسيرة الفن وتطوره ، ولا يعني هذا اننا نتلمس اعذار اولية ومشروعة للقول او التسليم التام بضعف الشعر وتأخره فنحن لا نزال نبحث عن منبع تلك الصورة القاتمة التي اشاعها باحثون كثيرون وسنرى ان كانت حقاً أم أن للقضية وجهاً آخر جديراً بالنظر .

بعد ان اختزلنا هذه السنوات الى حدها المعقول ووضعناها في إطارها الخاص في خط سير التطور الفني لنا الآن أن ننظر فيها من الداخل لنرى ان كانت فترة صدر الاسلام خلت حقاً من الأسماء الجديرة بالاعتبار أو أن النشاط الشعري تضاءل دون الحد المقبول بالنسبة للعصور الفنية الأخرى .

لا نستطيع القول أننا سنقوم بدراسة فنية مستقصية مقارنة كي نزيل اللبس والايهام ، فهذا امر يفوق طاقة الفرد ، فحسبنا أن ننظر محتكمين الى ما رسخ في الأذهان عن بعض شعر هذه الفترة والمكانة التي حظوا بها منفردين دون عصرهم . وسنكتفي بلفت النظر الى مثل هذه الأسماء التي كانت تحمل على عاتقها اثراء تلك الفترة وهذه بعضها .

عبد الله بن أبي رواحة سنة ٨ هـ - عبد الله بن الزبعري سنة ١٥ هـ - أبو خراش الهذلي في خلافة عمر - العباس بن مرداس سنة ١٨ هـ - الأغلب العجلي سنة ٢١ هـ - عمر بن معدي كرب سنة ٢١ هـ - زيد الخليل - كعب بن زهير ت سنة ٢٦ هـ - حميد بن ثور - ادرك خلافة عثمان - المخبل السعدي ت أيام عثمان - أبو ذؤيب سنة ٢٨ هـ - أبو محجن سنة ٢٨ هـ - أبو زبيد الطائي سنة ٣٠ هـ - عروة بن حزام سنة ٣٠ هـ - متمم بن نويرة سنة ٣٠ هـ - الشماخ بين ٣٠ و ٣٢ هـ - سحيم عبد بني الحساس قتل أيام عثمان على الأغلب - الخنساء قبل سنة ٤٢/٢٤ - كعب بن مالك الأنصاري - حسان بن ثابت ٦٠ هـ - الحطيئة سنة ٥٩ هـ - سويد بن أبي كاهل سنة ٦٤ - ٦٥ هـ - النابغة الجعدي سنة ٦٥ هـ - وهناك اسماء أخرى اهملناها .

الثابت ان هؤلاء كانوا في قمة نشاطهم الفني في هذه الفترة التي نتحدث عنها - اذن فهي حافلة بشعر كثير ، ولا شك في هذا ، فهي مع قصرها تطاول أخصب فترات الأدب الأخرى .

ومع ذلك ، فالكثرة لا تعني الجودة ، وهذا حق ، فاذا سلمنا اولاً ان هناك شعراً كثيراً فنكون قد اجتزنا عقبة الندرة فقط ، وهذا امر حسن ويبقى بعد ذلك النظر في الجودة . وقد أكدت في تنبيهي السابق ان بروز القمم العالية مجد لا يظفر به الا في لحظات قليلة من الزمن ولا نريد ان نناقش فلتات الدهر . ولكننا نقيس النظير بما يشابهه فنحن ليس لدينا الا متنبي واحد مثلا ، وهل جادت عصورنا المتعاقبة بغير معري واحد . ان هؤلاء العظام هم وحدهم الذين اعطوا عصورهم نورا استضاء به شعراء اجيالهم ، ونعتقد ان المتنبي لم يقض على من حوله كما كان يقال ولكنه هو الذي وهبهم فرصة الظهور الحقيقية . .

وعندما نعود الى هذه المرحلة التي نتحدث عنها فسنجدها تحوي أكثر من شاعر متميز وخالد لم يشك احد في نباهة شعره ، ولنختر من القائمة السابقة بعض الاسماء لنرى . اننا نلتقي بكل من : كعب بن زهير الحطيئة والخنساء وحسان والنابغة الجعدي والشماخ وعروة بن حزام ومتمم بن نويرة وابو ذؤيب . وهؤلاء يمثلون مستويات عالية في كل تاريخ الادب العربي ، ولا يرتفع الى مكانتهم شعراء كثيرون ينتمون الى فترات عالية النضج . واذا اضفنا اليهم شعراء الفترتين السابقة واللاحقة نجد ان المرحلة نهضت بشعرائها وبآخرين ايضا . .

وعندما نحتكم الى دارس متميز مثل ابن سلام في طبقاته التي استخلص فيها الفحول محتكما الى علمه وذوقه وما اجمع عليه الدارسون نجده قد وضع هؤلاء في المقدمة ، فقد جاء كل من كعب والحطيئة في الطبقة الثانية من فحول الجاهلية . وجعل متمم بن نويرة اول طبقة اصحاب المراثي وثناه بالخنساء . وجعل حسان بن ثابت اول شعراء القرى والنابغة الجعدي اول رجال الطبقة الثالثة من فحول الجاهلية ، وفي الطبقة نفسها الشماخ بن ضرار .

ولا تختلف النظرة عن غير ابن سلام من الباحثين وهي نفسها عند العصور المتلاحقة فهؤلاء لا تزال قصائدهم تمثل النماذج التي يعتد بها مهما اختلفت الاتجاهات والمذاهب .

لنا اذن ان نطمئن الى حقيقتين :

الأولى : ان تلك المرحلة لم تخلو من شعر كثير .

الثانية : ان بعض شعراء هذه المرحلة يقفون في مقدمة شعراء العربية على مر العصور .

فهل من حقنا ـ بعد ذلك ـ القول انها مرحلة ناضبة ضعف فيها الشعر ؟!

●●●

ويبقى بعد ذلك وجه آخر للقضية تمثله اقوال متناثرة تشير ، ليس الى ضعف الشعر في هذه المرحلة ، ولكنها تقارن بين مرحلتين في شعر الشاعر ، ويكون الدين طرفا فيه ، وهنا تلاقينا كلمة الاصمعي المشهورة حينما علق على شعر حسان بن ثابت قال « وطريق الشعر اذا ادخلته في باب الخير لان ، الا ترى ان حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والاسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي رسول الله ﷺ وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما ، لان شعره ، وطريق الشعر هي طريق الفحول ، مثل امريء القيس وزهير والنابغة ، من صفات الديار والرحل ، والهجاء والمديح ، والتشبيب بالنساء ، وصفه الخمر والخيل والافتخار فاذا ادخلته في باب الخير لان »[٧٤] .

لا نريد أن نقلل من أهمية هذا الرأي أو نعارضه ، انما الرغبة قد تدفعنا الى فهم الاسباب الموضوعية والفنية التي تكمن وراءه ، مع اننا لا نسلم تسليما تاما بهذه المقولة بالنسبة لحسان بن ثابت على وجه الخصوص ، وقد تكون صحيحة بالنسبة لآخرين ، اما حسان فقد ظلم فيها ، فلم يكن شعره في هذه المرحلة بالسوء الذي يصور به ، فله اكثر من قصيدة جيدة تشي بشاعريته ومقدرته المستمرة . واذا كان هناك خلل فمرده يعود الى هذا الطريق الجديد الذي راح يروده وحيدا يصنع فيه تقاليد جديدة نامية .

ونص الاصمعي نفسه يوضح توضيحا مباشرا هذا الضعف الذي لمسه ، حينما استشهد باللين البادي في رثائه للرسول وحمزه وجعفر وغيرهم ، وان الطريق هو طريق الفحول من أمثال امريء القيس وزهير والنابغة ، في وصفهم للديار والرحل والتشبيب بالنساء وصفات الخمر الخ . فهذه المقارنة فيها كشف للامر كله . فمن المؤكد ان حسانا كان شاعرا كبيرا يحسن القول في فن المدح والرثاء ، فقد كان يكتب كما كانوا يكتبون ويجود كما لاحظنا في كثير من قصائده التي قالها في الجاهلية ، أليس هو صاحب القصيدة البائية او التائية التي بترت القصائد . فعندما سمع عمرو بن الحارث قصيدته اللامية :ـ

لله در عصابة نادمتها ... يوما بجلق في الزمان الاول

(٧٤) الموشح ص٩٠ ، وص ٨٨ .

فقال : ـ « هذا وأبيك الشعر لا ما يعللاني به منذ اليوم ، هذه والله البتاتة التي قد بترت المدائح (٣٣) » .

هل تغيرت مقدرته ام ان هناك اسبابا تحتاج الى تفسير او انها توضح لنا هذا اللين الذي اشار اليه الاصمعي ؟ .

قبل الاجابة على هذا السؤال لا بد من وقفة يفرضها الواجب امام هذا الحكم الخطير الذي طرحه الاصمعي ، فليس من المقبول القول بتعارض الفن مع الخير ، فهذا حط من قيمة الابداع الفني وهو حكم يفتقر الى الدقة حينما يخرج من التخصيص المقبول الى التعميم ، وهو ، في الوقت نفسه ، يفسح المجال للنقيض : الشر . ولا نريد ان نستطرد وراء الحديث عن الفن ودوره الخلقي والاجتماعي الطليعي . بل اننا نرد الاصمعي الى نفسه حين نسأله عن دوره المتميز في حمل الشعر وروروايته واذاعته ، الم يلمس ذلك الجانب الداعي للخير الذي حمله بعض شعراء الجاهلية مثل زهير بن ابي سلمى بل ونسأله عن وقفته لاصمعياته هل هي حامله للشر ، الذي لا نشك فيه ان فيها خيرا كثيرا . وهو اقدر من غيره على تبينه .

ان دور الشعر المتميز يعني انه يحمل في كثير من الاحوال خيرا كثيرا وان هذه قضية بديهية مناقشتها لا تخلو من فائدة التذكير وان اضاعت الوقت .

ان تفسير هذا اللين لا يأتي من هذا الحكم المتسرع ولكنه يحتاج الى النظر الدقيق الى مثل هذه الامور ، والذي نعتقده ان سببه طبيعة التناول نفسها والجهة التي تنبع منها قيم المدح ، فاذا كان للجاهلي في بعض معتقداته .. انصر اخاك ظالما أو مظلوما ، أو :

لا يسألون اخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

فان القيمة الاسلامية الجديدة ان تنصر اخاك المظلوم وان يكون نصرك لاخيك الظالم هو كفك ليديه عن الظلم .

هناك ـ اذن ـ تفاوت واضح بين منظورين ، تختلف فيهما مواطن المدح والفخر ، فما يفخر به الجاهلي قد لا يعتبره المسلم مدحا والعكس صحيح ايضا ، لذلك كان شعر حسان في بعض مواضعه شديدا على الكفار لان فيه بقايا من قيم الجاهلية ونظام القصيدة في مدحها وهجائها ، مع حذر واضح . بينما كان شعر عبد الله بن رواحة مثلا لا قيمة له ولا تأثير له على الجاهلي ما دام خارج الاسلام فاذا اسلم انقلبت الصورة .

وهذا الاحساس بتفاوت المنظورين والتنازع الباقي سنلتقي به كثيرا في العصر الاموي حينما كان ينزع ويرغب الممدوحين الى ان يمدحوا بالقيم الجديدة بينما كان بعض الشعراء يخضعون للموروث الفني المتبقى في قصيدة المدح .

اذن نحن امام طريقتين ، اولاهما قديمة ثابتة راسخة بتقاليدها وقد مثلت الطريق الممهد الذي يسلكه السالك وهو آمن مجود . والاخرى جديدة تحاول ان تجد سبيلها وترسخ قيمها وتطوع فنها ، ومن طبائع الامور أن يكون القديم الثابت أكثر رسوخا ، ومن يتبعه مجودا فليس كل الفضل يعود اليه ، فبعضه يرد الى تلك الارضية الممهدة اما الاخر فمهما كانت قدرته وامكاناته فوعورة الطريق وجدته تحد حتما من الطلاقة .

فليس الامر مرده ان شاعرية حسان ناضبة أو لينه ولكن طريقه الجديد هو السبب المباشر . فان انتقال الشاعر بين مرحلتين وطريقين يمثل تغيرا نوعيا في فنه وامامه صعاب كثيرة تحتاج الى تذليل . ولعل هذه النقطة هي الاساس الذي يجب أن نعتمده في تقييمنا الفني وهو

(٣٣) الاغاني : ١٣٣/١٥ .

الذي يدفعنا الى تحديد الزاوية التي يجب أن ننظر من خلالها الى هذه المرحلة .

●●●

والان ، كيف ننظر إلى هذه المرحلة الزمنية لتمييزها عما عداها ولرد كل قول الى النقطة التي يعنيها بالضبط لا ان ندمغ العصر كله بها ، ليس القصد هو تسفيه تلك الاراء التي لم تأت من فراغ ، فهناك اصل لها يجب الا ننكره ، ورغبتنا في الوصول الى تفسير معقول للحركة الشعرية في ذلك العصر تسبق اي اعتبار آخر مهما يكن .
واذا كانت الاراء الايجابية صادقة لانها ركزت على الجوانب المضيئة فان الاراء السلبية اختطفها ما رأت من ضعف فعممت القول .

ان ما ذكرنا من تفسير لتفاوت شعر حسان وصلابة شعر غيره يشير الى اول مراحل الطريق ، فعلينا الآن ان نحدد الزاوية التي ننظر من خلالها ، والتي يجب ان تكون زاوية فنية تحترم اساسيات الفن دون الخضوع لاى اعتبار آخر . . ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقيم الحركة الفنية على ضوء سيرها هي ، دون النظر الى عناصر خارجية نستطيع ان نقول ان الحركة الشعرية في صدر الاسلام تنقسم الى تيارين .

التيار الاول :

هو امتداد للشعر الجاهلي يمثله في الدرجة الاولى الحطيئة وكعب بن زهير وامثالهما الذين يمثلون الامتداد الطبيعي والنامي للشعر الجاهلي ، وهذا التيار ظل محافظا على قوته الفنية مكملا لمسيرة سابقة وقد كان تأثيره بالاسلام تأثرا خفيفا برز هذا في بعض قصائد شعراء هذه الفترة وان كانت تقاليده الفنية ظلت كما هي تنتظر الظروف الحياتية التي سيوفرها عصر بني أمية بما فيه من صراع وتنافس وعودة العصبية الى سالف عهدها ، خاصة وان العرب قد دخلوا في تنافس مع شعوب أخرى وسيظهر هذا فيما بعد حين تمكن الحياة العباسية هؤلاء من التحرك . .

ان النظرة الطبيعية لشعر هؤلاء الشعراء الذين يمثلون هذا التيار الفني القديم يجعلنا نطمئن الى انهم خير ممثلين للفترة المتصلة من قبيل ظهور الاسلام حتى بروز شعراء بني أميه العظام . ونحن نستطيع أن ندخل ضمن هذا التيار اكثر شعراء هذه الفترة وخاصة اولئك الذين عاشوا الفترتين ممن يطلق عليه بالمخضرمين ، و حين نفحص شعر هؤلاء لن نجده يختلف عن شعر الجاهلية ، بل ان فيه تأكيدا للشعر الجاهلية نفسه ولتقاليده الفنية والاخلاقياته التي جبلوا عليها واعتادوها ، وهذا الموقف من هؤلاء قد عرضهم لكثير من الصعاب بل الاحياة اكثرهم تتمثل فيها محنة الشعراء في فترة صدر الاسلام .

وعندما نتأمل ـ على سبيل المثال ـ رثاء متمم بن نويرة نجده يستوحي القيم الجاهلية التي كان يفخر بها الجاهليون ، وهي قيم انسانية مقبولة اسلاميا ايضا فهذا الاخ تمثلت فيه تلك القيم ، يقول :

فتى كان مقداما الى الروع ركضه
سريعا الى الداعي اذا هو فزعا
وما كان وقافا اذا الخيل احجمت
ولا طائشا عند اللقاء مروعا

وهذا الحطيئة اخباره معروفة مع عمر ، وكذلك حياة ابي محجن الذي ظل عاشقا للخمر حتى انه قال تلك الابيات المشهورة :ـ

اذا مت فادفني الى جنب كرمة
تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة ، فانني
اخاف اذا مامت ان لا اذوقها

وفي هذه الابيات وغيرها رد على اولئك الذين يعتقدون ان الاسلام حينما دخل قلوب الشعراء غير كل احوالهم فالشعراء كغيرهم ، منهم من قوى اسلامه ومنهم من عاش على هامش الدعوة . فلم يخضع لذلك القول الشهير الذي يروونه معللين ضعف الشعر ، ان هؤلاء الشعراء لم ينسوا بعد الاغراض الشعرية المعروفة ايام الجاهلية ، وساروا على الطريق نفسها مع مراعاة التطور الفني العام . وما اكثر الامثلة الشعرية التي تحافظ على ذلك النهج شكلا وموضوعا .

وهذه النقطة الاخيرة تحتاج الى وقفة توضيح لا بد منه ، فعندما نشير الى ارتباط شعر هذه الفترة بسابقة يجب الا نلغي التطور والتفاعل الطبيعي والمقبول ، فتطور الشعر لم يتوقف ، فمن الظلم والسذاجة ايضا ، ان نقبل القول القائل ان الشعر الاموي صورة للشعر الجاهلي أو أنه احياء له ، فالاحياء عودة الى أصل ، اما الشعر الاموي فنرى فيه امتدادا مستمرا لحركة فنية او تيار لم يتوقف يضيق مجراه أو يتسع وقد يتفجر في بعض مواقعه ولكنه يستمر ناميا متدافعا ، لذلك نقبل ان نقول ان الشعر الاموي عند كثير من شعرائه يمثل استمرار تلك المدرسة الجاهلية .

ولكننا نضع هنا تنبيها مهما وهو أن هذا الشعر تفاعل مع هذا الوسط فكان لا بد ان يأخذ ويعطي يطور ويجدد ويغير يؤثر ويتأثر ، والا فمن يقبل ان الشاعر الانسان الاموي الذي احاطت به حركة اسلامية باهرة وتغيرت ظروفه القبلية وامتد من تحته بساط الحكم حتى بلغ قمة تسكن في افئدة الحالمين ، هذا الانسان الفنان ، حتى لو خضع ، او تمسك واستطاب نضج الدفقة الشعرية الجاهلية ، فاننا لا نملك نزعة من التأثر المشروع الذي يفرضه عليه التفاعل بل يدعوه الوسط الذي يعيش فيه الى ان يستجيب له . ان الذين قارنوا محقين ولا شك ـ بين امريء القيس والفرزدق وبين الاعشى والاخطل وزهير وجرير ، ان هؤلاء لو نظروا بعمق الى شعر كلا الشاعرين سيجدون حتما تلك التغيرات الحادثة ، فالفرزدق مثلا قد لا يكون ذلك المسلم الحق ، ولكنه ايضا ابن الثقافة الاسلامية والقيم الجديدة وربيب هذه البيئة ، وهو يستند الى تغيرات فنيه استجابت لواقعها الجديد ، فعندما استوحى العصبية الجاهلية وقف عند حدود الروح العامة فالذي يقول :

ان الذي سمك السماء بنى لنا
بيتا دعائمه اعز واطول

لا تحتاج كثير جهد لتحديد ثقافة قائل هذا البيت ، واذا كان هذا قول عام فماذا نقول في قوله :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها
وقضى عليك به الكتاب المنزل

وعندما نصل الى دقائق الاشارات سنجد الكثير ، فعندما قارن القدماء بين تصوير النابغة لسطوة النعمان في قوله :

فانك كالليل الذي هو مدركي
وان خلت ان المنتأى عنك واسع

وقول الفرزدق في تصوير موقف مشابه حين يصور سطوة الحجاج وبسطة يده حتى لا يفوته شيء (٣٦) .

وان لو ركبت الريح ثم طلبتني
لكنت كشيء ادركته مقادره

كلا الشاعرين بالغ وتجاوز الحد ، ولكن صاحب النظر الدقيق يعرف ان ثقافة الشاعر الثاني تختلف عنها عند الاول ، وهذا واضح من قوله ركبت الريح .

وقوله « ادركته مقادره .

(٣٦) الفرزدق : شاكر الفحام ص ٤٩٢

لا نريد الاستطراد ، فالاتجاه الفني العام يفرض نفسه ، فهاهم متلقو الشعر يلقون بظلال ثقافتهم على الحركة الشعرية ، فعندما جذبت النزعة الذوقية القديمة عبد الملك بن مروان الى ان يعجب بقول كثير عن الخلافة : ـ

فما تركوها عنوة من مودة
ولكن بحد المشرفي استقالها

هنا ينبري الاخطل ـ ولم يكن مسلما ـ معلقا لقد قلت فيك

اهلوا من الشهر الحرام فاصبحوا
موالي ملك لاطريف ولا غصب

جعلته حقا وجعله غصبا (٧٧) .

بل ان عبد الملك نفسه في موقف آخر ينتبه الى هذه الروح الجديدة فيقول للشعراء الذين اجتمعوا عنده « تشبهوننا بالاسد والاسد ابخر ، وبالبحر والبحر اجاج ، وبالجبل مرة والجبل اوعر ، الاقلتم كما قال ايمن بن خزيم ابن فاتك لبني هاشم :

نهاركم مكابدة وصوم
وليلكم صلاة واقتراء
أأجعلكم واقوام سواء
وبينكم وبينهم هواء
وهم ارض لا رجلكم وانتم
لاعينهم وأرؤسهم سماء

وهناك امثلة لا حصر لها تدور حول هذا المحور .

وهذا التداخل بين القديم الراسخ والجديد المكتسب يصلنا الى التيار الثاني ، وهو هذا التيار الوليد هو الذي بدأ هذه الحركة الجديدة واراد ان يستهدي قيمها كاملة ويتمثلها سائرا في ركابها ، وهذه الحركة مزيج من اناس حسن اسلامهم فارادوا ان يبتعدوا عن ذلك التيار الذي الفوه ، ويشقون طريقا جديدا دون التخلي عن الاطار الفني العام وهناك آخرون سيتأخر ظهورهم قليلا ولكنهم سيمثلون اتجاها جديدا كل الجدة .. اهم من يمثل هذا التيار اولئك الشعراء الاسلاميون الذي يقف على رأسهم حسان بن ثابت ومعه من امثال النابغة الجعدي وعبد الله بن أبي رواحة وآخرون يضرب فيهم المثل على ضعف الشعر .

من طبيعة الامور ان يكون هذا التيار اقل بكثير من الشعر الجاهلي أو امتداده الذي يسير على هديه ، لقد حاول هؤلاء ان يربطوا بين التقاليد الفنية والاسس الدينية ، فهم قد تأقلموا مع الدين الاسلامي وحاولوا ان يعبروا عن اخلاقياته المثالية ، خاصة وحولهم رسول عظيم يحثهم على كل مكرمة ، فهذا التحول الاخلاقي جعلهم يحيدون عن العامل الفني في التطور ، لذلك نجد ان كلما اقترب الشاعر من مثاليات الاسلام بعد عن النضج الفني وعبد الله بن رواحة خير مثال على ما نقول فهو قد كان تقيا صالحا ، شعره كله يمتاز بالافكار الاسلامية الدقيقة ، فضعف ولان حتى ان الرسول كان يقول له : « انت شاعر كريم » .. كما ان شعره كان خفيفا على الكفار ولكنهم عندما يؤمنون يشتد شعره عليهم لانه كان يتحدث من وجهة النظر الاسلامية ، عكس حسان الذي كان شعره يقترب من طريقهم في الهجاء .

ان هذا التيار الجديد الذي بدأ على يد هؤلاء الشعراء الرواد كان يحتاج الى فرصته للظهور وكان الطريق امامه عسيرا فان الاسلام قد قضى على الجاهليه ولكن تقاليد الشعر الجاهلي ظلت مستمرة ـ وكان لا بد ان يسود التيار الاول بما كان يملك من مقومات فنيه راقية وقد ساعدت

(٧٧) الصورة في الادب : ص ٦٢ ، ٦٣

ظروف العصر الاموي وما واكبه من صراع على الاستفادة من هذا النوع من الشعر فمزج بين المنظورين : الجاهلي بتكويناته القبلية وعلاقاته المتشابكة . والمنظور الديني الاسلامي . ولكن حتى هذا لم يمنع هذه النبتة من النمو والتطور ، فها نحن نلتقي به مبثا في شعر شعراء كثيرين ، بل انه يعكس لنا شعر حركة متميزة مثل الذي نراه في شعر الخوارج ، ففيه تلك الروح التي عرفها عند الاسلاميين وكذلك روح الفداء والتضحية ، واذا كان هذا الشعر امتزج بالحركة السياسية ، فان هناك نموا آخر بدأ يتحرك على يد المتدينين والزهاد الذين يريدون ان يبثوا روح التدين عن طريق اشاعة الجانب الروحي .

وهذا الجانب سيثمر ثمرة أخرى هي امتداد للشعر الديني بتنوع انماطه ونعني هنا شعر المتصوفة ، فهذا الشعر ينبع من الاحساس الديني المرهف ، وقد يكون امتزج بتيارات عديدة الا ان هذا لا يصرفنا من ان نقول انه فرع من فروع هذا التيار الذي تشكل في صدر الاسلام ، . ومن ثم فالشعر الديني والصوفي هو الفرع الذي انتصب متفردا يذكر بهذا الاصل الاول .

وهذا لا يصرفنا عن القول أن الامتداد الثاني لهذا التيار موجود بقوة داخل الشعر الاخر فعندما تقدم الزمن تداخلت القيم القديمة بالجديدة وهضم المجددون التيارين فخرج شعر يمثل هذه البيئات والعصور المختلفة فهو شعر اسلامي يحمل في داخله اثر هذه الحركة الكبرى .

ان هذه هي الخطوط العامة لهذا التيار الذي بدأ ضعيفا ثم اتخذ موقعه من حركة التطور الفني ، ومن خلال هذه النظرة نستطيع ان نقيم الحياة الادبية في صدر الاسلام على اساس فني دون اهمال الاحداث المؤثرة في تطور الفن .

من هذا المنطلق والذي يميز بين الخطوط دون ان يصدر حكما متعجلا هو وحده القادر على اعطاء الصورة الحقيقية المعتمدة على الوقائع لا الاقوال ، ومن ثم يكون الشعر الاسلامي قد اتخذ موقعه بحق وابرز هويته بصدق ولا ضرر ولا ضرار .

***

المجتمع العربي الاسلامي في بلرمو

دراسة في الحضارة العربية الاسلامية في صقلية

عمر كمال توفيق
أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كانت جزيرة صقلية معبرا من المعابر الهامة للحضارة العربية الاسلامية الى الغرب الأوربي . وقد قام المؤرخ الصقلي أماري Amari بجهود رائدة في دراسة تاريخ المسلمين ودورهم في هذه الجزيرة . وأصبحت مؤلفاته التي وضعها باللغة الايطالية بمثابة حجر الأساس الذي اعتمد عليه من خلفه من الباحثين ، ومن أهمهم المؤرخ الفرنسي شالاندون Chalandon والمؤرخ الأمريكي هاسكنز Haskins . الا أن المكتبة التاريخية الحديثة لا تزال في حاجة ماسة الى مزيد من الأبحاث والدراسات التي توضح العديد من الجوانب والموضوعات التي يكتنفها الغموض .

وقد رأينا تخصيص هذا البحث لموضوع « المجتمع العربي الاسلامي في مدينة بلرمو » عاصمة الجزيرة ، لحاجته لمزيد من العناية والايضاح ، محاولين تقديم دراسة تحليلية تبين الظروف التي قام فيها هذا المجتمع ومراحل انتشاره ونشاطه ومدى تأثيره في البيئة التي وجد بها ، وذلك الظروف الأخيرة التي انتهى فيها وجود هذا المجتمع في المدينة المذكورة .

والموضوع ينقسم الى قسمين أساسيين : الأول ويعالج المجتمع الاسلامي في عهد السيادة الاسلامية (٢١٦-٤٦٤هـ/٨٣١-١٠٧٢م) والقسم الثاني ويعالج أوضاع هذا المجتمع في العهد النورماني بعد أن انتقلت السيادة الى النورمان .

العوامل التي أدت الى فتح العرب لصقلية :

لم يمض وقت طويل على بداية الفتوحات العربية الاسلامية الا وقد أخذ العرب يكتسبون خبرة في ركوب البحر وانشاء السفن لمواجهة القوى البحرية التي كانت

مسيطرة على الملاحة والمراكز البحرية في حوض البحر المتوسط . وقد استغلوا هذه الخبرة في مواصلة جهادهم في المجالين البري والبحري ، وحققوا منجزات هامة في مواجهة القوة البحرية للدولة البيزنطية التي كانت لها السيطرة على هذا البحر قبل ظهور قوة العرب . وكان من مظاهر قوة العرب البحرية أنهم أخذوا يتطلعون لمد نفوذهم من الساحل الافريقي الشمالي الذي أصبح جزءا من دار الاسلام الى المراكز البحرية والسواحل الجنوبية لأوربه .

وكان في هذه الظروف أن أخذ العرب يفكرون في فتح جزيرة صقلية ، أكبر الجزر في البحر المتوسط ، لاقامة الحكم الاسلامي بها وجعلها جزءا من الدولة العربية الاسلامية ، خاصة وأن صقلية كانت مركزا هاما للبحريه البيزنطية كما كانت موقعا شديد الخطر على البحريه الاسلامية ، حيث كانت تخرج منها الأساطيل البيزنطة لمهاجمة السفن والمراكز الاسلامية المقابلة لصقلية في الساحل الافريقي الشمالي . وكان فتح المسلمين للجزيرة فيه تأمين للجانب الاسلامي . وفضلا عن ذلك فقد عرف المسلمون أن الجزيرة كثيرة الخيرات حتى وصفت بأنها « ابنة الأندلس » .[1]

ومنذ فترة مبكرة من قيام القوة البحرية الاسلامية ، بدأت اغارات المسلمين على صقلية : فعقب موقعة ذات الصواري في ٢٤ هـ/٦٥٤ م التي انتصر فيها العرب التجأ الامبراطور البيزنطي قسطانز الثاني الى صقلية فارا من الهزيمة ، وقد أسرع العرب بالاغارة على هذه الجزيرة . وتعددت هجماتهم عليها بعد ذلك ، الا أن عملياتهم العسكرية حينئذ كانت عبارة عن اغارات سريعة يعقبها الانسحاب بعد أن يوقعوا بقوة خصومهم ويحصلوا على الغنائم ، ولم تشهد هذه المرحلة استقرارا للمسلمين في الجزيرة .

وكان تأسيس دولة الأغالبة القوية في القيروان ، في باكورة القرن التاسع الميلادي ، من العوامل التي حددت بداية مرحلة جديدة في موقف العرب من صقلية . وقد بدأ فتح الجزيرة في عهد زيادة الله ، ثالث حكام الأغالبة حيث أرسل حملة برية بحرية تحت قيادة وزيره أسد بن الفرات للقيام بهذه المهمة : وتطلب الأمر من العرب نحو سبعين سنة (٨٢٧ ـ ٩٠٢ م) ليكملوا فرض سيطرتهم على الجزيرة ، وقد دام حكمهم لها بعد ذلك نحو قرن ونصف قرن من الزمان ، ليستمر حتى أخذ العرب يتراجعون أمام الغزو النورماني للجزيرة (١٠٦١ ـ ١٠٩١ م) .

صقلية تصبح جزءا من دار الاسلام :

نتيجة للفتح الاسلامي أصبحت جزيرة صقلية جزءا هاما من « دار الاسلام » بكل ما يعنيه هذا المصطلح حيث اعتبرت من بلاد الاسلام وسادها حكم الشريعة الاسلامية . ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن جميع سكانها صاروا مسلمين . فالمسيحية لم تختف من الجزيرة ، بل أصبحت ديانة مسموحا بها وأصبح مسيحيوها من أهل الذمة ، وذلك وفقا لمفهوم الشريعة الاسلامية ، هذا مع ملاحظة أن أعدادا منهم أخذت تترك المسيحية وتعتنق الاسلام .

هذا ويتحتم علينا أن نسجل في هذا الموضع ملاحظة أساسية ، مفادها وجود تباين واضح في المناطق التي انتشر فيها الاسلام والمجتمع العربي الاسلامي في

(١) ابن جبير : ص٢٩٧ .

الجزيرة إبان حكم المسلمين بها . فالطابع الاسلامي كان شبه كامل في المنطقة الغربية من الجزيرة ، وتناقص مع التوجه الى شرقها حيث كان صمود العنصر المسيحي اليوناني أشد صلابة . كما نلاحظ أن الاسلام ، مع مجيء النورمان إلى الجزيرة ، قد زال من المنطقة الشرقية بشكل أسرع مما حدث في الجزء الغربي منها . فقد ظل الاسلام صامدا في هذا الجزء الغربي حتى بعد قيام الحكم النورماني ، واستمر نشاط المسلمين هناك خلال القرن الثاني عشر الميلادي بأكمله ولم ينقطع ذلك إلا في العقود الأولى من القرن الثالث عشر الميلادي على أثر الظروف التي تعرض لها المسلمون . وليس من السهل على الباحث تقديم تحليل تفصيلي دقيق لتفسير ذلك التباين في مناطق انتشار الاسلام في الجزيرة ، وذلك لقلة المعلومات التاريخية التي وصلت إلى أيدينا . ومما لا شك فيه أن شدة صمود العنصر المسيحي الاغريقي في شرق الجزيرة كان من العوامل التي تفسر ما حدث . هذا وكانت في الجزء الغربي من الجزيرة في منطقة مازر ، أعداد كبيرة من طبقة الرقيق المسيحيين ، وقد أقبلت نسبة كبيرة منهم على اعتناق الدين الاسلامي وهم يحدوهم الأمل في تحسين أوضاعهم والتحرر من ربقة العبودية . والمرجح أن عددا وافرا من نصارى المنطقة الممتدة بين مدينتي مازر وبلرمو اعتنقوا الاسلام ، هذا ما نذهب اليه مستندين الى قول الجغرافي العربي ياقوت ، في أن أكثر نصارى هذه الجهة أسلموا ، ولكن مع عدم المبالغة في تقبل هذه الرواية ، حيث أن ما في أيدينا من الروايات التاريخية يدل على وجود عدد غير قليل من المسيحيين في تلك المنطقة .

ويظهر أن صقلية عرفت أثناء العهد الاسلامي ثلاث ولايات هي ولاية مازر نوطس وولاية نوطس وولاية دمنس ، ويكون ذلك متمشيا مع أقسام الجزيرة الثلاثة وهي فال دي مازر **Val di Mazara** وفال دي نوطس **Val di Noto** وفال دي دمنس **Val di Demone** . والقسم الأول ويقع الى الغرب من الجزيرة وكانت له أهمية كبرى أثناء الحكم الاسلامي وقد أصبح الاسلام فيه لفترة من الزمان هو القوة الغالبة . أما ولاية نوطس فكانت نسبة المسلمين فيها أقل . وخلال العهد الاسلامي ظل سكان الولاية الثالثة ، الواقعة الى شرقي الجزيرة وهي ولاية دمنوش ، في أغلبهم من المسيحيين . وبهذا الشكل يمكن أن نقول إن ولاية مازر كانت تمثل مركز الثقل بالنسبة للوجود الاسلامي في الجزيرة .

ظاهرة اهتمام العرب بالاستيطان في المدن :

ومن الظواهر التاريخية الرئيسية لوجود المسلمين في صقلية كان اهتمامهم بإقامة مجتمعات عربية إسلامية في مدنها الهامة مثل مسينة وشيفالو ومازو وطرابنش وقطانية وبلرمو ، والأخيرة قد اتخذوا منها عاصمة لهم في الجزيرة . فالعرب وإن كانوا أصلا من أهل البادية والواحات في غالبيتهم ، إلا أنهم ، منذ فترة مبكرة من العصر الاسلامي ، اهتموا بالمدن ونزعوا للاقامة فيها واتخاذها مراكز ادارية واستراتيجية لهم . وقد انبثقت في فترة وجيزة من الزمان مدن جديدة أقامها العرب ، كما نمت المدن القديمة التي فتحوها وازدهرت في عهدهم . وكلما أمعن العرب في الاستقرار ازدادت مدنهم عددا واتسعت حجما ، وكان مقدرا لها أن تسهم بدور كبير في تطور الحضارة .

ويصور لنا المفكر العربي الشهير المؤرخ ابن خلدون في مقدمته اهتمام العرب بالمدن في قوله : « ان القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا الى الاستيلاء على الأمصار لدفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاقين . . . . فيعتصم (صاحب الأمر) في المصر ويغالبهم . ومغالبة المصر على غاية من الصعوبة

والمشقة . والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة ، لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكة » . (٢)

وقد عمد العرب منذ مرحلة مبكرة في تاريخ فتوحاتهم الى الاستفادة من المدن القديمة التي وجدوها في البلاد التي فتحوها ، فنزلوا بها وسكنوها . وإن هذه المدن مع مضى الوقت ، وبفضل ما أضافه العرب اليها من اللغة العربية والروح الاسلامية ، وبشكل خاص انشاء المساجد ، تحولت الى مدن لها طابع عربي إسلامي لا تختلف عن المدن الاسلامية الانشاء الا اختلافا محدودا .

اتخاذ بلرمو عاصمة اسلامية :

وكان من الطبيعي أن تجذب مدينة بلرمو اهتمام العرب ويتخذوا منها عاصمة لحكمهم في صقلية وكانت هذه المدينة من أهم مدن الجزيرة وكانت تتمتع بمكانة خاصة قبل الفتح الاسلامي ، فهي من أهم مدن الجزيرة وأقدمها . هذا وكانت بلرمو مدينة بحرية جيدة الميناء سهلة الاتصال بأفريقيا ، وكان في استطاعة المسلمين ، بإقامتهم فيها ، أن يؤمنوا خط إمداداتهم من أفريقيا ليحصلوا على ما يحتاجون إليه من الرجال والمؤن . هذا وكانت المنطقة المحيطة بالمدينة خصبة ، ويمكن أن تزود ساكنيها بالمؤن اللازمة ، فضلا عن توفر المياه بها . وكانت بلومو من أول المدن التي استولى عليها المسلمون ، وكانت تقع في المنطقة الغربية التي يكثر فيها العنصر الاسلامي . وكان هذا عاملا أساسيا آخر أدى الى تفضيل المسلمين لها على مدينة سرقوسة (سيراكيوز) الواقعة في الجزء الشرقي من الجزيرة والتي كانت مركزا للعنصر الاغريقي وقاعدة للدولة البيزنطية ، كما هيأ لها قربها الى القسطنطينية فرصة الحصول على امدادات ومساعدات منها ، الأمر الذي كان لا بد وأن يتسبب للعرب في متاعب كثيرة عقب استيلائهم عليها . ولهذا كله كان من الطبيعي أن يفعل العرب مثلما فعل الفينيقيون من قبل في العهد القديم ، ويتخذوا من بلرمو قاعدة لهم ويجعلوها عاصمتهم في صقلية .

وقد دام حكم المسلمين لمدينة بلرمو فترة طويلة امتدت من سنة ٢١٦ هـ الى سنة ٤٦٤ هـ . (٨٣١ م - ١٠٧٢م) . وإبان ذلك قام بهذه العاصمة الاسلامية مجتمع عربي اسلامي له شأنه ومقوماته الحضارية . ونستطيع أن نتبين مدى تغلغل هذا المجتمع في بلرمو اذا ما لاحظنا أن الوجود الاسلامي استمر بها بعد نهاية الحكم الاسلامي وأثناء العهد النورماني ، بل لقد امتدت بعض آثاره إلى ما بعد ذلك . وكان المسلمون قد نقلوا معهم عند نزولهم في بلرمو ما عرفوه من مقومات حضارتهم العربية الاسلامية . وإذا كانت هذه المدينة قد أصبحت عاصمة لجزء هام من دار الاسلام ، فإنها قامت بدورها كمركز من أهم مراكز حضارية ، ومعبر رئيسي للحضارة الاسلامية العربية الى الغرب الأوربي .

وقد عرفت بلرمو في العصر الاسلامي أخلاطا من العناصر البشرية ومن أهم الروايات التاريخية التي تتحدث عن مجتمعها كانت تلك الرواية التي دونها الراهب ثيودوسيوس قبل زيارة الجغرافي ابن حوقل للجزيرة بنحو قرن من الزمان وقد جاء فيها أنها : « مكتظة بالناس من أهلها والأجانب حتى كأنه اجتمع فيها كافة المسلمين من شرق إلى غرب ومن شمال الى

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص٣٧٣

جنوب . وبين قاطنيها من صقليين واغريق ولومبارديين ويهود ، تجد العرب والبربر والفرس والتتار والزنوج ، منهم من يلبس العباءة والعمامة ، ومنهم من يرتدي الجلود . وفيهم أنصاف عراة . وهناك وجوه مستطيلة ومربعة ومستديرة من كل شكل ، ولحى من كل لون ، منها الطويل والقصير » . (٣)

لكن مع هذا التباين الواضح في عناصر السكان في بلرمو ، فالواضح أن هذه العاصمة التي اتخذت طابعا إسلاميا مميزا أصبح للمجتمع العربي الاسلامي شأنه وكيانه فيها . وتكون هذا المجتمع من العناصر التي جاءت أثناء فتح العرب للجزيرة ، وكذلك من المهاجرين المسلمين الذين وفدوا بعد ذلك ، من الحرفيين والجنود واللاجئين . كما تألف المجتمع من العرب والعجم والبربر . وكان العرب ينقسمون الى قحطانيين وعدنانيين أو بعبارة أخرى الى يمنية وقيسية . وإن الخلاف القائم بين هذين العنصرين في بلاد المشرق والمغرب ، قد انتقل معهما إلى صقلية ، هذا بخلاف التنافس المعروف بين العرب والبربر ، الأمر الذي تسبب في قيام النزاع والتصادم بينهم . كما أضاف أمراء الأغالبة عنصر الزنوج إلى هذا الخليط البشري ، وذلك لما اتخذوا العبيد السود حراسا لهم . هذا وقد أحاط الخلفاء الفاطميون وعمالهم الكلبيون أنفسهم بالمماليك البيض الذين كثيرا ما كانوا من الصقالبة ، وكان النخاسة يجلبونهم وهم صغار السن . وفي بلرمو حارة خاصة نسبت الى هذه العناصر وعرفت باسم حارة الصقالبة ، وكان لها شأنها وقت زيارة ابن حوقل لبلرمو . وهو يقول في ذلك : « وحارة تعرف بحارة الصقالبة وهي أعمر من المدينتين اللتين ذكرتها وأجل ، ومرسى البحر بها وبها عيون جارية بينها وبين صقلية ومياه كالحد بينهما » . (٤)

وكان المجتمع الأوربي المسيحي في بلرمو معقدا بدوره ، خاصة اذا أخذنا في الاعتبار وجود العناصر الصقلية واللاتينية والبيزنطية . وبطبيعة الحال يواجه الباحث في هذا المجال صعوبة شديدة للتقدم بإحصائيات دقيقة عن عناصر السكان المختلفة في بلرمو والتغيرات التي طرأت عليها ، وذلك لعدم توفر المادة التاريخية اللازمة في المصادر .

وصف الجغرافيين والرحالة العرب لبلرمو والخالصة :

وللجغرافيين والرحالة العرب فضل كبير في تزويدنا بمعلومات قيمة عن مدينة بلرمو ومجتمعها في العصرين الاسلامي والنورماني . وستظل كتابات ابن حوقل والادريسي وابن جبير ، من المصادر الأساسية في هذا المجال . فهي تمدنا بتفاصيل هامة عن طبوغرافية المدينة وخططها وأهم معالمها ونشاط المسلمين فيها .

وقد أدرك كل من ابن حوقل والادريسي الصلة بين بلرمو والخالصة . وإن كانت بعض المصادر تتحدث أحيانا عن الخالصة كمدينة مستقلة ، إلا أنها كانت بمثابة امتداد لمدينة بلرمو . والمعلومات التاريخية التي وصلتنا عن تأسيس الخالصة ونشأتها ضئيلة . ويبدو أن انشاءها كان وفقا للنهج الذي اتبعه الملوك والحكام المسلمون منذ أواخر القرن الثالث الهجري في إقامة مدن خاصة لاقامتهم وأتباعهم على مقربة من العواصم المعروفة . وعلى أية حالة فإن المؤرخ العربي ابن الأثير أورد في كتابه « الكامل في التاريخ » عند ذكره لأحداث سنة ٣٢٥ هـ

(٣) انظر Amari, S D M, II, 49

(٤) ابن حوقل ص١١٤

(٩٣٦ ـ ٩٣٧م) معلومات مفيدة عن نشأة الخالصة ، وذلك لما كان يتحدث عن الفتن التي قامت بجزيرة صقلية ضد ولاتها الفاطميين وقال ابن الأثير إن الخليفة الفاطمي ، المقيم في المغرب ، أرسل قائدا من أتباعه يعرف باسم خليل بن اسحق على رأس قوة لاقامة النظام في صقلية ، كما أضاف هذا المؤرخ أن القائد المذكور هو المسئول عن بناء الخالصة . وقد جاء في « الكامل في التاريخ » ما يلي : « فشرع خليل في بناء مدينة على مرسى المدينة ـ بلرمو ـ وحصنها ونقض كثيرا من المدينة وأخذ أبوابها وسماها الخالصة . ونال الناس شدة في بناء المدينة » .

وقد زار ابن حوقل بلرمو بعد إنشاء الخالصة بوقت غير بعيد (*) وترك هذا الجغرافي وصفا له أهمية ، حيث أنه كان شاهد عيان ومن أقدم من وصف بلرمو من الكتاب العرب . ويقول عنها في سياق حديثه عن صقلية : « ومنها المدينة الكبيرة المسماة بلرم وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع ، ويسكنها التجار . وفيها مسجد الجامع الأكبر ، وكان بيعة للروم قبيل فتحها وتجاهها مدينة تعرف بالخالصة ذات سور من حجارة . وليس كسور بلرم ، يسكنها السلطان وأتباعه ، وفيها حمامان ، ولا أسواق فيها ولا فنادق ، وفيهامسجدصغير مقتصر ، وبها جيش للسلطان ودار صناعة للبحر والديوان . . . » (٦)

ويقدم الادريسي ، الذي أقام في بلرمو في بلاط الملك النورماني روجر الثاني (١١٣٠ ـ ١١٥٤م) ، معلومات هامة عن بلرمو والخالصة . ومما ذكره في ذلك : « وهي على قسمين قصر وربض ، فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد وإقليم وهو في ذاته على ثلاثة أسمطة ، فالسماط الأوسط يشتمل على قصور منيفة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار . والسماطان الباقيان فيهما أيضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبهما من الفنادق والحمامات كثير ، وبه الجامع الأعظم الذي كان بيعة في الزمن الأقدم ، وأعيد في هذه المدة على حالته في سالف الزمان . . فأما الربض فمدينة أخرى تحدق بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة الخالصة التي كان بها سكن السلطان والخاصة في أيام المسلمين (٧) » .

وقد استفاد التجار المسلمون من موقع جزيرة صقلية المتوسط بين شرق البحر المتوسط وغربه لممارسة نشاطهم من ميناء بلرمو ، مما كان له أثره في تحقيق الازدهار التجاري لها . وهنا يقول ابن حوقل « وهذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد أخذ من شرقها الى غربها ، يعرف بالسماط مفروش بالحجارة عامر من أوله الى آخره بضروب التجارة . . . . . » (٨)

كما يتحدث ابن حوقل عن النشاط التجاري والحرفي في المجتمع الاسلامي في بلرمو ، فيعدد أنواعا كثيرة من الحرفيين والتجار ويبين كيف كان لكل حرفة سوق خاص ، فيقول : « وأكثر الأسواق فيما بين مسجد ابن

(*) يراعي في تحديد تاريخ زيارة ابن حوقل لصقلية وبلرمو انه بدأ رحلته من المشرق في سنة ٣٣١هـ (٩٤٢ ـ ٩٤٣م) وكان دخوله الاندلس في ٣٣٧هـ ، وبعدها كانت زيارته لصقلية وذلك وفقا لما ورد في كتابه المذكور هذا وقد ذكر ابن الأثير اخبار تأسيس مدينة الخالصة في احداث سنة ٣٢٥هـ .

(٦) ابن حوقل ص١١٣ ـ ص١١٤ .

(٧) الادريسي ص٢٨ ، ص٢٩

(٨) ابن حوقل ص١١٢ .

سقلاب والحارة الجديدة : كسوق الزياتين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة ، والحدادين والصياقلة ، وأسواق القمح والطرازين والسماكين والأبزاريين ، وطائفة من القصابين وباعة البقل ، وأصحاب الفاكهة والريحانيين والجرارين والخبازين والجدالين ، وطائفة من العطارين والجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين خارج المدينة ، وببلرم طائفة من القصابين والجرارين والأساكفة ، وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم ، والقليل منهم في المدينة برأس السماط ويجاورهم القطانون والحلاجون والحذاؤون وبها غير سوق صالح . . . . » (٩)

سياسة نشر الطابع الاسلامي العربي في بلرمو :

وكان من الطبيعي أن يحرص المسلمون على إعطاء مدينتهم روحا وطابعا إسلاميا . من أهم ما اهتموا به في ذلك كان توفير المساجد في المدينة ، جريا على عادتهم فيما كانوا يفعلونه عند اتخاذ المدن القديمة مراكز لهم . وقد ورد ذكر الجامع الكبير في المدينة الذي كان أصلا كنيسة للمسيحيين قبل فتح بلرمو (١٠) ويذكر ابن حوقل قدر الازدحام في هذا الجامع فيقول : « ويدل على قدرهم وعددهم صفة مسجد جامعهم ببلرم ، وذلك أني حزرت المجتمع فيه اذا غص بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيفا لأنه لا يقوم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفا للصلاة ، وكل صف منها لا يزيد على مائتي رجل » (١١).

كما يضيف الى ذلك إحصائية لعدد المساجد التي وجدها في بلرم وضواحيها أثناء زيارته لها فيقول : « وبصقلية من المساجد في بلرم والمدينة المعروفة بالخالصة والحارات المحيطة بها من وراء سوريها عامرة ، أكثرها قائمة على عروشها بحيطانها وأبوابها نيف وثلاثمائة مسجد يتواطأ أهل الخبرة منهم في علمها ويتساوون في معرفتها وعددها . . . » (١٢)

ثم يبدي ابن حوقل ملاحظته على كثرة المساجد في بلرم ويقارنها بغيرها من مساجد المدن الاسلامية فيقول : « ولم أر لهذه العدة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار ، التي تستولي على ضعف مساحتها ، شبها ، ولا سمعت من يدعيه الا ما يتذاكره أهل قرطبة من أن بها خمسمائة مسجد ، ولم أقف على حقيقة ذلك من قرطبة وذكرته في موضعه على شك مني فيه ، وأنا أحققه بصقلية لأني شاهدت أكثره . » (١٣)

ولا ريب أن سبب اهتمام المسلمين بانشاء هذه المساجد كان لتدعيم الاسلام ونشره في بلرمو حيث كانت المسيحية راسخة فيها . فضلا عما تبعثه اقامة المساجد من طمأنينة في نفوس المسلمين في بلد يقوم أعداؤهم من غير المسلمين على مقربة منه . هذا ويروي ابن حوقل سببا آخر رآه مسئولا عن جعل ذوي المقدرة من المسلمين يكثرون من انشائها ، وهو في رأيه سبب يرتبط بنوع من الغرور وحب المباهاة . فهو يقول أثناء زيارته لبلرمو ما يلي : « لقد كنت واقفا ذات يوم بها في جوار دار أبي محمد عبد الواحد بن محمد المعروف

(٩) المصدر نفسه ص١١٤ .
(١٠) المصدر نفسه ص١١٣ .
(١١) المصدر نفسه ص١١٤ .
(١٢) المصدر نفسه ص١١٥ .
(١٣) المصدر نفسه ص١١٥ .

بالقفصي الفقيه الوثائقي ، فرأيت من مسجده في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصره ، ومنها شيء تجاه شيء ، وبينها عرض الطريق فقط ، فسألت عن ذلك فأخبرت أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه ، لا يشركه فيه غير أهله وغاشيته ، وربما كان اخوان منهم متلاصقة دارهما متصاقبة الحيطان وقد عمل كل واحد منهما مسجدا لنفسه يكون جلوسه فيه وحده » . (١٤)

ويبدو أن هذه المساجد كانت تبنى لمدة لا تزيد عن عمر انسان ، ولهذا فانها لم تسلم من الهلاك ، وقد اندثرت شأنها شأن العديد من الآثار الاسلامية المعمارية التي أقامها المسلمون في عصور سابقة .

وتلاحظ في بلرمو اهتماما بالتعليم . وقد اهتم أهلها بالمدارس ، ويذكر ابن حوقل أنه وجد بها نحو ثلاثمائة معلم وأنها تفوق في ذلك غيرها من البلدان (١٥) هذا ويسجل ابن حوقل تقدير المسلمين للمعلمين قائلا : « إن جميع أهل صقلية . يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم ومحصلوهم وأرباب فتاويهم وعدولهم ، وبهم عندهم يقوم الحلال والحرام وتعقد الأحكام وتنفذ الشهادات وهم الأدباء الخطباء . . . . » . (١٦)

تحامل ابن حوقل على أهالي بلرمو ومناقشة آرائه : ـ

حقيقة أن ابن حوقل أمدنا بمعلومات قيمة وتفاصيل دقيقة عن بلرمو والمجتمع العربي الاسلامي فيها وفي صقلية ، الا أنه نزع في عدة مواضع للتحامل على أهالي هذه البلاد ونسب اليهم العديد من الخصال السيئة ، وكان مرير الكلام بالنسبة لهم ، لواما ونقادا لهم . فقد كتب في ذلك : « وأكثرت عنه وعن ابن مطر وجماعتهم واصفا قلة فطنتهم وكلال أفهامهم ، وحدة جهلهم وسرعة طيشهم ، وموت يقظتهم وبراعة لؤمهم مع دوام غفلتهم ، وبشاعة تعاطيهم ، وكثرة معائبهم ، وسخف أغذيتهم المؤكدة جهلهم ، وسوء تخليهم في كتاب جعلته أبوابا عشرة . . . ولم أترك لهم من فضيلة ورذيلة الى جميع ما خصوا به ومنعوه وأعطوه وما حرموه ، الى غلظ طباعهم وسوء أخلاقهم ، وما انفردوا به من المطاعم المنتنة ، والأعراض القذرة الدرنة ، وغلبة كثرة الجفاء وطول المراد ؛ وسميت جميع معلميهم الى ما وصل الى من أخبارهم وعلمهم في الرقاعة . . . » (١٧)

وابن حوقل يعتبر أن اكثار أهالي بلرمو وصقلية في أكل البصل الذي هو المسئول عن كثير من الخصال السيئة التي نسبها اليهم ويسلم بأن « خاصة البصل إحداث فساد في الدماغ ثم يقول عن أثر أكل البصل : « وهذه قضية عقلية ، فأما نتيجتها فليس في البلد عاقل ولافاضل ولا عالم بالحقيقة بفن من فنون العلم ، ولا ذو مروءة ولا متدين ، والغالب عليه الرعاع وأهله سقاط أوضاع لاعقول لهم ولادين كامل » . (١٨)

وان هذا التحامل الظاهر من جانب ابن حوقل على أهالي بلرمو الذين أقام بينهم ، وأهالي صقلية الذين اتصل بهم ، يحتاج الى وقفة منا لمحاولة تحليله وتفسيره . وربما كان مما يفسر ذلك كون ابن حوقل غريبا على البلاد

(١٤) المصدر نفسه ص١١٩ .
(١٥) المصدر نفسه ص١٢٠ .
(١٦) المصدر نفسه ص١٢١ .
(١٧) المصدر نفسه ص١٢٢ ـ ص١٢٣ .
(١٨) المصدر نفسه ص١١٨ .

وأنه لم يجد التقدير الذي يتوقعه كعالم من المشرق . ومن الجائز أنه كان ذا حساسية خاصة في المعاملة التي صادفها من أناس كانوا غرباء بالنسبة له . وربما أساءه أنه وجد في صقلية أفرادا يشتمون أهل العراق الذين ينتسب اليهم وينالون منهم بالقول . وربما تسببت العصبية الاقليمية في وقوف ابن حوقل هذا الموقف من أهل صقلية وعاصمتها . هذا ولا ريب أن بلرمو كمدينة كبيرة شأنها شأن غيرها من المدن الكبرى عبر التاريخ ، كانت تمثل الحضارة بكل مقوماتها الصالحة والطالحة . هذا وكانت بلرمو تتكون من عناصر مختلفة من المسلمين ، وكذلك من أهالي البلاد الأصليين . ومن المحتمل أن بعض الذين أسلموا من الآخرين لم يأت اسلامهم عن ايمان حقيقي بل لمصالح خاصة ، وقد يكون ذلك من أسباب استياء ابن حوقل .

وعلى أية حال ، فان هذه النزعة التي اتجه اليها ابن حوقل في الحكم على المجتمع في صقلية وعاصمتها ، ولا يقره عليها عدد من المؤرخين والجغرافيين والرحالة القدامى الذين تركوا لنا انطباعاتهم عن تلك البلاد وعن مجتمعها يشيدون فيها بنظامها وبأناقة أهلها وأخلاقهم الفاضلة وغير ذلك من الخصال الحميدة . (١٩)

وفضلا عما جاء في هذه المصادر ، فان واقع الحضارة التي أقامها المسلمون في صقلية تشهد بوضوح بعدم صحة آراء ابن حوقل وما كان يغلب عليه من تحيز وتعصب . وان المستوى الحضاري الرفيع الذي حققوه يتمثل في نشاطهم الفكري والعلمي وفي النظم المالية والادارية التي أدخلوها على البلاد ، وكذلك في التقدم الاقتصادي الذي أحرزوه في الزراعة والصناعة والتجارة ، ولا يتسع المجال في هذه الدراسة للخوض في تفاصيل المنجزات الحضارية الفذة التي حققها المسلمون في بلرمو وصقلية بصفة عامة . وعلى أية حال فان هذه المقومات الحضارية التي أوجدها المسلمون في بلرمو قدمت تراثا له شأنه استفاد منه النورمان فائدة كبرى عندما انتهى الحكم الاسلامي في بلرمو سنة ١٠٧٢ م (٤٦٤ هـ) وقامت على انقاضه دولة النورمان في صقلية .

المجتمع العربي الاسلامي في العصر النورماني :

غزو النورمان لصقلية كجزء من الحركة الصليبية

كان مجيء النورمان الى صقلية وتأسيسهم لدولة جديدة بها ، يعني ظهور عنصر بشري جديد على مسرحها التاريخي وكان لهذا العنصر أثره على مجتمعاتها المتعددة . ويتعين على الباحث في هذا الموضوع أن يوضح السياسة التي اتبعها هؤلاء النورمان في حكمهم للبلاد وموقفهم على الخصوص من المجتمع الاسلامي في بلرمو التي اتخذوا منها عاصمة لهم على النحو الذي فعله العرب من قبلهم . ولا ريب أن السياسة التي اتبعها النورمان في حكمهم للجزيرة قد شكلتها الظروف التي أحاطت بغزوهم لها ، وطبيعة العنصر النورماني وفكره ، وكذلك أوضاع المجتمعات التي وجدها النورمان في الجزيرة من مسلمين ومسيحيين .

وفي تحليل طبيعة الغزو النورماني لجزيرة صقلية ، يربط المؤرخ العربي المعروف ابن الأثير ما بين هذا الغزو وبين الهجوم الأوربي على البلاد الشامية المعروف بالحركة الصليبية وكذلك قيام النصارى في الأندلس لطرد المسلمين من البلاد هذه الحركة التي تعرف باسم حركة الاسترداد أو . Reconquista وتفصيل ذلك أن

(١٩) الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص٢٥ (المكتبة العربية الصقلية ، كتاب هيئة : أشكال الأرض (في المكتبة العربية الصقلية ص١٣) .

المؤرخ المذكور في معالجة أخبار سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧ - ١٠٩٨م) يقول: «كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم الى بلاد الاسلام واستيلائهم على بعضها، سنة ٤٧٨ هـ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس . . . ثم قصدوا سنة ٤٨٤ هـ جزيرة صقلية وملكوها، وقد ذكرته أيضا . . . ثم لما كان سنة ٤٩٠ خرجوا الى بلاد الشام»(٢٠).

حقيقة أنه هناك قدر أساسي من التشابه بين غزو النورمان لصقلية، ومحاربة المسيحيين للمسلمين في الأندلس، والهجوم الأوربي على البلاد الشامية، حيث أن كلا من هذه الحركات كان يتسم بطابع الهجوم الذي قامت به عناصر أوربية مسيحية لمحاربة المسلمين والقضاء على حكمهم في البلاد التي كانوا فيها. لكن هناك كذلك اختلافات بيّنة في التفاصيل والجزئيات التي تخص كل حالة من تلك الحالات، وكذلك اختلاف في الطريقة التي عامل بها المسيحيون المسلمين في البلاد التي اخضعوها. ومن أبرز أوجه الاختلاف، أن الحركة الصليبية الغربية التي بشّر بها البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥م، أي عقب استيلاء النورمان على صقلية بسنوات معدودة. قد قامت تحت اشراف وتوجيه البابوية وانتقل المشتركون في هذه الحركة من غرب أوربا الى المنطقة العربية الاسلامية في شرق البحر المتوسط، بهدف الاستيلاء على الأراضي المقدسة واقامة دولة صليبية فيها. أما حركة الاسترداد الاسبانية، فقامت بها عناصر وطنية من شبه الجزيرة الايبيرية، وان كانت قد ساعدها بعض المتطوعين من خارجها، وهدفها كان استرجاع اسبانيا من العرب بعد القضاء على الحكم الاسلامي فيها. وكثيرا ما اتسمت حركة الاسترداد هذه بطابع التعصب في معاملة المسلمين عقب اخضاعهم، والمصادر التاريخية مليئة بأخبار الاضطهاد الذي تعرضوا له على أيدي القوى المسيحية. أما مجيء النورمان الى جنوب ايطاليا وصقلية فله ظروفه الخاصة. فالنورمان لم يكونوا أصلا من أهالي تلك البلاد، بل كانوا غرباء عنها. فقد كانوا جماعة من المغامرين الذين تحركوا أصلا من شبه الجزيرة الاسكندناوية الى اقليم نورماندية في فرنسا. وبعد تعرفهم على جنوب ايطاليا وصقلية، وما كان من ظروف الانقسام السياسي والتطاحن ما بين القوى الأوربية المسيحية بما فيها البابوية، والاضطراب في الأحوال السياسية في صقلية نتيجة لانقسام المسلمين على أنفسهم، طمع النورمان في استغلال هذه الظروف لاقامة مملكات لهم. وكان النورمان أقلية بالنسبة لسكان جزيرة صقلية من المسلمين وكذلك من المسيحيين الذين كانوا من أصول متعددة. وفي هذه الظروف كان من الحكمة بالنسبة لهم أن يتبع النورمان سياسة تسامح نسبي مع تلك العناصر السكانية في الدولة التي أقاموها، وخاصة مع العناصر العربية الاسلامية التي كانت على ما يبدو تمثل النسبة الغالبة في عدد السكان فضلا عن تميزها في المضمار الحضاري وما كانت عليه من خبرات متعددة ومتنوعة.

موقف الحكام النورمان من الرعايا المسلمين في بلرمو:

والنورمان لم يكن لديهم بعد قدر رفيع من الحضارة، وكانوا على استعداد للاستفادة من الحضارات التي وجدوها في البلاد المختلفة التي نزلوا بها. هذا وقد أدرك النورمان منذ بادىء الأمر أن المسلمين كانوا العنصر البناء المنتج بين عناصر السكان في صقلية(٢١) وكان

(٢٠) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١٠ ص٢٧٦.
(٢١) انظر Haskins C. H.: Normans in European History. p. 225.

الملوك فى حاجة للمسلمين للاستفادة من خبراتهم الحضارية ، والاستعانة بهم فى شئون الحكم والادارة ، وخاصة فى مواجهة أمرائهم الاقطاعيين الذين دأبوا على محاولة التخلص من النفوذ الملكى على النحو المعروف فى النظام الاقطاعى الذى ساد فى غرب أوربا فى تلك الآونة . كما كان النورمان فى حاجة للقوات العسكرية الاسلامية للاستعانة بها لمواجهة خصومهم فى ايطاليا سواء أكان هؤلاء ممثلين فى البابوية أو الامبراطور الألمانى أو الامبراطور البيزنطى أو الأمراء اللومبارديين أو غيرهم . وكان من المنطقى أن تؤدي كافة هذه العوامل الى أن يحرص الملوك النورمان على حسن معاملة المسلمين والتسامح معهم . ولكن هذا التسامح لا بد وأن يكون نسبيا وبقدر ، حتى لا يؤدي ذلك الى تأليب العناصر المسيحية فى الجزيرة ضد الملوك النورمان أنفسهم ، أو الى استثارة المسيحيين ضد المسلمين . وبمعنى آخر كان على النورمان أن يوجدوا نوعا من التوازن بين الطوائف المختلفة فى دولتهم ، وقد اضطرهم ذلك فى بعض الاحيان لاجراء بعض التعديل فى مدى التسامح الذى كانوا يطبقونه مع المجتمعات الخاضعة لهم بما فى ذلك المجتمع الاسلامي الذى استمتع فى العهد النورماني بقدر من التسامح ، الا أنه عانى كذلك من أنواع كثيرة من القيود والمضايقات فى العديد من مظاهر نشاطه مما جعله يشعر بمعاناة شديدة على النحو الذى سوف نبينه فيما بعد .

لم تكن الآثار الأولى لظهور النورمان حسنة بالنسبة للمجتمع الاسلامي فمن ناحية كان النورمان يتحدون السيادة الاسلامية على الجزيرة كما هدد مجيئهم بتحويل المسلمين هناك الى أتباع لهم . وفضلا عن ذلك ، فأثناء العمليات العسكرية التى صاحبت مرحلة الغزو النورمانى ، لحقت الخسائر بالمسلمين سواء أكان ذلك فى أشخاصهم أو فى ممتلكاتهم وأراضيهم الزراعية وما عليها من ماشية . ولم تكن أخبار هذه الأحداث بالتى تجعل المسلمين يطمئنون الى التطورات التى صاحبت مجيء النورمان . وكانت هذه الأحداث هي التى تفسر حدوث أول موجة للهجرة الاسلامية من صقلية الى دولة الزيريين فى أفريقية .

على أية حال فسرعان ما اتضحت للمسلمين سياسة النورمان فى ايجاد مناخ من التسامح والتواجد لهم فى ظل الحكم النورمانى . فقد حرص روجير (رجار) الأول (١٠٦١ - ١١٠١ م) أول الحكام النورمان فى صقلية على كسب مشاعر المسلمين وخاصة أهالى المدن ، وكان على استعداد لابرام اتفاقيات معتدلة الشروط عند موافقة هذه المدن على الخضوع لحكم النورمان . وقد جاء فى كتابات المؤرخين المسيحيين وليام الابولي **Guglielmo puglia** ومالا تيرا **Malaterra** أن روجير عند غزوه لمدينة بلرمو وعد المسلمين بعدم التعرض لهم ، وأنه لن يكره أحدا على تبديل دينه . وجاءت فى بعض المصادر الاسلامية روايات مشابهة فى مضمونها . ومن أهم من يؤكد هذه السياسة التى اتبعها النورمان كان الادريسى وابن جبير ، وكلاهما كانت له اتصالاته بالأحداث في بلرمو وعلى دراية بأخبارها وتاريخها . فيقول الادريسي في كتابه « نزهة المشتاق » عن سياسة روجر الأول في صقلية : « ولما صار أمرها اليه واستقر بها سرير ملكه ، نشر سيرة العدل في أهلها وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم . ثم أقام على ذلك مدة حياته الى أن وفاه الأجل المحتوم وتقضاه يومه المعلوم »[٢٢] . وقد اتبع خلفاء روجر الأول من الحكام النورمان بشكل عام تلك السياسة التي وضعها في معاملة

(٢٢) الادريسي ص٦ .

المجتمع الاسلامي بالجزيرة ، وإن كانت هذه السياسة قد تراوحت بين الزيادة في التسامح وفرض القيود والضغوط على المسلمين ، وفقا للظروف التي مرّ بها الحكم النورماني في الجزيرة . وعلى أية حال فإن ابن جبير الذي زار صقلية وعاصمتها بلرمو في عهد الملك النورماني وليام الثاني (١١٦٦ ـ ١١٨٩م) يسجل ملاحظاته الهامة عن أوضاع المسلمين في بلرمو فيقول :

« وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان ، يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون في الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي ، ولهم بها قاض يرتفعون اليه في أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون في وقيده في هذا الشهر المبارك . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن »[٢٣].

واجتذبت مظاهر التحضر والتقدم في المجتمع العربي الاسلامي في بلرمو انتباه النورمان وأثرت في كثير من مظاهر حياتهم ونظمهم ، بل لقد اقتبس ملوكهم من المسلمين الكثير من نظمهم وخبرتهم واستفادوا منها .

مظاهر استمرار نشاط المجتمع الاسلامي في العصر النورماني :

ويختلف بعض المؤرخين الحديثين في بيان مدى التأثير الاسلامي على النورمان ، وينادي البعض الآخر بتغليب قوة المؤثرات البيزنطية على المؤثرات الاسلامية . فالمؤرخ الفرنسي شالاندون Chalandon يرى أن وصف الملك النورماني روجر الثاني بصفة « السلطان المعمد » يحمل مبالغة في تقدير المؤثرات الاسلامية في عهد هذا الملك ، ويرى أن في الأمور الدينية والسياسية والادارية لدى النورمان في صقلية ، كان النفوذ الاغريقي البيزنطي هو الغالب[٢٤] . وعلى أية حال ، فنحن مع قولنا بأن البلاط النورماني كان يمثل التعايش بين المؤثرات العربية والاغريقية واللاتينية ، لابد وأن نسجل أهمية المؤثرات الاسلامية وتغلبها على العديد من النواحي في دولة النورمان في صقلية .

وكانت اللغة العربية احدى اللغات الثلاثة الأساسية التي استعملتها دولة النورمان في صقلية ، الى جانب اللاتينية والاغريقية . كما أنّ المراسيم والأوامر التي أصدرها بلاط روجر الثاني كانت تكتب بالعربية أو العربية والاغريقية الى جانب كتابتها باللاتينية . وفي حالة عدم توقيع الملك عليها كانت تحمل علامته أو رمزه الرسمي . وكانت علامة الملك وليام الأول (١١٥٤ ـ ١١٦٦) الحمد لله شكر الأنعمه وعلامة وليام الثاني « غليام ٢ » (١١٦٦ ـ ١١٨٩) « الحمد لله حق حمده »[٢٥] . كما عمل النورمان عملة ضربت عليها كلمات عربية مشتملة على رمز للاسلام وكذلك رمز للمسيحية ، وهذه لابد وأنها صدرت على نفس النمط الذي ظهر به « الدينار الصوري » في الامارات الصليبية في الشام . والغرض في كل من الحالتين كان كسب ثقة المسلمين في المعاملات التجارية التي أراد المسيحيون أن يقوموا بها سواء مع المسلمين التابعين لهم أو التجار المسلمين في خارج المملكات المسيحية .

(٢٣) ابن جبير ص٣٠٥ ـ ص٣٠٦ .

(٢٤) انظر F. Chalandon., II, p.721.

(٢٥) ابن جبير ص٢٩٨ .

هذا وكان روجر الثاني يرتدي عباءته الشهيرة على نمط الأمراء المسلمين وكانت تزين هذه العباءة نقوش بالخط العربي . وعموما فإن بلاط روجر الثاني في بلرمو يتميز بوضوح المؤثرات الاسلامية . ويذكر المؤرخ ابن الأثير عن روجر الثاني « فسلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب والحجاب والسلاحية والجندارية وغير ذلك وخالف عادة الافرنج فانهم لا يعرفون شيئا منه . . . »[٢٦] ومثلما كان عليه الخلفاء والفاطميون في القاهرة والعباسيون في بغداد ، فقد اتخذ النورمان في بلرمو « الفتيان » في قصورهم واداراتهم[٢٧] . وكان لهؤلاء الفتيان مكانة خاصة لدى ملوك النورمان ، فيذكر عنهم ابن جبير في عهد وليام الثاني : « وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون »[٢٨] .

وقد استمرت المؤثرات الاسلامية في البلاط النورماني في عهد كل من وليام الأول ووليام الثاني . ويقول ابن جبير عن وليام الثاني ومعرفته للغة العربية « ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب العربية »[٢٩] ثم يتحدث عن جواريه وحظاياه في قصره وأنهن من المسلمات[٣٠] . كما يذكر اهتمامه بالعلماء وحرصه على استقطابهم فيقول : « وله الأطباء والمنجمون ، وهو كثير الاعتناء بهم ، شديد الحرص عليهم ، حتى أنه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بامساكه وأدرّ له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه »[٣١] . ولا شك أن ما فعله روجر الثاني مع الجغرافي العربي الادريسي كان حالة واضحة من تلك الحالات التي حرص فيها ملوك النورمان على اجتذاب العلماء من المسلمين وغيرهم وعموما فالحياة التي عاشها وليام الثاني ، كان ابن جبير يراه يقلد فيها حياة الحكام المسلمين واداراتهم لشئون دولتهم ، فهو يقول : « وليس في ملوك النصارى أترف في الملك ولا أنعم وأرفه منه . وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ، ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين . . . »[٣٢] .

وكان الأمراء المسلمون ، وكبار الموظفين الذين يحملون لقب « اللقثيت » Logothete البيزنطي ، وكبار المسئولين النورمان ، وكبار رجال الكنيسة ، يعملون جنبا الى جنب في المجلس الملكي النورماني Curia Regis وهو الهيئة العليا في الحكومة النورمانية . ومن بين أعضاء هذا المجلس كان الملك النورماني يختار أكثر المستشارين قربا اليه وهم يعرفون باسم familiares . وفي بعض الوثائق النورمانية يجد الباحث أسماء لمسلمين مثل أبي القاسم الذي كان عضوا في المجلس الملكي وأحد أفراد جماعة familiares[٣٣] ولكن ليس في الامكان تحديد إذا ما كان هؤلاء الأشخاص قد أبقوا على إسلامهم أو أنهم تحولوا إلى المسيحية .

---

(٢٦) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص١٩٨ .

(٢٧) ابن جبير ص٢٩٧ .

(٢٨) المصدر نفسه ص٢٩٩ .

(٢٩) المصدر نفسه ص٢٩٨ .

(٣٠) المصدر نفسه ص٢٩٩ .

(٣١) المصدر نفسه ٢٩٨ .

(٣٢) المصدر نفسه ٢٩٨ .

(٣٣) انظر .Cusa, I, 484

وكان لقب أمير Amiratus من الالقاب التي منحها الأمير روبرت جيسكارد الى عدد من المسئولين في دولته وفي الجهاز الاداري البيروقراطي في بلرمو النورمانية كان لا يزال لقب أمير الامراء هو اللقب المخصص لأكبر موظفي النورمان ، وظل استعماله لفترة طويلة[٣٤] .

وكان العنصر الاسلامي واضحا في الادارة المالية في بلرمو عاصمة النورمانيين ، ويتفوق في هذا المجال على العنصر الافريقي . ويبدو ان النورمان ابقوا على الادارة المالية العربية المعروفة باسم « ديوان تحقيق المعمور » الذي عرفوه باسم dohanna de secretis ، وتعني هذه الادارة بشئون الاراضي والاقنان المرتبطين بها . ويرى المؤرخ الشهير اماري ان النورمان اخذوا هذه الادارة عن المسلمين[٣٥] . وكان هذا الديوان يسجل اعماله في سجلات عرفها النورمان باسم de-ftari وهي مشتقة من كلمة « دفتر » التي عرفها العرب من قبلهم . وكثير من الوثائق التي وصلت الى ايدينا ترجع الى عهد وليام الثاني وقد كتبت بالعربية كما كتب بعضها بالاغريقية .

وترجع بداية استعمال النورمان لقوات عسكرية اسلامية الى عهد روجر الأول . وباختلاط النورمان مع المحاربين المسلمين اخذ الاولون عن الاخيرين بعض فنون القتال . وقد عمل المهندسون العسكريون المسلمون في خدمة النورمان وصنعوا لهم ابراجا ومناجق متحركة ليستعملوها في عمليات الحصار .

ويلاحظ ان التأثر بالمجتمع العربي الاسلامي لم يقتصر على الملوك النورمان وحدهم ، بل امتد الى عناصر مسيحية اخرى في بلرمو . فقد سار النبلاء النورمان واعيانهم على نمط الحياة التي عاشها مليكهم والتي اخذت من حياة المسلمين ، وقد كثرت القصور الفاخرة التي اقاموها في ضواحي بلرمو[٣٦] . اما السيدات المسيحيات فقد اعجبتهن ازياء المسلمات وقلدنهن في لباسهن . ونفس الشيء فعلته المسيحيات بالنسبة لطريقة التزين عندما اقتدين بزينة المسلمات . وقد سجل ابن جبير هذه الظاهرة ذاكرا : « وزيّ النصرانيات في هذه المدينة (بلرمو) زيّ نساء المسلمات : فصيحات الألسن ، ملتحفات ، منتقبات ، خرجن هذا العيد وقد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتحفن اللحف الرائعة ، وانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الاخفاف المذهبة ، وبرزن لكنائسهن او كنسهن ، حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر »[٣٧] .

مناعب المسلمين في بلرمو في العصر النورماني ـ اسبابها ومظاهرها :

حقيقة ان المجتمع العربي الاسلامي في بلرمو نال قدرا ظاهرا من الحرية في عهد النورمان . كما تعايش مع العناصر المسيحية . بل لقد وجد من المسلمين من احتلوا مراكز مرموقة في المدينة ، الا ان هذه الصورة يجب الا تحجب الجانب الاخر الذي عاشه المجتمع الاسلامي في هذه الفترة . فان المسلمين بعد ان كانت

(٣٤) انظر .Falcandus, 109
(٣٥) انظر Amari , SDM, III, 327
(٣٦) Chalandon: II, 740 - 2
(٣٧) ابن جبير ص٣٠٧ .

لهم السيادة في المدينة اصبحوا تحت سيطرة حكام غرباء يدينون بغير دينهم . ولا بد وان ذكريات ماضيهم المجيد قد اخذت تلاحقهم وهم في وضعهم الجديد كرعايا لهؤلاء السادة الغرباء . هذا ولم تكن الحرية التي سمح لهم بها النورمان كاملة بل كانت منقصة بقيود عانى منها المسلمون . وقد تعرضوا كذلك لعدد من المنغصات والمضايقات والمتاعب التي يمكن ان نستخلصها بتحليلنا للمصادر التاريخية . هذا وقد ظهرت كذلك عوامل واحداث اسفرت عن تهديد كيان المجتمع الاسلامي في بلرمو واضعاف شأنه بل والقضاء عليه في نهاية الامر .

ومن ابرز هذه العوامل التي ادت الى توالي المتاعب والمشاكل بالنسبة للمسلمين كان التغيير في الخريطة السكانية لصقلية على اثر تدفق عناصر المهاجرين المسيحيين اليها من نورماندية وشمال فرنسا واستقرارهم في هذا الوطن الجديد . واصبح الباحث يجد في تاريخ صقلية اسماء فرنسية لعديد من الاقطاعيين وكبار رجال الدين . هذا وقد جاءت كذلك اعداد غفيرة من النازحين من ايطاليا ، وقامت مستعمرات لومباردية كبيرة في صقلية[٣٨] . كما هاجر الى صقلية تجار من البندقية وجنوة وامالفي وغيرها من المدن الايطالية . واستمرت هذه الهجرات خلال القرن الثالث عشر الميلادي . وبطبيعة الحال لم يكن المسلمون وهم في وضع التبعية الجديد ، ليشعروا بالطمأنينة امام تدفق هذه العناصر من المهاجرين الذين كان لا بد وان يؤدي ظهورهم الى مضايقة المسلمين في ارزاقهم وتهديد كيانهم .

وان الكنائس التي كان المسلمون قد حولوها الى مساجد عند مجيئهم الى البلاد ، عمد المسيحيون الى ارجاعها الى اصلها . وكان هذا العمل من اول ما اهتم به روجر الأول مؤسس دولة النورمان ، ويذكر الادريسي كيف ارجع هذا الحاكم الجامع الكبير في بلرمو الى كنيسة[٣٩] . وبطبيعة الحال لم تكن سياسة تحويل مساجد الى كنائس بالامور التي رضى عنها المسلمون او يطمئنون اليها .

ومن ناحية اخرى اعلنت البابوية عن رغبتها في تنصير المجتمع الاسلامي ، ونادت بذلك في عدة مناسبات . فالبابا اوربان الثاني ، المسئول عن قيام الحركة الصليبية وتوجيهها الى الاراضي المقدسة ضد المسلمين ، قد زار صقلية سنة ١٠٨٨م ، وكان راغبا في التبشير بالمسيحية بين المسلمين ، وان لم يصادف تجاوبا من جانب روجر الأول الذي كان يحبذ ذلك ، لاعتماده على العنصر الاسلامي في مواجهة خصومه من المسيحيين .

وفي عهد وليام الأول تعرض المسلمون لمضايقات من جانب البارونات النورمان . فان المسلمين بالرغم من ولائهم الظاهر للملك النورماني قد اصبحوا موضعا للوم والمؤاخذة عندما انتصر الموحدون على النورمان عند المهدية ، وقام النورمان بنزع السلاح من المسلمين . وبعد نزع سلاحهم اصبحوا فريسة سهلة امام النبلاء الغاضبين من النورمان واللومبارديين سنة ١١٦١م . وتم اعدام عدد من الفتيان العاملين في البلاط الملكي ، وعدد من كبار الموظفين المسلمين. وفي الاحداث التي تلت ذلك تحصن مسلمو بلرمو بالمتاريس في الاحياء الخاصة بهم في المدينة ، الا ان المسيحيين تمكنوا من توجيه ضربات شديدة اليهم تسببت في الحاق اصابات

(٣٨) انظر G. Masson: Frederic Hohenstaufen. London 1951- P.32 - 3.
(٣٩) الادريسي ص٢٨ .

بالغة بهم . واضطر المسلمون للهرب الى الغابات والجبال والمدن الواقعة إلى الجنوب ، حيث كانت لا تزال توجد جماعات كبيرة من المسلمين(٤٠) . كما تعرض المسلمون في بلرمو لمتاعب اخرى بسبب العناصر المسيحية وذلك في عهد وليام الثاني .

ويزودنا ابن جبير بمعلومات هامة عن معاناة المسلمين وعدم اطمئنانهم على انفسهم في العهد النورماني . وهو اذا كان قد بين ذلك القدر من التسامح الذي عاش في ظله المجتمع الاسلامي في بلرمو ونشاط المسلمين هناك ووصول بعضهم الى مراكز رفيعة في دولة النورمان ، الا ان ابن جبير كان دقيقا في ملاحظاته وتحليله للاوضاع ، ولم يبهره الظاهر المشرق ويشغله عن ملاحظة متاعب المسلمين وقلقهم .

وفي عدة مواضع هامة يذكر ابن جبير كيف اضطر المسلمون لكتم اسلامهم وعدم الجهر به . فهو يتحدث عن فتيان الملك وليام الثاني ويقول : « وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانه متمسك بشريعة الاسلام »(٤١) ويذكر كذلك جواري الملك وحظاياه المسلمات ، وما يقمن به من جهود في التبشير بالاسلام بين النصرانيات ويعلق بقوله : « وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله »(٤٢) .

ويذكر ابن جبير رواية هامة عن رجل من اعيان بلرمو وهو احد فقهائها المعروفين ، واسمه الفقيه ابن زرعة ، الذي تعرض لضغط من جانب عمال الملك وليام الثاني ، ويقول ابن جبير في ذلك : « ضغطه العمال بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام والانغماس في دين النصرانية ، ومهر في حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الاحكام النصرانية . وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتى ايضا فيه لما سبق من معرفته لأحكام الشريعة ، ويقع الوقوف عند فتياه في كلا الحكمين وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة ، نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ، ومع ذلك فأعلمنا بانه يكتم ايمانه ، فلعله داخل تحت الاستثناء في قوله (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان)»(٤٣) .

ومما ازعج ابن جبير اثناء زيارته كان ما بلغه من ميل بعض المسلمين الى ترك الدين الاسلامي للتخلص من المسئوليات والروابط الاسرية فيقول : « ومن اعظم ما مني به اهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه او على زوجه او تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه انفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة فيتنصر ويتعمد ، فلا يجد الاب للابن سبيلا ولا الام للبنت سبيلا . فتخيل حال من يمنى بمثل هذا في اهله وولده ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ! فهم الدهر كله في مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال »(٤٤) .

ويصور ابن جبير حرص احد اعيان المسلمين الغيورين على مستقبل بناتهم ورغبتهم في تجنيبهن مستقبلا غير سليم بالبقاء في الجزيرة ، ولذا فهو يقدم ابنته الصغيرة الى احد الحجاج المارين بالجزيرة ، آملا ان

(٤٠) انظر Falcandus, 440, Amari SDM, III, 495 - 95.
(٤١) ابن جبير ص٢٩٧ .
(٤٢) المصدر نفسه ص٢٩٩ .
(٤٣) المصدر نفسه ص٣١٣ .
(٤٤) المصدر نفسه ص٣١٥ .

يأخذها معه الى خارج الجزيرة ليتزوجها او يزوجها لمن يختاره لها . ويعرب ابن جبير عن اشفاقه على الاب الذي يفارق ابنته في مثل هذه الظروف[٤٥] .

وان الرواية التي اوردها ابن جبير عن عبد المسيح ، وهو من فتيان وليام الثاني واعيان دولته ، لتلقي ضوءا على مشاعر المسلمين في هذا العصر . وهو يقول عنه : « لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبدالمسيح . من وجوههم وكبرائهم ، بعد تقدمه رغبه منه الينا في ذلك ، فاحتفل في كرامتنا وبرنا وباح لنا بسره المكتون بعد مراقبة منه في مجلسه ازال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه . فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام ، فأخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا ، واستهدى منا بعض ما استصحبنا من الطرف المباركة من مكة والمدينة قدسهما الله ورغب في ان لا نبخل عليه بما امكن من ذلك . وقال لنا : انتم مدلون باظهار الاسلام ، فائزون بما قصدتم له رابحون ان شاء الله في متجركم . ونحن كاتمون ايماننا ، خائفون على انفسنا متمسكون بعبادة الله واداء فرائضه سرا معتقلون في ملكة كافر بالله ، قد وضع في اعناقنا ربقة الرق ، فغايتنا التبرك بلقاء امثالكم من الحجاج ، واستهداء ادعيتهم ، والاغتباط بما نلقاه منهم من تحف تلك المشاهد القدسة ، لتتخذها عدة للايمان ، وذخيرة للاكفان فتفطرت قلوبنا اشفاقا ودعونا له بحسن الخاتمة ، واتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه . وابلغ في مجازاتنا ومكافأتنا ، واستكتمنا سائر اخوانه من الفتيان[٤٦] » .

ويجمل ابن جبير تصوير حالة المسلمين التي رآها في مدينة بلرمو بقوله : « وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا امن لهم في اموالهم ولا في حريمهم ولا ابنائهم ، تلافاهم الله بصنع جميل بمنه »[٤٧] .

نهاية المجتمع الاسلامي في بلرمو :

ومما يدل على نقصان مكانة المسلمين في بلرمو مع مضي الوقت تلك الظاهرة التي نلاحظها عند دراسة الوثائق والاوامر الملكية النورمانية التي كانت تصدر باللغة العربية . ففي عهد روجر الاول وروجر الثاني كانت اعدادها تساوى مع اعداد تلك الوثائق التي اصدرت باللغة اللاتينية او الاغريقية . ثم تغيرت هذه النسبة في عهد وليام الأول واصبحت نسبة عدد الوثائق العربية السبع . ثم في عهد وليام الثاني اصبحت العشر اما في الفترة القصيرة التي استغرقها حكم تانكريد اصبحت الوثائق لاتينية في جملتها[٤٨] .

ولقد تلاشى الوجود الاسلامي في بلرمو وغيرها من البلاد الصقلية عن طريق هجرة من استطاع من المسلمين الى بلاد اسلامية اخرى خارج الجزيرة وكذلك عن طريق تحول بعضهم الى المسيحية هذا بالاضافة الى من هلك في الاضطرابات التي قامت بين المسلمين والمسيحيين . ومع ضعف النفوذ الملكي في نهاية العصر النورماني اصبح بقاء المسلمين متعذرا ، حيث ان الطبقة الاقطاعية التي استحوذت على السلطة الفعلية تقاربت

(٤٥) المصدر نفسه ص٣١٦ .

(٤٦) المصدر نفسه ص٢٩٩ ـ ص٣٠٠ .

(٤٧) المصدر نفسه ص٣٠٦ .

(٤٨) انظر Curtis, 417.

مع الكنيسة ، وكانت هذه ترى في العمل على تحويل المسلمين الى المسيحية عملا صالحا[٤٩] . كما تعرض المسلمون لمذابح في سنة ١١٨٩ - سنة ١١٩٠ . وان الامبراطور فريدريك الثاني ، مع تقديره للثقافة الاسلامية ، الا انه وجه ضربه الخيرة الى العناصر الاسلامية التي اعتبرها مصدر شغب ، ونفى معظم المتبقين الى مدينة لوجارة Lucera في أبوليا (سنة ١٢٤٩م) وبذلك وضع نهاية لوجود المسلمين في صقلية في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

الا ان هذه المتاعب والشعور بالاسى والقلق بل والاضطهاد الذي عاني منه المجتمع العربي الاسلامي في بلرمو في العهد النورماني ، يجب الا تحجب عنا ذلك العطاء الحضاري الذي قدمه هذا المجتمع للغرب الاوروبي . فان المجتمع المذكور بالرغم من تبعيته السياسية لحاكم اجنبي ، ظل نشطا وسخيا في عطائه الحضاري على ما تشهد به المصادر التاريخية . وقد اسهم بدور كبير في الوصول بمدنية بلرمو بعد ان اصبحت عاصمة للنورمان ، الى ما وصلت اليه من مكانة رفيعة . فقد اصبحت مركزا فكريا غنيا بعلمائه وبنشاطه العلمي . كما حققت بلرمو تطورا اقتصاديا كبيرا واستحوذت على قدر هائل من الثراء ، بسبب نشاطها التجاري بشكل خاص ، حتى ان دخلها اصبح اكبر من دخل مملكة انجلترا النورمانية باكملها . وقد استغلت بلرمو هذه الثروة في اقامة مجموعة من المنشآت والمباني الفاخرة حتى اصبحت اجمل مدن الغرب الاوروبي ، وكان من بدائع آثارها المعمارية ، القبية Cubola التي اقيمت وسط الحدائق الجميلة ، وهي تشهد بتأثير الطراز العربي الاسلامي ، وهناك ايضا قصر القبة La Cuba الذي يبين هو وغيره من الآثار الجميلة المؤثرات الاسلامية .

وعندما يكتب ابن جبير مقيما اهمية بلرمو ، قائلا عنها : « وهي بهذه الجزائر ام الحضارة »[٥٠] فيجب ان نتذكر ماضيها ودورها كميدان للقاء الحضاري على مر العصور . كما يجب ان نسجل للمجتمع العربي الاسلامي الذي قام بها زمنا طويلا ، ما كان له من افضال ومآثر كمجتمع حضاري معطاء .
عن ذلك ، فانه مما يبرز اهمية الدور الذي قام به المسلمون انه كان في قلب جزيرة صقلية ، التي تعتبر بحق معبرا من المعابر الاساسية للحضارة العربية الاسلامية الى الغرب الاوروبي في العصور الوسطى .

***

(٤٩) انظر Gabrieli, "L a politique Arabe",92.
(٥٠) ابن جبير ص٣٠٥

المراجـــع العربيـــة :

- ماري (ميخائيل) ، المكتبة العربية الصقلية (جمع وتحقيق) ، ليبسك ١٨٥٧ - بغداد ، طبعة الاوفست ، مكتبة المثنى .

- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٤ .

- ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٤ .

- ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، بيروت ، منشورات مكتبة الحياة .

- ابن خلدون ، عبدالرحمن ، المقدمة ، تحقيق علي عبدالواحد وافي ، القاهرة لجنة البيان العربي (ط٢) ١٩٦٥ .

- عاشور سعيد اوربا العصور الوسطى ، ج٢ النهضات والحضارة والنظم - القاهرة ، مكتبة الانجلو ١٩٧٨ .

- عباس احسان ، العرب في صقلية ، دراسة في التاريخ والادب ، القاهرة ١٩٥٩ .

- والاس هادريل : اوروبا في صدر العصور الوسطى (تعريب وتقديم وتعليق د . حياة الحيجي) الكويت ، مؤسسة الصباح ، ١٩٧٩ .

المراجـع الاجنبيـة :

Amari, Michele,

— Storia dei Musulmani di Sicilia. 3 vols.

cura di Nallino, Seconda ediziene, Catania, 1933-1939.

— Le Epigrafi Arabiche di Sicilia, Palermo, 1875-85.

Chalandon, F., "La Diplomatique des Normands de Sicile et de Itali, meridionale, "Melenges d'archeologie et d'histoire, Ecole Francaise de Rome, XX, Rome 1900.

— Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile, Paris 1907.

Curtis, E., Roger of Sicily and the Normans in Lower Italy 1016-1154. New York 1912.

Cusa, S., Diplomi gerci e arabi di Sicilia, Palermo 1860-1882.

Daniel, N., The Arabs and Medieval Europe, New York 1979.

Falcandus, H., La Historia o regno Sicilie e la Epistola ad Petrum Panormitane Ecclesie these ... Rome 1904.

Haskins, C.H.,

— The Normans in Europe'n di'story, Boston 1915.
— Norman Institutions.
— "Science at the Court of Frederick" in Studies in the History of Medieval Science, Cambridge 1927.
Setton, K., (ed.) A History of the Crusades, vol I & II, Philadelphia 1958.
Waern, C., Medieval Sicily, 1910.

***

المنهج في البحوث المستقبلية

ناهد صالح

مستشار بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بدأت الدراسات المستقبلية تأخذ الطابع العلمي الذي حدا بالبعض إلى الدعوة إلى قيام علم جديد هو علم المستقبل Futurology ، أو علم دراسة المستقبل Discipline of Studying the Future . وقد شهدت ثلاثة العقود الأخيرة بالذات طفرة في هذا المجال تمثلت في عقد العديد من الندوات والمؤتمرات على المستوى القومي والاقليمي والعالمي ، حيث تخطت طرح صور مستقبل العالم ومستقبل المجتمعات إلى مناقشة المناهج والأساليب العلمية التي تكفل أكبر قدر من الموضوعية في رسم هذه الصور وفي تحديد أبعادها ، كما تمثلت هذه الطفرة أيضا في إنشاء العديد من الهيئات والمؤسسات العلمية المعنية بالبحوث المستقبلية ، وفي توافر علماء ومفكرين تختلف تخصصاتهم وتجمع بينهم النظرة العلمية على تطويع مناهج البحث المعروفة لكي تلائم البحوث المستقبلية ، بل وعلى إبداع مناهج وأساليب بحث تتفق وطبيعة البحث العلمي الذي يشكل المستقبل موضوع اهتمامه .

ورغم هذا ، فلا يزال الاهتمام بموضوع المنهج - وموضوع النظرية أيضا - في البحوث والدراسات المستقبلية لا يحظى إلا بالنزر اليسير من الجهد العلمي إذا قيس بالجهد الموجه أساسا إلى إجراء البحوث والدراسات المستقبلية في حد ذاتها[١] .

وقبل أن نتناول مناهج وأساليب البحث المستخدمة في الدراسات والبحوث المستقبلية نعرض للمداخل approaches المختلفة لهذه الدراسات والبحوث نظرا لأن المنهج الذي يختاره الباحث ، وأسلوب البحث

---

(١) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow" Courier, UNESCO, April 1971, p. 10.

الذي يتلقيه أو يبدعه لدراسة موضوع ما يتوقف إلى حد كبير على مدخله في تناول هذا الموضوع .

المدخل في البحوث المستقبلية :

البحوث المستقبلية تمثل مجال اهتمام وأرضا مشتركة لتخصصات علمية متنوعة ، لذلك كان من الطبيعي أن نتوقع أن يختلف مدخل الباحث باختلاف تخصصه الأكاديمي ، وكان من الطبيعي أن يختلف مدخل عالم الرياضيات عن مدخل عالم الاجتماع عن مدخل عالم الطبيعة عن مدخل عالم السياسة . . إلخ . بل إن الانتماء الأيديولوجي للباحث في داخل التخصص الواحد يفرض عليه مدخلا يتفق ورؤيته المستقبلية لحركة المجتمع . بل إننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن انتماء الباحث - أيا ما كانت الأيديولوجية التي يأخذ بها - إلى دولة متقدمة أو دولة نامية يلعب دوره في تحديد مدخله في الدراسة المستقبلية أو البحث المستقبلي الذي يجريه . ويكفي أن نرجع إلى الدراسات والبحوث المستقبلية في كل من أوروبا وأمريكا لنكتشف كيف أثر الاختلاف الثقافي في المدخل السائد في هذا النوع من البحوث والدراسات ، حيث تتبع دول أوروبا مدخلا نظريا theoretical approach ، بينما يوصف المدخل الذي يتبع في أمريكا بأنه مدخل براجماتي Pramatic approach[٢] .

وعموما فإنه نظرا لأن هناك أكثر من عامل يحدد مدخل الباحث أو منحاه للتوصل إلى تكهناته أو تنبؤاته التي تتناول المستقبل ، فإنه يمكننا أن نصنف هذه المداخل وفقا لأكثر من معيار :

__أولا__ : المدخل المحافظ Conservative في مقابل المدخل الراديكالي Radical .

__ثانيا__ : المدخل الكمي Quantitative في مقابل المدخل الكيفي Qualitative .

__ثالثا__ : المدخل الموضوعي Odjective في مقابل المدخل الذاتي Subjective .

__رابعا__ : المدخل الجزئي في مقابل المدخل الكلي .

أولا : المدخل المحافظ في مقابل المدخل الراديكالي :

إذا استعرضنا التراث العلمي في مجال الدراسات المستقبلية فإنه يمكننا أن نصنفه إلى دراسات هي بمثابة إسقاطات Projections ، وأخرى يمكن اعتبارها من قبيل التنبؤات Predections ، كل منها يعكس رؤية مختلفة ويعبر عن اختيار مختلف للمدخل الملائم لرسم صورة المستقبل .

يقوم المدخل الأول على أساس أن عالم الغد هو امتداد لعالم اليوم الذي هو بدوره امتداد لعالم الأمس ، وإن اختلاف المستقبل عن الحاضر عن الماضي القريب هو اختلاف في الدرجة لا اختلاف في النوع ، فالتغير الذي سيحدث بالنسبة للمستقبل هو تغير كمي أساسا أكثر منه تغيرا كيفيا . هو تغير في الكم ، في الحجم ، في السرعة . . إلخ . . . فالمستقبل سيكون مشابها للحاضر وللماضي إلى حد كبير ، ولكنه سيكون أكثر منه تشبعا بالنزعة العلمانية ، بزيادة درجة التحضر ، بزيادة النمو الاقتصادي ، بامتداد السيطرة التكنولوجية على

(٢) Radovan Richta and Ota Sulc, "Forcasting and the Scientific and technological revolution." Int. Social Science Journal, Vol. XXI, No. 4, 1969, pp. 464-465.

الطبيعة ، بارتفاع متوسط الدخل الفردي ، بتزايد استهلاك الطاقة ، بالتوسع في إحلال الأساليب والنظم الآلية والالكترونية محل الوظائف الانسانية . . إلخ . فهو مدخل يرى أن كل شيء في المستقبل سيكون في جوهره أو أساسه كما هو حاليا ، وأن ما سوف يميز المستقبل عن الحاضر هو التغير الكمي . فالمنحنيات ستستمر في ارتفاعها ، والمستقبل سلسلة لا نهائية من المخترعات الانسانية ، والتحسن في الانتاج والخدمات يسير في الخطوط التي حدد الحاضر مسارها الفعلي .

هذا المدخل يقوم إذا على أساس رؤية المستقبل كتقدير إسقاطي لما يكشف عنه الحاضر والماضي القريب . فالتنبؤ بالمستقبل يتم على أساس استقراء للماضي والحاضر .

ولا يشترط أن تتسم نظرة أصحاب هذا المدخل المحافظ بالنظرة المتفائلة ، بل إنه يضم أيضا هؤلاء الذين يغلب التشاؤم على نظرتهم للمستقبل . فهم إذ يركزون مثلا على مشكلة استنزاف الموارد الطبيعية ، ونقص الطاقة وزيادة تلوث البيئة . . إلخ إنما يتبعون في تنبؤاتهم هذه نفس المدخل المحافظ ، فهم يرون أن موارد اليوم هي موارد الغد وأن مشكلات المستقبل توجد بدايتها في الحاضر(٣) .

وفي مقابل هذا المدخل الذي يمكن اعتباره مدخلا محافظا ، والذي ينظر إلى المستقبل كامتداد للحاضر ، ويبني رؤيته له على أساس أنه نتاج لتغير كمي ، يوجد مدخل آخر تُبنى رؤيته المستقبلية على أساس تصور انبثاق تكنولوجيا جديدة فعالة ، أو تنظيم اجتماعي جديد ، أو مختلف تماما عن التنظيم الاجتماعي الموجود في الحاضر ، يكون من شأنه إحداث تغير كيفي ، من شأنه ألا يصبح المستقبل مجرد امتداد للحاضر . بل يجب النظر إلى المستقبل على أنه يمثل نقيضا للحاضر إن لم يكن نقيضه في كافة جوانبه ففي بعضها .

وأصحاب هذا المدخل يرون أن أسلوب التنبؤ بالمستقبل يقوم على أساس نوع من التخيل imagination إلا أنهم يرفضون التخيل المنطقي Logical imagination السائد في أغلب أساليب البحث التي يعتمد عليها الذين ينهجون مدخلا محافظا في دراستهم للمستقبل ، هذا النوع من التخيل الذي يحاول تخطي الفجوة بين ما هو معروف في الحاضر وما هو مجهول في المستقبل عن طريق نوع من الاسقاط العقلاني rational progection ، وهم في رفضهم لهذا المدخل يرفضون كافة أساليب البحث التي يتبعها أصحاب المدخل المحافظ ، فيرفضون أبسط أنواع هذه الأساليب التي تقوم على التقدير الاستقرائي ، والتي تعتمد على التخيل المنطقي مثل مد المنحنيات ، كما يرفضون الأساليب الأكثر تطورا وتعقيدا مثل أسلوب تحليل النظم System Analysis والأسلوب المعروف في الدراسات المستقبلية باسم الأسلوب المورفولوجي The Morphological technique وأسلوب بناء النماذج Models كما يستخدمها أصحاب المدخل الاستطلاعي .

وهم يرون أيضا أن محاولات التنبؤ المعياري التي تقوم على أساس رسم صورة معيارية normative للمستقبل المرغوب في تحقيقه والتي قد تبدو ظاهريا أنها غير مرتبطة بالحاضر ، هي في الواقع مرتبطة به بحيث يمكن تتبع الخطوات المنطقية التي من خلالها ننتقل من الحاضر إلى المستقبل المعياري هذا .

---

(٣) Robert U. Ayres, **Uncertain Futures**, John Wiley and sons, New York, 1979, pp. 2-4.

فأصحاب المدخل الراديكالي يبنون تنبؤاتهم عن المستقبل على أساس التخيل الابداعي Creative imagination الذي يعتمد على إسقاط الحاضر على المستقبل ، أو على تجميع للاتجاهات trends الموجودة في الحاضر أو اتخاذ مسار معاكس لها ، وإنما هو يبني صورة المستقبل على أساس بداية راديكالية بداية لا تستند إلى الحاضر وإلى ما هو متوقع بناء على استقرائه . ويرى أصحاب هذا المدخل أن استقراء تاريخ العلم وتاريخ الفن وتاريخ الحضارة يؤيد مدخلهم هذا(٤) .

ومن هنا فإن أصحاب هذا المدخل يرون أن أي شيء يمكن للعقل البشري أن يتصوره فإنه يمكن تحقيقه طالما أنه لا يتعارض مع القوانين الطبيعية ، وهم في هذا لا يفرقون بين الممكن Possible وبين المتوقع أو المحتمل Probable إذ هم في تصورهم للمستقبل اليوتوبي Utobian Future يتجاهلون كافة الصعاب والمشكلات التي قد تحول دون إمكانية تحقيقه . إنهم لا يهتمون بتحديد كيف ننتقل من الوضع الحالي إلى المستقبل المتخيل هذا . إنهم يتغاضون عن كافة الديناميات المعقدة التي تسم عالمنا الواقعي الأمر الذي جعل البعض يرى أن أصحاب هذا المدخل لا يختلفون كثيرا عن أصحاب الأدب العلمي الخيالي(*) .

وإذا كان أصحاب المدخل المحافظ بحكم طبيعة مدخلهم يعتمدون في تنبؤاتهم المستقبلية على أساليب بحث ترتكن إلى بيانات واقعية وتستند إلى الحاضر ، فإن أصحاب المدخل الراديكالي بحكم طبيعة مدخلهم أيضا يعتمدون على أساليب بحث تطلق العنان لخيال الباحث ولقدرته الحدسية والابداعية مثل الأسلوب المعروف باسم أسلوب دلفي Delphi technique وأسلوب السيناريو Scenario وغيرهما من الأساليب .

ثانيا : المدخل الكمي في مقابل المدخل الكيفي :

يمكن أن تصنف البحوث والدراسات المستقبلية وفقا لمعيار آخر هو طبيعة المدخل الذي اعتمدت عليه . هل هو مدخل كمي ، حيث يعتمد الباحث في رؤيته للمستقبل على بيانات كمية يقوم بتحليلها ؟ أم هو مدخل كيفي يستند فيه الباحث إلى استبصارات وقيم وإلى أحكام كيفية . هذان المدخلان مختلفان تماما ويعكسان أسلوبين للتفكير متضادين كلية . فالعالم أو الباحث الذي يأخذ بالمدخل الكمي يهتم في رؤيته المستقبلية بأشياء مختلفة تماما عن العالم أو الباحث الذي يأخذ بالمدخل الكيفي . بحيث إننا قد نأخذ انطباعا بأن كلا منهما لم يستمع إلى الآخر أو حتى سمع به .

أصحاب المدخل الكمي يصلون إلى تنبؤات مبنية على أساس كمي ، مستندة إلى حقائق وأرقام عن السكان ، قوة العمل ، الدخل القومي ، الناتج الزراعي ، استهلاك الطاقة ، درجة التحضر ، توقعات الحياة . . . إلخ . . . ويعتمدون على قياس اتجاهات المتغيرات والعلاقات بينها ، ثم يحاولون رسم صورة للمستقبل في ضوء هذه الحقائق والبيانات الكمية ، أو بقول أدق الحقائق التي يمكن التعبير عنها ومعالجتها كميا .

---

(٤) Robert Jungk, "Imagination and the future" **Int. Social Science Journal,** Vol. XXI, No. 4, 1969, pp. 559-561.

(*) Robert U. Ayres, op. cit., p. 5

وأصحاب هذا المدخل هم عادة من العلماء المتمكنين من الأساليب الرياضية ، من العلماء المتمرسين على بناء النماذج وعلى كيفية الاستفادة من الحاسبات الالكترونية ، بحيث تصبح عملية بناء النموذج وإدخال التحسينات عليه هي شغلهم الشاغل ، ويصبح النموذج وما يشتمل عليه من متغيرات هو المسيطر على رؤيتهم المستقبلية . علما بأن النموذج هو بمثابة تجريد لبعض المتغيرات التي أمكن بحكم طبيعتها ، وليس بحكم الأهمية التي تمثلها في العالم الحقيقي ، إدخالها في بناء النموذج . ومن ثم فإن العوامل التي تقبل التكميم هي فقط التي تحكم تنبؤات العلماء والباحثين الذين يأخذون بالمدخل الكمي أما المتغيرات الأخرى الكيفية والتي تتعلق بالتنظيم السياسي ، والبناء الاجتماعي ، والعلاقات الاجتماعية ، والاحتياجات النفسية . . والتي قد لا تقبل المعالجة الكمية فإنها تستبعد من جانب أصحاب هذا المدخل(٦) .

في الطرف المقابل يوجد المدخل الكيفي الذي يرى أصحابه أن المدخل الكمي يقدم صورة ناقصة للمستقبل نظرا لأن طبيعة وخصائص المستقبل تحدد إلى حد بعيد بالتغيرات الكيفية لا الكمية(٧) .

وأصحاب المدخل الكيفي يبتعدون تماما في رؤيتهم للمستقبل عن النماذج والبيانات الكمية ، سواء بمحض اختيارهم أو نتيجة لعدم قدرتهم على استخدام الأساليب الرياضية . وهم يركزون على الجوانب الكيفية كنوعية الحياة Quality of life وإمكانات التكنولوجيا لحل المشكلات ، ومنهم من تغلب عليه النزعة التشاؤمية فيهتم بالاغتراب واللامبالاة ، والجريمة والتفكك الاجتماعي والانحدار الأخلاقي . . إلخ . .

وعلى الرغم من أن أصحاب هذا المدخل يهتمون بعوامل على جانب عظيم من الأهمية قد يغفلها تماما أصحاب المدخل الكمي ، إلا أن تغاضيهم في تنبؤاتهم المستقبلية عن تقدير اتجاهات بعض المتغيرات الكمية الهامة التي تؤثر فعلا على العوامل الكيفية التي يقصرون اهتمامهم عليها ، تعيب تنبؤاتهم هذه ، تماما كما يعيب تنبؤات أصحاب المدخل الكمي إغفالهم للعوامل الكيفية . ويمكن تفسير كلا الموقفين بأنه عدم إدراك للعلاقة بين التغير الكمي والكيفي ، والتي مؤداها أن التغيرات الكمية تجمع الاخيرات كيفية كما أن التغيرات الكيفية من شأنها متى إحدث تغيرات كمية(٨) .

ثالثا : المدخل الموضوعي في مقابل المدخل الذاتي :

المعيار الثالث الذي يمكن أن تصنف بناء عليه الدراسات والبحوث المستقبلية هو معيار الموضوعية والذاتية . هل مدخل الباحث في تصوره للمستقبل مدخل علمي ، مدخل موضوعي ، أم أن مدخله مدخل غير علمي مدخل ذاتي أقرب الى العمل الفني منه الى العمل العلمي ؟

اذا كان من الممكن التأكد من توافر الموضوعية ، التي هي جوهر العلم وأساس المنهج العلمي ، في البحوث والدراسات التي تتخذ من الحاضر مجالا لها ، الا أن صعوبة ذلك تبدو واضحة للغاية بالنسبة للبحوث

---

(٦) Ibid, pp. 11-12
(٧) Robert Jungk, Imagination and the future, p. 558.
(٨) Ibid., pp. 13-14.

والدراسات التي يشكل المستقبل موضوعا لها . ورغم ذلك فقد حاول العلماء من المهتمين بتقويم الدراسات المستقبلية وضع بعض المتطلبات التي يحقق توافرها الطابع العلمي لهذه الدراسات والتي يلتزم بأغلبها ان لم يكن بها كلها أصحاب المدخل الموضوعي . من أهم هذه المتطلبات ما يلي[٩]:

أ - يجب أن يكون التنبؤ قابلا للتحقق من مدى صحته . وهذا يستلزم أن تتميز المفهومات المستخدمة بالدقة العلمية وأن تحدد بوضوح الفترة الزمنية التي يشملها التنبؤ تماما ، بحيث يمكن بعد مرور هذه الفترة أن نحدد بدقة تحت أي ظروف يمكن صحة هذا التنبؤ ، وفي أي ظروف تثبت عدم صحته .

ب - تستلزم الموضوعية ويمكن باحثون آخرون غير الباحث الذي قام بالتنبؤ بتتبع الخطوات التي وصل بمقتضاها الى تنبؤاته عن المستقبل ، خطوة خطوة أو بقول آخر معرفة الميكانيزم الخاص بالتنبؤ . وهذا يستلزم أن يستند التنبؤ الى نظرية أو على الأقل الى اطار نظري أيا ما كانت درجة بساطته . وهذا يعني في رأي البعض أن اسلوب التنبؤ لابد وأن يبدأ بتكوين نموذج نظرى Theoretical Model يكون بمثابة تجريد للعمليات التي تحدث في الواقع خلال فترة زمنية محددة .

ج - لكي تتصف الدراسة المستقبلية والتنبؤات المبنية عليها بالموضوعية وبالعلمية ، ولا بد وأن تستند الى معلومات أي إلى ملاحظات ، حتى ولو كانت درجة دقتها منخفضة .

د - يجب أن يحدد ثبات reliability التنبؤ ، ومعناه هنا أن يذكر مسبقا ، ويقدر من الدقة احتمال الصحة المتوقعة للتنبؤ . وهذا يعني أن النظرية أو الإطار النظري الذي يستند اليه التنبؤ ذو طبيعة تصادفية Stochastic حيث تدخل بجانب المتغيرات المحددة ، المتغيرات العشوائية التي يمكن اعطاؤها سلسلة من القيم كل قيمة تكون لها درجة احتمالية معينة .

هذه هي أهم المتطلبات التي حرص العلماء على ابرازها والتي يمكن بناء على الالتزام بها الحكم على مدخل الباحث في تنبؤه هل هو مدخل موضوعي أم مدخل ذاتي . فالحد الأدنى من الموضوعية يستلزم أن توضح الخطوات والاجراءات والأساليب التي اتبعها الباحث في التوصل الى صورة المستقبل ، وأن يحدد الاطار النظري الذي استند اليه لذلك ، والفترة الزمنية التي يشملها تنبؤه ، والاحتمالات المتوقعة لصحته ، والشروط اللازم توافرها لذلك . كل هذا استنادا الى معلومات وملاحظات بحيث يمكن في النهاية أن تقوم التنبؤات التي يتوصل اليها تقويما علميا . أما الدراسات المستقبلية التي توصف بالذاتية فهي تلك التي تفتقر الى كل هذه المتطلبات العلمية أو أغلبها ، وفيها يعجز القائم بها عن شرح كيف توصل الى تنبؤاته فهي عادة تنبثق عن رؤية جشطلتية حدسية ، تعكس ذاتية الفرد وخبراته الخاصة ، وبالتالي فهي أقرب الى العمل الفني منها الى العمل العلمي .

وقد تمثلت طبيعة المدخل من حيث كونه مدخلا موضوعيا أو ذاتيا في طبيعة أساليب البحث المستخدمة في الدراسات المستقبلية والتي يعتمد عليها الباحث في التوصل لتنبؤاته ، فبينما نجد بعضها يتصف بكونه

(٩) Fred. L. Polak, **Prognostics, A Science in the making surveys and creates the future,** Elsevier Publishing Company, Amesterdam, 1971, pp. 382-383.

أسلوبا علميا نجد البعض الآخر يوصف بأنه أسلوب فني أكثر من كونه أسلوبا علميا .

رابعا : المدخل الجزئي في مقابل المدخل الكلي :

المعيار الأخير الـذي يمكن أن تصنف وفقا لـه الدراسات والبحوث المستقبلية من حيث مدخلها في الدراسة ، هو مدى محدودية أو شمول هذا المدخل . هل هو مدخل جزئي يبني رؤيته المستقبلية على أساس الاهتمام بالتغير في جانب واحد من المجتمع ، بالتغير التكنولوجي أو التغيرات الاقتصادية مثلا ؟ . أم هـو مدخل يبني تصوره للمستقبل على أساس ادراك لطبيعة المجتمع ككل متشابك ، حيث لايمكن تصور تغير تكنولوجي أو اقتصادي في عزلة عن كافة أبعاد البناء الاجتماعي ومكوناته الثقافية ؟

اذا تتبعنا التاريخ القصير للتنبؤات العلمية عن المستقبل ، نجد أن الاهتمام كان منصبا منذ البداية على تلك التنبؤات التي ترسم صورة المستقبل باعتبار أنه نتاج للتقدم العلمي والتقدم التكنولوجي . ثم بـدأت التنبؤات العلمية والتكنولوجية بالتدريج تفسح مجالا للتنبؤات الاقتصادية . وهنا تشعبت هذه التنبؤات في اتجاهين . اتجاه يرى أصحابه أنه في مجال التنبؤات الاجتماعية فان التنبؤ يكون ممكنا فقط بالنسبة للجوانب الاقتصادية ، أما الجوانب الاجتماعية الأخرى فهي بحكم طبيعتها ، وفقا لرأيهم ، لايمكن تناولها الا في حدود ارتباطها بالجوانب الاقتصادية . فالتنبؤات الاجتماعية بما في ذلك التنبؤات الديموجرافية التنبؤات التي تتناول الجوانب المتعلقة ببناء المجتمع وثقافته ، التنبؤات التي تتناول نواحي معينة في المجتمع مثل النمو الحضري ، التعليم ، الصحة ، الفن ، القانون ، الأخلاق والآثار المترتبة على التقدم العلمي والتكنولوجي ، لاتزال متخلفة بالنسبة للتنبؤات الاقتصادية نظرا لأنها تعتبر ، وفقا لهذا الاتجاه جانبا فرعيا أو ثانويا بالنسبة للجانب الاقتصادي في المجتمع[١٠] .

وفي مقابل الاتجاه السابق ، يوجد فريق من العلماء يرى أن التنبؤات الاقتصادية ما هي الا جانب واحد من التنبؤات الاجتماعية وأنه يجب ادراك وفهم العمليات الاجتماعية في أوسع معنى لها كعمليات تشمل كافة الانشطة الخاصة بالمجتمع الانساني الذي يمثل النشاط الاقتصادي جانبا واحدا منها فقط .

واذا كان الاهتمام عموما بالجانب الاقتصادي في رسم صورة المستقبل قد مهد الطريق لادخال أبعاد اجتماعية أخرى في هذه الصورة ، فان طرح فكرة المستقبل المرغوب في تحقيقه Desirable Future في مقابل الاكتفاء بالمستقبل المتوقع أو المحتمل تحققه Probabie Future ، فرض الاهتمام ببعد اجتماعي له أهميته وهو الخاص بالقيم Values, طالما أن القيم هي جوهر الصورة التي ترسم للمستقبل المرغوب فيه . ومن هنا اتسع الاهتمام ـ رغم أنه لايزال محدودا ـ بكافة أبعاد البناء الاجتماعي ومكوناته الثقافية نظرا لأن القيم تمثل الخيط الذي يمتد بين كافة هذه الابعاد والمكونات ويربط بينها .

واليوم أصبح يوجد مدخل واضح يتبناه عدد من العلماء المهتمين بالبحوث المستقبلية والذين يتميزون

(١٠) Igor Bestuzhev-Lada, "Forcasting an approach to the problem of the future", **Int. Social Science Journal,** Vol. XXI, No. 4, 1969. pp. 530-531.

بالرؤية الكلية الشاملة ينظر الى المستقبل باعتباره كلا متكاملا ، مدركا أن اتساع النظرة وشمولها ليس مرادفا لدقتها وعمقها ، فمجرد ادخال كافة العوامل أو مجرد التراكم في البيانات ليس بكاف لادراك ديناميات المكونات المختلفة ، والعلاقات المتبادلة بينها ، والتفاعل بين العوامل الموضوعية والذاتية ، هذا الادراك الذي هو لب المدخل الشامل الحق في التنبؤ بالمستقبل .(١١).

وعموما فقد انعكس هذا المدخل بصورة مباشرة على أساليب البحث المستخدمة في رسم صورة المستقبل بحيث أصبحت لاتكتفي بالدعوة الى ضرورة وجود العالم الذي يتميز بالرؤية العامة generalist (١٢) بل أصبحت تعتمد على عمل الفريق البحثي وعلى التفاعل ، سواء المباشر أو غير المباشر ، بين آراء الخبراء والمتخصصين في كافة المجالات ، وعلى الأساليب المتقدمة في تحليل النظم وفي بناء النماذج وخاصة نماذج المحاكاة Simulation Models ، فضلا عن استخدام امكانات الحاسبات الالكترونية ، وابداع أساليب تحليل تتيح امكانية الربط بين الرؤية النظرية ، وبين النتائج المستخلصة من الدراسات الواقعية ، (١٣) ، كل هذا بهدف تحقيق رؤية شاملة ودقيقة ، على قدر الامكان ، لصورة المستقبل سواء المستقبل المتوقع او المستقبل الممكن او المستقبل المرغوب في تحقيقه .

●●●

أنماط البحوث المستقبلية :

ان اختيار الباحث للمدخل الذي يتخذه في دراسته المستقبلية سواء كان مدخلا محافظا أو راديكاليا ، مدخلا اسقاطيا أو تنبؤيا ، مدخلا كميا أو كيفيا ، مدخلا موضوعيا أو ذاتيا ، مدخلا جزئيا أو كليا يعكس رؤية الباحث للمستقبل ونطاق خبرته العلمية ، كما ينعكس بدوره على نمط الدراسة المستقبلية التي ينتهي اليها .

ويمكننا أن نميز بين نمطين أساسيين من الدراسات المستقبلية ، النمط الأول هو النمط الاستطلاعي أو الاستكشافي Exploratory Type ، ويهدف أساسا الى استكشاف صورة المستقبل المتوقع أو المحتمل Probable Future او المستقبل الممكن تحقيقه Possible Future . ويقابل هذا النمط النمط المعياري Normative Type وفيه يتخطى الباحث المستقبل المتوقع الممكن تحققه ، الى رسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه Desirable Future (١٤)

في النمط الأول من الدراسات التنبؤية يتميز مدخل الباحث عادة بأنه مدخل محافظ ، مدخل اسقاطي ، مدخل كمي ، مدخل يتحقق فيه قدر كبير من الموضوعية . في النمط الثاني يتميز مدخل الباحث عادة بأنه مدخل راديكالي ، مدخل كيفي يعتمد على الحدس والخيال والابداع ، مدخل يتميز بقدر أعلى من الذاتية حيث تتدخل القيم والأهداف في رسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه .

(١١) Radovan Richta and Ota Sulc, op. cit., pp. 564-565.
(١٢) Ibid., p. 565.
(١٣) Ibid., pp. 570-571.
(١٤) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow", op. cit., pp. 12-14.

في النمط الأول يكون سؤال الباحث هو : ما هي صورة المستقبل المتوقع ؟ أو بقول آخر ، أين سنذهب ؟ بينما في النمط الثاني يكون السؤال هو : ما هي صورة المستقبل التي ينبغي تحقيقها ؟ أو بقول آخر ، أين ينبغي علينا أن نذهب ؟ (١٥) .

كان من الطبيعي أن تختلف الى حد كبير الخطوات المنهجية في النمط الاستطلاعي من الدراسات المستقبلية ، عن الخطوات المنهجية في النمط المعياري ، الأمر الذي حدا بالبعض الى تقسيم أساليب البحث المستخدمة في البحوث والدراسات المستقبلية الى أساليب بحث استطلاعية أو استكشافية وأساليب بحث معيارية . ويستند أساس هذا التقسيم الى طبيعة البيانات والمعلومات التي يعتمد عليها الأسلوب وعلى أساس مدى انتشار أو شيوع استخدامه في نمط دون الآخر ، وان كان هذا لايمنع من أن كثيراً من الأساليب تستخدم في كل من البحوث الاستطلاعية والبحوث المعيارية .

تستند الخطوات المنهجية في البحوث الاستطلاعية التي تهدف أساساً الى استكشاف الصور الممكنة للمستقبل Futuribles على التقدير الاستقرائي . اذ يعتمد الباحث في ذلك على البيانات والمعلومات ، وعلى تحليل اتجاهات المتغيرات ، وعلى معرفته بالتجديدات innovations العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية بالاضافة الى التجديدات المتوقعة في المستقبل القريب (١٦) . ثم يعتمد على هذه المعلومات والبيانات جميعها في التوصل الى تنبؤاته المستقبلية ، مستعينا في ذلك بأساليب التحليل الرياضية والاحصائية وبامكانات الحسابات الالكترونية ، وبأسلوب تحليل النظم System Analysis ، وبحوث العمليات Operation reseach فضلا عن تكوين النماذج .

ومن أمثلة أساليب البحث التي تعتمد عليها البحوث الاستطلاعية المستقبلية ، الأسلوب المسمى باسم Contextual Mapping وهو يعتمد على كل من العناصر الكيفية والكمية ، ويضع التفاعل المتبادل بين اتجاهات المتغيرات والعلاقات السببية ، والفرص المحتملة للنمو تحت ظروف معينة ، كامكانيات تكنولوجية جديدة ، في اطار أو سياق عمليات النمو الاجتماعي المتوقعة في المستقبل وأبنية هذا المستقبل (١٧) . ويشيع استخدام هذا الأسلوب بالذات في مجال الصناعة وفي مجال الدفاع . كذلك فان الأسلوب المعروف باسم الأسلوب المورفولوجي The Morphological technique الذي وضعه عالم الفلك السويسري Fritz Zwicky منذ أكثر من ربع قرن ، وان كان لم يستخدم في مجال البحوث المستقبلية الا حديثا ، يحتل هذاالأسلوب مكانة خاصة في مجال البحوث الاستطلاعية . وجوهر هذا الاسلوب تلخصه ثلاثة أسئلة : ما المصادر التي نحتاج اليها للحصول على كافة المعلومات عن مركب مفترض للظاهرة أو المشكلة

(١٥) Fred. Polak, op. cit., p. 244.
— Igor V. Bestuzhev-Lada, "A Soviet scientist looks at Futurology". Courier, UNESCO, April 1971, p. 24.

(١٦) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow", op. cit., p. 13.

(١٧) Fred. Polak, op. cit., p. 399.

محل البحث ؟ ما هي كافة تأثيرات سبب معين GQUSE ، وماهو تسلسل هذه التأثيرات ؟ وما هي كل الطرق والحلول الممكن تطبيقها بالنسبة للمشكلة محل البحث ؟

وتتكون خطوات هذا الاسلوب من تحديد المشكلة بدقة ، وتحليل المعالم Perameters الهامة لها ، والكشف عن ابعاد ، ومدى ، وعدد القيم بالنسبة لكل معلم من هذه المعالم . تحديد عدد ونوع الحلول . ثم أخيرا تقويم هذه الحلول واختيار الحل الأفضل (١٨) .

وتمثل هذا النوع من الدراسات الاستطلاعية أصدق تمثيل الدراسات التي تجري اليوم عن التنبؤ بزيادة السكان ، بازدياد تلوث البيئة ، بازدياد المخزون من الأسلحة النووية وما اليها من دراسات والتي تعد بمثابة نظام للانذار المبكر early warning system ، يساعدنا على العمل على الحد من بعض الاتجاهات الخطيرة والعمل على زيادة سرعات بعض الجوانب الايجابية (١٩) . وهنا تلعب المؤشرات الاجتماعية Social Indicators دورا هاما في مضمار هذا النوع من البحوث الاستطلاعية .

واذا انتقلنا الى النمط الثاني من البحوث والدراسات المستقبلية ، ونعني به النمط المعياري ، وجدنا أنه بدأ في شكل تنبؤ حدسي intuitive for — casting بصورة المستقبل ، سواء المستقبل المتوقع او الممكن أو المرغوب في تحقيقه . هذا التنبؤ الحدسي يستمد من الخبرة والتخيل والبصيرة . واستحدثت لذلك أساليب بحث معينة يأتي في مقدمتها الأسلوب المعروف باسم Brainstorming وأيضا أسلوب Delphi Method وذلك بهدف تنظيم الاستفادة من تعدد الخبرات والاستبصارات والاستفادة من القدرة على التخيل والابداع (٢٠) ويعتمد كل من هذين الأسلوبين على مجموعة من الخبراء يطلب منهم أن يضعوا صورة للمستقبل أن يخترعوا المستقبل Invent the Future بأن يتنبؤا عن طريق الحدس بتطورات المستقبل في ميادين محددة مثل التعليم ، الصحة ، الطاقة ، القيم ، في الاسلوب الأول تتم هذه العملية في جلسات جماعية حيث تتاح الفرصة لأن يتأثر الفرد بآراء غيره من المشاركين بصورة مباشرة ، بينما لايتوافر عنصر التأثير والتأثر المباشر في الاسلوب الثاني .

والاتجاه الحديث حاليا في النمط المعياري من البحوث والدراسات المستقبلية يتخطى التنبؤ الحدسي ، الذي يكتفي برسم صورة المستقبل ، الى التشكيل الواعي للمستقبل المرغوب في تحقيقه عن طريق وضع معايير واهداف ، ومحاولة التوصل الى أفضل

الأساليب للعمل على تحقيق الصورة المعيارية لهذا المستقبل . وقد أوضح أولاف هيلمر Olaf Helmer أحد من أسهموا في وضع اسلوب من أهم أساليب البحث المستخدمة حاليا في البحوث والدراسات المستقبلية والتي يغلب عليها الطابع المعيارى والمعروف باسم اسلوب دلفي - ان المفهوم القدري للمستقبل الذي تستحيل معرفته ، أو لايمكن تجنبه ، لم يحل دون ادراك

(١٨) Ibid., pp. 396-397.
(١٩) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow" op. cit. p. 13
Ibid., P. 14.
(٢٠) Ibid., p. 12.

أن هناك عددا كبيرا من صور المستقبل المحتمل تحققها وأن الاجراء الواحد قد يؤثر على هذه الصورة بطرق مختلفة . ومن ثم فلا بد من استكشاف الأشياء المقبلة ومحاولة التأثير فيها في اطار من المسؤولية الاجتماعية . وانه اذا كان علينا أن نأخذ على عاتقنا هذه المسئولية فينبغي أن نكف عن أن نكون مجرد متأملين لتاريخ العالم ، بل يجب أن نؤثر في هذا التاريخ بأن نهدف الى تشكيل أو تعديل شكل المستقبل [٢١] . حقا لقدتركنا العصر الذي كان الممكن هو الذي يطبق ، ووصلنا الى عصر الاختيار ، وبدأنا نسأل أنفسنا ما هو المرغوب فيه وكيف نحققه ؟ وهذا هو جوهر النمط المعياري للبحوث المستقبلية . [٢٢]

هذا النمط من البحوث استحدث أساليب بحث تتفق وطبيعته والهدف الذي يسعى الى تحقيقه . بحيث تتيح أساليب البحث هذه وضع الصورة المعيارية للمستقبل ، ووزن كل الأهداف الممكنة في مقابل بعضها البعض ، وتحديد أولوياتها . وهنا يستعان بالنظريات الحديثة في اتخاذ القرار Decision Making وكيفية تحقيقها . وتتميز أساليب البحث بأنها يمكن وصفها بأنها أساليب للتخطيط المعكوس reverse Planining techniques [٢٣] من ذلك مثلا أسلوب البحث المعروف باسم The Relevanc Tree ويطلق عليه أيضا The Family tree Method [٢٤] ويقوم هذا الأسلوب على أساس تحديد هدف معين للمستقبل يمثل قمة الشجرة ، وتنزل من هذا الهدف الى الحاضر ، ونبحث في البدائل المختلفة لتحقيق هذا الهدف ، وأفضل مسار ممكن للانتقال من أسفل الشجرة الى أعلاها ، ومن الحاضر الى المستقبل .

وقد يبدو هذا الاسلوب في ظاهره أنه أسلوب بسيط يسهل اتباعه الا أننا اذا تتبعنا العمليات المنهجية التي تستلزمها كل خطوة من خطواته تبين لنا أنه اسلوب يجمع بين الشمول والدقة . فتبدأ أولى خطوات هذا الاسلوب بترتيب الأهداف الأساسية وفقا لأهميتها ترتيبا تسلسليا . وهنا تتدخل القيم والأيديولوجيات في تحديد هذه الأهداف ومدى أهمية كل منها . ثم تحدد العمليات الأساسية اللازمة لتحقيق كل من هذه الأهداف ، ثم يحدد العمل الذي تتطلبه كل عملية من هذه العمليات ، ومتطلبات هذا العمل أيضا ، ثم تحدد مكونات هذه الوسائل جميعها .

الخطوة التالية في هذا الأسلوب تحديد المعايير التي يتاء عليها تحدد درجة لمختلف العناصر الواقعة على كل فرع من فروع هذه الشجرة ، ثم تعطي أوزانا لهذه المعايير . الأوزان والمعايير يكونان معا السيناريو Scenario الخاص بالمستقبل ـ هذه الدرجة تكون بمثابة مؤشر يدل على قيمة كل عنصر بالنسبة لكل معيار من المعايير التي وضعت في الاعتبار . ثم باستخدام المعالجات الرياضية تحدد القيم الخاصة بالوسائل ـ والتي توجد في أسفل الشجرة ـ في علاقتها المباشرة بالأهداف ـ والتي يحدد وضعها في قمة الشجرة وفقا لأولوياتها . هذا الأسلوب يمثل تقدما في منهجية الاختيار كما يتميز هذا الأسلوب ـ

(٢١) Ibid., p. 14-15
(٢٢) Pierre Piganiol, "Introduction: Futurology and Prospective study" **Int. Social Science Journal** Vol. XXI No. 4. UNESCO, 1969, P. 518.
(٢٣) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow," op. cit., p. 14.
(٢٤) Fred Polak op. cit. p. 396.

ويشاركه في هذا أيضا أسلوب تحليل التكلفة والعائد Cost — benefit Analysis ـ في أنه ينتقل من الكيفي إلى الكمي ، من الكيفي الذي يتمثل فيما نرغب فيه بالنسبة للمستقبل ، إلى الأولويات التي تحدد على أساس كمي . وعموما فهو يضع في اعتباره واقع حاضرنا والمستقبل المرغوب في تحقيقه ، وأفضل الوسائل لتحقيق ذلك(٢٥).

وإذا كان هذا الأسلوب قد ثبتت كفاءته في ميدان التنبؤات العسكرية وفي مجال البيولوجي وفي مجال الطب ، فإن تعقيدات العالم الاجتماعي حدت من كفاءة هذا الأسلوب بحيث لجأ العلماء إلى الاستعانة بتحليل النظم وتكوين النماذج التي تعتمد على أساليب رياضية على درجة عالية من التقدم ، والتي مهدت الطريق لانشاء النماذج الاجتماعية Social Models التي تعتمد على المؤشرات الاجتماعية Social Indicators سواء ذات الطبيعة الكمية أو الكيفية ، والتي يفترض ان كلا منها يعكس جانبا من جوانب المجتمع(٢٦).

من العرض السابق يتبين لنا أنه بينما تبدأ الخطوات المنهجية في البحوث الاستطلاعية أو الاستكشافية من الحاضر ومنه تسقط صورة المستقبل المتوقعة أو الممكن تحقيقها . فإن الخطوات المنهجية للبحوث المعيارية تبدأ من رسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه ومنها تنتقل الى الحاضر . ومن هنا كان من الطبيعي أن يختص كل نمط من أنماط هذه البحوث بأساليب بحث معينة ، وإن كان هذا لم يمنع من أن بعض أساليب البحث يستعان بها في كل نمط منها .

وإذا كان أغلب البحوث والدراسات المستقبلية يمكن إدراجها تحت أحد هذين النمطين من البحوث المستقبلية ، إلا أن هناك اتجاها حديثا يرى أن مستقبل البحوث المستقبلية ، وقيام علم للمستقبل ، يتوقف على الجمع بين هذين النمطين في شكل تغذية مرتدة feedback من كل منها للآخر . فإذا كان تنبؤنا بالمستقبل المتوقع والمستقبل الممكن تحقيقه أمرا لا غنى عنه ، فإن تحديد صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه أمر لابد منه ، متى كان هناك اقتناع بقدرة العلم والقدرة البشرية على تحقيق ذلك . وقد أثمرت دعوة العلماء الذين يتبنون هذا الاتجاه الحديث في البحوث المستقبلية والذي يجمع بين البحث الاستكشافي أو الاستطلاعي والبحث المعياري ، والذي يدعو الى الاستناد الى بيانات وحقائق واقعية مع الاعتماد على الخبرة والاستفادة من الحدس والتخيل والقدرة الابداعية ، أثمرت في تحديد بعض المعالم المنهجية للبحوث المستقبلية الحديثة(٢٧).

●●●

بعض المعالم المنهجية للبحوث المستقبلية :

١ ـ البعد الزمني :

إذا كان المستقبل هو موضوع الدراسة فليس معنى هذا أن يدرس المستقبل على إطلاقه . وإذا كان هذا هو الوضع الذي درج عليه الفلاسفة في تصورهم للمجتمع

(٢٥) Pierre Piganiol "Introduction:Futurology and prospective" op. cit. p.519.
- Robert Jungk "Braekthrough to tomorrow," op. cit. pp. 14-15.
- Fred. Polak, op. cit. p 395.

(٢٦) Pierre Piganiol. "Pondering the Imponderable" **Courier** UNESCO April 1971 p.30.

(٢٧) Fred Polak ibid. pp. 246-266.

اليوتوبي ، والذي تأثرت به إلى حد ما الدراسات المستقبلية المعيارية ، فإنه نتيجة للتقارب والمزج بين هذا النوع من الدراسات وبين الدراسات الاستكشافية أو الاستطلاعية ، التي تحرص على تحديد مدى زمني لتنبؤاتها ، وهو عادة مدى قصير ، بدأ عنصر الزمن ينظر اليه كبعد قائم بذاته . وفي الوقت الذي بدأت فيه الدراسات الاستكشافية تمد الفترة الزمنية التي درجت على أن تقصر عليها تنبؤاتها ، بدأت الدراسات المعيارية تعمل على التحديد الدقيق للبعد الزمني في تنبؤاتها . ومن ثم فان أحد المعالم الأساسية للبحوث المستقبلية سواء كانت معيارية أو استطلاعية أو كانت تمزج بين النمطين هو التحديد الدقيق للزمن أو التاريخ الذى ترتبط به هذه التنبؤات .[٢٨]

٢ ـ التوازن بين الكم والكيف :

قد يبدو أن التنبؤات التي تحظى بتقدير علمي هي التنبؤات التي تعتمد على أحدث تقدم أحرزته الرياضيات والنظرية الاحصائية الحديثة ، وبالتالي فهي تلك التي تعتمد على أساليب البحث الكمية الا أن الاتجاه الحديث بين العلماء المهتمين بمناهج البحث وأساليبه في مجال البحوث المستقبلية هو ضرورة الجمع بين المدخل الكمي والمدخل الكيفي للتوصل الى التنبؤات المستقبلية التي تتصف بالدقة والشمول ، ومن ثم حرصوا على وضع الضوابط التي تساعد على تحقيق التوازن بين المدخلين وعلى اضفاء الطابع العلمي على الرؤية الكيفية التي لا غنى عنها ، طالما أن انسان المستقبل ومجتمع المستقبل هما محور التنبؤات المستقبلية . ومن ثم فبجانب الاعتماد على الأساليب الرياضية والاحصائية في رسم صورة المستقبل المتوقع والممكن فان الاعتماد على الحدس والخيال Fantasy المبني على العلم على قدر الامكان ، والذى تصاحبه الرؤية العلمية والتخيل والابداع أمر لا غنى عنه في رسم صورة المستقبل المرغوب فيه ، وفي التوصل الى أفضل البدائل لتحقيقه . وقد رأينا كيف تجمع بعض أساليب البحث بين كلا الجانبين الكمي والكيفي .

٣ ـ القيم كعنصر أساسي في منهجية البحوث المستقبلية :

نظرا لأن البحث المستقبل لم يعد يكتفي برسم صورة المستقبل المتوقع بناء على التنبؤ باتجاهات النمو والتغير بل تخطى هذه المرحلة الى محاولة رسم صورة المستقبل المرغوب فيه ، وكيفية العمل على تحقيقه ، فان تحديد القيم values وما يرتبط بها من أهداف أصبحت خطوة أساسية من الخطوات المنهجية للبحث المستقبل . وربما لم تحظ أي خطوة أخرى بمثل ما حظي به موضوع القيم من اهتمام لم يقتصر على المناقشات الفلسفية والأيديولوجية بل أجرى العديد من البحوث المستقبلية عن هذا الموضوع ، ونوقش من جانب الاتجاهات الأيديولوجية المختلفة ومن جانب علماء الاجتماع والسياسة وواضعي السياسات والمخططين ، ومن جانب الفلاسفة والمفكرين حيث ان دراسة المستقبل في حد ذاته ، تثير أسئلة قيمية هامة ، كما أن قيام علم المستقبل أو اجراء بحوث ودراسات عن المستقبل تتطلب دراسة تغير القيم والتنبؤ بالقيم التي ستسود في المستقبل[٢٩] . وهذا ما حدا ببعض العلماء الى القول بأن صدق علم المستقبل

(٢٨) Igor Bestuzhev-Lada "Forcasting an approuch to the problem of the future" op. cit. p.529.
(٢٩) Pierre Piganiol "Introduction: Futurology and Prospective Study" op. cit. p.523.

يتوقف على اكتشاف وسائل تدمج البعد القيمى كبعد أساسى فى منهجية البحث المستقبل (٣٠) .

٤ ـ التكامل فى البحوث المستقبلية :

اذا كان المزج بين البحوث الاستكشافية أو الاستطلاعية والبحوث المعيارية يحقق نوعا من استمرارية البحث المستقبل ، حيث يقوم البحث الاستكشافى بتحديد صور المستقبل المتوقعة والممكنة ، والتى يكملها البحث المعيارى بتحديد صورة المستقبل المنشود ومن ثم كيفية تحقيقها ، فان الاتجاه الحديث فى البحوث المستقبلية هو أنه سواء اكتفينا بالبحث الاستطلاعى أو البحث المعيارى أو جمعنا بينهما فلا بد من أن ننظر الى المستقبل ككل . حقا ان اقتصار التنبؤ على جانب دون الاخر ، على الجانب الاقتصادى مثلا أو الجانب التكنولوجى يساعد فى رسم صورة المستقبل الا أنها تظل صورة ناقصة . هنا نود أن نشير الى نقطة هامة وهى أن تجميع التنبؤات فى المجالات المختلفة وتراكمها لا يكفى للوصول الى تنبؤات بالمستقبل ككل ، بل لا بد من أن يكون لدى القائم بالتنبؤ أيا ما كان تخصصه العلمى رؤية شاملة ، بحيث يأتى توصله الى التنبؤات فى مجال معين ، فى المجال التكنولوجى مثلا ، فى ضوء ادراكه للعلاقات والتأثيرات المتبادلة بين الجانب التكنولوجى وبين غيره من جوانب الحياة الاجتماعية .

وقد أدرك العلماء أن عالم المستقبل مثله فى ذلك مثل عالم الحاضر ، كل معقد من الصعب الاحاطة بكافة جوانبه وبالعلاقات المتبادلة والمتفاعلة التى تسود فيما بينها . ومن ثم حرصت المؤسسات المعنية بالبحوث والدراسات المستقبلية فى تشكيلها لفريق البحث أن يمثل تخصصات عدة : علم الطبيعة والرياضة ، والتاريخ ، والجغرافيا والاجتماع ، وعلم النفس ، والسياسة ، والاقتصاد ، والانثولوجيا ، والتكنولوجيا . . الخ (٣١) وأبدعت اساليب بحث تتيح الاستفادة من كافة هذه التخصصات والخبرات ـ كأسلوب دلفى مثلا ـ . كما أدركت أن العقل البشرى يقصر عن الاحاطة بالكم الهائل من المعلومات التى لا بد من الاحاطة بها لتكوين صورة المستقبل ، ومن ثم لجأت الى الاستعانة بأساليب بحث تساعد على تنسيق هذه المعلومات وعلى تحليلها مثل أسلوب تحليل النظم وأسلوب النماذج .

وقد وجد الاتجاه الى تحقيق التكامل فى البحوث المستقبلية صداه فى الدعوة الى قيام علم للمستقبل ، علم يضم النظرية والمنهج فى مجال المستقبل ، يضم القوانين العلمية وطرق ومناهج وأساليب التنبؤ . علم يرى أنه اذا كان كل علم من العلوم له تنبؤاته فهناك تنبؤات اقتصادية واخرى سوسيولوجية وديموجرافية

ونفسية . . الخ فان هذه التنبؤات جميعها يمكن أن تتكامل فى تنبؤ اجتماعى social forcasting حيث يجمع بينها قوانين ومناهج وأساليب للبحث مشتركة ، وأن ارتباط هذه التنبؤات بعضها ببعض لا يقل عن ارتباط كل منها بالعلم الذى تنتمى اليه (٣٢) .

(٣٠) Irene Tavis "Futurology and the Problem of values" Int. Social Science Journal, Vol. xxl, No. 4. 1969, p. 576.

(٣١) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow," op. cit., p. 12.

(٣٢) Igor V. Bestuzkev-Lada, "A Soviet scientist looks at futurology," op. cit., p. 24.
- Igor V. Bestuzkev-Lada, "Forcasting an approach to the problem of the future" op. cit., p. 532.

أسلوب دلفى Delphi Method كأحد أساليب البحث فى البحوث المستقبلية :

فى أثناء تناولنا لأنماط البحوث المستقبلية عرضنا بايجاز لبعض أساليب البحث المستخدمة فى هذه البحوث . وقد رأينا أن نعرض بشىء من التفصيل لواحد من أهم أساليب البحث المستخدمة حاليا فى البحوث المستقبلية والتى تعكس الى حد كبير المعالم المتطلبة فى البحث المستقبل الحديث ، والذى تتيح طبيعته امكانية الاستفادة منه فى التوصل الى تنبؤات سواء فى مجال العلم والتكنولوجيا أو فى مجال الحياة الاجتماعية والثقافية . هو أسلوب يتيح لغة مشتركة بين التنبؤات التكنولوجية والتنبؤات الاجتماعية [٣٣] ، كما أنه أسلوب يعتمد عليه فى التنبؤ بصورة المستقبل المتوقع والمستقبل الممكن وقبل كل شىء بصورة المستقبل المرغوب فى تحقيقه .

ان تسمية هذا الاسلوب باسلوب دلفى يمثل رؤية حديثة للدور الذى كان يلعبه كهنة معبد دلفى فى الحضارة الاغريقية بالنسبة للتنبؤ بالمستقبل . ورغم حداثة هذا الأسلوب كأسلوب علمى للبحث - اذ لا يزيد العمر الزمنى له على ربع قرن - ورغم أنه بدأ فى مجالات التنبؤ باستخدام الأسلحة الحربية أو الآثار المترتبة على استخدامها - الا أنه أحرز قدرا كبيرا من التقدم بحيث أصبح من أكثر أساليب البحث استخداما وتطورا فى مجال البحوث المستقبلية ، التى لا تقتصر على التنبؤ الاستطلاعى بل تدخل أساسا البعد المعيارى فى اعتبارها ، كما امتد مجال استخدامه من مجال التنبؤات التكنولوجية الى مجال التنبؤات الاجتماعية ، وخاصة تلك التى تحاول الربط بين المتغير التكنولوجي والتغير الاجتماعى والثقافى .

وقد نما هذا الاسلوب من ملاحظة بسيطة مؤداها أننا عندما يكون علينا أن نتنبأ بالمستقبل البعيد فاننا عادة نستعين بمجموعة من الخبراء فى المجال المرتبط بموضوع التنبؤ ، ونطلب منهم أن يبذلوا أقصى جهدهم فى الوصول الى تنبؤات هى فى الواقع من قبيل التخمينات المستندة الى الخبرة informed guesses وهذا هو نفس الأساس الذى يقوم عليه الأسلوب المسمى « Brainstorming» ، والذى يعد أسلوب دلفى تطويرا علميا له [٣٤] .

والفكرة الأساسية التى يقوم عليها أسلوب دلفى هى التوصل الى صورة المستقبل الممكن أو المرغوب فيه ، استنادا الى آراء عدد من المتخصصين الذين يجمعون بين الخبرة فى موضوع اهتمام البحث والقدرة على الاستبصار والحدس intuitive powers ، والقدرة على التخيل الابداعى creative imagination . ويتم التفاعل بين آراء هؤلاء الخبراء بطريق غير مباشر ومن خلال عدد من « الجولات » Rounds . ويمكن أن نحدد الخطوات المنهجية التى يتبعها هذا الاسلوب عادة على النحو التالى [٣٥] :

١ - يقوم فريق البحث أو الفريق الذى يحرص البعض على تسميته ، بالنسبة لهذا الأسلوب ، بفريق المراقبة أو الضبط Monitor team بتحديد أبعاد

(٣٣) Radovan Richta and Ota Sulc, op. cit., p. 563 .

(٣٤) Alvin Toffler, "Value impact forcaster: Aprofession of the future, in "**Values and the future**, Baier and Rescher ed. The Free Press, Toronto, p. 7.

(٣٥) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow," op. cit., pp 12— 13

الموضوع محل التنبؤ ، ثم توضع الاسئلة التى قد تأخذ عادة شكل استمارة احصائية questionnaire تحتوى عددامن الأسئلة .

٢ - يطلب من كل خبير على حدة الاجابة على الاسئلة واضافة المعلومات التى يرى بناء على خبرته أنها ذات صلة وثيقة بموضوع التنبؤ .

٣ - يقوم فريق البحث باستخلاص كافة الأراء التى قدمها الخبراء بتخصصاتهم وانتماءاتهم المختلفة ويتم طرحها على فريق الخبراء كل على حدة بحيث يمكن لكل واحد منهم أن يقوم بفحص آرائه وإجاباته وتعديلها فى ضوء معرفته بآراء الأخرين ، اذا رأى ذلك ، ودون أن يحدث تفاعل مباشر أو مواجهة بين الخبراء بعضهم وبعض .

٤ - يقوم فريق البحث بدراسة ما أسفرت عنه نتائج هذه « الجولة » التى يكتفى بها فى رسم صورة المستقبل الممكن أو المرغوب فيه وفقا لهدف البحث ، أو قد تكرر العملية فى جولات اخرى بأن يتم استخلاص الأراء وطرحها مرة ثانية على نفس الخبراء وهكذا .

٥ - يتم تقويم كافة البيانات واستخلاص صورة المستقبل بناء على ما أجمعت عليه الأراء .

وقد يبدو من الظاهر أن هذا الاسلوب أسلوب بسيط يسهل على أى باحث اتباعه ، وهذا ما أدى الى أن يصدم الكثيرون ممن اتبعوه بالنتائج التى أسفر عنها . فى حين أنه أسفر عن نتائج لها قيمتها العلمية والتنبؤية عندما اتبعه باحثون آخرون .

ونظرا للأهمية المنهجية التى يشغلها هذا الأسلوب فى مجال البحوث والدراسات المستقبلية ، والتى تتمثل فى الاعتماد المتزايد على هذا الاسلوب ، بل وفى امتداد استخدامه الى مجالات اخرى من البحوث التى تتناول الحاضر بل الماضى أيضا ، توافر الباحثون من المهتمين بمناهج البحث بتقويم هذا الأسلوب بمحاولة الاجابة على سؤالين : لماذا يستخدم هذا الاسلوب ؟ أو بقول آخر ما هى الوظيفة التى يؤديها هذا الأسلوب فى مجال الدراسات المستقبلية بالذات ؟ وكيف يستخدم هذا الأسلوب ؟ او بقول آخر تقويم عملية الاعتماد على هذا الأسلوب .

الواقع أن أسلوب دلفى يعبر عن الحاجة الى تنظيم عملية اتصال جماعى group communication process يتم من خلالها الحصول على نتائج ذات قيمة مرتفعة بالنسبة للهدف من البحث . وهو يستند على افتراض مؤداه أنه من الممكن عن طريق الاتصالات المنظمة ايجاد أو خلق نوع من قدرة الذكاء الانسانى الجمعى collective human inteligence cabability . واذا كانت البحوث لم تقدم اجابة مباشرة بصحة هذا الافتراض الا أن اتباع هذا الأسلوب يتضمن تسليما ضمنيا به من جانب المستخدمين له .(٣٦)

وعموما فان الحاجة تبدو ماسة الى استخدام أسلوب دلفى فى البحوث المستقبلية متى كان الموضوع محل البحث لا يصلح لتطبيق أساليب التحليل الدقيق ، فى حين يمكن الاستفادة من الأحكام الذاتية المبنية على

(٣٦) Harold Linstone and Murruy Tusoff, "Introduction," in **The delphi Method Techniques and applications,** Linstone and Turoff (ed.) addison Wesley publishing Comoany, London, 1975, pp. 4-5.

أساس جمعي . كذلك عندما يتطلب موضوع البحث الاستعانة بعدد كبير من الخبراء يصعب معه الاتصال المباشر وتبادل الأراء وجها لوجه ، أو اذا وجدت اختلافات حادة بين الخبراء . كذلك اذا كان صدق البيانات يستلزم اخفاء المشاركين لاعتبارات سياسية مثلا ، أو كان يستلزم حرية توالد الأفكار سيطرة تفرضها ما يتمتع به البعض من قوة شخصية أو تفرضها القوة العددية ، أو بقول آخر تجنب التأثير المعروف باسم Bandwagon effect وهو مالا يمكن تجنبه الا بصعوبة في حالة المناقشات الجماعية (٣٧) .

هذه هي بعض الاعتبارات العلمية والعملية التي تستدعي استخدام هذا الاسلوب . الا أن قيمة النتائج التي تأخذ شكل تنبؤات تتوقف من حيث دقتها وثرائها ومدى موضوعيتها على عاملين : العامل الأول هو الاختيار الدقيق لجماعة الخبراء المشاركين في عملية التنبؤ بحيث تتوافر لديهم الخبرة التي تستند الى بيانات واقعية وحقائق ، مع القدرة على الرؤية المستقبلية التي تستلزم قدرا من الخيال والابداع العلمي . العامل الثاني سعة أفق فريق البحث مع تحليه بالامانة العلمية وحرصه على الموضوعية ، بحيث ينعكس ذلك في معالجته للآراء بعد كل جولة . وفي التقدير النهائي الذي يعرض بأمانة التنبؤات التي توصل اليها بناء على اتباع هذا الاسلوب .

اذا كان أسلوب دلفي يعد نموذجا لاساليب البحث التي تحقق المعالم الأساسية للبحث المستقبل الحديث ، الا أن حرص العلماء المهتمين بالمنهج في البحوث المستقبلية على تحقيق هذه المعالم لم يجعلهم يكتفون بتطوير أساليب البحث واضافة أبعاد جديدة لها . يكفي أن نتتبع التعديلات التي أدخلت على أسلوب دلفي منذ بدء استخدامه حتى الآن . وانما حثهم على استخدام اكثر من أسلوب في البحث الواحد ، أساليب تتيح النظرة الشاملة والخيال المبدع ، وأساليب تقدم البيانات والوقائع ، أساليب تكفل حرية الرؤية الفلسفية وأخرى تشدنا الى الواقع ، أساليب تتيح شمول المعالجة وأخرى توفر عمقها . أساليب تعتمد على آراء الخبراء والمتخصصين وأخرى تنزل إلى الجمهور لتستطلع آراءه وتتعرف على مطامحه وتطلعاته . بحيث يمكننا القول إن التنبؤات بما فيها التنبؤات الاجتماعية تستند على مجموعة من الأساليب : أولا أساليب تقوم على أساس الاستعانة بآراء الخبراء والمتخصصين وإحيانا آراء الجمهور العام . ثانيا ، الأساليب المتقدمة للتقديرات الاستقرائية والتي تستخدم أساليب متقدمة في مجال الرياضة الحديثة ، والسيبرناطيقا ، ونظرية المباريات ، ونظرية الاحتمالات ، ونظرية اتخاذ القرار ، والمدخل الوظيفي في البحث . ثالثا ، أساليب النماذج وتحليل النظم (٣٨) .

●●●

إذا كان نطاق هذا المقال لم يسمح إلا بإعطاء صورة سريعة عن المنهج في البحوث المستقبلية من حيث المداخل المتنوعة في الدراسة العلمية للمستقبل ، وانماط البحوث المستقبلية ، ومعالم المنهج في البحوث المستقبلية

---

(٣٧) Ibid., p. 4.
(٣٨) Igor V. Bestuzkev-Lada, "A Soviet Scientist looks at futurology," ibid, op. cit., p. 24.

الحديثة ، والاشارة الى أحد أساليب البحث التي تحتل مكانا بارزا في هذا المجال ، فإننا نأمل أن تجري دراسات جادة وتقويمية تتناول هذا المجال البكر من البحث العلمي ، الذي لا يمثل ترفا علميا بل يمثل حاجة إلى التخطيط العلمي للمستقبل على المدى القريب والمدى البعيد ، هذا التخطيط الذي لا بد وإن يستند إلى مناهج وأساليب بحث تتيح إمكانية التفاعل بين الرؤية الابداعية للمستقبل والواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للحاضر ، وتوضح مسار الانتقال من الحاضر إلى المستقبل المرغوب في تحقيقه .

❊❊❊

صَدر حَديثاً

المسـرح السـياسي

تأليف : إرفين بيكاتور •
عرض وتحليل : أمل فضل حركة

رغم أن المسرح ظهر منذ العصور القديمة كظاهرة دينية اولا . ثم كظاهرة فنية وأدبية بعد ذلك ، الا انه لم يتوقف دائما عند هذه الصفات ، وانما تخطّاها في أحيان كثيرة وفي عصور متعددة ليمس المجتمع في جوانبه المختلفة تصويرا تارة ونقدا تارة أخرى . ومع ذلك فان العلاقة بين المسرح والمجتمع لم تصبح مجالا للدراسة العلمية المحددة أو للتطبيق الذي يعي هذه العلاقة ويتخذها أداة في مجال التوجيه والتثقيف الا منذ فترة وجيزة لا تكاد تصل الى ما قبل العشرينيات من هذا القرن . ومنذ ذلك الوقت ظهرت قضايا عديدة وتساؤلات كثيرة حول امكانية دراسة المجتمع من خلال المسرح . وتطورت وظيفة المسرح بحيث أصبح منبرا للدعوة الى الأفكار والايديولوجيات الجديدة واخذ يعبّر عن قيم وطنية تارة ، وقيم اجتماعية أو طبقية تارة أخرى . وفي صدد هذا النوع من المسرح نجد ان الاتصال العضوي بين المسرح والتغيّر الثقافي للمجتمع المتطور ، وصل في وضوحه الى درجة جعلت عديدا من المشتغلين بالمسرح بجوانبه المختلفة يعبّرون عن مدى اهمية هذا التأثير بشكل واضح ومحدد . ففي عام ١٩٢٧ نجد ارنست توللر Ernest Toller يذكر في اثناء مظاهرة في برلين امام مسرح الشعب Volksbuhne « ان العمل المسرحي هو الصراع ، هو ان نغيّر تغييرا كاملا أو لا نكون » . وفي اطار هذا المعنى نجد برشت Brecht يتحدث عن « مسرح يتقدم الجمهور بدلا من ان يجري وراءه »[1] . ولعل خير تلخيص لوصف العلاقة العضوية بين المسرح الايديولوجي والتغير الثقافي في المجتمع هو ما ذكره بيسكاتور عن ان « وظيفة المسرح

(•) ظهر الكتاب في صورته الأصلية في ١٩٢٩ تحت عنوان Das Politische Theater عن دار نشر Adalbert Schultz verlag في برلين . ثم اعيد نشره في هامبورج في ١٩٦٣ ، ثم ظهرت الترجمة الانجليزية التي قام بها هيو هاريسون Hugh Harrison في انجلترا عن دار نشر أير ميثوين Eyre Methuen في لندن عام ١٩٨٠ . وقد زوّد المترجم هذه الطبعة بفصل تقديمي وبعديد من الحواشي.

(١) Jean Duvighaud : Sociologie du Theatre, Presses Universitaires de France, Paris 1965. p489.

بصفته مؤسسة فنية قد تعدلت ، فالمسرح يصل الى نهايته المنطقية في الحياة الاجتماعية .

وفي مجال المسرح الايديولوجي ، نستطيع ان ندخل المسرح الموجه ، سواء أكان هذا المسرح موجها من قبل الحكومة أم من قبل مجموعات لها التزامات فكرية أو سياسية أو اجتماعية خاصة بها ، وهو اتجاه بلغ من انتشاره انه تخطى حدود الدائرة التقليدية للدول المتقدمة ليشيع في دائرة تتسع لعديد من الدول النامية في العصور الاخيرة من القرن الحالي[٢] .

ومن بين رواد المسرح الذين ظهروا مع بداية القرن الحالي واسهموا بادخال نظريات وايديولوجيات جديدة اليه ارفين بيسكاتور Erwin Piscator الذي ولد في المانية عام ١٨٩٣ ودرس في الجامعة في ميونيخ ، ثم انتقل - بعد ان خدم في الحرب العالمية الأولى لمدة سنتين - الى برلين ليعمل ممثلا ثم مخرجا . لقد انشأ بيسكاتور المسرح البروليتاري في عام ١٩٢٠ ، وقدم حتى عام ١٩٢٩ عروضا مسرحية كثيرة على مسرح الشعب Volksbuhne ثم اتخذ من مسرحه الخاص Piscator-Buhne مسرحا سياسيا هادفا . انتقل بعد ذلك الى الاتحاد السوفيتي حيث بقي هنالك حتى عام ١٩٣٦ ، واخرج ثلاث مسرحيات سياسية في مناخ سياسي في الستين الأوليين ، ثم غادر الاتحاد السوفيتي فجأة الى باريس ومنها الى الولايات الامريكية المتحدة في عام ١٩٣٨ ، وهناك اصبح مديرا لمركز الاعمال الدرامية الذي عرف تحت اسم Dramatic Workshop في « المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي » New School of Social Research ، حيث تتلمذ عليه عدد من الشخصيات التي برزت في مجال العمل المسرحي مثل تينيسي ويليامز ومارلون براندو . وفي عام ١٩٥١ عاد الى برلين الغربية وعمل في اخراج مسرحيات متعددة الى ان عين مديرا فنيا للمسرح الشعبي الحرّ في برلين Berlin Freie Volksbuhne في عام ١٩٦٢ ، وبقي في منصبه هذا حتى توفي عام ١٩٦٦ .

والكتاب الموجود بين أيدينا عن المسرح السياسي وهو من تأليف ارفين بيسكاتور يعتبر نوعا من السيرة الذاتية ، ويقع الكتاب في ثلاثة وعشرين فصلا ، يمكن تقسيمها الى أربع مراحل . يتكلم بيسكاتور في المرحلة الأولى عن الفن والسياسة حيث انه اعتبرهما طريقين منفصلين وانهما سارا بشكل متواز لمدة طويلة ، وبعبارة أدق حتى ١٩١٩ ، وشعر بيسكاتور ان الفن في حد ذاته لم يكن كافيا لارضائه . ومن ناحية اخرى لم يجد نقطة التقاء بين هذين الخطين ، وكان لابد في رأيه من نظرية جديدة لتلاقيهما ، فوجد ان الثورة هي التي تستطيع ان توجد له هذه النظرية . وحين قامت الثورة في روسية في اكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧ رأى فيها بيسكاتور الحل الذي كان يتصوره لهذه القضية . ولقد تشبع هذا المفكر بالسياسة وغرق فيها الى حد كبير وحاول ايجاد نظرية تجمع بين الفن والسياسة ، فاكتشف ان الفن كان وسيلة لغاية : كان وسيلة سياسية ووسيلة دعائية ووسيلة تربوية .

وينتقل بيسكاتور الى الكلام عن تطور المسرح السياسي في تلك الفترة ، فيجد ان هذا المسرح ليس اختراعا شخصيا ولا نتيجة لاعادة التجمع

(٢) راجع على سبيل المثال صفحات ٢١٧ - ٢١٩ . Nicholas S. Hopkins, Persuasion and Satire in the malian Theatre

السوسيولوجي في عام ١٩١٨ ، وانما تمتد جذوره في عمق القرن الأخير . ووجد ان الوضع الثقافي للمجتمع البورجوازي قد تأثر بشكل كبير بقوى كانت موجودة ، هذه القوى أتت من اتجاهين : الأدب والبروليتاريا (الطبقة الكادحة) ، ومع التقائها ظهر مفهوم جديد وهو : المذهب الطبيعي Naturalism ، ونشأ شكل جديد للمسرح هو « مسرح الشعب » .

ويبدي بيسكاتور دهشته في هذا المجال من منظمات العمال الذين لم يتخذوا موقفا ايجابيا من المسرح بشكل سريع . ويقول انهم استخدموا جميع وسائل الاتصال التي قدمها المجتمع البورجوازي ، وأوجدوا صحافة خاصة بهم ، ودخلوا البرلمان وكان لهم موقف خاص من شئون الدولة ، ولكنهم اهملوا المسرح . ويعزو بيسكاتور هذا الى ان الصراع السياسي قد اخذ كل جهدهم بحيث لم يتبق للشئون الثقافية أي مجال . من ناحية اخرى كان المسرح ، في مفهومهم ، مقتصرا على من يرتدي رباط عنق ابيض ولباس سهرة كاملا ، كذلك اعتقدوا ان المسرح هو للأيام الممتازة والعطلات السعيدة ، وانه من المستحيل ان يناقش الأمور اليومية من كلام عن الأجور وساعات العمل والصراع الطاحن الذي يعانونه . الى جانب ان تذاكر المسرح كانت تباع بأثمان مرتفعة خارج مقدور العمال .

من هنا اتجه بيسكاتور نحو إنشاء « مسرح الطبقة الكادحة » Prolitarisches Theater بمعاونة هيرمان شوللر Hermann Schüller خريف عام ١٩٢٠ . وكانت هذه هي المحاولة الأولى من نوعها من قبل مثقفي الجناح اليساري لتنظيم الشئون الثقافية للجماهير . وكان معظم العاملين في هذا المسرح من الممثلين الهواة ، بينما كان بيسكاتور وقلة آخرون من المحترفين . وكان هدف بيسكاتور هوكسر الحاجز القائم بين المحترفين والعمال وتحويل المجموعة بأكملها الى فريق له نفس القناعات السياسية . ولقد قوبل هذا المسرح في البداية بشيء من الفتور ، بالرغم من ان اثمان التذاكر كانت رخيصة وكانت تقدم بالمجان للعاطلين عن العمل ، وكان الهدف من المسرحيات المعروضة ان تكون ذات تأثير على الأحداث الجارية ، وان تتخذ شكلا من النشاط السياسي . ولقد حاول بيسكاتور من خلال هذا المسرح ان يقابل الجماهير على ارضهم ، وان يتعامل مع أفراد الطبقة الكادحة وحاول الابتعاد قدر المستطاع عن التعامل مع افراد الطبقة الوسطى من الممثلين . ولقد وجد بيسكاتور ان مسرحه هذا قد حقق كسبا ايجابيا مهما ، وان بدا صغيرا فانه قد اتخذ له مكانا مرموقا في الحركة البروليتارية ، وأخذ مكانه كعامل مهم في وسائل الاتصال للحركة الثورية ، وكان آخر عرض قدمه في ابريل ١٩٢١ .

وبعد اغلاق مسرح الطبقة الكادحة انتقل بيسكاتور الى مسرح جديد هو المسرح المركزي ، وكانت مهمة هذا المسرح هي معارضة مسرح الشعب .

●●●

وينتقل بيسكاتور بعد ذلك الى المرحلة الثانية من الكتاب وهي التي يتحدث فيها عن انتقاله الى « مسرح الشعب » . ففي عام ١٩٢٤ احتاج مسرح الشعب الى مدير لاخراج مسرحية « الاعلام » لمؤلفها الفونس باكيه Alfons Paquet وكان بيسكاتور جاهزا للوظيفة فحصل عليها . وفي هذه الفترة برز اسمه في مجال الاخراج المسرحي في برلين فأخرج احدى عشرة

مسرحية على مسرح الشعب ، وقدم اثنين للحزب الشيوعي ، مع تقديم بعض المسرحيات الأخرى في أماكن متفرقة : برلين وهامبورج وميونيخ .

وكانت مسرحية « الاعلام » من أشهر المسرحيات التي قدمت في تلك الفترة وكانت البداية لديه ميكنة المسرح وجعله « أداة » لتوصيل المعلومات وسلاحا للدعاية . ويعتبر بيسكاتور انه باخراج هذه المسرحية قد بدأ بتطوير ما سمي بعد ذلك بالمسرح الملحمي أو البطولي ، Epic Theater . وبالرغم من الانتقادات الكثيرة التي قوبل بها هذا العرض فان بيسكاتور قد وصل عن طريقه الى الموقع الذي احتله كمخرج معروف .

بعد هذا العرض قدم بيسكاتور أول اخراج مسرحي يعتمد على الوثائق السياسية فقط وكان بعنوان « رغم كل شيء » وذلك في يوليو (تموز) ١٩٢٥ . ثم قدم مسرحية « موجة غامرة » وكانت تدور حول انتصارات الثورة في روسية ، وانتقل بعد ذلك الى تقديم عرض « اللصوص » لمؤلفها شيللر Schiller ويعتبر هذا العرض جزءا من محاولة مستمرة نحو أسلوب حديث أو متطور للكلاسيكيات في جمهورية فايمار Weimar Republic . وتعليقا على هذه المسرحية يقول بيسكاتور : انه لا يشعر بأنه جانب التواضع حين يقول ان الازدهار في الدراما الثورية هو إحدى النتائج لأعماله التي قدمها . واعتبر ان مسرحه كان أول من قدم الدراما التي تعالج مشاكل العصر Topical Drama ، الدراما التي تؤمن برسالة اجتماعية معاصرة ، والتي لابد ان تشكل بندا هاما لا يمكن تجاهله في أي مسرح يحترم ما يقدم .

وجاء اخراج بيسكاتور لمسرحية « عاصفة على جونلاند » لمؤلفها ايم فلك Ehm- Welk الفيصل في الصراع بين فريقي مسرح الشعب من المحافظين (الداعين للفن من أجل الشعب) والجناح اليساري (اصحاب المسرح السياسي الملتزم) . ففي أواخر عام ١٩٢٦ كانت الدوريات الأدبية والجرائد اليومية تناقش باستمرار موضوعي « الحرية الفكرية » و « انقاذ الفن البحت » حتى أصبحت هذه المناقشة على أشدها في فبراير (شباط) ١٩٢٧ ، واصبحت مسألة المسرح السياسي التي كانت قد أثيرت بسبب اخراجه لبعض المسرحيات هي الحلبة التي يدور فيها الصراع السياسي اليومي ، وعندئذ اضطر مسرح الشعب ان يبين موقفه من مشاكل المسرح السياسي ، أي مسألة وجوده . وفي هذا الوقت ظهرت مسرحية « عاصفة على جونلاند » التحل الأشكال وتخرج للجمهور في اطار سياسي ، وكانا أثوها من طبيعة سياسية . وهكذا خرج المسرح السياسي من حدود وقيود المسرح التقليدي ، كما تحررت الدراما من القيود التي كانت مفروضة عليها من المؤلف . وهنا ثار المحافظون على بيسكاتور وأكدوا ان هذا المسرح يجب ان يكون بعيدا عن السياسة ، وطالبوا بحذف بعض المشاهد ، فاعتبر هذا التصرف نوعا من الرقابة التي كانت قد ألغيت في عام ١٩١٨ . ومن جراء هذا التصرف استقال بيسكاتور من وظيفته في مسرح الشعب ، وبذلك انتهت العاصفة التي أثيرت حول هذا الموضوع ، ولكن بعد ان حولت الصراع الذي دار حول هذه المسرحية الى صراع سياسي انتشر في جميع الأوساط العامة ، وليس عند المهتمين بالمسرح فحسب .

●●●

وبذلك تنتهي المرحلة الثانية وتبدأ المرحلة الثالثة

والأهم في حياة بيسكاتور والتي تعتبر نقطة التحول في مستقبله مع انتهاء مسألة مسرح الشعب في ٢٧ مارس (آذار) ١٩٢٧ . فبعد استقالته مباشرة من هذا المسرح استطاع عن طريق المساعي الحميدة للممثلة تيلا دورييه Tilla Durieux ان يقيم مسرحه الخاص بمساندة مالية غير مشروطة لموسم كامل ، فحصل على مسرح « تياتر آم نولندورف بلاتز Theater am Nollendorf Platz ، ويقع هذا المسرح في الضاحية الغربية من المدينة . ولقد أخذوا على بيسكاتور انه أدار ظهره الى مناطق الطبقة الكادحة ، فكان رده المباشر انه : لا يهدف إلى التبشير لصفوف هذه الطبقة التي تحولت فعلا الى الشيوعية وانما يهدف الى ان يكتسب البورجوازيين الأقل التزاما في بورجوازيتهم ، وان هذا المسرح هو المكان الوحيد الذي أمكنه الحصول عليه .

ويعلّق بيسكاتور على مسرحه هذا فيقول : إن هذا المسرح لا يرتبط ولا يلتزم بأي حزب من الأحزاب وانه قام بدون مساعدة من أي حزب ، ولكنه من الناحية السياسية والفلسفية يقترب كثيرا من الحزب الشيوعي الالماني دون ان يربط نفسه حزبيا بأي جانب . ولقد كان هذا المسرح مسرحا ثوريا ، ترك صدى واسعا في نفوس الجماهير العامة مما دلّ على مدى التفتت الداخلي للمجتمع البورجوازي . ولقد فتح مسرح بيسكاتور Piscator- Bühne أبوابه للأطباء والمحامين والمعلمين والكتّاب ، مما جعل الصحافة الحرة تفتح صفحاتها ليعرضوا عليها آراءهم .

وفي ١٦ اكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٢٧ افتتح بيسكاتور ستوديو في مسرحه ، وهي فكرة أخذها من مسرح الشعب الذي كان قد أنشأ « الأقسام الخاصة » والتي كانت عبارة عن تنظيم مستقل داخل هذا المسرح . ولقد طوّر بيسكاتور هذه الفكرة فأنشأ مجموعة تجريبية تعمل داخل مجموعة أكبر منها ، وهذا ما كان قد فعله راينهارت في « المسرح الألماني » من قبل .

حين عمل بيسكاتور كمدير لمسرح الشعب ، كانت المسرحيات التي تقدم في برلين لاتمت للعصر بصلة ، فكان همه الأول في تلك الفترة ، هو اعادة تشكيل هذه المسرحيات في اطار جديد بحيث تناسب العصر من وجهة النظر الثورية والاجتماعية واعطاء هذه المسرحيات عمقا . وحين انتقل بيسكاتور الى مسرحه طوّر ما يقدّمه على المسرح بحيث قدّم مفاهيم جديدة للمسرح أهمّها نظرية أسماها « وجهة النظر الجديدة » ، نقطة الارتكاز الأساسية فيها تعتمد على وظيفة الانسان في الحياة وتتمثل في : وضع الانسان ، مظهره ، وظيفته في اطار المسرح الثوري ، الانسان وانفعالاته ، علاقاته : الخاصة أو العامة التي يفرضها عليه المجتمع ، موقفه ازاء القوى الخارقة : الله ، المصير ، القدر أو أي شكل آخر تتخذه هذه القوى في مجال التطور . وكانت مهمة المثقفين القائمين على المسرح - في رأي بيسكاتور - هي : اظهار الانسان في أنقى صوره وبتعبير أدق : اظهاره كتحضير كيماوي نقي ، وجعل هذا « شيئا في حدّ ذاته » ، ليس كمركز أساسي للدراما فقط ، بل للمسرح ككل . وبذلك يكون مبدأ « الفن من أجل الشعب » قد تحول عنده الى مبدأ « سيطرة الفن » عن طريق « عظمة الانسان » .

هذه النظرية الجديدة التي قدمها « المسرح السياسي » لبيسكاتور ، تقوم على افتراضات وظيفية جديدة كل الجدة ، لأن الانسان قد بدأ يتعامل مع تغير قوي منذ الوهلة الأولى بالظروف الاجتماعية الطارئة التي تتمثل

في الحرب والثورة . هذه العوامل غيرت الانسان من حيث بناؤه الثقافي وموقفه من المجتمع بوجه عام . والانسان الذي يتعامل معه المسرح مغزاه بالنسبة للقائمين على العمل المسرحي : انه وظيفة اجتماعية ، والنقطة التي يجب ان تهم هؤلاء هي علاقته بالمجتمع وليس علاقته بنفسه أو بالله . وعندما يظهر على خشبة المسرح فان طبقته (بمعنى شريحته الاجتماعية) Social Stratum تظهر معه ، وصراعاته الأخلاقية والروحية والجنسية تعتبر صراعات مع المجتمع . قد يكون القدماء قد ركزوا على علاقة الانسان بالقدر ، وربما ركزوا في العصور الوسطى على علاقته بالله ، وفي عصر العقلانية Rationalism ركزوا على علاقته بالطبيعة ، وفي عصر الرومانسية ركزوا على القوة الكامنة في العواطف . وعلى ذلك فان العصر الذي تظهر فيه على السطح العلاقة بين الأفراد في المجتمع والذي يشهد مراجعة للقيم الانسانية واعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية ـ لا يمكن الا ان ينظر للجنس البشري من خلال المجتمع والمشاكل الاجتماعية للعصر ، بعبارة أخرى لابد ان ينظر للانسان ككائن سياسي ـ ان التركيز على وجهة النظر السياسية في معالجة الانسان (وهو أمر ناتج عن عدم التناسق والانسجام في الأحوال الاجتماعية في العصر الحالي) ربما يؤدي الى نظرة مشوهة للمثل العليا الانسانية . ولكن هذه النظرة المشوهة لها ميزة واحدة على الأقل وهي أنها تتفق مع الحقيقة .

ويقول بيسكاتور : انا كثوريين ماركسيين لا نستطيع ان نعتبر مهمتنا قد اكتملت اذا أنتجنا نسخة غير نقدية للمجتمع معتقدين أن المسرح هو مجرد مرآة للعصر ، كذلك فان مهمتنا ليست ان نغطي عدم التناسق الموجود في المجتمع بحجاب من اللباقة ، كما انه لا يمكننا ان تصور الانسان ككائن يتسامى بعظمته في عصر ينطوي على عوامل تؤدي الى تشويه هذا الانسان ـ بعبارة وجيزة ، ان مهمتنا ليست استخدام المسرح كمؤثر مثالي . ان المهمة الحقيقية للمسرح الثوري هي ان يتخذ من الحقيقة نقطة انطلاق ، يبدأ بعدها في تضخيم الفوضى الاجتماعية » وبذلك يجعل منها عنصرا من عناصر اتهامنا للمجتمع السائد ، كمقدمة لثورتنا ونظامنا الجديد » .

وبما ان لكل عصر من العصور قيمه التي آمن بها وأبرزها من خلال الأعمال المسرحية ، وان هذه القيم قد اختلفت من عصر لآخر ، وما كان يهم العصر الكلاسيكي او المثالي او الأخلاقي فانه لا يهمنا ، فان قدرنا ، حسبما يرى بيسكاتور ، قد وقع في علم الاقتصاد وعلم السياسة ، لأن نتيجة هذين العلمين معا هو المجتمع او النسيج الاجتماعي . وبأخذ هذه العوامل الثلاثة في الاعتبار ، سواء بتأكيدها أو بالصراع ضدها ، نصل الى المظهر التاريخي للقرن العشرين .

●●●

بعد ان شرح بيسكاتور نظريته الجديدة والتي قام عليها موضوع الكتاب ، وهو ما أبرزه في جميع أعماله المسرحية فيما بعد ، والتي قدمها على مسرحه الخاص Piscator - Bühne انتقل للحديث عما قدمه هذا المسرح . وأول ما قام به بيسكاتور في مسرحه الجديد ، هو انشاء مكتب مستقل للعمل الخاص بالتأليف المسرحي dramaturgic office ، واعتبر ان هذا المكتب غير كاف ليحقق ما يصبو اليه ، فالعمل المسرحي في نظره ، عمل جماعي ، يحتاج الى مشاركة ومعاونة تامة مع الآخرين ، ويحتاج هذا العمل الى

مجموعة متآلفة ، تفكر بطريقة متشابهة حتى يظهر العمل بشكل متكامل ويصل الى النجاح . وهذا ما تم لبيسكاتور ، فقد انتقل الى مسرحه مجموعة كانت تعمل معه حين كان مديرا لمسرح الشعب ، فانتقل العمل الجماعي معه ، واصبح العمل بسيطا وواضحا وجماعيا في كل شيء ، بحيث كان جميع المشتغلين معه يعرفون آخر فكرة وردت على ذهنه كمخرج ومن ثم يستطيعون ان يتعاونوا معه ويقدموا أفضل ما عندهم . والجماعة التي تعاونت مع بيسكاتور كانت تتكون من رفقاء يشتركون في نفس روح الثورة الواحدة ويهتمون بالمسائل الفنية ويشرفون عليها ويتحملون المسئولية الجماعية في « مسرح بيسكاتور » . وتحددت المسئولية في هذا المسرح ، وتوزعت الأعمال بناء على لائحة داخلية خاصة بهذا المسرح بحيث وصل الى ما حققه من نجاح فيما بعد

وينتقل بيسكاتور ليتكلم عن أهم ما قدمه على مسرحه من عروض ، فكان أول عرض « هكذا الحياة ! » لارنست توللر Ernest Toller ، وفي هذه المسرحية حاول بيسكاتور إضفاء أساس من الواقع على هذا العرض ، وذلك حين كانت فكرة المسرحية هي : احضار ثائر كان قد أمضى ثماني سنوات في مستشفى للأمراض العقلية ، ثم مجابهته بعالم ١٩٢٧ ، بعالم الثورة . ويعتبر بيسكاتور أن كلا من العواطف والوقائع السياسية تلعب دورا أساسيا في الدراما ، وهذا ما حاول باستمرار ابرازه في معظم عروضه . فالمشاعر يجب ابرازها جيدا في الاطار العام للعمل المسرحي ، على ألا تلعب دورا حاسما ، وألا تأخذ شكلا مستقلا بحيث تبعد عن الهدف المقصود ابرازه للجمهور . ووجهة نظره هذه ، تنبع من قناعاته هو وزملائه من الناحية السياسية ، فان على المؤلف أن يلتزم بابراز وجهة النظر الجماعية والتعبير عنها ، عليه أن يبتعد قدر المستطاع عن ابرازه لميوله الشخصية أو اتجاهاته الفلسفية ، بل يجب أن يبرز أشخاص مسرحياته من حيث تكوينهم الثقافي وأن يوضح معنى أعمالهم ويبين قيمة هذه الأعمال ، ويبعد عن الذات ، فعصر التعبير عن الذات ، قد ولى في نظره .

ومع ارتفاع الستار عن العرض الأول في « مسرح بيسكاتور » في ٣ سبتمبر (أيلول) من عام ١٩٢٧ ، قدم البرنامج بعض الملاحظات التي كانت ذات أهمية بالنسبة للقائمين على المسرح . وكانت عبارة الافتتاح « هذا المسرح لم يقم ليقدم سياسة ، ولكنه قام ليحرر الفن من السياسة » ، ولقد اعتبرت هذه الجملة من البعض « خيانة للمبدأ » ، وتوجيها للاتهام لبيسكاتور وجماعته ، بينما كان القصد منها في حقيقة الأمر استباقا للهدف ، والذى أساءوا فهمها كانوا في الواقع - حسبما يذكر بيسكاتور - هم الذين فشلوا في أن يدركوا أننا قبل أن نصل الى هذا الهدف لابد وأن نشارك في الصراع السياسي » . ثم يذكر لنا أن هدفه هو وجماعته كان تقديم عمل مسرحي عظيم ، ولكن هذا العمل تحول الى حدث سياسي ، فبمجرد نزول الستار على آخر مشهد في المسرحية ، اشترك الجميع في غناء النشيد الوطني ، ولم يكن في ذهن أحد من القائمين على هذا المسرح أن تنتهي هذه الليلة بدليل أو برهان سياسي ، وهكذا انتهت الليلة الأولى في مسرح بيسكاتور بظهور المسرح السياسي .

أما العرض الثاني الذى قدمه « بيسكاتور » ، فقد كان مسرحية « راسبوتين » وفي هذه المسرحية يقوم القيصر بدور كامل ، ويظهر على مدى مشهدين كاملين ، ويتكلم على خشبة المسرح لمدة طويلة . وهنا

تدخلت المحكمة لالغاء الجزء الخاص بظهور القيصر في هذه المسرحية . وعلى هذا الاجراء يرد بيسكاتور بالرفض على هذا الطلب ، ويعتبر أن المسرح الذى يعالج قضايا الساعة Topical Theater ، يجب ان يقوم بدور فعال وايجابي في مجرى الأمور الراهنة ، ويظهر تطور التاريخ كما هو ، وفي هذه المحاولات لا يقبل المسرح أية قيود عليه ، بل يرى أن من حقه اظهار جميع الأشخاص الذين قاموا بدور معين في التطور التاريخي لفترة معينة ، وخاصة اذا كانوا من القوى المؤثرة في النواحى الاجتماعية والسياسية لهذه الفترة ، والقيد الوحيد الذي يعترف به هذا النوع من المسرح هو مراعاة الدقة التامة واظهار الحقيقة التاريخية كما هى .

ويضيف بيسكاتور ، أنه حين يحاول ابراز نقطة من نقط التحول في تاريخ أوروبة فانه يتوخى الدقة ، وكان عليه حينئذ أن يظهر شخصية القيصر الألماني السابق على المسرح بين الشخصيات الأخرى التى لعبت دورا في ذلك الوقت ، دون أن يكون في ذهنه اظهار صورة مشوهة لهذه الشخصيات . ولقد حاول أن يكون دقيقا قدر المستطاع في ابراز جوانب هذه الشخصية من واقع الأوراق الرسمية التى أمكنه الوصول اليها ، ومن هذا الواقع استطاع أن يثبت أن مقاليد الأمور قد وضعت بين يدى من لا يستطيع القيام بواجباته على أحسن وجه ، ومع ذلك فانه (أى بيسكاتور) لا يستطيع أن يضع اللوم على القيصر شخصيا ، ولكن على الجهاز المحيط به ككل لخطئهم في اختيارهم لقائدهم . ولقد كان جل اهتمام بيسكاتور هو اعطاء صورة واضحة عن كل القوى التى أدت للانهيار الذى حدث بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ ، وهى فترة لا مثيل لها في تاريخ أوروبة السياسى .

ويعتبر بيسكاتور أن مسرح قضايا الساعة لا يمكنه أن يقوم بدوره الفعال لو اقتصر هذا الدور على إبراز القضايا التاريخية فقط ، دون أن يذكر أو يبين الدروس التي يجب علينا الاستفادة منها في الحاضر لتجنب الوقوع في أخطاء مماثلة ، ولا يكفي أن نعتبر المسرح مرآة للعصر ، بل يجب أن يكون وسيلة لتغيير شئون العصر . إن إبراز فكرة أى تعمق فلسفي تاريخي ناتج عن حقائق تاريخية صرفة هو مرادف عند بيسكاتور للمتطلبات النهائية للفن . وبهذا المعنى في الذهن ، يصبح الهجوم الجدلي على شخص بمفرده ، حتى وإن كان هذا الفرد هو القيصر السابق نفسه ، شيئا تافها ولا طائل من ورائه .

ومع ذلك فان المحكمة قد أصدرت حكمها ضد « مسرح بيسكاتور » بطلب حذف الجزء الخاص بظهور القيصر بلهلم الثاني على المسرح . وبقدر ما ضايق هذا القرار بيسكاتور والقائمين على المسرح ، ضايق الممثل الذى يقوم بدور القيصر ، والذى كان يشبهه في الشكل بدرجة كبيرة ، وكان قد أتقن دوره وحاول أن يكون شبيها له في الكلام والتصرفات .

بعد هاتين المسرحيتين انتقل بيسكاتور إلى موضوع آخر في مسرحه وهو : مجال الصراع الدولي السياسي الصناعي ، فقد خاض مغامرة هذا الصراع من خلال مسرحية « ازدهار » . ولكن القضية من خلال هذه المسرحية ، كانت قضية حساسة للغاية ، على حد تعبيره ، لأنها كانت تمس موقف الاتحاد السوفيتي في صراعه السياسي والاقتصادي في مجال أسواق النفط ، كما تمس علاقة الاتحاد السوفيتي بأمريكا والشركات الانجليزية التي تنتج وتبيع النفط ، وتمس موقف السوفييت كمنافس في مجال الاقتصاد الدولى

الرأسمالي . ولكن الموقف لم ينته عند هذا الحد ، فان الجزء الثاني من المسرحية يظهر الاتحاد السوفيتي بمظهر من يثير الفتن ويحرض على الثورات من أجل الاستيلاء على أسواق النفط . وهذا موقف محرج بالنسبة للقائمين على « مسرح بيسكاتور » ولا يمكنهم إتمام العرض بالاساءة إلى الاتحاد السوفيتي الذى يبدو مدافعا عن حقوق العمال من ناحية ، بينما هو يحرض على الثورات من أجل النفط من ناحية أخرى . . . . هذا الموقف أدى إلى تأجيل تقديم العرض عدة أيام حتى يتسنى لبيسكاتور تغيير بعض الأدوار حتى يخفف من حدة الموقف قبل تقديم مسرحية « ازدهار » . ولكن الصدى الذى تركه هذا العرض في نفوس الجمهور كان مليئا بالتناقضات كغيره من العروض التى قدمها هذا المسرح في ذلك الموسم . على أن الشيء المدهش حقيقة ، على حد تعبير بيسكاتور ، هو أن صَحافة اليمين التى لم تكن تمل من وصف عروض هذا المسرح بأنها مملة ومثيرة للضجر وجافة قد بدأت الآن فجأة تهاجم هذه المسرحية « التى احتلت المكان الأول » على مسارح برودواى .

●●●

وبعد ذلك انتقل بيسكاتور إلى الكلام عن الاستوديو الذى افتتحه مسرحه في أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٢٨ ، والذى يعتبر إسهاما في مجال تطوير المسرح السياسي ، حيث كان هذا الاستوديو يقدم دروسا نظرية وتمارين عملية في هذا المجال . وكان هذا الاستوديو تحت إشراف بيسكاتور نفسه ، وكان يغطي معظم جوانب التمثيل ، كما أن فصوله فتحت لجميع أفراد المجموعة وللمهتمين بالموضوع من خارجها . ولقد طغى الاخراج المسرحى على جميع النشاطات الأخرى للاستوديو بحيث قدم في نهاية الموسم أربعة عروض مسرحية للجمهور . وبالرغم من أن هذه العروض قد قدمت شخصيات بروليتارية ، إلا أنها لم تقدم جديدا في المجال الاقتصادى والاجتماعي اللذين يعتبران الدعائم الأساسية لأعمال بيسكاتور .

وبالرغم من أن أعمال الأستوديو كانت عاملا مشجعا بالنسبة لمعنويات الأعضاء الشباب ، إلا أن هذه الأعمال لم تكتشف أرضا جديدة في هذا المجال ، ولكنها قدمت للمدى البعيد المستقبل الطريق إلى المنشأة المسرحية التى أسسها بيسكاتور فيما بعد في عام ١٩٣٨ في نيويورك وأطلق عليها اسم « مركز أو مصنع الأعمال الدرامية » Dramatic Workshop .

●●●

ونأتى الآن إلى المرحلة الرابعة والأخيرة في هذا الكتاب وهى الفترة التى تلت فترة ازدهار مسرح بيسكاتور ، أو إذا أردنا تعبيرا آخر « ما بعد » مسرح بيسكاتور . وتبدأ هذه الفترة حين افتتح بيسكاتور مسرحا آخر إلى جانب « مسرح بيسكاتور » وذلك ليتسنى له عرض جميع المسرحيات التى كان قد وعد الجمهور بتقديمها . وهنا تصاعدت الضرائب عليه ، فلم يستطع المسرح أن يدفع ما عليه للدولة ، فأشهر إفلاسه وأغلق المسرحان . ولكن بعد مدة من الزمن ، وبمساعدة بعض الأصدقاء استطاع أن ينشىء له مسرحا من جديد ، وشرح لأصدقائه أنه محتاج لمساعدتهم لتقديم النظريات التى يؤمن بها ، والتى أشرنا إليها سابقا ، على المسرح ، فأشار عليه دوروس Durus ، الناقد المسرحي للمجموعة ، بأن ينضم إلى « رابطة مسرح العمال » وتقع تحت نفوذ الحزب الشيوعي ولكن بيسكاتور رفض ذلك .

بعد إغلاق « مسرح بيسكاتور » ظهرت بعض الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تركت آثارا هامة في المجتمع الأوروبي . ففي عام ١٩٢٩ بدأ العالم في التسلح من جديد وبدأ الخوف من اليمين يظهر عند الكثيرين ، واشتد التعاطف مع اليسار ومع المجتمع البروليتاري العمالي ، وبدأ التوتر في كل شيء بوضوح . ومن ثم فقد تأثر المسرح بهذه العوامل التي كانت تسود العالم فهو ليس بمعزل عما يدور حوله . فالمسرح البورجوازي اتخذ له موقفا من مشكلات العصر ، والمسرح الفني بدأ ينقرض ، فلم يعد هناك مسرح من أجل الفن في حد ذاته . فالجمهور - حتى البورجوازي منه - لم يعد يهتم بمثل هذا النوع من المسرح ، بل بدأ التساؤل يظهر عن المشكلات السياسية والاجتماعية ، وأخذ الناس يبحثون عن حل لمشكلاتهم من خلال المسرح الذي أخذ يتجه نحو اليسار بشكل واضح في جميع مسارح برلين .

وبعد ذلك ، لم يعد المسرح السياسي هو آخر صيحة في عالم المسرح ككل ، بل اضطر القائمون على المسارح إلى إدخال التجديدات على الأساليب الفنية ، فالحقيقة أن تداخل الثورة الفكرية في المسرح مع التجديد في الأصول الفنية لم يكن محض صدفة ، بل إن التطور الفني كان يشكل تطورا عضويا من التطور الفكري .

●●●

في هذه المرحلة من أعمال بيسكاتور ، قدم للجمهور عدة مسرحيات أشهرها (تاجر برلين) والتي عالج فيها : التضخم المالي والاقتصادي . ولكن عرضا واحدا لم يكن يكفي في نظر بيسكاتور ، للالمام بهذا الموضوع فقرر تقديمها في عدة عروض متصورا هذه المسرحية ممتدة على ثلاث مراحل ، المرحلة الأولى : المرحلة المأساوية Tragic (بروليتاريا) ، المرحلة الثانية : المرحلة التراجيكوميدية Tragicomic أو التي تجمع بين المأساة والملهاة (الطبقة الوسطى) ، والمرحلة الثالثة والأخيرة : المرحلة البشعة Grotes-que (الطبقات العليا والعسكرية) . ولقد قدم بيسكاتور هذه المسرحية معبرا بها عن تقسيم سوسيولوجي عرضه بمساعدة السلالم والجسور ، وكل طبقة من الطبقات اتخذت لنفسها مرحلة من المراحل . ولكن المشاكل التي قابلت بيسكاتور في تقديمه هذه المسرحية ، هي أن البطل كان يهوديا رأسماليا ، وكان هدف بيسكاتور هو معالجة رأسمالية ، وليس معالجة عنصرية ، ولكنه وقع في خطأ الازدواجية ، وهذا ما أثار النقد المر من حوله .

وهنا يتساءل بيسكاتور بعد هذه المشاكل الكثيرة التي واجهته في تقديم هذه المسرحية : هل سيستطيع الاستمرار في تقديم المسرح السياسي الذي ارتبط اسمه به ؟ ورده على ذلك هو : نعم ! فمهما حدث ومهما اكتنف الغموض مسرحه في بعض الأحيان وعدم تفهم الزملاء في أحيان أخرى ، فانه سيستمر في نفس الخط الذي اتخذه لنفسه منذ البداية مهما كلفه ذلك .

ومن مسرحيات بيسكاتور التي قدمها في هذه الفترة أيضا مسرحية « نساء في محنة » لمؤلفها كارل كريديه Carl Crede، وتقديمه لهذه المسرحية كان في اطار محاولاته الأخيرة لكي ينشيء لنفسه مسرحا ذا مكانة مرموقة في جمهورية فايمار Weimar Republic وتناقش هذه المسرحية فقرة من القانون المدني الذي يعتبر الاجهاض بموجبها عملا غير قانوني . ويبين من خلال هذه المسرحية كيف أنه بامكان الأغنياء الذهاب الى

أطباء لاجراء عملية الاجهاض بدفع أتعاب لهؤلاء الأطباء ، بينما لا تستطيع النساء الفقيرات ذلك فيضطررن للجوء الى بعض الأشخاص الذين يقومون بهذه العملية فى الشوارع الخلفية وبطريقة غير مأمونة ، مما يؤدى بالكثيرات منهن للوفاة أو ان الكثيرات يتعرضن لمتاعب صحية كثيرة تحتاج لرعاية طبية طويلة المدى ، وغالبا ما يحدث هذا بين الفقيرات من زوجات العمال .

ولقد قدمت هذه المسرحية فى عروض خاصة للأطباء والمحامين وبعض الشخصيات المحلية ، وأثير حولها جدل كثير ، ونوقشت هذه الفقرة من القانون المدنى وقامت بشأنها دراسات كثيرة ومتعددة .

●●●

وبعد هذه الفترة انتقل بيسكاتور للعمل فى مسرحيات متفرقة ومتعددة لم تلاق النجاح الذى لاقته المسرحيات الأولى ، وانتهى به العمل فى جمهورية فايمار الى الانتقال الى مسرح قديم ، فى ضاحية آهلة بالسكان من الطبقة العاملة ، وعزل بسبب ذلك من قبل الجمهور البورجوازى ومن صحافته .

وفى عام ١٩٣١ ذهب بيسكاتور الى الاتحاد السوفيتى ليقدم هناك فيلما عن رواية لآنا سجهر Anna Segher وعنوانها « ثورة صياد سانت باربرا » ، ولقد بقى هناك حتى عام ١٩٣٦ . وبعد ذلك ذهب فى رحلة الى الغرب لم يعد منها الى الاتحاد السوفيتى أبدا . وفى ١٩٤٢ أخرج ، بمساعدة ألفريد نيومان Alfred newman « الحرب والسلام » لمؤلفها تولستوى فى نيويورك ، حيث بقى هناك وأنشأ ما أسماه « مركز الأعمال الدرامية » فى « المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعى » New School for Social Research ، كما ذكرنا سابقا ، وذلك بعد وصوله الى هنالك عام ١٩٣٨ . ولقد عمل بيسكاتور مع بعض زملائه حتى عاد الى جمهورية ألمانيا الاتحادية فى عام ١٩٥١ ، وهناك عين بعد سنين مضنية من العمل الشاق مسئولا عن مسرح الشعب الذى أنشىء هناك حديثا وذلك فى برلين الغربية . وبدأ بيسكاتور باخراج مسرحيات وثائقية عديدة كانت قد احتجبت فى فترة جمهورية فيمار ، وظل يعمل فى منصبه هذا حتى توفى فى ٣٠ مارس (آذار) ١٩٦٦

●●●

قدم بيسكاتور للمسرح الحديث ما يزيد على الأربعين مسرحية ، بعضها أوبرات ، وبعضها روايات ممسرحة ، وبعضها مسرحيات ألمانية معاصرة ، ومسرحيات تاريخية ألمانية ، والبعض الآخر تاريخية روسية ، ومسرحيات عالمية تعالج قضايا الساعة ، الى جانب تقديمه لبعض المسرحيات الكلاسيكية . كذلك أسهم بيسكاتور فى تقديم موضوعات اجتماعية صاغها فى قالب مسرحى ليعرضها على الجمهور . من هذه الموضوعات : الزواج ، الصحافة ، الرياضة ، مشكلة الدواء ، نظام البنوك ، كما قدم بعض الموضوعات التى عاصرت هذه الفترة مثل موضوع : الثورة الفرنسية ، مناقشات لينين ، وقضية الاستعمار وغيرها من الموضوعات .

كذلك لاحظ بيسكاتور أن الأهمية التى افترضتها الحرب فى الأدب ، وخاصة فى العقد الأخير الذى عاصر مسرحه ، تعكس بوضوح الضغوط الكبيرة فى التطور الاجتماعى والثقافى لأوروبة . كذلك وجد أن كثيرا من

المؤلفين يقفون فى محاولة لاتخاذ موقف معين من هذه الحرب ، وهذا ما حاول هو وجماعته ابرازه فى عدد من مسرحياته . فعلى سبيل المثال وضع تصميما لعقد كامل من تاريخ ألمانيا فى مسرحية « هكذا الحياة ! » ، وعرض جذور الثورة الروسية والقوى التى كانت خلفها والتى حركتها فى مسرحية « راسبوتين » ، وأما فى رواية شفايك **Schwejk** فقد ألقى الضوء على عقدة الحرب بوجه عام .

***

الحُريَة واللغَـة

تأليف جيفري سامبسون
عرض وتحليل محمود حمدي عبد الغني

حين ظهر كتاب « نوم تشومسكي » Noam Chomsky « التراكيب النحوية » Syntactic Structures عام ١٩٥٧ لم يكن أحد يتوقع مدى الآثار التي يمكن أن يحدثها مؤلف هذا الكتاب في الفكر المعاصر ، فمنذ ذلك الوقت أصبح تشومسكي علامة بارزة في العالم الأكاديمي ، فقد شد الانتباه الى ما سماه بالأشكال العامة غير المحددة للغات - والتي كانت تعالج حتى الوقت الذي ظهر فيه بطريقة مختلفة تماماً ، وعلى الرغم من أن كتاباته الأكاديمية اهتمت بمعالجة القضايا الفلسفية والسيكولوجية - الا أنها جاءت في قالب علمي خالص ، عبرت بصورة واضحة عن مقدرته العلمية الفذة ، فلم تكون نظريته عن « العموميات اللغوية » نتاجاً لبحثه في طبيعة اللغة ، وانما كانت محاولة جديدة تماماً على الأوساط العلمية لفهم طبيعة العقل البشري ، وطبيعة العلاقة بين العقل والجسم ، فمن هنا أحدثت أفكاره آثاراً هامة في ميادين أبعد ما تكون عن علم اللغة ذاته كالفلسفة والانثروبولوجيا وعلم النفس والبيولوجيا ، وأصبح بذلك أول عالم في كل تاريخ علم اللغة ينتشر اسمه كل هذا الانتشار .

وتشومسكي الذي يشغل حالياً منصب استاذ في معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا .M.I.T لا ترجع شهرته فقط الى علم اللغة - بل ترجع الى صلته القوية بحركة اليسار الجديد New Left في امريكا ، وهي الحركة التي أعادت تقييم المذهب الماركسي Marxism ، فهو يعتبر من أبرز متحدثي اليسار الأمريكي الجديد ، نتيجة لكتاباته النقدية للسياسة الأمريكية الخارجية وبخاصة التدخل الأمريكي في فيتنام ، ونتيجة لمعارضته القوية لتشجيع الحكومة الأمريكية الاحتلال اليهودي الفلسطيني ، فقد نشرت له

— Geoggrey Sampson; Liberty & Language; Oxford University Press, Oxford, England, 1979.

كثير من المقالات في سلسلة World Readers في الولايات الأمريكية ، وفي سلسلة Modern Masters في بريطانيا ، فقد أدى ذلك أن يحتل مكانة عالية في أسواق السيامة العالية .

والكتاب الذي نقوم بعرضه هو كتاب « الحرية واللغة » Liberty & Launguage ومؤلفه هو جيفري سامبسون G. Sampson (أحد أعلام علم اللغة المعاصرين) يعتبر أحد الكتب العديدة التي ظهرت لتعبر عن مدى الآثار التي أحدثها تشومسكي في الفكر المعاصر على امتداد ما يقرب من ربع قرن ، والموضوع الرئيسي لهذا الكتاب هو تشومسكي ذاته ، يتناول فيه المؤلف أفكاره السياسية ـ تلك الأفكار التي انبعثت عنها نظريته اللغوية ، وهذا في الحقيقة يشير الى مدى الصعوبة والتعقيد والعمق التي تميزت بها أفكاره . ويقع الكتاب في ٢٥١ صفحة من القطع المتوسط ، وقامت بطبعه جامعة اكسفورد عام ١٩٧٩ . ومع أن كتابات تشومسكي تزخر بالكثير من المصطلحات العلمية الفنية ، بحيث أننا لا نكاد نرى كتاباً له أو مقالاً يخلو من هذه المصطلحات وبخاصة كتاباته الأكاديمية ، الا أن الكتاب الذي بأيدينا قد جاء بعيداً عن هذه المصطلحات ، والسبب في ذلك أن المؤلف يقدمه للقارىء العادي قبل المتخصص . ويحتوي الكتاب على سبعة فصول أساسية ، الفصل الأول مقدمة ، والثاني بعنوان : من علم اللغة حتى الفوضوية From Linguistics to Anarchism والثالث الليبرالية والابداع Liberalism & Creativity، والرابع علم اللغة يواجه الليبرالية Linguistics Versus Liberalism والخامس تشومسكي ـ السلالة والسياسة الخارجية Chomsky, Race & Foreign Policy والسادس ماذا نعرف وكيف نعرفه What We Know & How We Know it ? والسابع الخلاصة Conclusion، هذا بالاضافة الى ثلاثة ملاحق ، خصص المؤلف الملحق الأول لملاحظاته عن الدراسة ، والثاني للمراجع التي استعان بها في دراسته والثالث لدليل الأسماء التي وردت بالدراسة . وسنتناول فيما يلي بعض فصول هذا الكتاب :

المقدمة :

يعرض المؤلف في مقدمته الهدف من الكتاب ، ويبدأ هذا العرض بمناقشة دقيقة للآثار التي تركتها النزعة العلمية التي تغلغلت في مختلف مظاهر الشئون الاجتماعية والانسانية ، فلقد كان نتيجة تزايد استخدام المنهج العلمي أن طبق في مجالات لم تكن تسمح بهذا التطبيق ، وهي المجالات المرتبطة بالطبيعة البشرية ، فلقد أظهر هذا التطبيق ردود أفعال عنيفة وموجة من المناقشات ـ تبلورت في أوضح صورها في رفض الشباب للتقدم العلمي والتكنولوجي المعاصر ـ حيث كان رفضهم موجهاً أساساً الى نوع الحياة الناتج عن تطبيق المنهج العلمي ، فالكتاب يتناول أفكار تشومسكي وذلك لأنه من أبرز العلماء اللذين اهتموا بالادعاءات العلمية الكاذبة السائدة في العالم المعاصر ، ويعرفنا المؤلف في مقدمته على فكر تشومسكي الذي يتميز بجانبين ـ الجانب الأكاديمي الذي يعبر عن مقدرته العلمية الفذة ، والجانب السياسي الذي كان نتيجة مباشرة لنظرته الجديدة للطبيعة البشرية التي حققها في ابحاثه الأكاديمية الخاصة بطبيعة اللغة . والمؤلف يحاول في هذا الكتاب الكشف عن مدى ارتباط فكره السياسي بفكره الأكاديمي ـ فمع أن تشومسكي لم يشر لأية صلة بين جانبي فكره ـ الا أنه مال في السنوات الأخيرة الى ربط نشاطه السياسي والأكاديمي معاً ، ويذكر المؤلف أنه يعتمد في تحقيق هدفه على مفهوم الابداع

Creativity فلقد تناول هـذا المفهوم بـاعتباره أهم مصطلح في المذهب الليبرالي ، وفي أعمال تشومسكي الأكاديمية . . ويشير المؤلف أن هدفه هو تنفيذ آراء تشومسكي ، فعلى الرغم من أنه ناقش آراءه السياسة بدقة وجدراة وشد الاعجاب لتلك المناقشات ، الا أن كتاباته الأكاديمية أظهرت نقصاً يبعث على الهلاك ، فلقد استخدم تشومسكي مصطلح الابداع استخداماً أوسع من استخدام الليبراليين له ـ ومع ذلك فقد ظهر مفهومه مختلفاً عن المعنى الليبرالي للمصطلح لفهم الحياة ، فلقد سلم تشومسكي بالمظهر الضيق للغة الانسانية (النحو ـ التسمية) وهذا في رأي المؤلف يدل على قصور فهم تشومسكي لهذا المصطلح ـ فاهمال تشومسكي للجانب الدلالي من اللغة وادعاؤه بأن (علم النحو) يفند الليبرالية أدى الى عدم صمود هذا الادعاء ـ حيث ان علم الدلالة يؤيد تماماً المذهب الليبرالي . على أية حال فان المؤلف يقول ان الكتاب محدد في الهدف يبدأ من الهجوم على القالب القديم للمذهب الليبرالي ـ وينتقل لابراز الاسهامات التي قدمها هذا المذهب في دراسة اللغة ، وإظهار أن هذه الاسهامات تجيء على النقيض لتلك المعتقدات التي سلم بها تشومسكي .

من علم اللغة الى الفوضوية :

يتناول المؤلف في هـذا الفصل فكر تشومسكي الأكاديمي ، وانتقل ليناقش فكر تشومسكي السياسي وذلك بالاشارة الى المذهب الليبرالي ، وتناول أسس الفلسفة العقلانية (التي اتجه اليها تشومسكي) والفلسفة التجريبية في تفسير المعرفة الانسانية ، فقد تناول تشومسكي طبيعة اللغة ، ولقد قوبلت مناقشاته بسوء فهم وخاصة تحليله الفلسفي لمفهوم اللغة ، ورغم ذلك فلقد جذب تشومسكي الانتباه الى ما سماه بالأشكال العامة غير المحددة للغات الانسانية ـ والتي كانت حتى ذلك الوقت تعالج بالاشارة الى اعتبارات مختلفة تماماً ، لقد تناول المؤلف شرح الصيغة النهائية لنظرية العموميات اللغوية ـ وخاصة العموميات النحوية التي حددها تشومسكي بالقوانين اللاشعورية التي تعمل مع التنظيم التصاعدي للجمل في أية لغة انسانية وذلك بالمقارنة مع اللغات الصناعية التي لا تحتوي البناء التصاعدي بنفس الطريقة ، لقد أبرز المؤلف ما ذهب اليه تشومسكي بأن تلك القوانين قد تهيأت بفعل الميكانيزم الوراثي ، وهذا ما دفعه للقول بأن اللغة مقدرة فطرية عنها مكتسبة ، وقال المؤلف ان ذلك يجيء على النقيض لما تذهب اليه الفلسفة التجريبية ـ فمن هنا انتقل المؤلف لمناقشة أسس الفلسفة التجريبية فقد ظهرت أفكار تشومسكي كاعتراض مباشر على الاتجاه التجريبي ، ولقد تناول المؤلف كلا الاتجاهين بالمناقشة وانتهى الى أن كليهما ليس كاف على حدة ـ فقد ناقش أخذاً في الاعتبار أهمية القدرات الفطرية والتجريبية في اكتساب المعرفة الانسانية ككل . لقد ناقش المؤلف أفكار تشومسكي السياسية ـ وعرض كيف أن هذه الأفكار كانت نتاجاً لنقد تشومسكي للأفكار التجريبية التي تستند اليها كثير من الحكومات (من بينها الحكومة الأمريكية) في تدبير المكائد ـ فقد ناقش تشومسكي كسياسي كيف أن الحضارة الصناعية تؤدي الى استخدام ارادات الأفراد وتؤدي الى تابعيتهم وفقدانهم راحتهم فالمجتمع الرأسمالي يشجع على ذلك . فمن هنا مال تشومسكي للقول ان التصور السياسي يجب أن يكون شكلاً من الاشتراكية الديمقراطية ، وتركز هجومه على الحكومات المعاصرة لاستخدامها نفوذها الزائد للتأثير في طريقة حياة الأمم الضعيفة (مثال التدخل الأمريكي في فيتنام) ـ لقد ناقش المؤلف كيف أن هذه الأفكار دفعت تشومسكي لتفسير علم نحو اللغات الانسانية موضحاً بأنها لغة حرة تماماً ـ فقد اعترف

تشومسكي بتلك الحرية وتناولت ملاحظاته أساس التطور المعرفي لقوانين الطبيعة البشرية والحالات التي تتطلب إشباعها فقد أدى ذلك الى استغلال بعض المفكرين تلك الحرية كأساس لرفض كتاباته ـ على اعتبار أن علم اللغة وعلم النفس علمان شكليان في جانبها الأكبر . ولقد اتجه المؤلف الى اظهار أن مفهوم العقل والتصور السياسي مفهومان مختلفان عن المفاهيم التي قدمها تشومسكي ـ فلقد رفض تشومسكي الليبرالية مفضلاً عليها اشتراكية قائمة على سوء فهم لاكتشافاته اللغوية الخاصة ، واكتشافات الآخرين الخاصة بالطبيعة البشرية .

الليبرالية والابداع :

يتناول المؤلف في هذا الفصل بالتحليل الاتجاه الليبرالي وذلك بهدف التمهيد للهجوم على أفكار تشومسكي السياسية . لقد رفض المؤلف مفهوم مصطلح « ليبرالي » كما يعبر عنه في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بمتوسط ما يمثله مفهوم رجل الشارع عنه ، فالليبرالية تشير الى حرية انتاج الانتاج وتوزيعه (بعيداً عن المظاهر غير الاقتصادية للحياة الاجتماعية) ـ وليس أمام الحكومة سوى المحافظة على حرية السوق على ما هي عليه وحماية الأفراد في تمتعهم بالمشاركة في السوق ـ ولكن المؤلف لا يتناول الأمر من هذه الزاوية ـ فقد انتقل لمناقشة مفهوم الليبرالية في ضوء مفاهيم الابداع الانساني والجهل الانساني ، فالابداع هو خاصية تميز المهارة الانسانية عند اختراع الأشياء الجديدة ومع ذلك فليس كل الأمثلة الجديدة للاختراعات تعبر عن الابداع ، فالابداع ليس له دور في اختراع الآلات الجديدة ـ فكثير من الأمثلة الجديدة هي نماذج جديدة لأمثلة موجودة ومعروفة من قبل . فالوضع الذي يبدع فيه الانسان هو نتيجة للجهل الانساني ـ حيث أنه نتاج لوصل مفهوم الابداع بالمناهج العلمية ـ وهذا هو أكبر دليل على زيف الاتجاه العلمي المعاصر ـ فالمعروف أن تقدم أي اقتصاد يعتمد في المحل الأول على الحرية العقلية ـ ومن الخطأ الاعتقاد أن الحرية العقلية يمكن أن تعيش بطريقة ما في مجتمع متسلط اقتصادياً . فقد يكون المجتمع حراً ولكن العقل الانساني للفرد لن يأتي بأي فكرة ذات قيمة بينما هو في انفصال عن مجتمع المعقول الكلي ـ فالفكر الخلاق غير منسوب بالتعريف ـ والحرية العقلية لا تظهر في مجتمع متسلط يقيم أهمية لاقامة خطة لتحريم الأفكار غير القانونية (كالأمة السوفيتية مثلاً) . لقد تناول المؤلف أفكار تشومسكي عن الاشتراكية وتفرقته بين النوعية الحرة والنوعية غير الحرة من الاشتراكية ـ حيث تظهر قيمة تلك التفرقة نتيجة جهلنا بطبيعة التفاعلات التي تظهرها الوحدات الاقتصادية المحكومة ذاتياً وتحول المؤلف لتناول ما أشار اليه تشومسكي بالمجتمع النقابي ـ ولقد ناقش المؤلف كيف أن الاقتصاد لا يعتبر قوة سياسية ـ ولكنه قوة اقتصادية ـ وقوة للتنظيم السياسي والاقتصاد النقابي لا يمكن أن يؤدي وظيفة الا عندما يتم تبني النقابة كنظام سياسي في المجتمع الذي يتهيأ تنظيمه الاقتصادي بقوى السوق ورغم ذلك أشار المؤلف ان مثل هذا النظام السياسي لا يمكن له الاستمرار حيث ستبدأ في الظهور مشاكل جديدة .

٤ ـ علم اللغة في مواجهة الليبرالية :

بعد أن كشف المؤلف عن الاختلاف القائم بين الليبرالية والاشتراكية الذي يرجع أساسا الى اختلاف النظرة الى الطبيعة الانسانية (فالليبرالية تبدو انها قائمة على التجريبية ، والاشتراكية قائمة على العقلانية) يتناول المؤلف في هذا الفصل تشومسكي باعتباره فليسوفا عقلانيا ، وباعتباره سياسيا رفض قيام نموذجه

السياسي على الفلسفة العقلية القديمة التي ترجع لأفلاطون ، وأقامها على عقلانية جديدة ظهرت نتاجا لتزايد المعرفة العلمية الخاصة بعالم الانسان الداخلي ، ولذلك فالمؤلف في تناوله للاستنتاجات السياسية يأخذ في الاعتبار الحقائق التي كشفت عنها دراسات الظواهر الانسانية واللغوية الحديثة ، لقد حاول المؤلف الكشف عن الطريقة التي قدم بها تشومسكي أفكاره المناهضة لليبرالية ، وأظهر أن هذه الأفكار ذات ارتباط وثيق بالفلسفة العقلانية ، فقد هاجم تشومسكي في المستوى الفلسفي الفلسفة التجريبية كنظرية لها تأثيرها ولم يبد في الجانب السياسي الاحترام لليبرالية ـ فقد اعتقد تشومسكي ان الليبرالية انتهت فالفكر الليبرالي الكلاسيكي لا يستطيع ان يعيش عصر الرأسمالية الصناعية ، ولقد أظهر المؤلف كيف ان تشومسكي نقد نفسه في مناقشته للنظرية السياسية ، ولم يكن صريحا في تعريفه لمفهوم التقدم ـ فقد هاجم تشومسكي مفهوم التقدم ، ولقد أظهر المؤلف أن هذا الهجوم لا يعتبر هجوما ضد الليبرالية . لقد ارجع المؤلف كل الأحكام التي اصدرها تشومسكي ضد الليبرالية ـ الى سهولة رفضها ـ فلقد ادخل تشومسكي نفسه مع مختلف الأحكام بامتدادها ولم يكن لديه أي تأصيل في مناقشته لها . لقد تناول المؤلف أهم الأحكام الصادرة ضد الليبرالية التي تناولت مفهوم الابداع الانساني ـ فقد كان هذا المفهوم المصطلح الاساسي في تنظير تشومسكي اللغوي ـ حيث كان أحد النقاط الأساسية التي هاجمها تشومسكي واتباعه ولدى أسلافه من علماء اللغة والنفس الاكاديميين . لقد أظهر المؤلف كيف أن تشومسكي مال الى استخدام كل ماهو غريب وشاذ لمصطلح الابداع ، وأشار الى أن المفهوم الذي استشهد به تشومسكي لا يشير للنشاط الابداعي للانسان ، فقد أخذ المؤلف على تشومسكي عدم تقديمه ارضيه لقبول هذا النقد ـ وهناك حقيقة تقول ان النشاطات التي لها قوانينها التي تحكمها ببعض الاعتبارات قد لا تكون نشاطات ابداعية بالاعتبارات الاخرى . مثال : مسألة الشعر أو النثر فمع انها تعتبر نشاطات خلاقة الا ان القوانين التي تحكمها هي ليست كذلك ـ لقد أظهر المؤلف ان تشومسكي قد اساء استخدام مصطلح يبدع ـ فقد استخدم المصطلح بالمعنى الذي يتصارع فيه مع استخدامه القياسي ، فقد كتب تشومسكي رأيه في الابداع الانساني وقال بأنه ظاهرة غير خاضعة للتحقيق العلمي ـ ولقد أظهر المؤلف كيف أن هذه الفكرة العقلانية التي عبر بها تشومسكي عن الانسان تعتبر فكرة غير نموذجية ـ وأوضح المؤلف كيف ان البشر لا يستطيعون تنمية قدراتهم دون حدود ـ لأنهم لن يهربوا من ارتباطهم الثابت بطبيعتهم البيولوجية ـ فقد اهتم تشومسكي بتعريف الخاصية القواعدية وتجاهل الخاصية الواعية ـ ولقد انتهى المؤلف الى ان تشومسكي وانصاره لم يقدموا أي اسهام لتفسير الانسان ـ فلم تكن اسهاماتهم سوى بداية لسلسلة من المناقشات العلمية ضد الليبرالية .

تشومسكي السلالة والسياسة الخارجية :

يتناول المؤلف في هذا الفصل موقف تشومسكي من الاتجاه التجريبي وخاصة قضية السلالة ، وذلك لاظهار خطأ تشومسكي في هجومه على هذا الاتجاه ، فقد ربط تشومسكي بين الاتجاه التجريبي وظهور الأفكار العنصرية وأشار الى ان الاتجاه التجريبي يمثل الاساس الفكري للنظام السياسي الفاسد ، فمن هنا لم يصمد نموذجه السياسي لهجوم التجريبيين ، لقد ناقش المؤلف اسس الاتجاه العقلاني ـ ابتداء من المذهب الثنائي الديكارتي ، واظهر ان ادعاءات تشومسكي الخاصة

بارتباط الاتجاه التجريبي والاتجاه العنصري غير صادقة ، حيث كان هذا الارتباط تاريخيا فقط . لقد تناول المؤلف أفكار جون لوك J.Lucke وهيوم Hume فقد أشار بيركلين Braklen الى ان افكارهم تميزت بالقاعدة العنصرية الوراثية ، وأضاف تشومسكي أفكاره بناء على هذا الادعاء ، لقد أشار المؤلف الى ان هؤلاء الفلاسفة كانوا في وضع يختلف عن الوضع الذي نعرف فيه اليوم ان كل اللغات الانسانية تمتلك سيادتها كلغات خاصة ، حيث كان نطق اللغات البدائية غير معروف لعلماء ذلك الوقت ، وقد انتشرت القصص الخرافية ، ومن ثم فان افكار « لوك » لم تكن نتاجا لأفكاره ومبادئه الفلسفية ، ولكنها كانت نتاجا لجهله بحقيقة هذه اللغات . ولقد أظهر المؤلف ان الاتجاه التجريبي يسلم باستحالة مقارنة وترتيب السلالات على أساس كونها سلالات سامية وسلالات منحطة لمجرد اختلافها ، وأشار الى أن فكرة التطور لا يمكن ممارستها على الوضع البيولوجي للانسان ، فنحن نمتلك الاسس القوية لاعتبار نوعنا الانساني نوعا ساميا على كل الأنواع البيولوجية الاخرى ، أما الاختلافات العقلية القائمة بين الجماعات البشرية المختلفة فهي تشير للاختلافات الثقافية وليست الاختلافات البيولوجية ، وليس لدينا مبررات تجعلنا نشير الى تراث ثقافي معين على انه تراث اسمى أو ادنى من تراث ثقافي آخر في أي زمن ، فالاتجاه التجريبي لا يجد اي معنى في مقارنة الثقافات ذلك لأنه ليس هناك نسق متعادل يمكننا من وصف الثقافات ، ولقد استشهد المؤلف بأفكار فرانز بواس F.Boas الذي ذهب الى ضرورة وصف كل ثقافة بمصطلحات النسق التصوري المناسب ، والى انه لا يمكن استخدام المقولات الاصطلاحية الفنية التي تستخدم في وصف اللغات المتشابهة في وصف اللغات الهند وامريكية الآخذة في الزوال .

ولقد كان الأمر عند تشومسكي مختلفا ، فقد كان الهدف من البحث اللغوي هو ايجاد نسق ثابت من المقولات الاصطلاحية التي يمكن بها وصف اي لغة انسانية ، ولذلك فقد رفض المحتويات العنصرية للترتيب النحوي للغات ومال لتأكيد الميكانيكية السيكولوجية الفطرية التي يفترض انها خاصية لدى النوع البشري ، فمن هنا ادعى ان قدرة الفرد العقلية اكتسبت تماما مثل فسيولوجية الانسان عن طريق ميكانيزمات الوراثة ، لقد نقد المؤلف هذه الفكرة على اعتبار لو أن طبيعة القدرات العقلية قد صممت بفعل التوارث البيولوجي ، فان التباين بين الافراد سيعتبر امتدادا استاتيكيا للاسهامات العقلية التي تؤدي أيضا للاختلافات التي توجد بين السلالات ، ولقد ناقش المؤلف أفكار تشومسكي بالاشارة الى قياس مستوى الذكاء العام ، وأشار الى ان وراثية تشومسكي التي مارست المذهب العقلي تعتبر حالة مختلفة عن ديكارت ، فمن هنا لم يوافق المؤلف على أفكار تشومسكي ، وذهب الى ان هذه الأفكار تقودنا الى الاعتقاد في الاختلافات العقلية الموروثة ، والى التسليم بأن الاختلافات العقلية هي اختلافات كمية موروثة وليست اختلافات كيفية ، وأن هذه الأفكار تقودنا لافتراض ان شكل الحكومة يعتبر امتدادا جزئيا لعلم وراثة الحكومة ، وتدفعنا لضرورة التسليم بتجنب الامم كل منها الاخرى لأن ما يعتبر سيئا بالنسبة لنا - قد يكون حسنا بالنسبة لهم ، ونحن غير مناسبين لتقييم ذلك .

معرفتنا وكيفية معرفتها :

يتناول المؤلف في هذا الفصل بشيء من التطويل الاتجاه السلوكي التجريبي ، وبالذات أفكار سكينر B.F.Skinner اشهر علماء النفس العمليين في جامعة هارفارد ، فقد تصارعت أفكاره عن الطبيعة

الانسانية والمجتمع النموذجي بحدة وعنف مع معتقدات تشومسكي العقلانية الذي استمر لمدة طويلة يهاجم بشراسة الاتجاه السلوكي ، ولقد قابل المؤلف ببراعة بين تشومسكي / سكينر ، لقد كان سكينر عالما امبيريقيا شاذا ، وقد كان خطؤه المنطقي فادحا ، وقد كان تشومسكي في هجومه لسكينر أقرب للحقيقة ـ ذلك لان مناقشاته كانت من أكثر المصادر الخصبة والمثمرة في احداث التغييرات . ورغم ذلك فقد كان تشومسكي (في نظر المؤلف) آخر عالم يمكن تفويضه لنقد سكينر . وخاصة خطأه المنطقي ، فقد كان هذا الخطأ يقبع ايضا في قلب بناء تفكير تشومسكي ذاته ، فقد كان خطأ سكينر واضحا بدرجة كافية . حيث كانت نظريته عن السلوك قاصرة ـ فقد خلط بين المنهج والنظرية ، واعتقد بامكانية وصف السلوك الانساني بصيغة من المصطلحات التي لا تناسب سوى سلوك الفئران والحمام ، ولقد انتقل ذلك الى تصويره للنموذج الاجتماعي المثالي . فقد تصدى للاعتراض الليبرالي على المجتمعات المخططة ، ولم يعتقد في العقل الانساني وأشار الى أن الاعتقاد في الحرية يعتبر وهما .

فمع أن النموذج الاجتماعي لسكينر والنموذج الاجتماعي لليبرالية يعتبران انعكاسا للمذهب التجريبي . الا ان الليبرالية توافق تشومسكي كمعارض لسكينر في عدم اعتقاده في العقل الانساني ـ وفي تعليقه على تصدع الاستدلال المنطقي لسكينر ، ويظهر المؤلف كيف ان تشومسكي قد اقترف نفس هذا الخطأ ، فقد انتقل سكينر بطريقة غير شرعية من الاتجاه التجريبي كمنهج الى الاتجاه التجريبي كنظرية ـ وأظهر المؤلف كيف تحرك تشومسكي في الاتجاه المعاكس بطريقة غير شرعية ـ من المذهب العقلي كنظرية ـ الى تأييد المنهج العقلي معتمدا على الاستبطان كمنهج للبحث ، ولذلك

فقد أظهر المؤلف كيف عانى تفكير تشومسكي في قضاياه الاكاديمية والسياسية من الفشل في تحقيق التميز المنطقي بين ماهو صواب ، وما يعتقد الناس فيه على انه صواب ، وأظهر أيضا كيف كانت السمة المبكرة لتشومسكي متناقضة ، فقد اعتقد ان البيانات التي يقام عليها النحو ليست هي المنطوقات ، ولكنها المعتقدات الحدسية كما تمليها خاصيات اللغة الوطنية ، لقد اعترض المؤلف على ذلك وأظهر كيف ان الحال في اللغة تعتبر حالة مختلفة فبالرغم من اننا جميعا لنا آراؤنا الناضجة في موضوع لغتنا الوطنية ، الا أن ذلك لا يعطي هذه الآراء اية مكانات خاصة للباحث اللغوي . حيث ان عمل العالم اللغوي هو عمل لتحسين نظريات الرجل العادي الناضجة عن لغته وليس التسليم بها . ولقد اظهر المؤلف خطأ تسليم تشومسكي بتلك الحالات باعتبارها حالات يمكن تغييرها وليست فرضيات يمكن فحصها نقديا لقد تناول المؤلف كيف أن هذا المفهوم يعكس مفهوما ركيكا وساذجا للمنهج العلمي ـ وأكد ضرورة وضع المنهج التجريبي مكان المنهج العقلي في بحث النحو . لقد تناول المؤلف تشومسكي من علم اللغة وحتى علم السياسة وأظهر كيف كانت أفكاره منهارة . وتناول منهجية تشومسكي والمنهج الامبيريقي مظهرا خطأ اعتقاد تشومسكي ـ ومظهرا ان كتابات تشومسكي الاكاديمية اهتمت بدرجة كبيرة بالقضايا الفلسفية والسيكولوجية أكثر من اهتمامها بالتحليل القواعدي التفصيلي للغة الانجليزية أو أي لغة اخرى . وانتقل لنقد آرائه السياسية مظهرا خلط تشومسكي بين الصواب وما يعتقد الناس فيه على انه كذلك ـ مؤكدا ان البحث في علم السياسة لا يختص بتفسير المعتقدات السياسية المزيفة التي توجد في العالم ولكن تغييرها ـ فلقد قدم تشومسكي أفكاره العقلانية في الدفاع عن الاشتراكية ـ واعتقد

يخطأ المذهب الليبرالي ـ وبصواب المذهب الاشتراكي ، على الرغم من تسليم كثير من الاشتراكيين بتوارث الافتراضات الامبيريقية المسبقة للمعرفة الانسانية . لقد أشار المؤلف الى عدم قدرتنا على التأكد من خطأ الاتجاه الليبرالي عن طريق الاستبطان . حيث ان هذا التأكيد لا يأتي الا عن طريق المناقشة التجريبية ، ولقد أظهر المؤلف خطأ معتقدات تشومسكي ، فما يعتبر صوابا وما يعتقد الناس فيه على انه كذلك تعتبران قضيتين منفصلتين تماما . فقد استدعت مناقشة تشومسكي للاشتراكية استخدام مفهوم العدل ـ ولقد اظهر المؤلف استحالة مناقشة هذا المفهوم عقلانيا ، ولقد انتهى المؤلف الى ان الاشتراكية العقلانية لتشومسكي تقود الى التناقض ـ فالبشر عليهم العمل عادة بما يبدو لهم الاحسن ـ وذلك بعد المحاولات الجادة لفهم المواقف بقدر الامكان .

الخلاصة :

يوجز المؤلف في خلاصته الهدف من الكتاب ، وهو اظهار أن افكار تشومسكي المسبورة الاعماق بدقة عن الطبيعة الانسانية تعني بالفعل شيئا يجيء على نقيض ما ظهرت لتعبر عنه ـ وهذا هو ما جعل كتاباته اكثر خطورة فلقد وصفنا تشومسكي بالمبدعين وقد استحسنا قوله . ولكن فقد انتقل ليعني شيئا يطلق عليه الكثير منا اللاابداع ـ فقد ناقش تشومسكي وجهة نظره عن العقل بشيء مايزال أقل ، فقد كنا في نظره عقولا اليكترونية ثابتة الى حد ما ـ ولقد طفح هذا اللبث الكلامي من محاضراته الاكاديمية الى محاضراته السياسية وأشار الى ان المجتمع الأصيل الكائن الحي المبدع هو المجتمع الحر ، ولكنه ناقض نفسه بمجتمع منقول عن النماذج الليبرالية ـ حيث ان الحياة التي تقتصر على اي هيكل يفي بالقرارات الانسانية ليست حرية . لقد فشل تشومسكي في فهم مصطلحات الابداع والحرية ومترادفاتها ـ وهي مصطلحات معروفة جيدا للمؤلف ـ ولجأ لطبيعة اللغة لمناقشة صيغة مجدبة للابداع ـ ولذلك فقد تبخرت مناقشاته اللغوية ضد الليبرالية ، وهذا موقف سيء بالنسبة له . فاللغة (في نظر المؤلف) تعطينا جانبا من أكثر الجوانب الايجابية والقاطعة التي تقول بأن الانسان مبدع بالمعنى الفني ونحن عن جدارة نمارس حرية حقيقية ، وليس من بيننا من يدين ذلك . ولذلك فنحن نستطيع ان نستعيد حريتنا ليس بالعصيان العنيف ، ولكن بالمناقشة الصبورة المتأنية غير المنتهية وعن طريق الاقناع ، ونحن نستطيع أن نكون أحرارا مرة أخرى لو اخترنا ، ولو تم الاختيار نستطيع أن نعطي احفادنا امكانية نقض الحضارة التي جعلتنا نبدو برابرة بالمقارنة .

هل سنختار العبودية ؟

وهل سنجبر قرينتا حقيقة في اتجاه الوضع القمحي الذي عانينا منه طويلا لكي تنبعث من جديد ؟

***

انبياء بلا كرامة

عرض وتحليل كمال رضوان

فريدريك جرونفلد ناقد فني ، كان يعمل مراسلا لكل من مجلة Horiton (الافق) التي تصدر في نيويورك ، ومجلة Queen (الملكة) في لندن . وقد أصدر سلسلة من الكتب عن أهم المدن الكبيرة ، كان آخرها كتابه عن مدينة « برلين » كما صدر له كتاب عن التاريخ الاجتماعي للنازية بعنوان « ملف هتلر » . وكتب أيضا عن موضوعات مختلفة في مجالات الفن والموسيقى والحضارة . وهاهو كتابه الأخير « أنبياء بلا كرامة » ـ موضوع هذا المقال .

يعرض فريدريك جرونفلد في كتابه « أنبياء بلا كرامة » موضوعا مازالت له أهميته من الناحيتين العلمية والثقافية ـ وهو موضوع اضطهاد الألمان لليهود ، أو ما عرف بمشكلة العداء للسامية . يستند جرونفلد في عرضه الى قائمة ضخمة من المراجع والمصادر ، قد يعجز أي باحث بمفرده عن الالمام بها . ونظرا لأهمية الموضوع فإننا نجد أن المراجع عنه في تزايد مستمر فمثلا ظهرت في السنوات الأخيرة (بين ١٩٧٨ و ١٩٨١) بدار النشر فيليب ريكلام بمدينة ليبزج بالمانيا الشرقية سلسلة من سبعة أجزاء بعنوان « الفن والأدب في المهجر المعادي للفاشية من ١٩٣٣ حتى ١٩٤٥ » . وحول نفس الموضوع يدور كتاب جرونفلد مع اختلافه في التبويب وطريقة العرض .

اختار جرونفلد لكتابه الممتع عنوانا رئيسيا هو « أنبياء بلا كرامة » مستندا في اختياره الى كلمات من انجيل متىّ (« وأما يسوع فقال لهم ليس نبي بلا كرامة الا في وطنه وفي بيته ١٣/٥٧ ثم وضع للكتاب عنوانا هو « خلفية عن زيجموند فرويد ، فرانس كافكا ، ألبرت أينشتاين ودنياهم » الا ان جرونفلد لم يقتصر في عرضه على هؤلاء « الأنبياء » بل أخذ يقص في اسهاب وتحليل وتشويق وتفصيل وقائع من حياة وأعمال ثلاثة عشر آخرين من معاصري أولئك « الانبياء » من الشخصيات اليهودية ذات المكانة العلمية والفنية آنذاك .

يتناول جرونفلد اذن ستة عشر شخصية - أربعة عشر رجلا وسيدتين - مؤرخا لحياتهم ومحللا لانتاجهم، ومعلقا على ظروف بيئتهم والمناخ الفكري والاجتماعي بل والسياسي الذي عاشوه. كانوا جميعا من اليهود الألمان والنمساويين، عاشوا بين عام ١٨٥٦ (مولد رائد الطب النفسي الحديث زيجموند فرويد) وعام ١٩٥٧ (وفاة الروائي الكبير ألفريد دوبلين). جمعت بينهم المعاناة من ظاهرة العداء للسامية، مع اختلاف في درجة المعاناة وعنف التبعات: فمثلا أحسّ الموسيقار النمساوي جوستاف مالر باضطهاد للجالية اليهودية عند نهاية القرن التاسع عشر، ويستدل جرونفلد على ذلك من واقعة من حياة مالر، فيقول «كان الأمل الكبير الذي راود مالر لسنوات طويلة هو أن يصبح مديرا لدار الأوبرا في فيينا، لكن قيل له بكل الوضوح إنه لن يشغل هذا المنصب الحكومي الهام شخص غير كاثوليكي. وبناء عليه فقد استعد مالر للتعميد ليصبح كاثوليكيا ... (ص ٤٧) وفي الصفحة التالية يعلق جرونفلد قائلا «ولو اعتنق مالر المسيحية لكان قد تخطى أضخم عقبة تعترض الطريق الى وظيفة عامة في عهد آل هابسبورج حكام النمسا». أما الكاتب المسرحي كارل شترنهايم - الذي يصغر مالر بثمانية عشر عاما - فقد سلك مسلكا آخر: ابتدأ عام ١٩١١ في أصدار سلسلة من الكوميديات بعنوان «من حياة المواطنين الأبطال» - سخر فيها من مسلك المواطنين آنذاك، وانتقد حبهم للظهور وأخلاقياتهم الكاذبة. ونتيجة لذلك كثر أعداؤه أيام القيصر، بل وأثناء جمهورية فايمار (١٩١٩ - ١٩٣٣). هاجر شترنهايم عام ١٩٣٠ وبقي حتى وفاته عام ١٩٤٢، وكان حتى النهاية شديد الاعتداد بنفسه ومما قاله عن هتلر «ومن يكون هو؟ انه مجرد شخصية ثانوية في احدى كوميديات كارل شترنهايم ...» (ص ٩٥).

وأما الشاعرة جير ترود كولمار (من مواليد ١٨٩٤) فقد اختلفت حياتها عن الأخرين لكنها شاركتهم المصير: عاشت بعد ١٩٣٣ في عزلة تامة فرضها عليها المجتمع. ومع ذلك أبت أن تهاجر، وصمدت الى جانب أبيها الى أن ساقوه عام ١٩٤١ - وهو في الثمانين من عمره - الى معسكر الاعتقال. ثم سخروها للعمل بأحد المصانع الى أن تمّ ترحيلها هي الأخرى الى المعتقل في أوشفتس. ومنذ ذلك الوقت «لا ندري عن أيامها الأخيرة شيئا (ص ٢٦٣).

ان عرضا لحياة وأعمال ستة عشر من رجال الفكر والفن في ٣٠٠ صفحة يمكن أن يكون عرضا مفككا يقوم على مجرد سرد لسيرهم وتجميع أعمالهم. لكن جرونفلد نجح في الربط بينهم، بحيث أضفى على الصورة ألوانا قشية وعلى الكتاب عنصر التشويق. وهو إذ يتبع فكرة الانتاج العلمي والفني الضخم الذي قامت به الجالية اليهودية الألمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين، فهو يبدأ الفكرة بالشاعر هاينريش هاينه (١٧٩٧ - ١٨٥٦) أو بمعنى أدق يستمدها من فكر الشاعر «والذي كان يدور حول» تلك العلاقة الوثيقة المتأصلة بين مذهبي هاتين الأمتين: اليهود والألمان. فقد كتب عليهما سويّا أن يعملا على خلق قدس جديدة في ألمانيا ... تصلح لأن تكون مواطن الفلسفة ومنبت النبوءات وقلعة الروحانيات الصرّفة» (ص ١).. ويتابع جرونفلد تطوير هذه الفكرة في دأب وحزم والتزام فيقول: «ان التقاء التيارين الفكريين للألمان واليهود لمدة تزيد على نصف قرن نتج عنه سيل جارف من الأدب والموسيقى والفكر. ولولا نهايته المشينة، لتناوله الآن مؤرخو الثقافة على أنه العصر الذهبي الثاني بعد عصر النهضة الايطالية» (ص ١). ثم يعكف المؤلف على تصوير ذلك «العصر الذهبي» المهدّد في سلسلة من الصور المذهلة، جعل بدايتها سيمفونيات جوستاف مالر وقصيدته الشعرية بعنوان «أغنية من الأرض» وختمها برواية هيرمان بروخ «موت فرجيل». كما يوضح في نفس الوقت كيف أن القومية والفاشية، باعتبارهما ألدّ الأعداء للفكر الحر والانتاج المتحرر - قد

تفشيا في ألمانيا ودفعنا بنجوم الفكر فيها الى المهجر (والمنفى) والى الموت . ويدلل جرونقلد على أن العداء للسامية في كل من ألمانيا والنمسا كان يقف بالمرصاد لانتاج اليهود من نمساويين وألمان ، واستمر ذلك العداء حتى وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها .

يتناول جرونقلد في الباب الأول من كتابه بحث فكرة « التشابه بين المثقفين من اليهود الألمان » وإسهامهم في ثقافة عصرهم ، ويبده [illegible] من وجهة نظره ـ في « تركيزهم الجبار على ما قاموا به من أعمال وحل المشاكل التي أرادوا حلها » والتي عبر عنها مثلا زيجموند فرويد في كتابه « العاطفة المقدسة » محاولا شرح السلوك الانساني واصوله وطبيعته (قارن ص ٩) . وتتجلى هذه الفكرة الأساسية ، أمام القارىء في صور كثيرة ، مدعمة بخلفية حضارية عن تاريخ الفكر في القرن التاسع عشر . ويحرص المؤلف دائما على أن يعرض قضية الالمان واليهود من زاويتين : زاوية الاحترام المتبادل بينهما بل والتعاون أحيانا (كما في حالة برتولت بريشت وزميله فايل في وضع « أوبرا القروش الثلاثة » ص ٢٦) . ومن زاوية أخرى يعرض المؤلف ظاهرة العداء للسامية منذ نشأت الى أن بلغت ذروة الاضطهاد . وعصف تيارها بأنبياء الكتاب أمثال فرويد وكافكا وأينشتاين ، حتى أصبحت أعمالهم مجالا للسخرية والعار وذلك بلصق لفظة يهودي لها ، فمثلا تحدثوا عن « السيكولوجية اليهودية » ، « الأدب اليهودي » ، « علم الطبيعة اليهودي » (ص ٢٠) .

ويرجع نجاح جرونقلد في عرض هذه الأمور الى مهارته في ربط الخطوط العريضة للتطور الثقافي بوقائع من سير هؤلاء الاشخاص في أسلوب قصصي شيق يترك لدى القارىء انطباعا بالحيوية والعمق الفني .

ثم يتساءل جرونقلد عن سبب ذلك العداء للسامية وتطوره الى تصرفات « بربرية » بالرغم من ذلك الانتاج الضخم ـ علميا كان أو فنيا ـ لتلك الفئة من « الانبياء أمثال زيجموند فرويد ، الزي لاسكر شولر ، ألبرت أينشتاين ، جيرترود كولمار . ومن المؤكد أن الكثيرين منهم آنذاك لم يقدروا خطورة الموقف ولا احتمالات تصعيده ، لدرجة أن « بعض العائلات اليهودية من أعيان الطبقة الوسطى » قللت من شأن تلك الظاهرة ، فها هو العالم اليهودي الألماني ايرنست كاسيرر ـ أثناء سنواته الأخيرة في منفاه بأمريكا ـ يقول لتلاميذه في جامعات ييل وكولومبيا « إن هذا الهتلر غلطة من غلطات التاريخ فهو لا ينتمي الى تاريخ ألمانيا على الاطلاق وبناء على ذلك فسوف يهلك ويفنى » (ص ١٧) . ورغم أن هذه الكلمات وأمثالها تدل على شجاعة في الكفاح وتفاؤل تاريخي ، لكنها لا تمس الجذور الحقيقية لتاريخ الفاشية الألمانية فلم تكن الفاشية وليدة الصدفة بأي حال ، ولم تكن ظاهرة نبتت من فراغ في قلب التاريخ الألماني إذ ترجع جذورها ـ على الأقل ـ الى الحقبة الأخيرة من التاريخ الألماني ومطامعه التوسعية أي منذ نهاية القرن الماضي .

ثم جاءت جمهورية فايمار (١٩١٩ ـ ١٩٣٣) بسلطتها المترددة ، فأفسحت للفاشية المجال أكثر وأكثر ، الى أن أختير أدولف هتلر مستشارا للجمهورية فقادها الى الهلاك والهاوية . وهذا التطور التاريخي ـ بأبعاده الاقتصادية والاجتماعية وأبعاد سياسته الداخلية والخارجية لا يتضح بالقدر الكافي من عرض جرونقلد للموضوع . صحيح أنه أوضح أن الفاشية لم تستطع تحويل الشعب الألماني كله الى أعداء للسامية ، لكنه لم يلق الضوء الكاشف على جوهر ذلك العداء ومقوماته وأسباب انتشاره في ألمانيا والنمسا ، واكتفى بضرب أمثلة لأنواع من الاضطهاد . منبها الى أن الكثيرين من الألمان نظروا الى كل ما هو « غريب » على « أنه يهودي » لأنهم ـ أي الألمان كانوا يعيشون في عزلة (ص ٢٩ ، ٣٠) .

ويبدو أن جرونقلد كان يشعر بأنه لم يتناول موضوع

العداء للسامية بما يستحقه من عمق وبحث فصرح في ص ٣٤ في كتابه قائلا « ان بعض ما هدفت اليه بوضع هذا الكتاب هو أن أعطي القراء الانجليز والامريكان فكرة بسيطة عما ضاع بانهيار عصر النهضة في جمهورية فايمار ، وان ألمح الى مدى ما طواه النسيان منه حتى اليوم » ورغم أن التعبير « عصر النهضة في جمهورية فايمار » لا يغطي سوى فترة جمهورية فايمار (١٩١٩ - ١٩٣٣) - وهي فترة بسيطة إذا ما قورنت بما يعرض الكتاب من أحداث وانجازات أدبية وفنية على مدى ستين عاما (من نهاية القرن الماضي حتى منتصف القرن الحالي) - نقول رغم ذلك فانه لابد من التأكيد على أن جرونفلد قد نجح في تحقيق ما هدف اليه في الكتاب . فقد أفاد وأمتع كثيرا من قرائه في أنحاء العالم .

ومما يستحق التنويه والاستكمال جملة يقول فيها « اذا اراد أحد ان يبحث عن معنى في المأساة الألمانية اليهودية ، فإنني أخشى أنه لن يجد غير درس واحد تجب الاستفادة به والتعلم منه ، وهو أن الصراع الدائم بين الرأس المفكر وهراوة الحاكم ينتهي غالبا لصالح الهراوة ، على الاقل في المدى القصير » (ص ٣٥) .

وهنا نقول للمؤلف إنه لجأ الى التعميم والتبسيط وليست القضية بهذه البساطة . فقد اكتفى بترديد مفهوم التاريخ لدى أحد الوجوديين وهو : تيودور ليسنج الذي وضع كتابا بعنوان « التاريخ (هو) إيجاد معنى للمجرد من المعنى » .

يضم كتاب جرونفلد ثمانية أبواب ، يتناول فيها عرضا مثيرا لحياة وأعمال ستة عشر من الشخصيات الأدبية والفنية ، مكتفيا في كل باب منها بتقديم شخصيتين أو ثلاثة ، حسب ما تراءى أمامه من عوامل الربط والارتباط بينهم : فأحيانا تكون الأرضية المشتركة بينهم عبارة عن صلة داخلية - مثل اشتراكهم في وجهة النظر أو في أي رأي أو موقف - (ومثال ذلك نجده في الفصل الرابع الذي يجمع بين الزي لاسكر شولر وزميليها في مملكة الشعر : ابريش موسام وايرنست تولار) وأحيانا تكون همزة الوصل عبارة عن صلة خارجية نابعة من ظروف الحياة وملابساتها ، كما في الباب السادس حيث يعرض القصصي العبقري فرانس كافكا ومعه الكاتب الساخر كورت توخولسكي ، ويحكي قصة لقائهما في براغ في منزل ماكس برود (ناشر أعمال كافكا فيما بعد) .

وغالبا ما يدهش القارىء لتلك الخيوط الكثيرة وشبكة الاتصالات والمقارنات التي يوردها المؤلف : وكأنه في مسرح العرائس ، يمسك بيده بكل خيوط ويحرك منها ما يتلاءم مع الموقف وفي نفس الوقت يمتع القارىء ويمده بالجديد من المعلومات عن أولئك « الانبياء » ومثال ذلك ما نجده في الباب الخامس ، حيث يقول جرونفلد في معرض حديثه عن أينشتاين وشونبرج : « كان كل منهما رجلا عصريا ، يعشق الفنون والعلوم السياسية والاختراعات العلمية . وسجل أينشتاين اختراعه لاحدى الكاميرات ، واخترع شونبرج آلة كاتبة بالموسيقى ، وأعاد تنظيم وتوزيع موسيقى عصر الباروك كما عزف أينشتاين من موسيقى باخ بيبر ، تارتان ، كوريللي . . . . » (ص ١٥٨) .

وكان من الطبيعي أن تتسع دائرة خيوط الربط لتشمل أناسا آخرين خارج نطاق الشخصيات المعروضة . فنلتقي في الباب الثاني مثلا - وهو مخصص لكل من مالر وفرويد - بشخصيات اخرى أمثال الكاتب النمساوي الكبير كارل كراوس ، صاحب مجلة « الشعلة » التي قدم فيها نقدا ثقافيا ونلتقي بالأديب النمساوي أيضا أرثور شنتسلر وهو من كبار كتّاب المسرح في فيينا عند نهاية القرن الثامن عشر (ص ٥٦) - وبمناسبة عيد ميلاده الستين كتب اليه زيجموند فرويد مهنئا : « أظن أنني تفاديتك نتيجة لنوع من المقاومة حتى لا أرى نسخة مني . . . » (ص ٥٦) ، ذلك لأن فرويد كان يجد تشابها كبيرا بينه وبين بعض الشخصيات

التي يعرضها شنتسلر في مسرحياته وفي نفس الوقت نلتقي أيضا بالعالم النفسي السويسري كارل جوستاف يونج الذي انطلق من نظريات فرويد وأسس علم النفس التحليلي ، الا انه تبرأ فيما بعد من فرويد خوفا من الفاشية ولنترك الحديث للمؤلف جرونفلد :

« عندما أحرق النازيون مؤلفات فرويد واعدّوا حملة عليه لتشويه سمعته ، ارتاح يونج لذلك وأعلن ان الوقت قد حان لتوضيح الفرق بين علم النفس الألماني وعلم النفس اليهودي » (ص ٥٨) .

وعلى هذا المنوال يمضي جرونفلد ـ ملقيا الضوء على بعض العلاقات أو معلنا بعض التناقضات والخلافات ـ ليقدم في عرضه بأبواب الكتاب صورة واضحة المعالم والقسمات لأولئك « الأنبياء » في اطار التاريخ الفكري آنذاك . وكم تطلع القارىء في كثير من المواضع إلى عمق في المعلومات أو إلى أسباب واضحة لبعض الخلافات ، فمثلا في الباب الثالث وفي معرض الحديث عن الشاعر كارل فولفسكيل لم تتضح مدى علاقته بمدرسة شتيفان جئورجي (ص ٦٩) ، ومع ذلك فإن القارىء يكتسب على أي حال صورة حية عن الشخصيات الوارد ذكرها . لأن جرونفلد يتفادى سرد المعلومات جافة مجردة ، فيغذيها بوقائع من سيرة حياة الشخص المعني في ثوب يجذب القارىء والمؤلف لا يسعى الى الكمال ، بل يكتفي بتقديم أهم جوانب الصورة .

فها هو مثلا في الباب الثامن يتحدث عن كتاب « موت فرجيل » ـ ذلك العمل الفني الضخم بلغته العملاقة وعمقه الفكري ، وفي ثنايا العرض تجده يضيف كثيرا من الوقائع عن حياة هيرمان بروخ مؤلف الكتاب .

ويحاول جرونفلد خلق روابط فكرية بين أبواب الكتاب ، منتهزا اللحظات المناسبة : فهو يفعل ذلك عند المقارنة ، فمثلا يقول عن الشاعرة جيرترود كولمار أنها كانت على شاكلة الشاعر الأديب كافكا « تعرف تماما أنها تعيش وسط شارع القتلة » (ص ٢٦٠) . وهو يحاول الربط عندما يستعرض رأي شخص آخر ، كما في حالة الحكم الذي أصدره فالتر بنيامين (ص ٢٣٧ بالباب السابع) على كل من كافكا وجيرترود . وهو يحاول الربط أيضا عندما يذكر القارىء بالموضوع الأساسي ، فيربط مثلا بين آراء الشاعر هاينريش هاينه وبين وجهة نظر الأديب كورت توخولسكي رغم تباعد الفترة الزمنية بينهما (ص ٣٠٢) وعموما يمكن القول بأن الكتاب ـ رغم اتساع دائرة العرض فيه ورغم توزيع مراكز ثقله ـ يحافظ بلا شك على وحدته الفنية والعملية وحبكته الروائية .

ومما يزيد طريقة السرد قيمة ويضفي عليها جاذبية : تلك النصوص الشعرية الألمانية التي أوردها جرونفلد بنصها الأصلي ثم أتبعها بترجمة أدبية واعية الى الانجليزية ، تساعد القارىء غير الملم بالألمانية على استكمال صورته عن المؤلف المنوط به الحديث .

كما يجب التنويه أيضا بالجزء الخاص بالصور الفوتوغرافية لتلك الشخصيات ، فهو رغم قلة حجمه يحوي صورة معبرة عن كل منها ، فنجد مثلا صورة للكاتب المسرحي كارل شترنهايم متكئا فيها على مائدة فاخرة ، واثقا من نفسه ومفتخرا بثرائه . وفي صورة اخرى وقف الشاعر العاطفي الثائر ارنست تولار في فناء المعتقل حيث حكم عليه بالسجن مدى الحياة . وليس من قبيل الصدفة أن يضع جرونفلد صورة الروائي فرانس كافكا في مقابل صورة الأديب كورت توخولسكي ، فالأول يبدو خجولا خائفا من الحياة ، بينما الثاني يمتلىء حيوية واقداما . وهم جميعا « أنبياء بلا كرامة » جمع بينهم هذا الكتاب الذي يضم أيضا ببليوجرافيا شاملة وفهرست بالاسماء ورؤوس الموضوعات .

وفي الفصل الثامن المخصص للروائي أفريد دوبلين وزميله النمساوي هيرمان بروخ نجد جرونفلد يمس سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فيحكي عن عودة الكثيرين (أمثال برتولت بريشت وغيره) من المنفى الى ألمانيا ، ويحكي عن بعض الصعوبات والمشاكل التي واجهت العائدين ، إلا أننا لابد وان نسجل على المؤلف ان استعراضه لفترة ما بعد الحرب يعتبر عرضا مختصرا تمام الاختصار ، اذا ما قورن بالاسهاب والاطناب في الأبواب السابقة ، ونقطة أخرى لابد من أخذها عليه ، وهي أنه لم يهتم كثيرا بالقوى المناهضة للفاشية في ألمانيا ، فهي قوى فعالة تتزايد يوما بعد يوم ، ولعل هذه النقطة تعتبر انطلاقة لبحث جديد .

ولعلنا نختتم الحديث بكلمة المؤلف عن الشاعر كارل فولفسكيل والتي يقول فيها « ان فولفسكيل شعر بالتزامه تجاه الماضي ومسئوليته نحو المستقبل » وتنطبق هذه المقولة على جرونفلد نفسه .

***

كيف تكتب الأخبار للإذاعة والتلفاز والصحافة

تأليف دافيد داري
عرض وتحليل ياسر الفهد

ان الخبر ، وما يتفرع عنه من كتابات ، يشكل المادة الخام الأساسية التي تعتمد عليها الاذاعة والتلفاز والصحافة . وتعد كتابة الخبر الصحيح والدقيق فنا رفيعا ليس من اليسير اتقانه ، كما يجهل لبعضهم . ويتناول الكتاب الذي[1] بين أيدينا ، وقد صدر منذ أعوام في الولايات المتحدة باللغة الانكليزية ، فن الخبر المقروء والمسموع والمرئي ، وهو يقع في ١٨٤ صفحة من القطع المتوسط ، ويعد مفيدا بالنسبة للمبتدئين المهتمين بتعلم مهنة كتابة الأخبار ، لأنه يدلهم على الطريق الصحيح ويشرح لهم القواعد الأساسية المتصلة بالمهنة المذكورة . يبدأ المؤلف (دافيد داري) بإلقاء بعض الأضواء التاريخية على نشأة الخبر ووسائل الاعلام . وهذا يعد نهجا علميا سليما لأن الكتاب الراقي عندما يتناول مشكلة ما ، يبدأ عادة بسبر أغوارها التاريخية وكشف النقاب عن تطورها عبر المراحل الزمنية المختلفة . فالتعقب التاريخي المنظم يعد من أهم أسس الكتابة العلمية الناجحة .

يرجع الكتاب تاريخ التقرير الأخباري الى عام ٤٥٤ قبل الميلاد ، أي الى أيام حكم يوليوس قيصر ، حينما كانت هذه التقارير تكتب بواسطة اليد . وفي عام ٧٧٠م عُرف في الصين فن الطباعة بالخشب . وكان الصينيون آنذاك يحفرون الكلمات والصور على الصفائح الخشبية ، باليد .

أما بالنسبة للصحافة ، فان المؤلف يشير الى بعض الصحف الأولى في العالم .. ففي الصين ظهرت أول صحيفة ، وهي صحيفة (تسنج باو) ، في عام ٥٠٠ بعد الميلاد . وفي اوروبا صدرت أول صحيفة في نورمبرغ في ألمانيا في عام ١٤٥٤ في أعقاب نجاح جوهان جوتنبرغ في اختراع الحرف المتحرك في عام ١٤٤٠ .

(1) David Dary, How To Writ News For Broadcast Television And Journalism, (1)

وفي عام ١٦٢٢ ظهرت صحيفة لندن الأولى باسم (الأخبار الأسبوعية) .

أما في أميركا فكانت صحيفة (الوقائع العامة) التي ظهرت في عام ١٦٩٠ هي أول صحيفة أميركية .

وبالنسبة للمجلات فان أول انموذج لها هو المجلات الأخبارية التي ظهرت في بداية العشرينات كالتايم والنيوزويك .

وينتقل المؤلف بنا بعد ذلك من الصحافة الى الاذاعة ، فيرجع بدء استخدام جهاز الراديو لأول مرة الى العشرينات . وكانت الاذاعات في ذلك الوقت تحصل على الأخبار بشرائها من الصحف وبالاعتماد على مراسليها . أما التلفزيون فقد أنشيء للمرة الأولى في عام ١٩٣٩ ، ولكنه لم يزدهر بدرجة كافية الا بعد الحرب العالمية الثانية .

وبعد هذا الاستعراض التاريخي السريع الذي أوجزنا بعض خطوطه الرئيسة ، يطالعنا فصل (ما هي الأخبار) ، وفيه يرجع المؤلف كلمة (خبر) الى أصل لاتيني معناه (الشيء الجديد) ويعرّفه بأنه (أي تقرير مكتوب أو مسموع أو مرئي ، يركن اليه ، عن حادث يتضمن معلومات غير معروفة تؤثر في حياة القراء أو المستمعين أو المشاهدين ، وسعادتهم ومستقبلهم) .

وبالطبع فان هذا ليس أفضل التعريفات . ولابد ان توجد تعريفات أكثر منه دقة . وأول تطبيق عملي لنشر الخبر يتجلى في الصحافة . وهناك تعريفات عديدة للصحافة ، إلا أن المؤلف يختار منها تعريفا خاصا وهو (ان الصحافة هي جمع الأخبار وكتابتها ونشرها) .

ويبدو لنا أن هذا التعريف ناقص ، لأنه يربط الصحافة بالخبر وحده ، مع أنها تتضمن أشياء اخرى كثيرة كالمقالة والدراسة والشعر وغير ذلك ، وان كان الخبر يشكل عمودها الفقري الأساسي فإن نقل الخبر هو من أهم أدوار الصحافة . إلا أنه ليس الدور الوحيد ، فالصحافة تقدم للقاريء المادة الخام التي يكّون منها آراءه وأفكاره ويبني وجهات نظره ويصوغ مواقفه تجاه الأحداث والتطورات المختلفة .

أما التطبيق العملي الثاني لايصال الخبر فيتمثل بالاذاعة . . وهي تعد من أفضل الوسائل في هذا المجال ، نظرا لأنها تقوم بمهمتها بسرعة كبيرة ، ومن المعلوم أن الخبر تقل أهميته مع مرور الزمن ، بل انه في بعض الأحيان يفقد قيمته بصورة كاملة خلال ساعتين ، مثلا . لذلك فان السرعة في نقل الخبر تنطوي على أهمية حاسمة ، واذا كانت الاذاعة هي أسرع وسيلة في هذا المجال ، فان التلفاز يأتي في المرتبة الثانية ، تليه الصحافة .

ويتحدث المؤلف عن حرية الصحافة ، مؤكدا أنها الشرط الأساسي الذي يجعل الصحافة قادرة على تقديم الأخبار الصحيحة النزيهة الخالية من الخطأ أو الانحراف أو التحامل . ولنا هنا وقفة . . لأن الموضوع هام لدرجة تجعل من غير المناسب المرور به دون تعليق . . . وفي أي حديث عن الصحافة يجمع كافة المفكرين ، دون استثناء ، على أن حرية الصحافة هي الشرط الأول الذي بدونه لا يمكن أن تقوم للصحافة قائمة ، فتغدو أشبه ما تكون بالجثة الهامدة التي لا حراك فيها .

وفي الدول الديموقراطية لا خوف على حرية الصحافة . . . ولكن المشكلة تصبح حادة عندما يتعلق الأمر بنا نحن العرب . . . فحرية الصحافة عندنا قد اغتيلت منذ سنوات طويلة وأكثر من ذلك ، ليس هناك أي أمل في بعثها في المستقبل المنظور ، لسبب بسيط ، هو أن أصحاب السلطة في الأقطار العربية يتصورون أن قتل حرية الصحافة هو صمام أمان كبير بالنسبة لهم . ونحن نختلف مع هؤلاء في هذه النظرة ، لأن ما يعتقدون أنه في صالحهم انما هو كذلك على المدى القصير فقط ، ولكنه ضد مصلحتهم على المدى البعيد ، فمنع

الصحافة وأجهزة الاعلام من كشف الأخطاء والانحرافات يؤدي إلى تراكم هذه الأخطاء وإلى ازدياد التدهور والانحطاط في الأوضاع العامة . وهذا ينعكس في نهاية المطاف على مصلحة السلطة ويقود إلى ارباكها . واذا كنا لا نستطيع أن نتوقع من السلطة أن تجود بحرية الصحافة كاملة من تلقاء ذاتها ، فان بوسعنا على الأقل أن نطالب بقسط نسبي من هذه الحرية كتخفيف القيود على بعض الأفكار والآراء البناءة التي لا تنطوي على إثارة مباشرة ضد السلطة .

وفي فصل (ما هي الأخبار) يتحدث المؤلف عن سيكولوجية الخبر وعن أسباب اهتمام القارىء بهذا الخبر أو ذاك . . فالقارىء يهتم عادة بالخبر الذي يمتعه أو يثير فضوله أو يرتبط بمصالحه أو الذي يوفر له مكافأة نفسية لا شعورية ، آنية أو بعيدة المدى . ولا شك أن جودة الخبر تؤثر في مدة استجابة القارىء له . ويذكر المؤلف من بين الشروط التي يجب توافرها كي يكون الخبر جيدا :

١ ـ حداثة الخبر .

٢ ـ كون المراسل (أي كاتب الخبر) قريبا من موقع الخبر ، لأن ذلك يزيد من مصداقية الخبر وموثوقيته .

٣ ـ ارتباط الخبر بشخصيات أو أماكن أو أشياء بارزة ، فالخبر الذي يروي تحركات رئيس دولة ما ، أهم بكثير من الخبر الذي يتعرض لشخص عادي أو أكثر من العادي بقليل .

٤ ـ كون الخبر ذات تأثير في أوضاع الناس ومستقبلهم .

وعلى الرغم من كثرة الصفات التي يتسم بها الخبر الجيد ، فإننا نرى أن أهم هذه الصفات يجب أن تكون (صحة الخبر) . فنحن اليوم نعيش في عصر تكثر فيه الدعايات المغرضة والترويجات المضللة ، فوكالات الأنباء والمراسلون وأجهزة الاعلام ، كثيرا ما تلجأ إلى تشويه الأخبار وتحريفها خدمة لمصالحها وأيديولوجياتها الخاصة . وهكذا فان الخبر مهما كان هاما أو مثيرا ، ليست له قيمة على الاطلاق اذا لم يكن صحيحا ومطابقا للواقع . ومن هنا فاننا نضع صحة الخبر وصدقه في رأس شروط الخبر الجيد .

ويتضمن الكتاب فصلا بعنوان (جمع الأخبار) يتعرض فيها للصفات التي يجب أن يتحلى بها المراسل الناجح الذي يقوم بجمع الأخبار وتنظيمها وصياغتها الصياغة السليمة لنشرها أو اذاعتها . ومن بين هذه الصفات الأمانة والاخلاص والمسؤولية والموضوعية .

ويشير المؤلف الى ضرورة كون المراسل كاتبا يتقن فن الكتابة ومفكرا قادرا على التحليل والاستنتاج وحائزا على درجة كافية من التعليم . وحول سؤال ما اذا كان المراسل يحتاج الى الدراسة الصحفية أم الى الموهبة كيما يكون قادرا على القيام بمهمته على خير وجه ، يقدم الكتاب أجوبة وآراء مختلفة . فبعض النقاد يرون أن الأساس في الموهبة ، وبعضهم الآخر يمنحون الأولوية للدراسة الصحفية . إلا أننا نتفق مع وجهة نظر المؤلف التي ترى أن موهبة القدرة على الابداع والكتابة هي الشرط الأول الأساسي . أما الدراسة الصحفية فانها تغني هذه الموهبة وتشذبها وتصقلها وتضيف اليها أبعادا مفيدة .

ويبين المؤلف طرق الحصول على الأخبار ومن بينها : الاتصال المباشر ـ المؤتمر الصحفي ـ المقابلة ـ الاستعانة بالهاتف ـ السبق الصحفي الشخصي .

ومن واجب المراسل ، مهما كانت طريقة حصوله على الخبر ، أن يتحقق من صحته والا يأخذه على علاته ، لأنه كثيرا ما تحدث محاولات مغرضة لاعطاء أخبار غير صحيحة .

وهناك فصل بعنوان (فلسفة كتابة الأخبار) ، ويتحدث فيه المؤلف عن صعوبة كتابة الخبر . فهذه تعد فنا معقدا وحرفة صعبة ، على عكس ما يعتقده

بعضهم ، فكاتب الأخبار ، مثلا ، خلافا لكاتب القصة أو المسرحية لا يملك الخيار في ترتيب الحوادث والنهايات مما يفرض عليه قيودا صعبة ، كما أن عليه أن يتقيد بشكل حاسم بعامل السرعة ، لأن التأخر في كتابة الخبر أو ايصاله الى الجمهور ، يفقده كثيرا من جوهره ورونقه .

ومن الفصول الأخرى فصل (لغة الأخبار) ويوضح فيه المؤلف بعض النواحي المتعلقة باللغة التي يجب أن يستعملها كاتب الأخبار . وأهم شرط في هذا المجال أن تكون اللغة مفهومة والجمل قصيرة . ويستحسن أن يتضمن كل خبر فكرة واحدة لا فكرتين . ويقدر المؤلف أن اللغة الانكليزية ، مثلا ، تضم زهاء (٦٠٠) ألف كلمة . ومن بين هذه الكلمات هناك فقط (١٠٠) ألف كلمة مفهومة . وعلى كاتب الأخبار أن يستعمل الكلمات المفهومة دون غيرها اذا أراد أن تكون كتابته واضحة في متناول فهم جميع القراء .

ويقدم الكتاب أمثلة على بعض القصص الأخبارية المنشورة في الصحافة الأميركية وينتقدها ويبين كيف أن بالامكان استخدام كلمات أخرى بدلا من الكلمات المستعملة حتى تصبح الأخبار أكثر وضوحا وأقرب إلى فهم جميع القراء على مختلف مشاربهم .

وهناك فصل خاص بمقدمة الخبر (lead) ، أي خلاصته . ويعلق المؤلف أهمية كبيرة على هذه الخلاصة لأنها هي التي تجعل القارىء يستمر في قراءة الخبر ويوغل في تفصيلاته أو يدير عنه . ويبدو أن اهتمام المؤلف بالمقدمة له ما يبرره ، فكلنا تعرف مدى اهتمام الناس بسماع موجز الأنباء الذي يزودنا بالنقاط الرئيسية البارزة في النشرة . وكثيرا ما يقرر هذا الموجز ما إذا كنا سنمضي قدما في سماع بقية النشرة أو أننا سنتوقف عن ذلك . ولكن على الرغم من ان موجز الخبر يجب أن يعطي فكرة واضحة عن مضمونه العام ، إلا أنه ينبغي ألا يوضح جميع الحقائق الأساسية لئلا يكتفي به المستمع أو القارىء .

وبعد ذلك يأتي فصل (متن الخبر body) أي الجزء الرئيسي منه ، بتفاصيله الكاملة . وهنا يستحسن تقديم الحقائق حسب أهميتها ... فالأولوية للأكثر أهمية ثم للمهم ثم للأقل أهمية ، وهكذا . وهذه العملية ليست سهلة وهي تستلزم من كاتب الخبر الكثير من الحصافة والدقة والقدرة على الموازنة .

ومن الفصول الهامة في الكتاب فصل يتعلق بأوجه الشبه والاختلاف بين أخبار الصحافة والاذاعة والتلفاز . وتشترك هذه الأخبار في سمات واحدة ، كالحاجة الى تماسك الجمل في الخبر ، ووضع الكلمات في الجملة بطريقة مناسبة ومؤثرة ، وقصر الفقرات ، وضرورة حذف الكلمات والعبارات والأجزاء الزائدة التي يمكن الاستغناء عنها دون أن يتأثر المعنى . ولا ننسى طبعا الوضوح والبساطة والاختصار . فهذه الصفات جميعها يجب أن تتوافر للخبر أيا كان نوعه . ولكن طالما أن الخبر الصحفي يكتب كي يقرأ والخبر الاذاعي والتلفازي كي يسمع ويشاهد ، فلابد أن تكون هناك اختلافات في كتابة هذه الأخبار . وتتسع فجوة الاختلاف عندما يتعلق الأمر بالخبر التلفازي ، فالقصص الاخبارية المرئية يجب أن تكون قصيرة والكلمات قليلة الى حد كبير ، لأن الصورة هنا تعوض عن الكلمة ... فمن المهم جدا اختصار القصة وتقديمها في أقل وقت ممكن ، مما يستلزم قدرة فنية كبيرة . ولا مجال في الخبر التلفازي للكتابة الأدبية لأن الجمل ينبغي أن تكون قصيرة وتقريرية . ويقدم المؤلف الى كاتب الخبر التلفازي نصيحتين :

١ - ضرورة عدم حشو الفلم التلفازي بالتفاصيل الكلامية ، لأن المشاهد لن يستطيع في هذه الحالة متابعة ما يعرض من صور ، وما يقوله المذيع في آن واحد . وفي

التلفاز ليست هناك حاجة كبيرة للايضاح ، كما يقتضي الحال في الصحافة والاذاعة ، لأن الصورة هي التي تقوم بدور التوضيح .

٢ - ينبغي ربط الكلمات بالصور ربطا مناسبا بمعنى أن رواية المذيع يجب أن تسير جنبا الى جنب مع الصورة . ويلفت المؤلف النظر الى أنه في الأوقات التي يعمل فيها التلفاز دون أن تكون هناك صورة بحيث لا يظهر الا المذيع ، تصبح الكتابة الى التلفاز كالكتابة الى الاذاعة ولا فرق بينها .

ويقارن المؤلف أيضا بين ما يكتب للصحافة وما يكتب للاذاعة أو التلفاز ، في الصحيفة ، مثلا ، يمكن للكاتب عند الاشارة الى الأشخاص أو الأماكن أو الأشياء ، أن يقول (الأول والثاني والثالث والأخير) ولكن هذا غير جائز في الاذاعة والتلفاز ، لأن المستمع أو المشاهد لا يستطيع على الأغلب العودة الى الجمل السابقة . وفي الصحيفة يمكن بدء موجز خبر ما باسم شخص غير معروف ، إلا أن هذا غير وارد في الاذاعة إلا إذا كان اسم الشخص مشهورا جدا .

وفي الصحيفة يجوز ايراد اسماء ثلاثية في حين أن الاسم المتوسط يحذف في الاذاعة والتلفاز .

وفي الاذاعة والتلفاز نجد أن الاستشهاد أكثر منه في الصحافة ، فغالبا ما نسمع فيها عبارات مثل (صرح فلان . أضاف قائلا . أوضح . أشار ، ثم استدرك قائلا . . . الخ) . وكثيرا ما تُعاد صياغة أقوال المستشهد بهم .

ويتحدث المؤلف في فصل خاص عن (القصة الاخبارية الترفيهية) . وهذا النوع من القصص يتمتع بالقدرة على التسلية والامتاع دون أن يكون له تأثير في حياة القراء والمستمعين والشاهدين ، أو سعادتهم أو مستقبلهم .

ويبين الكتاب العناصر المشتركة بينه وبين القصة الاخبارية الجادة : فكلاهما تضمان مقدمة (lead) ومتنا (body) ولكن الخبر الترفيهي يمتاز بأن له نهاية (ending) .

والفصل التالي في الكتاب هو بعنوان (تحرير القصة الاخبارية) . والتحرير ، كما هو معروف ، يعني اعداد المادة الكتابية المناسبة للنشر في الصحافة ، أو البث بالاذاعة ، أو العرض بالتلفاز ، والمحرر في الصحيفة أو المجلة الاخبارية الراقية يكتب عادة الخبر ثم يعيد سبكه ويصحح أخطاءه . وبعد ذلك يسلمه لمحرر آخر يتأكد من صحة صحته ويدققه من حيث التهجئة والتنقيط والنحو ، ثم يقوم بتكثيف الجمل وتوضيحها ويجعلها ملائمة لنهج الصحيفة ، مسايرة لخطها ، كما أنه يصحح ما يرى أنه يستوجب التصحيح . وبعد ذلك يرسل الخبر الى المطبعة وتجري مطابقة البروفات مع الأصل من أجل تصحيح كل خطأ مطبعي . وهذه كلها كما نعلم معلومات مهنية يعرفها كل من مارس الصحافة والتأليف . أما بالنسبة لتحرير الخبر الاذاعي ، فإن المذيع ، في معظم الأحوال ، هو الذي يحرر الخبر . لذلك فإن عليه أن يكون حذرا وحريصا الى أبعد الحدود ، وأن يراجع كل ما يكتبه مراجعة كاملة لتصحيح وتعديل ما يجب تعديله في النحو والأسلوب والتهجئة وغير ذلك .

وبصورة عامة فان التحرير الاذاعي أبسط من التحرير الصحفي ، حتى أنه من الممكن الحذف والاضافة في أثناء البث الاذاعي ، بصورة مباشرة ودون تحضير مسبق ، أعتمادا على خبرة المذيع . وهذا غير ممكن بالنسبة للصحافة ، اذ أن أي تعديل هناك ينبغي أن يتم قبل نشر الخبر بوقت طويل . ويحتوي الكتاب على فصل هام بعنوان (القانون وكاتب الأخبار) ويبين المؤلف فيه ضرورة تقيد كاتب الأخبار بالمقتضيات القانونية . وعلى الرغم من أن الدول الديموقراطية توفر

حرية الخبر في مختلف أجهزة الاعلام فان هذا لا يتم بدون حدود ، لأن هناك حقوقا واعتبارات وامتيازات تحمي الجمهور ، وعلى الكاتب أن يحترمها ويلتزم بها . وفي أميركا وأوروبا بشكل خاص هناك مشكلة الحياة الخاصة للناس وحقوقهم في حماية سريتها . وكثيرا ما ينتهك الصحفيون هذه الحرية ، لذلك تجد المحاكم تغص بالدعاوي المتعلقة بهذه الأمور ، وقد تفاقمت هذه المشكلات وازدادت حدة عندما تمادت الصور التلفزيونية في كشف أسرار الناس . ويبين المؤلف أن القانون في الدول الراقية يعين الحالات التي يحق فيها للصحفي أو كاتب الأخبار أن يتحدث بحرية ، ففي أثناء المحاكمات الرسمية في القضاء يسمح القانون للكاتب أن يكتب ما يحدث فعلا حتى لو كان فيما يكتبه اساءات تمس بسمعة بعض الناس ، ولكن شريطة أن تكون روايات الكاتب صحيحة وغير مزورة أو مغرضة ، وأن تكون كاملة وغير محابية . وأن تخلو من التعليق .

واذا أورد كاتب أخبارا تشوه سمعة شخص ما أو توقعه في مشكلات (سواء من داخل المحاكم أو من خارجها) ثم ثبت أن الاخبار غير صحيحة ، فإن من حق المساء اليه اقامة الدعوى وطلب معاقبة الكاتب قانونيا .

وهناك فصل يتضمن مجموعة المبادىء التي تبنتها جمعية مديري الأخبار الاذاعية والتلفازية الأمريكية . . وهذه المبادىء هامة ، لأنها تتسم بصفة الشمولية ، ويمكن لجميع المسؤولين عن تصميم سياسات الأخبار الافادة منها . وقد وردت مجموعة المبادىء هذه على شكل مواد ، فالمادة الأولى منها ، مثلا ، تبين الهدف الرئيسي من الخبر ، وهو اعلام الجمهور بالحوادث الهامة . أما المادة الثانية فتوصي بضرورة عدم الاكتفاء بتقديم المعلومات الدقيقة ، اذ لابد من تقديمها في ضوء ظروف مناسبة تكسبها معنى ومغزى . وتشير المادة الثالثة الى ان اختيار الأخبار ينبغي ألا يتم جزافا بل على أساس تقييم الكاتب لها تبعا لأهميتها ومغزاها . وتطلب المادة الرابعة من كاتب الأخبار أن يلتزم بالاحترام الانساني وبكرامة الأشخاص الذين تتعلق بهم الأخبار وحقوقهم في السرية . وتوصي المادة السادسة بتقديم الأخبار التي تخدم المصلحة العامة ، وهنا يحق لنا أن نتساءل عما اذا كان مضمون هذه المادة يعني انتقائية الخبر وبالتالي التناقض مع الموضوعية وعدم التحيز . ولكن ربما يكون المقصود منها : عدم ايراد الأخبار التي قد تضر بمصالح الأمة وسلامة المواطنين . وعلى كل ، فإن هذه المادة قابلة للجدل .

ومن الفصول الممتعة في الكتاب فصل بعنوان (مقاييس الصحيفة الجيدة) ومن بين المقاييس التي يرى المؤلف أن على الصحيفة الناجحة أن تلتزم بها : تقديم الأخبار والمعلومات الهامة والمفيدة للقراء دون لغو أو حشو لا لزوم له ـ العناية بالافتتاحية التي تواكب وتساير أحدث التطورات ـ تقديم المادة المثيرة للاهتمام ـ النزاهة والالتزام بمعايير الأمانة والابتعاد عن المحاباة والعاطفية ـ مراعاة الدقة والموضوعية والتقيد بالحقيقة ومكافحة الاهمال والتحريف والحذف ـ اختيار الأخبار ذات المغزى والفائدة ومراعاة حق السرية ـ الاشارة الى مصادر الأخبار ـ التحلي بالجرأة والوقوف في وجه الديماغوجية والمصالح الأنانية وعدم الخوف من النقد البناء لممارسات الدولة .

ويبدو لنا أن المؤلف قد اقتصر على ذكر بعض المقاييس التي يجب أن تعتمد عليها الصحيفة الجيدة في حين أهمل مقاييس أخرى كثيرة كانت جديرة بأن يذكرها . ومن بين هذه المقاييس : ضرورة اعتماد الصحيفة على مبدأ الجودة في النشر بصرف النظر عن الاعتبارات المصلحية والمزاجية ـ ان تجمع مادتها بين عنصر الفائدة وعنصر الامتاع ـ تنوع الموضوعات

المنشورة وتكاملها فيها بحيث يكون هناك توازن بين المواد الثقافية والعلمية والأدبية .. الخ مع منح الأولوية للمادة السياسية - عدم اقتصار الصحيفة على المواد القصيرة السريعة بل رفدها ايضا بالدراسات المطولة ، حتى يكسبها ذلك عمقا ورصانة ويبعدها عن كونها مجرد وسيلة لنقل الأخبار السريعة .

وهناك طبعا الكثير من المقاييس الأخرى التي يمكن ايرادها في هذا المجال .

وهكذا تنتهي جولتنا السريعة بين فصول كتاب (كيف تكتب الأخبار للاذاعة والتلفاز والصحافة) ، وهو كتاب هام دون ريب لأنه يتصل بموضوع الاعلام الذي يزداد تأثيره في حياتنا المعاصرة باضطراد . ويتمتع الكتاب بعدة مميزات نذكر منها :

١ - ان الكتب التي تتناول كتابة الأخبار تقتصر عادة إما على كتابة الاخبار للاذاعة والتلفاز أو على كتابتها للصحافة . ولكن هذا الكتاب الشامل يعد من الكتب النادرة جدا التي تعالج موضوع الأخبار المقروءة والمسموعة والمرئية جميعها دون استثناء .

٢ - يتسم الكتاب بالعالمية فهو ليس كتابا محليا يختص بالصحافة الأميركية وحدها بل ان المعلومات الواردة فيه عامة ويمكن الافادة منها في أي مكان .

٣ - انه يعتمد في عرضه لتطور وسائل الاعلام على المنهج العلمي التاريخي .

٤ - ان مبادىء وقواعد كتابة الأخبار التي يتضمنها ثابتة لا تتأثر بالزمن ويمكن الركون اليها في أي وقت لأنها ترتبط بأساسيات في كتابة الخبر .

٥ - الكتاب مفيد للمبتدىء والكاتب المتمرس على حد سواء وهو وان كان لا يعلم الكتابة لمن لا يستطيعون الكتابة أصلا ، إلا أنه يساعد الذين يمارسون الكتابة على الارتقاء بقدراتهم وعلى اتقان أصول فن كتابة الخبر .

٦ - انه يتضمن كثيرا من الأمثلة العملية والصور التوضيحية . وهذه الطريقة أفضل من الطرق النظرية التي يجف فيها ماء الحياة وتفتقر الى الجانب التطبيقي .

وأخيرا يجدر بنا التنويه بأن المكتبة العربية تفتقر اليوم بصورة واضحة الى كتب الاعلام والصحافة . لذلك لابد لنا من الاستعانة بالكتب الأجنبية في هذا المجال . ونحن نأمل أن يؤدي تقدم علوم الاتصال الى تشجيع المؤلفين العرب على طرق باب الاعلام وفتح الطريق أمام نهضة اعلامية عربية .

ويعاني الاعلام العربي اليوم من مشكلات كثيرة كغياب حرية الكلمة ، والاتجاه نحو الدعائية ، وعدم وجود قوانين وتشريعات اعلامية تحدد العلاقات بين الكتاب وأجهزة الاعلام ، والحاجة الى تقنيات صحفية واذاعية حديثة سواء على الصعيد الآلي أو على الصعيد الأدبي المتعلق بكتابة الأخبار والنصوص والتحقيقات ، أو على الصعيد الاداري وغير ذلك . ونضرب مثلا على احدى المشكلات السابقة ، ولتكن مشكلة الافتقار الى التشريعات الاعلامية : فهل يحق للكاتب الاذاعي مثلا أن يذيع حديثا ما في أكثر من محطة اذاعية ؟ أو هل يحق له أن يذيع الحديث ثم ينشره في الصحافة ؟ أو أن ينشره في الصحافة ثم يقدمه اذاعيا ؟ مثل هذه الأسئلة وغيرها ليست لها أجوبة واضحة في التشريعات الاعلامية العربية . ولا شك أن صعوبة المشكلات التي تواجه الاعلام العربي يجعل من واجب المؤلفين العرب أن يولوا موضوع الصحافة والاعلام اهتماما أكبر . ومما يوجب ذلك أيضا حاجة المعاهد الاعلامية وكليات الصحافة العربية التي تخرج الكوادر المختصة في الصحافة والاعلام الى كتب علمية حديثة في هذا المجال ، ترصد أحدث التطورات في حقل الاتصال . ومن الضروري أن يعتمد المؤلفون على المراجع الأجنبية اعتمادا واسعا

نظرا لتقدم علوم الاتصال في الدول المتطورة . ولكن من غير الممكن الافادة من المؤلفات الأجنبية في جميع المشكلات التي يعاني منها الاعلام العربي ، فمثلا بالنسبة لحرية الكلمة والغاء الدعائية ، ليس بالامكان الاستفادة في ذلك من الخبرات الأجنبية لأن هذه المشكلات لا تخضع للمقاييس العلمية وحدها بل انها ترتبط قبل أي شيء آخر بالسياسة وحلها رهين بالسيادة الديموقراطية السياسية أكثر من معرفة الأسس العلمية المتصلة بالحريات .

أما في مجالات الادارة والتشريع الاعلامي ، والتقنيات الطباعية والاذاعية والتلفازية ، مثلا ، فاننا نستطيع الاعتماد على المؤلفات الأجنبية .

ونعتقد أن الكتاب الذي اخترناه هنا (كيف تكتب الأخبار للاذاعة والتلفاز والصحافة) يتضمن الكثير مما يمكن الاستفادة منه في الكتابة لوسائل الاعلام المختلفة ، فهو يعرض لنا الطرق العلمية التي تكفل انتاج الخبر الصحيح النزيه . ولكن الكتاب لا يخلو بالطبع من بعض النقض ، فهو يقتصر على موضوع الخبر . . ولا يتحدث مثلا عن كتابة البرامج العلمية والتربوية للاذاعة والتلفاز والصحافة . ولو أنه فعل ذلك لكان مضمونه أشمل وأكثر فائدة .

***